

مسابقة
المنهل الثقافية
قسمة المسابقة داخل العدد

المنهل

AL MANHAL

مجلة للأدب والعلوم والثقافة

العدد (٥٩٩) المجلد (١٧) العام (٧١) ذو القعدة وذو الحجة ١٤٢٦ هـ - ديسمبر ٢٠٠٥ م - يناير ٢٠٠٦ م

التاريخ و المؤرخون

الإصدار
السنوي
الخاص





مما نفل

ضرورة بعث التاريخ الإسلامي

يعد أن تهاوت «ثريا» الحضارة الإسلامية، بقنابل العوازل الداخلية والخارجية، استغرق هذا الشرق الإسلامي في اغفائة عميقة، هي اغفائة الاعياء والاستسلام. وجاء الغرب الفاتح فأوسع من هذه الهوة بما بثه من مختلف المخدرات في هذا الشرق المريض، وكان من أهمها تشويه سمعة الحضارة الإسلامية بدعايات منظمة متواصلة واسعة، كان حملة اعلامها طائفة المستشرقين وقد عنى هؤلاء بدراسة تاريخ حضارة الاسلام في الجامعات العلمية وفي المعاهد والصحف والمؤلفات.

فاصطادوا لقومهم بحجر واحد «عصفورين» هما افادتهم بخبايا هذه المدينة الشامخة ومزاياها، ليغذوا بها مدينتهم فيرتفعوا، ويرتفعوا، وتبشيع نياك التراث العظيم وتزييفه في انظار بنييه ليزهدوا في احيائه وانماه فينحطوا وينحطوا.

ثم كانت يقظة الشرق العربي فالتفت ذات اليمين وذات الشمال باحثاً عن امجاد سلفه في ميادين العلم والعمل، ليتخذ منها «قبساً» وهاجاً يضيء له السبيل في جنب هذا الظلام المكنه الدامس؛ فالتقى تاريخاً مزرقاً وحضارة مشوهة، وأثاراً مبعثرة، وامجاداً مسلوقة أتري- والحالة هذه - ما هو واجبنا إن؟!

لا جرم ان النهوض يدعوننا لاعادة كتابة تاريخنا الاسلامي الزاهر والعكوف على احياء محاسنه في شتى نواحيه، وليكن ذلك باقلام من ذهب على صفحات من تقدير وتحريير بمداد من ابداع وانسجام، وبهمم من حديد لتجلو بأنفسنا من جديد محاسن ذلك الماضي الزاهر، لننعم به هذا الحاضر العاثر وقديما خاطبنا الاسلاف بقولهم:

ما حك جلدك مثل ظفرك ... فتول أنت جميع امرك

«عبد القدوس الأنصاري»

جمادى الأولى ١٣٥٧هـ / يولييه ١٩٣٨م

بسم الله الرحمن الرحيم

المنفل

مجلة للأدب والعلوم والثقافة

تصدر في المملكة العربية

السعودية - جدة

عبر حارة المنفل

للصدافة والنشر المحدودة

أسسها المغفور له

عبد القدوس القاسم الأنصاري

عام ١٣٥٥هـ / ١٩٣٧م

ملكها ورأس تحريرها

المغفور له

نبيه عبد القدوس الأنصاري

من العام ١٤٠٣ هـ / حتى ١٤٢٤ هـ



غلاف العدد

المركز الرئيسي

جدة الشرقية ص ب ٢٩٢٥

رمز بريدي ٢١٤٦١

برقيا: المنفل

فاكس: ٦٤٣٨٥٣

تليفون: ٦٤٣٧٨٣١ - ٦٤٣٧٨٦٥

٦٤٣٢١٢٤ - ٦٤٣٥٦٨٧

الرياض: ص ب ٢٩٠

تليفون: ٤٥٤٢٤٢٢

سعر النسخة:

السعودية ١٠ ريال - الإمارات ٨ دراهم - البحرين دينار واحد - سلطنة عُمان ١٠٠ بيسة - قطر ٨ ريال - الكويت ٦٠٠ فلس - الأردن ٥٠٠ فلس تونس ٨٠٠ مليم - الجزائر ٨٠٠ دينار أ - سوريا ٤٥ ليرة - السودان ١٥٠ دينار أ لبنان ١٠٠ ليرة - المغرب ٩ دراهم - مصر ٣٠٠ قرش - اليمن ١٠٠ ريال بريطانيا جنيه استرليني - فرنسا ١٠ فرنكات - امريكا ٣ دولارات

المشرف العام
أ.د/ عبدالرحمن
الطيب الأنصاري

رئيس التحرير
المدير العام
زهير نبية
عبد القدوس الأنصاري

عزيزي القارئ
عزيزتي القارئة

هذه المجلة تحمل في العديد من صفحاتها آيات قرآنية كريمة وأسماء الله الحسنى فضلاً عن أحاديث نبوية شريفة الرجاء المحافظة عليها.

إشارة

تحفظ هيئة التحرير بالحق في تحديد أولويات النشر ويخضع ترتيب مواد المجلة لاعتبارات فنية لا علاقة لها بالموضوع أو مكانة الكاتب ويشترط في الاسهامات عناصر الجودة، العمق والرصانة العلمية، للمجلة الحق في عدم نشر المواضيع التي تراها غير مناسبة للنشر دون الالتزام بإعادة الموضوع لمصدره، كما يرجى الإشارة لمصادر المادة بصورة واضحة.

عنوان الموقع :

WWW.al-manhalmagazine.com

البريد الإلكتروني :

E-mail : info@al-manhalmagazine.com

«الاصدار السنوي الخاص» ..

□ فكرة مرجعية توثيقية علمية، اختطتها مجلة المنهل منذ عقود سلفت وسارت عليها .. وقد بلغت الاصدارات السنوية الخاصة للمنهل ما ينيف عن الاربعين اصداراً حتى يومنا هذا .
وتقوم فكرة (الاصدار السنوي الخاص) على اختيار موضوع محوري له أهميته، الدينية، أو العلمية والفكرية، أو الثقافية والأدبية، أو الاجتماعية والاسرية، أو غير ذلك .
والاصدار تحت عنوانه المخصص له يكتب في جزئياته وتفصيله أصحاب التخصص من الباحثين والدارسين والاكاديميين .

وهذا الاصدار الذي بين يديك عزيزي القارئ، هو واحد من مجموع (الاصدارات السنوية الخاصة) للمنهل، الى جانب اعدادها الشهرية المعتادة .

وقد اخترنا أن يكون هذا الاصدار بعنوان: (التاريخ والمؤرخون) والتاريخ كما يقول صاحب كتاب (ذكرى الهجرة) هو «مشعال نستمد منه من حوادث الماضي لنستثير به في الحاضر، ونبدد بنوره الغياهب التي تحجب عن أعيننا المستقبل، كما انه مقياس نعلم بواسطته أننا إلى الامام نسير أم إلى الوراء؛ فالذي ينسى ماضيه يشبه التائه في قفر مظلم لا يعلم أين هو ولا إلى أين يتجه» ■

المصدر

الشركة السعودية للتوزيع

عسير : ٠٧ - ٢٢١٨٦٩٣	الخفجي : ٠٣ - ٧٦٧١٩٤٧	جدة : ٠٢ - ٦٥٣٠٩٠٩
المجمعة : ٠٦ - ٤٣٢٢١١٣	الطائف : ٠٢ - ٧٤٥٤٢٢٢	الرياض : ٠١ - ٤٧٢٨٨٠٥
حائل : ٠٦ - ٥٣٦٥٥٥٥	تبوك : ٠٤ - ٤٣٣١٨١٢	الدمام : ٠٣ - ٨٤١٠٨٤٠
ينبع : ٠٤ - ٣٢٢٥٨٢٤	حفر الباطن : ٠٣ - ٧٢١٠٠٣٦	مكة المكرمة : ٠٢ - ٥٥٨٥٠٧٨
القرينات : ٠٤ - ٦٤٢١٢٩٦	الجبيل : ٠٣ - ٣٢٢٠١٥٨	النبذة النورة : ٠٤ - ٨٤٧٠١٢٥
القصيم : ٠٦ - ٣٢٤٣٠٧٠	جازان : ٠٧ - ٣٢٢٠١٠٤	الباحة : ٠٧ - ٢٧٧١١٧٥
الرقم المجاني : ٨٠٠٠٢٤٤٠٠٧٦	نجران : ٠٧ - ٥٢٢٠٩٠١	الدوادمي : ٠١ - ٦٤٢١٢٧٤
	الاصفا : ٠٢ - ٥٩٧٢٧٠٧	الجوف : ٠٤ - ٦٢٥٨٨٢٢

٤ - التاريخ وكتابته

٥٠١ . عبد الرحمن الطيب الانصاري

٦ - هذا الاصءار لماذا ؟٠٠

زهير نبيه الانصاري

٨ - معالءة التاريخ الاسلامي بين الحقيقة والمغالطة

٥٠١ . ابراهيم حركات

١٨ - منهء كتابة التاريخ

د . محمد بن صامل السلمي

٢٢ - التاريخ .. المؤرخ .. المصادر .. التفسير التاريخي - استعراض

نقءي للمشكلة

٥٠١ . صالح علي باصره

٣٠ - التاريخ وءوره في الحفاظ على الهوية الاسلامية في عصر العولة

٥٠١ . غيثان بن علي بن جريس

٤٠ - الدراسات التاريخية العربية في مأزق

وءءي عباس أبو أءمء

٤٤ - التاريخ وعلاقته بالفلسفة

د . تركي بن عءلان الحارثي

٤٨ - عصور ما قبل التاريخ نشأة الحضارة في العالم العربي

أيمن محمد منصور

٦٦ - قراءة ءءيدة في تاريخ الخليء العربي منذ أقءم العصور

د . عماء محمد نئاب الحفيظ

٧٠ - ءوافء واهاءاف الحركة الصليبية

د . عمر يحيى محمد

٧٨ - الهيمنة الروءية للءولة العثمانية على العالم الاسلامي

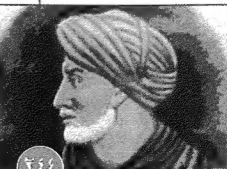
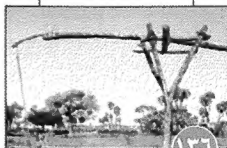
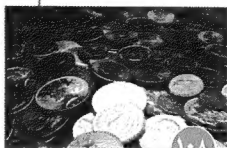
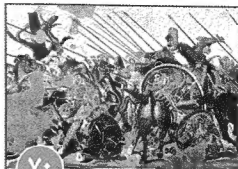
د . خالد عزب

٨٦ - ءول قراءة إسلامية للتاريخ العثماني وءوره في الشرق العربي

د . زكريا سليمان بيومي

٩٠ - الاوقاف والءراسات العثمانية الءءيدة

٥٠١ . محمد عفيفي عبد الخالق



الأشواك

جدة ت: ٦٤٣٢١٢٤
قيمة الاشتراك السنوي
للمؤسسات الحكومية ٢٥٠ ريال
قيمة الاشتراك للأفراد ١٥٠ ريال

توزيع التوزيع

الشركة السعودية للتوزيع/ جدة
٨٠٠٢٤٤٠٠٧٦ - وكالة الأهرام
للتوزيع/ القاهرة ٥٧٤٧٠٤٤ -
الشركة التونسية للصحافة/
تونس ٣٣٢٤٩٩ - الشريفة
للتوزيع/ الدار البيضاء ٤٠٠٢٢٣
- شركة الإمارات للطباعة والنشر
والتوزيع/ أبوظبي ٤٥٦٥٠٠ -
دار الثقافة للطباعة/ الدوحة
٤١٦١٨٢ - وكالة التوزيع
الأردنية/ عمان ٦٣٠١٩١ - دار
اقرأ للنشر/ الخرطوم ٤١٨٠٩ -
الشركة المتحدة لتوزيع الصحف
والمطبوعات دم/ الكويت
٢٤٢١٤٦٨ - مؤسسة الهلال
لتوزيع الصحف/ البحرين/
المنامة ٥٣٤٥٥٩.

الإعلانات:
يراجع بشأنها
الإدارة ت: ٦٤٣٢١٢٤



طبع بمطابع شركة المدينة المنورة
للطباعة والنشر - جدة تليفون:
٦٣٩٤٠٩٥ - فاكس: ٦٣٩٦٠٦٠

٩٦ - أثر الفكر الاقتصادي العربي الاسلامي على أوروبا في العصور الوسطى
د. حاتم عبد الرحمن الطحاوي

١٠٨ - مشروع المقريري للإصلاح الاقتصادي لازمة الاقتصادية في مصر
الملوكية

أحمد إبراهيم منصور

١١٦ - المسكوكات الإسلامية موسوعة تاريخية شاملة

محمد السيد حمدي

١٢٦ - تأثير البيئة المحلية في الرواية التاريخية الاندلسية في العصر
الملوكي

أ.د. أحمد مختار العبادي

١٣٦ - جهود علماء خلافة صكتو في كتابة تاريخ بلاد السودان

د. عمر أحمد سعيد

١٥٠ - الدبلوماسية في التاريخ المغربي

أ.د. عبد الهادي التازي

١٥٤ - مؤرخ المدينة المنورة وواصف أثارها عمر بن شبة النعميري

أ.د. محمد رجب البيومي

١٥٨ - المؤرخ الخزرجي الزبيدي وكتابه طراز أعلام الزمن

د. عبد الله بن قايد العبادي

١٦٤ - الذهبي مؤرخاً

د. عبد العزيز بن صالح الغامدي

١٧٤ - المؤرخون وتدوين عهد أسرة قلاوون الملوكية البحرية في مصر

والشام - دراسة بيليوغرافية (٦٧٨ - ٨٧٤هـ)

د. مفيد الزبيدي

١٨٤ - الأنصاري مؤرخاً .. مدخل لقراءة الآثار والتاريخ في أعماله

السعاني كمال الدين

٢٠٨ - قراءة فيما جاء في مدونات الرحالة المسلمين عن الحجاز في

العصرين الأيوبي والملوكي (٥٧٩هـ - ٧٤٩هـ)

أ.د. عبد الله عقيل عنقاوي

٢٤٤ - أعلام .. مؤرخون

عندما قتل قابيل هابيل سجل حدثاً تاريخياً جمع بين الخير والشر، وكان ذلك رمزاً للصراع الذي استمر بين البشر في سبيل البقاء، وعشنا بعدئذ في مجهول من الزمن، ولكن الإنسان أبى إلا أن يسجل أشياء كثيرة بالرسم والنقوش فمن سفوح الجبال تعرفنا على مدارج الحياة التي عاشها والبيئة التي تعامل معها ومراحل الحياة التي تقلب فيها، ومرت قرون إلى أن توصل إلى رموز خطها على الحجارة وعلى الطين ليتفاهم مع الآخر القريب بل البعيد، ثم تحولت الرموز إلى صور وتحولت الصور إلى كلمات مقطعية وهكذا حتى ظهرت الكتابة المسمارية في وادي الرافدين وبلاد الشام والكتابة الهيروغليفية في وادي النيل قبل ستة آلاف عام، وعكف العلماء على دراسة هذه النصوص حتى وفقوا إلى قراءتها وفهم معانيها، ومن هذه المكتبات الضخمة التي تركها السومريون والأكاديون والمصريون القدماء تعرفنا على أدبهم وأنظمتهم وقوانينهم وأوضاعهم السياسية ونظام الحكم والقضاء وأنواع العبادات والمعابد والتراثيل والأناشيد التي يتعبدون بها.

والي جانب ذلك أمدنا القرآن الكريم بقصص صوّرت معاناة الأنبياء والرسل صلوات الله عليهم منذ نوح عليه السلام وهود وصالح وإبراهيم ولوط وشعيب وموسى وعيسى وغيرهم من الأنبياء حتى خاتم الأنبياء والمرسلين سيدنا محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ في سرد بليغ، يصور ما وصلت إليه تلك الأمم التي أرسلوا إليها من حضارة ورقى صاحبه جيروت



أ.د/ عبدالرحمن الطيب الأنصاري
المشرف العام

التاريخ وكتابه

وسلم ﴿ وتنزلت آيات الله منجمة خلال ثلاثة وعشرين عاماً فحفظته القلوب والأفئدة وتدبرته وعمل به المؤمنون وسرعان ما انتشر دين الله الخفيف من حدود الصين شرقاً حتى بحر الظلمات (المحيط الأطلسي) غرباً بل وما وراء ذلك شمالاً وجنوباً وسجل المسلمون تاريخهم في صحائف ثم في كتب تميزت عما سبقها من كتب تاريخية امتلأت بكثير من الأساطير والخيالات وذلك لأن كتب التاريخ الإسلامي اتبعت نظام تتابع السنوات وإن كانوا قد اعتمدوا في تاريخ فترات ما قبل الإسلام على ما كتبه المؤرخون السابقون من فرس وهنود وغيرهم .

وتتنوع كتب التاريخ عندنا ما بين السياسي والاجتماعي والثقافي الى جانب العناية بالنسب والطبقات وهذا رصد اتسمت به الحضارة الإسلامية مما نفتقده في كثير من تواريخ الأمم الأخرى .

إن عناية مجلة المنهل ، وهي رافد من روافد رصد الحركة الفكرية في بلدنا منذ أكثر من سبعين عاماً ، بإصدار عدد خاص عن التاريخ والمؤرخين هو تنبيه صارخ للعناية بتاريخنا وإعادة النظر فيه بين الفينة والأخرى وتخليصه مما علق به من أوشاب بناء على ما كشف من تنقيبات أثرية خلال القرن العشرين .

فهل نستطيع أن نقف وقفة التأمل في ما ذكر به ماضينا وما حفل به حاضرننا وما يخبئه المستقبل !!!

وطغيان وكفر من أولئك الاقوام بما جاء به الرسل والأنبياء ، فاستحقوا ما أنزله الله بهم من عذاب .

كل ذلك لكي يسرى عن نبينا محمد ﴿ صلى الله عليه وسلم ﴾ أولاً ولكي يضع يدنا على الأسباب التي كانت أساساً في إبادة الأمم التي سبقتنا في الزمن بل ونكاد نقول في الحضارة أيضاً ، فنحن لازلنا نجعل كيف بنى المصريون القدامى أهراماتهم ومعابدهم وكيف نحنوا تماثيلهم ومسلاتهم وكيف ؟ !

ولا زلنا نجعل كيف عاشت الأقوام التي سكنت في امريكا الجنوبية سواء بالنسبة للبناء الاجتماعي والعقدي وما رسموه وخططوه على الأرض مما لا يمكننا رؤيته إلا بطائرة ترتفع عشرات الأميال فوق سطح الأرض لنستمتع بما خططوه ونقف حائرين عن فهم كنه ذلك .

هذا بعض ما حدث وكشف عن الأمم الغابرة ، وتوالت الأمم والحقب التاريخية فسجل اليونان والرومان والفرس تاريخهم وثقافتهم وحضارتهم من خلال التاريخ المكتوب والمعابد والمباني الراقية والمعبدات التي أثقنوا نحتها حتى جاءت المسيحية فأمن بها بعضهم وتفرقوا شيعاً وأحزاباً .

ثم انبثق نور الإسلام فأضاء العمورة بتوحيد الله الواحد الأحد والإيمان برسوله سيد الأولين والآخرين محمد بن عبد الله الصادق الأمين ﴿ صلى الله عليه

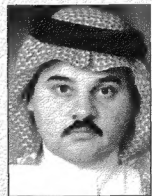


الإصدار
السبوي

هذا

الإصدار ..

لماذا؟!



زهير نبيه عبدالقدوس الأنصاري
رئيس التحرير

التاريخ، وما ادراك ما التاريخ...!! انه العلم الذى ينور الذهن ويرقى
الادراك، في شئونه عجب تحملنا على القيام بكل ما وجب، والتمسك منه
بكل سبب.

التاريخ هو المرأة الكبرى لاستظهار تجارب الأولين وآثار الاقدمين في
العلوم والافكار والروائع والاحوال والاحبار.

لو نظرنا الى التاريخ لوجدناه من أعظم العلوم الاجتماعية واجلها عند
الخصوص والعموم.. هل كان يمكننا لولا التاريخ ان نعرف ونميز ما كان
عليه الاقدمون من الأعلام الذين كانت لهم بصماتهم في مجريات الحياة
أنتخذ من الخلفاء العظام والصحابة والتابعين وان نستقصى مجدنا السابق
المندرج.. هل يمكننا لولا «التاريخ» ان نكتشف حقائق اندثرت، وان نعرف
عن اخبار توارت خلف تعاقب الايام..

لولا «التاريخ» لما بلغنا ما كانت عليه الامة الاسلامية والعربية من شأن
عظيم.

لولا «التاريخ» لما وصلنا الى عظمة اسلافنا والى قوة امتنا الاسلامية
والعربية.. ما كانت في خير وعافية ونهضة وما آلت اليه «للاسف» من
ضعف ووهن وتفرق وشرذمة.

ان المفتاح الأول لتاريخنا هو قراءتنا الجيد والسنة المطهرة فمنهما بزغ
التاريخ وبهما استمد القوة والجهد. ويكفينا فخرا ان قراءتنا الخالد وستتنا
الطاهرة هما المرجع والاساس والماضى والحاضر والمستقبل.

.. وبعد ان تهاوت ثريات الحضارة الاسلامية بعوامل خارجية
وداخلية.. وبات الشرق يغفو اغفاءة عميقة.. هى اغفاءة الضعيف الواهن
المريض.. حتى غدونا في هوة عميقة مظلمة لا حدود لها.. اخذت
الحضارة الغربية هذه الفرصة ووسعت الهوة وعمقتها بما بثته من سموم
وآثام في قلب هذا الشرق المريض..

هذا الإصدار (التاريخ والمؤرخون) يأتي في وقت كثرت فيه سهام أصحاب الهوى والأباطيل، يوجهونها مسمومة نحو تاريخنا.. وهنا ينبغي على مؤرخي الأمة أن يعملوا جهدهم، ويذلوا وسعهم، ويفرغوا طاقاتهم في إعادة قراءة تاريخهم - وهو مجدهم وعزهم - وذلك بغرض تنقيته مما علق به من أباطيل المبطلين، وإرجاف المرجفين.

ونسجل هنا، أن المنهل قد وضع خطة طموحة لهذا (الإصدار السنوي الخاص) بغرض استيعاب محاوره كلها، في كل جزئياتها وتفصيلها، وكتبنا لكل الجهات المختصة، من أساتذة وهيئات ومنظمات وغيرها.

لكن كما يقال: ما لا يدرك كله لا يترك جله. ونستطيع القارئ الكريم العذر فيما لم نستطع بلوغه.. وإن كنا نحمل الأمل بإكمال ما لم نبلغه من قبل، وبخاصة الجزء الخاص بالمؤرخين، وهذا الجزء يحتاج لإصدار خاص.

ولكل الأساتذة الأكارم الذين شاركوا بعلمهم وأقلامهم في هذا الإصدار، لهم جميعاً من الشكر والتقدير.

ويبقى المنهل دائماً سعيداً بتواصلهم العلمي والأدبي والثقافي والفكري.

بعد كل هذا فإنه حفي بنا اليوم أن نعيد قراءة تاريخنا الماجد.. قراءة متأنية وموضوعية، ولا نرضى بقراءة عابرة نعيش فيها على الذكريات والآهات والحسرة والندم.. حرى بنا أن نقرن القراءة لتاريخنا بالعلاج، والمضي قدماً لمعرفة الداء ومن ثم البحث الجاد على الدواء والعلاج، وذلك بمعرفة الأسباب التي أدت بنا إلى هذه الهوة.

ولا يتم ذلك إلا بالكاشفة والمصارحة والدراسات، لنضع أيدينا على الجرح ولا نكتفى «كعادتنا» بتضميده فقط، ولكن بالآخذ بأسباب العلاج الناجح حتى لو اضطررنا إلى بتر الجزء المريض المتهترى الميؤس من علاجه، ليبقى باقي الجسم «جسم الأمة» سليماً معافى، ولا يرضينا أن يكون تاريخنا الماجد ممزقاً وحضارتنا التليدة مشوهة، وآثارنا الخالدة مبعثرة. وإمجادنا الشامخة مسلوطة.

من هذا المنطلق يأتي إصدار «المنهل» هذا «التاريخ والمؤرخون» ليضيف وليتصدر بواعث النهوض والاستشراف ولتواءم مع محاولات الجادة لبعث تاريخنا الماجد قدماً إلى هامات السحب ولنصل به إلى الثريا، ولنعمل على تحصين أنفسنا وأبنائنا بمضادات أساسها ديننا القويم وحضارتنا الحجيذة.

إذا كان العالم الإسلامي يضم رقعة شاسعة جداً، فإن أجزاء كثيرة من هذه الرقعة همشت في الكتابات التاريخية العربية، بما في ذلك شعوب القوقاز وجنوب شرقي آسيا والأقطار المسلمة بإفريقيا، فضلاً عن الجاليات والأقليات المسلمة عبر العالم كله، والتي اتسعت انتشارها منذ القرن الماضي. وهناك كتابات تاريخية بالعربية معظمها من تحرير أترال، لكن الدراسات عن العهد العثماني في العقود المتأخرة تأخذ في الغالب منحى قوطياً بالنسبة للباحثين المنتمين إلى البلدان العربية لا سيما التي شملها النفوذ العثماني، وهي على أي حال، تتجه أكثر فأكثر، إلى المزيد من التوثيق والتركيز. وأخيراً، فإن التاريخ السياسي لا يغطي كل أفاق التاريخ التي تشمل المكونات الاجتماعية والسكانية والصحية والثقافية وأنماط العيش والحياة العامة، ثم وضع الأمة الإسلامية تجاه التطورات الحاصلة في كل هذه الميادين، وفي المتغيرات السياسية والدولية، والتقدم العلمي والتكنولوجي، منذ نهاية الحرب العالمية الثانية حتى الآن. ومن الواضح أن أعمالاً كثيرة أنجزت ولا تزال، منذ المراحل الأولى لتدوين التاريخ الإسلامي ولعدد من العلوم والفنون المساعدة، كالجغرافيا التاريخية، والكتابات ذات التوجه الاقتصادي والمالي، والأدب، والرحلات، وغيرها مما ساهم فيه مسلمون وغيرهم. غير أن قطرية التاريخ في الوقت الراهن، تضحي إلى حد كبير بالوحدة المشتركة التي هي الأمة. كما أن لكل قطر ثغراته الزمنية الواسعة، التي تختلف حجمها في المعلومات الضرورية.

هل تاريخ الإسلام هو مجرد تسجيل أحداثه السياسية المرتبطة بالخلافة والممالك وأنظمة الحكم؟

إن كان الأمر هكذا فليدنا الكثير مما روي عن هذه الأحداث، وما يتناول الغزوات والفتوح والحروب الداخلية والخارجية والهزات العنيفة التي عصفت بالاستقرار السياسي شرقاً وغرباً، لكن حتى في الجانب السياسي هناك ثغرات عديدة ربما لن تُسدّ قط، بسبب ضياع مئات الألوف من الوثائق، نتيجة للنهب والإهمال والجهل، وغياب التنظيم الهيكلي القائم على العمل الجماعي القار، كما هو الشأن في الكنائس التي حافظت على شطر عظيم من ثروتها الوثائقية، خلافاً للمساجد التي لم يراعَ حرمتها مسؤولون ولا خواص.

معالجة

التاريخ

الإسلامي

بين الحقيقة والمغالطة



إضافة

- دكتوراه جامعية في الدراسات الإسلامية من إيكس آن بروفانس، فرنسا ١٩٧٠م.
- دكتوراه دولة في التاريخ، الجامعة اليسوعية، بيروت ١٩٨٢م.
- درس الحقوق دراسة حرة لمدة ثلاث سنوات بكلية الحقوق بالرباط (١٩٥٨ - ١٩٦٠م).
- النشاط المهني :
- أشرف على تأسيس كلية الآداب بفاس (١٩٦٠ - ١٩٦١م)، وعين مندوبا إقليمي لوزارة التربية الوطنية بلكانير (١٩٦٢ - ١٩٦٣م) ثم مفتشا للتعليم الثانوي فمندوبا إقليميا لوزارة المذكرة بفاس وتاز.
- رئيس قسم تعليم الفنون بوزارة الثقافة ثم مديرا عاما لهذا القطاع حتى سنة ١٩٧٤م، وتفرغ كليا بعد ذلك للتعليم الجامعي بجامعة محمد الخامس بالرباط ، حتى تقاعده، مع مواصلة أبحاثه ومساهماته العلمية.
- أنشطة أخرى :
- عضو بالمجلس الأعلى للتربية الوطنية.
- عضو باتحاد المؤرخين العرب (بغداد).
- عضو بالمجمعية الدولية لتاريخ البحر المتوسط (مقرها بإيطاليا) S.I.H.M.E.D.
- عضو المجلس العلمي للإبوة الرباط والأقاليم المجاورة (سابقا).

أو تقلصا: وتزداد أهميتها كلما اقتربت أحداثها من عصر المؤلف أو كلما عايشها عن كثب. ومن بينها :
الكامل لابن الأثير (قرن ٧هـ) وتاريخ البقاعي (قرن ٩) ويتكامل مع مؤلفات أخرى من نفس المرحلة، خصوصا النجوم الزاهرة لابن تغري، وخطط المقرئ، إلخ.

فهذه المؤلفات تعكس أوضاع العالم الإسلامي، لا سيما الشرق الأوسط، سواء في إنفاقه السياسية أو في مكاسبه الحضارية أو وجوه انحطاطه. وابن الأثير يقدم صورة واضحة عن الصراعات الطائفية والمذهبية ببغداد، فضلا عن تغطيته الواسعة للأحداث السياسية بعد الطبري

من التشويش إلى تكريس القوميات :

بدأ تدوين تاريخ الإسلام انطلاقا من معالجة المغازي والسيرة النبوية، قبل أن يضع كل من الطبري والمسعودي (قرن ٤هـ) بطريقتين مختلفتين، تاريخا للإسلام حاز اهتمام الدارسين والباحثين حتى الآن، وكتاب الطبري على غزارة معلوماته ما هو إلا امتداد لكتب المغازي السابقة له، من حيث تقليب الروايات والأسانيد، إلى حد يتعذر معه غالبا، الوقوف على الحقيقة النهائية كلما تعددت الروايات. والمسعودي يعود بالتاريخ إلى الوراء، قبل أن يقدم تاريخ الإسلام العام، ثم معلومات عن الأقطار الإسلامية، ويجمع بين التطورات السياسية والأوضاع الجغرافية والاجتماعية والدينية، مع بروز شخصيته ناقدا ومحللا.

انتج الطبري طريقة الحواлийات، لكن عمله ظل مشوشا في عرض مادته [١]. وهو ما حصل في كل المعارف الإسلامية عند تدوينها في المراحل الأولى، حيث اعتمد التدوين قبل كل شيء، على الرواية الشفوية، ولذلك فإن كتب الحواлийات التي وضعت بعده تلافى معظمها تقليب الروايات، وإن ظل العيب قائما في تمزيق الأحداث التي لها محور واحد وتدرج خلال عدة سنوات. ثم إن هذه الحواлийات تنتقل من موقع إلى آخر شرقا وغربا، ومن حدث سياسي إلى وفاة شخصية ثم إلى ظاهرة طبيعية أو وضعية اقتصادية، وهم جرا.

وبالنظر لجهل معظم المؤرخين باللغات الأجنبية، فننادوا جدا ما يعودون إلى روايات الشعوب غير المسلمة وكتيبها وثائقها في الأحداث المشتركة، مثل فتح القسطنطينية والحروب ضد البيزنطيين والصليبيين. ولذلك يخضع تسجيل الأحداث للرواية الوحيدة والتفسير الواحد، حتى مع نقص المادة، وزبما أيضا مع مبالغة التقدير.

على أن مؤلفات التاريخ الإسلامي العام تواصلت مع اختلاف في تغطيتها الجغرافية امتدادا

الإسلامية، بل تلجأ إلى تسجيل حالات بعينها حول المسؤولين والأجهزة الإدارية والقضائية والمالية[٢]. وبالمقابل، فقد وجد التاريخ القطري والمحلي مجالاً ينفسح أو يضيق حسب العصور والجهات، ويأتي الصجاء ببقاعة المقدسة في طليعة اهتمام المؤرخين والرحالة، بينما الكتابات الأثرية (الإسلامية) حتى في حال دقتها لا تخضع لمقارنة أو تأصيل تاريخي أو جغرافي.

ومع منتصف القرن ١٩م (١٤هـ) يترك التوجه السياسي الإسلامي مكانه للإيديولوجية القومية العربية التي يواكبها التوجه الاشتراكي في أكثر الدول العربية. وتحظى هذه القومية بفيض من الدراسات أملاً في استقطاب أكثر ما يمكن من المجتمعات التي تسود فيها اللغة العربية بصرف النظر عن أعراقها، وبما أن التوجه العربي يواجه الصهيونية والأمبريالية بشكل حاد فإن الفكر القومي تتحمس له الفئات المثقفة من مختلف الأعراق التي تعيش العرب أو يعايشونها، لأن للعرب أيضاً أخطأهم التي شجعت مواطنهم غير الغرب، على إبراز شخصيتهم القومية وإعادة احتضان تاريخهم وثقافتهم، من منظورهم الخاص، وإن كان للأطراف الدولية النافذة باع طويل في إنكاء النعرات.

إن فلسفة العولة تتجه شيئا فشيئا إلى تدويل التاريخ كصفة حاسمة، لأن دولا قليلة قررت أن تصنعها هي وحدها دون غيرها. ولذلك فإن الأمبريالية التي تقودها الصهيونية فكراً ومالاً، ترمي إلى كسب الحوضون التي تجتمعي بها المجموعة الإسلامية التي استهدفتها في آن واحد، العنف والتطرف والاستعمار الجديد، وسوء التسيير في أغلب مناطق المجموعة. وقد تكون كتابة التاريخ الحديث والمعاصر، للعالم الإسلامي، أكد وأشد استعجالاً من أي وقت مضى، فإن ما حدث من نهب تراث العراق خير درس، ولو أن التكهّن بما قد يحدث لا يهمل هذه الدراسة، ولا يتمنى أي ذي بصيرة أن يكون سوءاً، لا قدر الله.



محراب ضريح ابن الحنفية بالموصل
.. وهو نجل الإمام علي من غير فاطمة الزهراء

وحتى عصره هو. وابتداءً من القرن الثامن والقرون اللاحقة حتى دخول العصر العثماني، نرى الصراعات السياسية على السلطة تتفاقم في كل مكان، متبوعة بالهيمنة الاستعمارية على عدد كبير من موانئ العالم الإسلامي وسواجله. وفي هذا الصراع البحري والساحلي نفقد الدقة والعمق في الرواية الإسلامية أو العربية بصفة أدق، بينما نتعرف من خلال المؤلفات المذكورة وغيرها على مدى الانحطاط والفساد الإداري والمالي التي استشرى داؤه في معظم العالم الإسلامي، فيما بين القرنين الثامن والتاسع بوجه خاص. لكن الكتابات هنا لا تقدم عرضاً شاملاً بما يقتضيه من انعكاسات مختلفة على المجتمعات

الأبحاث الجامعية والأعمال المنشورة والمقدمة في الندوات واللقاءات ثروة عظيمة الأهمية وإن كانت تتفاوت جودة وإفادة.

ومع ذلك يبقى الفراغ كبيرا سواء على الصعيد الزمني أو الجغرافي أو على صعيد مصادر المعلومات نفسها أو طريقة تقديم هذه المعلومات. ولنأخذ هنا مثالا واحداً من باب الاختصار، وهو مجال التاريخ الديني، فأكثر مصادر هي كتب التصوف والمناقب، والأخيرة تكاد تغيب فيها الصورة المادية للحياة، تاركة مكانها لكم ضخم من الكرامات الممكنة وغير الممكنة.

والوثائق الوقفية أصاب معظمها التلف والنهب بتعاقب القرون والأجيال، ثم إن دراسة المجتمع المسلم لا تعنيه وحده، فلابد من الالتفات أيضا إلى المجتمعات التي تعاشيه محيطا، لأن المسألة هي قبل كل شيء مسألة علاقة قد تتداخل أو تتباعد، فلا يجوز والحالة هذه، أي تحنيط تاريخي لهذه العلاقة، ولا لخصوصيات هؤلاء المواطنين، فيما هو مشترك بينهم في الحياة العامة، وبينهم وبين الجانب المسلم في المجال الاجتماعي. غير أن مجموعات المواطنين غير المسلمين مُغَيَّبة فيما عدا المجال الضريبي ونفوذ أهل الذمة وما يثيره من

ردود فعل، وإن كانت كتب الأدب والتراجم لا تظفر من تقييم لشخصيات غير مسلمة، وينتهي أدباء وأطباء وفلاسفة، وهذا في حد ذاته تكريم للثقافة في أفقها الإنساني.

وبما أن التاريخ الديني لا يعني الانحصار في دائرة المجتمع الإسلامي وحده، حيث إن المؤرخ هنا لا يعالج العقيدة أو الشريعة، بل الصورة البارزة للحياة العامة، فمن البديهي أن ينظر إلى الطوائف والفرق البينية كيفما كان اتجاهها قريبا أو بعدا من الإطار السلفي، على أنها جزء من هذا المجتمع في

التاريخ الاجتماعي والديني :

هذا أيضا باب واسع من أبواب التاريخ، ويحتل في التراث الإسلامي حصيدا كبيرا لكنه يجمع بين الغث والسمين، ويرتبط بمجالات عديدة كعلم الاجتماع والاثنولوجيا، والآثار والهندسة المعمارية، والفنون اليدوية، وتاريخ الطب، والأدب، والجغرافيا التاريخية، والفقه والتصوف، والطوائف البينية، والتعليم على نطاقه الشعبي، والوثائق ذات الصبغة الاجتماعية أو الدينية (عقود الزواج والطلاق، والإرث والمعاملات، وأحكام القضاة، والإقطاعات، والامتيازات... إلخ).

ثم إن التاريخ السياسي نفسه لا يخلو من معلومات ماثورة عن بعض هذه الجوانب على الأقل. ولابد أن ندخل في الاعتبار أيضا، الرحلات والكتابات والتقارير والاستنتاجات غير الإسلامية، مع إخضاعها للفحص الموضوعي عند الاقتضاء، ومعرفة المصطلح اللغوي ومقابلته قدر الإمكان بالمصطلح المحلي أو الجهوي كلما كان ذلك مفيدا أو ضروريا.

كذلك تدخل الروايات الشفوية والأعراف المتوارثة جيلا عن جيل، في إطار التاريخ الاجتماعي [٢]، كما هو الشأن في مختلف أدوات العمل

التاريخي، المكتوبة والمنقوشة والمحفوظة والمروية، باللغات غير العربية في الأقطار المسلمة.

ولابد هنا من التنويه بما قدمته موسوعات ومؤلفات وكتابات عربية في الكثير من هذه المجالات، مثل معجم البلدان لياقوت ونزهة المشتاق للإدرسي، وتاريخ ابن خلدون ومقدمته، وخطط المقرئزي، وأمهات كتب الأدب (بيان الجاحظ، أمالي القالي، إلخ)، وكتب النوازل وهي كثيرة، وصبح الأعشى للقلقشندي، وما أنجز من دراسات شرقا وغربا عن الآثار الإسلامية. وبالطبع فإن في

* كثير من الدول الإسلامية همشت في الكتابات التاريخية والعربية *

بشيء من الحذر ما دام كثير من وصفاتها غير مؤصلة تاريخيا، وبينها ما يعود إلى أصول غير إسلامية. وإذا فكر مؤرخ معاصر يهتم بالبيئة الطبيعية والحيوانية في مناطق الإسلام عبر التاريخ، فسيذهل لغياب المصادر في معظم ما يريد تناوله حتى ولو كان عالم طبيعيات أصلا. فكم هي الغابات والبحيرات والمصايد والمغاصات والحيوانات البرية والبحرية؟ وأين مواقعها العديدة؟ وكيف تستغل اقتصاديا؟ وماذا كانت أوضاع اليد العاملة والتقنية بشأنها؟ وماذا تدره من دخل وما تتطلبه من جهود ونفقات ووسائل؟ [٤].

وأما المعادن، فموقعها في الكتابات الوسيطية هامشي، وقد يذكر اسم معدن أو مكانه دون أن تتجاوز المعلومات ذلك إلا نادرا وبقلّة أيضا، وعلى العموم فإن الجغرافيا التاريخية تستأثر بمعظم المعلومات، وغالبا ما تفتقد طرق الاستخراج والتحويل والمعرفة الضرورية عن الكميات والتصدير إن كان. والصناعات إما يدوية أو عن طريق الطاقة المائية (نواعير لنزح الماء أو أرحية الطحن أو العصور)، ولكن الفنون التي يتدخل فيها الإنسان بمهاراته الشخصية، من نقش وحفر ورسم وفسيفساء وتزيين

وأوعية نحاسية فضية وزجاجية وأسلحة، إلى آخر لائحة هذه الفنون والصناعات، لم يعرّها اهتماما إلا بعض المؤرخين، من حيث إبداعها النهائي أو من حيث تسويقها أو استغلالها لهذه الجهة أو تلك. فليس هناك التفات إلى تطور هذه الصناعات (حيث إن هذا التطور جزء من التاريخ الحضاري)، ولا تقييم لأصالتها أو اقتباسها.

وهكذا فخارج الميدان المعماري، وبالنسبة للمباني الفخمة عموما، يظل الفراغ مطلقا باستثناء مؤلفات محدودة في مادتها وعمدها. وقد خلّطت

التساكن، مع اعتبار خصوصياتها ونمط عيشها وعلاقتها بالسلطة الحاكمة. ومن البديهي أن يكون في هذه الطوائف فرق معارضة وحتى متطرفة وممارسة للعنف وسفك الدماء دون تمييز، غير أن معظم مؤرخي الإسلام لم يربطوا بين المكونات الاجتماعية والاقتصادية والسياسية التي قادت هذه الحركات من جهة، وقصور الأنظمة المركزية والجهوية وأخطائها من جهة أخرى.

التاريخ الاقتصادي :

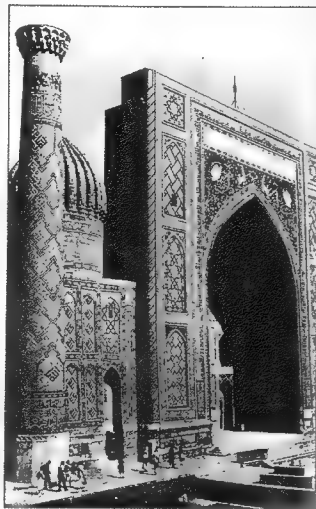
لا سبيل إلى معرفة الاقتصاد

الإسلامي إلا في دائرة النشاط الحكومي، لأن الأمر يتعلق باقتصاد الدولة، فهي التي تجمع أموال الزكاة والخراج والجزية والعشور والمكوس والمصادر، ثم تتولى صرفها، فنحن إذا أمام اقتصاد دولة، وهو ما يعني بعض المؤرخين الذين اهتموا بهذا الجانب انطلاقا من وثائق حصلوا عليها بحكم وظائفهم، أو فضولهم المعرفي، ومنهم البلاذري في فتوح البلدان وابن قدامة في كتاب الخراج وصيعة الكتاب.

أما حركة الاقتصاد على صعيد

المجتمع الإسلامي ككل، أو بحسب الجهات فإن كتب الجغرافيا والرحلات ومذاهب الفقه تقدم شذرات من هنا وهناك، على أنها تظل بعيدة عن إرواء ظمأ الدارس والباحث، وبالتالي فهي لا تغطي المساحة المعرفية في عدة مجالات. وهكذا فنحن نفتقد كل شيء تقريبا عن الموارد البشرية التي هي الأداة الرئيسية لتحريك الزراعة والصناعة والتجارة، والإحصاءات تعود في كل هذه المجالات، مع استثناءات جغرافية وزمنية محدودة. وكتب الفلاحة على قيمتها الخاصة، ينبغي أن تؤخذ

*** جهل المؤرخين القدامى باللغات الأجنبية حجب عنهم الاطلاع على كثير من الوثائق التاريخية المهمة.



بوابة مدرسة شيراز بسمقرند

بالضفة الجنوبية، من البحر المتوسط، كما أن الأرشيف العثماني بتركيا غني في هذا المجال. وبالمقابل فإن مبنيات الفقه والنوازل تقدم لنا ثروة لا تقدر بثمن، عن مسائل النقل البحري ومشاكل القرصنة والأسر والتجارة البحرية والنزاعات حول امتلاك واستغلال السفن وما إلى ذلك، مما يدل على أن فقهاءنا تابعوا بشكل جيد، هذا الجانب المهم في حركة التبادل التجاري والحقائق والالتزامات المرتبطة به.

لذلك، يجب التنويه بمؤلفات الحسبة التي أغنت التراث الفقهي والاقتصادي والاجتماعي في المجال التاريخي على الأقل، وإن كانت تحتاج في كثير من الأحيان إلى تمحيص للتمييز بين ما تقدمه

الاكتشافات الأثرية والدراسات الميدانية خطوات كبيرة بفضل المختصين والهواة الأوروبيين ثم الأمريكيين، كما أن عدة جامعات في العالم الإسلامي ومؤسسات مختصة بها، تساهم بشكل جيد في الاكتشافات والدراسات والبحوث في جملة من الميادين المذكورة.

وبالنسبة للحركة التجارية، فإنها قد أخذت باهتمام مدونات الفقه والنوازل، وإن كان يستعصى الاستفادة أحيانا من معلوماتها والحالات التي تثيرها، بسبب كثرة الروايات والتأويلات المذهبية والشخصية لبعض الفقهاء.

وقد أدلى الجغرافيون أيضا بما أمكنهم من معلومات عن المدن والجهات والأسواق ذات النشاط التجاري، والتجارة يحترفها أشخاص عاديون ومسؤولون في الدولة، وقد تحتكر الدولة نفسها تجارة مواد معينة أو يتولى ذلك، المسؤول الأول في النظام الحاكم، وفي كل حال، فإن التجارة الأدنى دخلا، والمتوسطة، تظل عموما بيد الفئات الشعبية وحتى بعض المعلمين والمثقفين.

وتقدم المصادر الجغرافية والرحلات وحتى عدد من كتب الأدب والحواليات معلومات تختلف أهمية حول التجارة المحلية والجهوية، ومعلومات شحيحة عن عمليات التبادل بين المشرق والمغرب، وأقل من ذلك فيما بين المناطق الإسلامية والأطراف الخارجية التي تتعامل معها. والسبب هنا واضح، لأن هيمنة الأساطيل الأوربية خصوصا على حركة النقل البحري عبر المتوسط بدأت تقضي شيئا فشيئا منذ القرن الخامس القوة البحرية الإسلامية، مدنيا وعسكريا، وإن بقي للطرف الإسلامي قوة عسكرية بحرية حتى القرن السادس، ليضعف بعد ذلك بشكل محسوس، ولذلك تتوفر المكتبات الأوروبية على الكثير من الوثائق الدبلوماسية والتجارية ذات الصلة

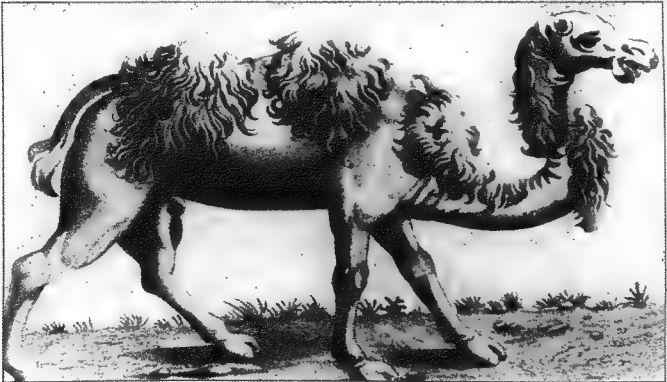
هؤلاء المغامرين ومن كتبوا التقارير من أسراهم لدى المسلمين.

وهكذا، فمُنذ القرن الثامن الهجري (١٤م) إلى تحرير الشعوب العربية والمسلمة من الاستعمار، منذ نهاية الحربين العالميتين، يزداد تاريخ الإسلام انعطافاً نحو المحليّة خصوصاً مع انهيار الدولة العثمانية، وبالرغم من انتشار الإسلام في عصر مبكر، بإفريقيا الغربية والوسطى، فقد ظلت هذه المناطق طوال العصر الوسيط بدون تاريخ سياسي مكتوب، فضلاً عن جوانب التاريخ الأخرى سوى شذرات هنا وهناك، وكُتب تراجم لا تُطَّل على التاريخ إلا من ثقب العصر الحديث، وفي آسيا المسلمة، أو بالأصح في بقاعها المسلمة النائية (هند، صين، أندونيسيا، ماليزيا... الخ) ينعزل التاريخ الذي ينوء في بعض هذه الجهات بالعمق الزمني الاستعماري، حيث سُجِّل التاريخ بعين واحدة لحقبة طويلة.

من نظريات عامة، وما كان يجري على صعيد الممارسة فعلاً وفي ظروف محددة، أو يمكن تحديدها [٥].

وليس من السهل الحديث عن تاريخ التجارة الإسلامية مع العالم الخارجي إذ لم يكن هناك رجوع إلى نصوص المعاهدات وما كتب عن نشاط البعثات الدبلوماسية، فضلاً عن عهود الصلح والمواثيق التي عقدها المسلمون خلال فتوحهم.

وحيث إن قليلين من التجار والسواح المسلمين كانوا ينتقلون بأنفسهم إلى المناطق الأوربية، وأن الذين كتبوا عن هذه المناطق يعدون بالأحاد، فإن معرفة التجار المسلمين عن أوربا ظلت ضعيفة لجهلهم باللغة وتخرجهم من مخالطة (الكفار)، في الوقت الذي ترك للتجار والمغامرين والجواسيس الأوروبيين، التحرك بسفنهم إلى سواحل المسلمين والتعرف عن كثب، على ثروات التراب الإسلامي وأوضاعه الاقتصادية والعسكرية، وكل الكشف الاستعمارية انطلقت على يد



جمال أسبوي كما رسمه رحاله فرنسي في القرن الثامن عشر الميلادي

التاريخ الثقافي :

يمكن تقسيم هذا القسم من التاريخ، إلى تاريخ ثقافة شعبية Ethnology وتاريخ ثقافة النخبة، والصنف الأول تدمجه الدراسات العربية الحديثة ضمن التاريخ الاجتماعي العام، وقد سبق تناوله، مع الإشارة إلى عدد من مصادره وطريقة معالجته في كتابات العصر الوسيط خاصة، والصنف الثاني هو المقصود هنا، وقد عولج بالنسبة لهذا العصر بطريقتين مختلفتين:

الحجاز نظراً للبقاء المقدسة فيه فقد حظي باهتمام المؤرخين والرحالة والدارسين

فهناك مراكز ثقافية تمثلها مدن بعينها، وجهات نائبة عنها أو بقرىها.

٢- إن معالجة التاريخ الثقافي لا يعقل أن تهتمش التيارات الفكرية والمذهبية لحساب تيار أو مذهب بعينه، ما لم يكن المقصود معالجة ما يخص هذا المذهب أو التيار بالذات، وعلى سبيل المثال لا يستثنى التيار الإباضي أو الصُفري أو الفكر الاعتزالي من المعالجة، في نطاق هذا التاريخ، فالمجتمع الإسلامي ليس عملية حسابية تتكون من جمع وطرح، بل هو ما هو، بما له وما عليه، في كل فئاته، وإنما على المؤرخ أن يتوخى الموضوعية ويوثق عمله في كل حال.

٢- مكونات ألتاريخ الثقافي الأكثر شمولية ولَوْ على صعيد قطر واحد، تبدأ بالبيئة الجغرافية والمحيط الاجتماعي، وتتم عبر مراكز التكوين ومواقع شحذه وتبليغه، ثم عبر خصوصيات كل تيار ثقافي، ومنه إلى أصناف المعرفة التي تُستجلى من خلال نصوصها الأصلية، وليس من خلال دراسات متأخرة، ما لم تأت بجديد غير مسبق، وبالطبع، فإن كل علم أو فن ثقافي أو تيار فكري تتسلسل فيه المراحل وتسجل مميزات كل مرحلة، كما ينبغي إخضاعها للنقد حيث يجب.

وأخيراً، فلكل علم أو فن أو تيار فكري رواه ونبغاؤه البارزون. وهنا يأتي دور المؤرخ مرة أخرى لتحديد مراحل حياة كل شخصية وتقديم صورة عن إنتاجها أو إبداعها، وبالتالي عن مدى تأثيرها. وليس التاريخ الثقافي هو عملية فتح باب ثم إغلاقه. فقد فتح المؤلفون القدامى كل الأبواب ولم يغلق أحد منهم أياً منها بالنسبة لما سبقه من مراحل إلى عصره، فهم تركوا للأجيال اللاحقة ثروة كبيرة من المعارف

١- طريقة غير مباشرة : من خلال موسوعات التراجم وكتب الطبقات والقهارس والمناقب.
٢- طريقة مباشرة : من خلال تسجيل جملة من التطورات الخاصة بالعلوم الإسلامية أو بعضها كما في مؤلفات الملل والنحل، والفصول التي خص بها ابن خلدون العلوم الإسلامية في مقدمته، كذلك نجد الدراسات النقدية أو التحليلية تشمل جملة من العلوم والمعارف، بدءاً بالحديث النبوي (التعديل والتجريح) والنقد الأدبي والفلسفة وعلوم اللغة.

غير أن التاريخ الثقافي للأمة الإسلامية، بالمعايير الصحيحة والدقيقة لم يسجل حتى الآن، بما في ذلك الفترة الممتدة حتى القرن ٩هـ / ١٥م، والتي كانت فيها اللغة العربية وحدها تستأثر بالرصيد الثقافي المكتوب:

١- إن التاريخ الثقافي ينبغي أن يتناول جهود الأنظمة الحاكمة في تشجيع العمل الثقافي بصرف النظر عن أهدافه ومضامينه، وجهود الأطراف الشعبية بما في ذلك القبائل والطوائف الرئيسية، فضلاً عن هم محور الدائرة في الجهد المبذول، من طلاب وأساتذة وأوساط شعبية مستفيدة، وبالتالي

ويهود من مختلف الأقطار، وحرثيون وغيرهم. وأكبر جزء من مساهمتهم لا صلة له بالمعارف الإسلامية الأصلية. ولكن أعداداً كبيرة من الطلاب والأساتذة المسلمين تأثروا عبر القرون بما قدمته هذه الأطراف المؤثرة في الرصيد العلمي خاصة، أو ما كان يعرف بعلوم الأوائل، وهذه العلوم بالذات بقيت تنبض بالحياة في الأندلس، وبشكل مجزؤ في الشمال الأفريقي، لمدة طويلة بعد خفوتها بالشرق.

وخلال القرنين ١٩ - ٢٠ م (١٢ - ١٤ هـ) دخل العالم الإسلامي شيئاً فشيئاً، في طور ثقافي جديد بسبب التغيرات السياسية العالمية وظهور أنماط مختلفة من التواصل البشري والمعرفي، من صحافة وطباعة وإذاعة وغيرها مما أعطى لثقافة الشعوب المسلمة وسائل أكثر تيسيراً لتقاربها. على أن الفكر السياسي الوطني والإسلامي والعربي هبت زخه بقوة على أقطار العالم الإسلامي والعربي، كما أن الجامعات العصرية شرقاً وغرباً غذت طلاب هذه الأقطار بعلوم حديثة بالغة التطور كثيرة التنوع، وبمناهج في البحث والاستيعاب والضببط والتحرير لم يكن للأسلاف بها عهد.

غير أن أهداً لم يفكر في تسجيل ما حصل من تطور في المجال الثقافي بالعالم الإسلامي خلال هذين القرنين، ليس بطريق مقالات مبثوثة هنا وهناك، ولا بدراسات جزئية قد يكرر الكثير منها بعضه بعضاً في العالم الإسلامي. ولكن، ضمن موسوعات ومعاجم، وذلك أن الموسوعات المعروفة من بريطانية وعربية وتركية وغيرها، هي مزيج من المواد الحضارية المرتبطة بالتاريخ السياسي والاجتماعي. بينما التاريخ الثقافي الذي يجمع بين العلوم والفنون ومراكز البحث والتثقيف والإنتاج والإبداع والأشخاص المؤثرين لا تشغل إلا

والمعلومات، ولكن ضابطها تاريخياً، وترتيب مراحلها وإخضاعها للدراسة الموضوعية وتمييز غثها من سمينها لم يتوصلوا إلا لبعضه، فبقي إرثهم دون استغلال يناسب التطور الحديث، فيما عدا الدراسات الجزئية التي على كثرتها تظل نقطة في بحر، وإن كان للكثير منها قيمته الأكيدة. وذلك أن كتابة التاريخ الثقافي للأمة الإسلامية أمر يتجاوز قدرة فرد أو بضعة أفراد. فلا بد من تكاتف المختصين والمشاركين في المعارف الإسلامية، وهم أصبحوا قلة قليلة في العالم الإسلامي.

وحيث إن الثقافة الإسلامية مدينة بالدرجة

التاريخ الاجتماعي والديني والاقتصادي والسياسي للعالم الاسلامي أحاط به كثير من الفموض.

الأولى للغة العربية التي كتب بها آلاف من المثقفين والمتعلمين، فإنها أيضاً مدينة لمن آمن بالإسلام من غير العرب، ولن لا يؤمن به من العرب وغيرهم، والذين أثروا هذه الثقافة بأعمالهم في نقل العلوم التجريبية وغيرها إلى العربية.

لم تكن كل المؤثرات الثقافية الوافدة ذات وقع إيجابي، فهناك الإغراقات الصوفية الحلولية، والأفكار الإباحية التي سجل ابن النديم عيدا من تصانيفها في (الفهرست)، وكان لها انصارها في العصر العباسي، والأفكار الباطنية التي اجتاحت الرقعة الإسلامية في زمن الفاطميين.

وهذه أمثلة فقط، وإنه لشئ رائع أن يحتضن التاريخ الثقافي للأمة الإسلامية أسماء لامعة نبغت في جُفن الدراسات العربية وهي من أصول غير عربية، كسبويه الفارسي وهو مُبَعَد النحو العربي، وعكرمة البربري وهو ثاني من حرر تفسيراً للقرآن بعد ابن عباس، والجاحظ السندي أحد أكبر الأدباء، وابن جريج الرومي (البيزنطي) من أكبر رجال الحديث الأولين. أما من غير المسلمين فهناك نقلة وإطباء وفلاسفة وأدباء خدموا الثقافة العربية، وفيهم سريان

مثل ما سبق من سنوات تشمل خليطاً من الأحداث غير مرتبة موضوعياً على الأقل؛ فمن سفر ابن السلطان بالشام، الى وفاة فقيه نحوي، ثم اكتشاف خذل مالي في بيت المال. ليتقل المؤلف بعد ذلك إلى رجوع موكب الحجاج، ومنه إلى وفاة قاض شافعي الى آخر هذا الخليط المستمر في عشرات الصفحات بالرغم من قيمة الكثير من المعلومات.

(٣) تعد فرنسا من أكثر الدول الاستعمارية اهتماماً بأعراف وتقاليده وإفان الشعوب التي استعمرتها، وهناك دراسات عديدة عن أعراف عدد من القبائل الأمازيغية بالشمال الإفريقي تضمنتها مجلات وأعمال نوات وكتب. وتشغل الدراسات التاريخية والاجتماعية حالياً، والمتعلقة بعدد من القبائل والجهات عبر العالم العربي وخارجه حيزاً كبيراً من الدراسات الجامعية.

(٤) ما تبقى من التراث المكتوب عن الحيوانات بوجه عام، وبعض الموضوعات الخاصة كالخيل والقتل؛ له أهميته العلمية في كل حال، لكن تاريخ البيئة الطبيعية في الإسلام لم يسجل حتى الآن، خصوصاً بما يقتضيه من النقا قدر الإمكان، والشمولية الضرورية.

(٥) ممن كتبوا في الصبية :

- عبد الرحمن الشيزري (قرن ٦) نهاية الرتبة، وهو غني بالمعلومات عن أوضاع الصبية والأسواق بالشام.

- ابن القطان (قرن ٧) : الأوزان والمكاييل.

- ابن المصنف محمد بن عيسى (قرن ٧) تنبيه الحكام.

- ابن تيمية (قرن ٨) وكتابه في الصبية تضمنه مجموع فتاويه

- محمود العمري (قرن ٩) عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان (ويجمع بين التاريخ وأوضاع الحسبة والشؤون الاقتصادية والمالية بمصر).

وكل هذه المؤلفات مطبوعة فيما عدا مقالة ابن القطان. وهناك كتابات ومؤلفات غير هذه بما في ذلك الدراسات الحديثة.

حيزاً ضعيفاً جداً من الموسوعات المتداولة.

إن عدداً كبيراً من مواطني العالم الإسلامي يساهمون كل في مجال تخصصه أو نبوغه: يفكرهم وإبداعهم ويحوتهم وأعمالهم، سواء في المحافل الدولية أو في مراكز البحث أو غيرها حيث تبدو مواهبهم في نجاحهم في عمليات معقدة أو رائدة في المجال الطبي، أو يساهمون في الأبحاث الفضائية في أرقى مؤسساتها أو يحظى إبداعهم بالانتشار عبر الترجمات العالمية، أو يسمع صوتهم باهتمام في اللقاءات الجهوية والدولية وهم يقدمون وجهة نظرهم في مشاكل المجتمع البشري، إلى غير ذلك من المساهمات والعطاء في شتى الصور.

وإن الجهات المختصة في العالم الإسلامي، من منظمات إسلامية ومجامع علمية ومؤسسات مختلفة، يقع عليها عبء تسجيل كل التطورات الأساسية في المجال الثقافي والمعرفي للقرنين المذكورين، بما في ذلك الاختراعات والاكتشافات التي يظل معظمها حبيس إعلام محلي متواضع دون أن يلقى الرعاية الحقيقية، وذلك أملاً في إبراز وجه مشرق حافل بالحياة والجهود، لهذا الجزء الشاسع من الكوكب الأرضي، بالرغم من كل المعوقات والظروف الكثيرة التي تكتنفه، حتى لا تتخذ السلبيات وحدها رمزا لكل مسلم، وللمسلم وحده دون غيره.

الهوامش :

(١) من الأمثلة الكثيرة جداً:

أ - طبري، تاريخ ١١٧/٣ - ١٢٠ (مقتل القائد قططه

سنة ١٣٢)، المطبعة الحسينية، القاهرة (د.٥).

ب - طبري ١٨٠٧ - ٣٠ (أحداث حول البصرة وعبيد الله بن زياد).

ج - طبري، ٩٧، ٩٨ - ١٠٢ (زحف أبي مسلم الخراساني على مرو). وتشغل حوادث القتل وسفك الدماء مئات الصفحات من كتاب الطبري.

(٢) انظر مثلاً، حوادث ٨٦٢هـ في تاريخ البقاعي، فهي

منهج كتابة التاريخ

وهذا هو المدخل لفهم تاريخ الإسلام والمسلمين فإنه لا ينفك عن عقيدتهم وإسلامهم. ولذا فإنه لا بد من دراسته وفهمه وتفسير أحداثه وفق منهج علمي صحيح منبثق من التصور الإسلامي والعقيدة الصحيحة عن الله والكون والإنسان والحياة.

فإن الله هو الخالق للكون والإنسان، والحياة ومقدر الأقدار وفق علمه وحكمه، وجعل الكون مُستخراً للإنسان وجعل الإنسان مستخلفاً في هذا الكون لعبادة الله وفق التشريع الذي ارتضاه سبحانه فإنه المستحق للعبادة وحده بلا شريك، وجعل الحياة الدنيا مزرعة للحياة الآخرة التي فيها الجزاء والثواب أو العقاب على الأعمال في الدنيا.

لقد كان المؤرخون السابقون يكتبون برواية الأحداث والوقائع وتدوينها ولم يحتاجوا إلى تحليل الأحداث وتفسيرها كما تفعل المدارس التاريخية المعاصرة وكان نتيجة ذلك كمأ هائلاً من الأخبار التي هي بحاجة إلى فرز ونقد وتحليل لمعرفة الصحيح من غيره، وإبراز الصورة الواقعية والجهود العلمية التي أقامت الحضارة الإسلامية الشامخة وبنائها الباسق في التربية والسلوك، والاتساق بين العلم والعمل، الذي أثنى نتاجاً معرفياً ونتاجاً مادياً ملتزماً بالأخلاق الفاضلة ومتسماً بالهدى والحق.

ترك المؤرخون الأوائل الاهتمام بتفسير التاريخ وتجليه لعدم الحاجة إليه في وقتهم حيث كانت الأمة مُمكنة في الأرض تعيش أزهى عصورها متمسكة بدينها معتزة بعلوم ثقافتها ومصدر الحق فيها، فهي قائدة لا مقودة وهي متبوعة لا تابعة وهي رائدة لغيرها ورأشدة في تصرفاتها، تقود العالم كله سياسياً وفكرياً كما أراد الله لها {كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله}.. وقال الله تعالى: {وكذلك جعلناكم أمة وسطاً لتكونوا شهداء على الناس}.

التاريخ الإسلامي في مفهومه العام هو تاريخ دعوة التوحيد ودعاتها من آدم عليه السلام إلى نوح وإبراهيم وموسى وعيسى ومحمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾، فإنهم جميعاً دعوا إلى ملة واحدة واعتقاد واحد هو توحيد الله وهو الدين الذي ارتضاه للبشر قال الله تعالى: ﴿إِنَّ الدِّينَ عِنْدَ اللَّهِ الْإِسْلَامُ﴾.

وهو في مفهومه الخاص تاريخ الأمة المسلمة من بعثة سيدنا محمد ﴿صلى الله عليه وسلم﴾ إلى آخر هذه الأمة التي ستبقى إلى قيام الساعة، وهذا التاريخ هو تاريخ دين وعقيدة قبل أن يكون تاريخ دول ومعارك ونظم سياسية، لأن العقيدة هي التي أنشأت تلك الكيانات من الدول والمجتمعات بنظمها السياسية والإدارية والتعليمية والاقتصادية بصرف النظر عما يقع من أخطاء أثناء التطبيق.



إضاءة

- حصل على الليسانس من كلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية بالرياض في تخصص التاريخ عام ١٣٩٢هـ.
- حصل على الماجستير عام ١٤٠٠هـ، والدكتوراه عام ١٤١٠هـ.
- عمل وكلاء كلية الشريعة والدراسات الإسلامية ثم عميداً لها في جامعة أم القرى - مكة المكرمة.
- يعمل حالياً أستاذاً مشاركاً في التاريخ تخصص دقيق «السيرة النبوية ومناهج البحث» في قسم التاريخ والحضارة الإسلامية بجامعة أم القرى.

المعرفة الذهنية إلى مهارات سلوكية تمارس في واقع الحياة.

وكل علم يتعلمه الإنسان ينبغي أن يسعى إلى تحقيق ثمرته وفائدته، وقوائد علم التاريخ كثيرة منها:
١ - تحقيق الأهداف التربوية في بناء الأمة وإعدادها أفراداً وجماعات، فإن التربية من خلال الأحداث والوقائع من أنجح وسائل التربية تأثيراً وقبولاً.

٢ - التعرف على السنن الربانية في الكون وفي الأنفس وفي بناء المجتمعات قال الله تعالى: [قد خلقت من قبلكم سنن فسيروا في الأرض فانظروا كيف كان عاقبة المكذبين].

٣ - التعرف على تاريخ البشرية، كيف بدأت؟؟ وما هي الأطوار التي مرت بها؟؟ وما أثر الأنبياء في هدايتها؟؟ وما هو أثر الدين الخاتم في حياة البشرية وترقيها ونظمها وعلوها؟؟.

٤ - تأكيد جملة من الحقائق الإيمانية المؤثرة في الحياة البشرية ومن أهمها:

- العلم اليقيني بأن توحيد الله هو الأصل في البشرية وأن الشرك والانحراف طارئ، وخاتمة، وأن الإنسان قد خلق في أحسن تقويم من أول خلقه مما يبطل النظريات التي تسلسل خلق الإنسان في مراحل وأطوار مختلفة حتى اكتمل خلقه، وكذا معرفته وديانته تطورت من تعدد الآلهة إلى التوحيد

أما المؤرخون المعاصرون من المسلمين فإن طائفة منهم تأثرت بالغزو الفكري الوافد واهتزت عندهم الثقة في الحضارة والتاريخ الإسلامي لأسباب عديدة منها:

١ - الجهل بحقيقة الدين الإسلامي وشموليته لكافة مناحي الحياة.

٢ - التأثر بالغالب الذي تفوق - بقدر الله - في الحياة المادية والنظم المدنية بعد حالة التخلف التي أصابت كثيراً من المناحي في حياة المسلمين.

٣ - الفصل بين الدراسات الشرعية والدراسات التاريخية والاجتماعية في مناهج التعليم مما أوجد الانقسام بينهما وجعل الدراسات التاريخية تختط منهجاً مستورداً في التحليل والتقويم وتبعداً أو تتجاهل مناهج المؤرخين المسلمين التي هي جزء من المنهج العلمي الشامل الذي بدأ خطواته الأولى علماء الحديث النبوي.

٤ - الشعور بالتبعية الفكرية وسريان الروح الانهزامية أمام الحضارة المادية المعاصرة ومناهجها الوافدة. والمنهج الإسلامي في كتابة التاريخ يستلزم من المؤرخين المسلمين وكافة المثقفين والمفكرين الذين يهمهم أمر الأمة ويسعون للإصلاح في مناهجها وطرق تفكيرها أن تتوفر جهودهم للقيام بعملين رئيسيين:

الأول: تحقيق الروايات التاريخية ونقدها وفق الموازين العلمية الصحيحة التي اتبعها علماء الحديث النبوي مع بعض الاستثناءات. السيرة الملائمة لنوع الروايات التاريخية ودرجة أهميتها للجوانب التشريعية أو لمجرد الاعتبار.

الثاني: صياغة التاريخ الإسلامي وتعليمه وفق التصور الإسلامي الصحيح ووضع أسس ومناهج صحيحة لتدريسه وفق التصور العقدي الإيماني والفهم السديد والمنهج العلمي الموثق.

ومن المعلوم أن فساد المنهج الذي يتلقى به العلم يؤدي إلى فساد الثمرة المرجوة من العلم ولذا فإنه لا بد من استقامة المنهج العلمي حتى تحصل على ثمرة العلم وفائدته والعلم يقتضي العمل به ولا خير فيه إذا لم ينتج سلوكاً صحيحاً ويتحول من مجرد

التاريخ هو دراسة أحوال الإنسان وحرركته على الأرض ونتاجه المادي والفكري والنظر في تعاملاته المختلفة.

أو «اشتراكية»، أو «ماركسية»، أو «قومية»، بل هناك من قسّم الصحابة رضي الله عنهم إلى يمين ووسط ويسار فأسقط المصطلحات الواقعة على التاريخ الإسلامي وهي بعيدة كل البعد عن واقعه.

وحتى يكون تفسيرنا لحركة التاريخ الإسلامي صحيحاً وواقعياً فإنه يلزمنا معرفة وفهم العوامل التي شكلت

المجتمع ووجهت حركته وبناء تصورات وثقافته، وموازنة هذه الحركة بالأوامر والنواهي الشرعية حتى نعرف مدى الأثر الذي أحدثه الإسلام في حياة المجتمعات الإنسانية، ونذكر رحمة الله بهذه البشرية إذ أخرجهم برسالة الإسلام من الظلمات إلى النور ومن الظلم والجور إلى العدل ومن الخوف والقلق إلى السعادة وطمأنينة الإيمان.

والمنهج الإسلامي يستمد نظريته من أصول الدين ومصادره فهو ليس تفسيراً تبريرياً للحوادث وإنما يزن الأمور بمنظار شرعي يبرز خصائص الإيمان وطمأنينته، وليس تفسيراً مادياً يحصر المؤثرات في العوامل المادية وحدها كما في الفكر الغربي، ولكنه يجعل الإنسان أمام مسؤوليته عن التغيير الاجتماعي والتاريخي في إطار المشيئة الإلهية.

ولذا فإن منهج كتابة التاريخ الإسلامي له خصائص تميزه عن غيره من المناهج فهو متميز في التصور والمفاهيم، كما أنه متميز في منهج التوثيق وإثبات الحقائق، وكذا في منهج تفسير الحوادث، ولابد من ملاحظة العناصر الفاعلة في الحدث التاريخي والتي من أهمها الإنسان الذي هو محور الحركة التاريخية والفاعل الأساس لها... من هو؟؟ وما وظيفته في الحياة الدنيا؟؟ وما مصيره بعد الموت؟؟

فيما يزعمون. وهذا مناقض لنصوص الوحي وحقائق التاريخ.

ومن الحقائق المعروفة بأن الإنسان مستخلف في الأرض لعبادة الله وبهذا يتسق مع نظام الكون الذي يسبح الله، وإذا خرج عن عبادة الله أصبح شاذاً عن نظام الكون وعبواً له، وهو بحاجة إلى من يذكره بوظيفته وردة إلى الصواب فكانت دعوات الرسل وتتابعهم لهذه الغاية حتى يعود الإنسان إلى أصله واستقامته.

والمنهج في الدراسات التاريخية يعني القواعد والشروط التي يجب مراعاتها عند معالجة الحدث التاريخي سواء بالكتابة أم بالدراسة والتعليم، وهي تتناول الكاتب أو المعلم كما تتناول المصادر التي يستمد منها وتُعنى أيضاً بالغاية كما تُعنى بالأسلوب والمصطلحات.

والمنهج يراد به التصورات والمبادئ التي يلتزمها الباحث، كما يراد به طريقة معينة في البحث العلمي.

ولابد للباحث المسلم من الالتزام بالمنهج الإسلامي في منطلقاته وتصورات. وأن تساعد كتابته على بناء العقيدة الصحيحة وقيمها التربوية والخلقية، فالباحث الأمين ليس له مطلق الحرية في اتخاذ المواقف وتفسير الحوادث كما عن له الخاطر إنما هو مقيد بالقواعد الشرعية والأصول العلمية المتبعة في إثبات الأخبار وردها، فليس له أن يتهم أجداً بناءً على رواية لم يتأكد من صحتها وعدالة روايتها واتصال سندها، ثم إذا ثبت الرواية فإن هناك قيوداً شرعية وخلقية يلزم مراعاتها في نقد الأشخاص وملاحظة مقاماتهم ومكانتهم كأن يكون أحدهم من الصحابة أو من الأئمة الذين استفاضت عدالتهم، كما أن الكلام في عموم الناس له حدود وضوابط فلا يتكلم الباحث إلا بعلم وعدل.

ولهذا فإن من لوازم المنهج العلمي في كتابة التاريخ أن يكون الباحث ذا تصور سليم وعقيدة صحيحة ودراية بعلوم الشريعة وفقهها إضافة إلى تمكنه من تخصصه في علم التاريخ حتى لا يكون التاريخ ألغوية بأيدي عشرات المناهج والأهواء، حتى وجدنا من ينظر إلى التاريخ الإسلامي نظرة «ليبرالية»

المسلمين الذين يصيبون ويخطئون وإنما توزن أعمالهم بأحكام الشرع المتقاة من مصادره في الكتاب والسنة، وكما قال الإمام مالك: كل يؤخذ من قوله ويترك إلا النبي (صلى الله عليه وسلم) وهناك قاعدة مهمة وهي أهمية النظر إلى السنن الربانية وأثرها في تفسير التاريخ.

٢ - قواعد في المصادر :

لابد للمؤرخ أن يعتني بالمصادر ويرتبها الترتيب الصحيح وفق معايير علمية وتقنية كدرجة الثبوت والثقة في المصدر والقرب من الواقعة، فيقدم ما هو أوثق ثبوتاً كالتنقل المتواتر ثم ما هو أقل من ذلك، وتقدم رواية من كان الصق بالخبر على غيره... وهناك قواعد عامة يجب ملاحظتها من اعتماد المصادر الشرعية في مسألة تفسير الحوادث وفلسفتها، وعدم الثقة فيما يذكره أهل الكتاب لثبوت دخول التحريف إلى كتبهم، وكذا معرفة حدود الأخذ من كتب المبتدعة والمخالفين، وضوابط الأخذ من كتب غير المسلمين، مثل الدراسات الإستشراقية، وما هي الشروط الواجب توفرها في المؤرخ من العدالة، وال ضبط، وفقه الحدث التاريخي.

٣ - قواعد في أسلوب العرض :

الأسلوب هو الأداة التي يعرض بها المؤرخ موضوعه فيحتاج منه إلى مزيد من العناية في انتقاء الألفاظ وحسن الصياغة ومراعاة مقتضيات العقيدة... يبرز الأهداف والغايات، ويحبس الخير للناس، ويثني على المواقف الحسنة، ويثبه على المواقف السيئة حتى لا تتخذ سنة كما أن المصطلحات من أهم الأمور التي يجب مراعاتها في الصياغة وأسلوب الكتابة لأن المصطلح عادة يتشأ في بيئة تؤثر في صياغته ودلالته، فالمصطلحات التي نشأت في بيئة وثقافة غير ثقافتنا لا يصح استخدامها في تراثنا وعلمنا وإن كان لبعضها بريق ولعان مثل الحرية والمساواة، والتعاون العالمي والإخاء، والديموقراطية... الخ.

لأن المعرفة بهذه القضايا وفق المنظور الإسلامي لها أثرها في تفسير الحوادث والنظر إليها، فمثلاً هناك نظريات شاعت في أوروبا عن أصل الإنسان ونشأته وأنه لم يخلق على هذه الصورة من أول مرة وإنما من عمليات تطورية طويلة المدى... الخ.

وهذا يوحي بأنه وجد صدفة وليس لخلقها غاية، ومادام أن أصله حيوان كما تزعم تلك النظريات فهو غير ملزم بالأخلاق والقيم والتعبد لله والالتزام بشريعة.

ومنهج كتابة التاريخ الإسلامي له قواعد وأصول يجب مراعاتها في معالجة الموضوعات التاريخية كتابة وتالياً أو درساً وتعليماً، وبعض تلك القواعد واضحة وبديهية ولكن يقع البعض في تجاهلها أو الخطأ في فهمها بسبب القصور الحاصل في فهم العقيدة والشريعة على وفق الكتاب والسنة. وتلك القواعد على ثلاثة أصناف :

١ - قواعد في التصور والاعتقاد :

مثل الإيمان بوحدة الأمة ووحدة تاريخها، والموقف الشرعي من تراث الأمم الجاهلية ومخلفاتها الحضارية، والفهم الصحيح لعقيدة القضاء والقدر إذ المسلم الذي يؤمن بقضاء الله وقدره لا ينظر إلى التاريخ على أنه قوالب جامدة من الأسباب والمسببات بل يراه حركة متجددة ومتغيرة مما يدل على

قدر الخالق وتبديره الذي يكون فوق كل الأسباب: ومن قواعده الإيمان بالغيب وأثره في توجيه الحوادث وتفسيرها وأيضاً معرفة منزلة الصحابة وحققهم على الأمة، ومن القواعد المهمة التفريق بين أخطاء البشر وأحكام الإسلام، فوقائع التاريخ الإسلامي هي فعله

التفكير في أحوال المدينيات والدول، وعوامل بنائها وأسباب سقوطها.

التاريخ . المؤرخ . المصادر . التفسير التاريخي

استعراض نقدي للمشكلة

ويوجد لبس في اللغات الأجنبية الحية مثل الفرنسية والإنكليزية والألمانية حول مصطلح التاريخ فهي تستعمل الألفاظ التالية: (His-) (History) (Geschichte) (torie) للمعتين على السواء أي حوالب الماضي وأحياناً أخبار هذه الحوادث أو العلم الذي يحققها، ويقول المؤرخ السيد عبد العزيز سالم أن لفظة (التاريخ) عند العرب لم تكن تطابق كلمة ((History عند الأوروبيين، لأن القضايا الفلسفية المتصلة بفكرة التاريخ هي من تطورات الفلسفة الحديثة، وهي تختلف كلية عن مفهوم التاريخ عند العرب (انظر: قاسم يزبك، مصدر سابق، ص ٧ والسيد عبد العزيز سالم مصدر سابق ص ١٩).

وكانت فكرة الوقت وتحديده في المجتمع العربي قبل الإسلام غير محددة ومشوشة، وكان العرب يؤرخون بكل عام يكون فيه أمر مشهود متعارف عليه، مثل عام نزول اسماعيل مكة، وعام وفاة كعب بن لؤي وعام الفيل الذي ولد فيه الرسول [صلى الله عليه وسلم]، وأرخ العرب أيضاً بالأيام المشهورة كحرب البسوس وذاحس والغبراء، ويوم ذي قار وبحرب الفجار.

ومنذ عهد الخليفة الثاني عمر بن الخطاب بدأ المسلمون تسجيل الأحداث بالتقويم الهجري، وذكر سيد عبد العزيز سالم عن السخاوي في كتابه (الإعلان بالتاريخ) كيف تم الاتفاق على هجرة الرسول [صلى الله عليه وسلم] بداية للتاريخ الهجري أو التاريخ العربي أو ما يعرف بالسنة

تطلق لفظة (تاريخ) على الماضي البشري ذاته، وتارة على الجهد المبذول لمعرفة الماضي ورواية أخباره، أو العلم المعنى بهذا الموضوع، وكلمة التاريخ من حيث الاصطلاح تعني الزمن والحقيقة، ويرد في دائرة المعارف الإسلامية بأن اصل كلمة (تاريخ) سامي ومشتق من (باريخ) العبرية بمعنى القمر أو (برخ) بمعنى الشهر، وعلى هذا القياس يكون معنى كلمة تاريخ هو التوقيت أي تحديد الشهر ثم اتسع نطاق هذا اللفظ فشمّل من جهة معنى تحديد عهد حادث ما، وبمعنى التاريخ أي رواية هذا الحادث، ومن جهة أخرى بمعنى تحديد الوقت أو العصر أو التاريخ المدون بحسب السنين، وترى مصادر أخرى أن لفظ (تاريخ) مشتق من اللفظ الأكدي (أرخو) ويذهب بعض المؤرخين إلى أن لفظ (تاريخ) تعريب لكلمة (ماء روز) الفارسية ومعناها حساب الشهور والأيام أو التوقيت حسب القمر (انظر: قاسم يزبك، التاريخ ومنهج البحث التاريخي، دار الفكر اللبناني، بيروت ١٩٩٠م ص ٧-٨) وموجز دائرة المعارف الإسلامية، مركز الشارقة للإبداع الفكري ١٩٩٨م، مجلة رقم ٧ ص ٢١٠٤ والسيد عبد العزيز سالم، التاريخ والمؤرخون العرب، مؤسسة شباب الجامعة، الإسكندرية، ١٩٨٧م، ص ١٧ - ١٨).



إضاءة

- رئيس جامعة صنعاء.
- من أوائل المؤسسين لجامعة عن.
- له العديد من المؤلفات في تاريخ اليمن، وخاصة تاريخ حضرموت المعاصر.

يتركوا جانباً من جوانب النشاط الإنساني القديم والمعاصر لهم إلا سجلوا تاريخه ولذلك حفلت مصنفاتهم بجوانب متعددة من أحوالهم المعاصرة فلم تخل كتبهم من معلومات جغرافية واجتماعية واقتصادية مما يمكن أن يؤلف تاريخاً للحضارة العربية الإسلامية المختلفة. وكثير من رواد علم التاريخ هم رواد لعلم الجغرافيا (مثل ابن بطوطة والمسعودي وغيرهما) وكان التاريخ والجغرافيا في نظر العرب فرعين متلازمين من شجرة المعارف التي كانوا يسمونها (الأدب) بوجه عام (انظر: قاسم يزك، مصدر سابق، ص ٩).

لقد أخذ المسلمون فكرة التاريخ عن عرب الجنوب فقد اهتم عرب الجنوب بأمر التوقيت لعوامل عديدة منها الزراعة التي تخضع لتقلبات الجو والأعياد والشعائر الدينية التي لها ارتباطاً بضبط الوقت ومنها التجارة في البحر والبر وقد ورد لفظ (وزخ) في النقوش العربية الجنوبية. وسجل عرب الجنوب في نقوشهم الكثير من أخبار حياتهم السياسية والتجارية والدينية، ومن أشهر النقوش اليمنية المتضمنة أخبار تاريخية (نقش النصر) الذي سجل فيه ملك سبأ (كرب آل وتر) أخبار معاركه مع مملكة أوسان ومع دولة معين وضم أراضي أوسان ومعين لمملكة سبأ. وبعد دخول اليمن في الإسلام والدولة الإسلامية انتعشت كتابة التاريخ في اليمن وازداد الاهتمام بكتابة التاريخ في عهد الدول الإسلامية

القميرية بنقل نص النقاش الذي دار بين الخليفة وبعض المسلمين لتحديد التاريخ وهو قوله «ضعوا للناس تاريخاً يتعاملون عليه وتصير أوقاتهم مضبوطة فيما يتعاطونه من معاملاتهم فقال بعض من حضر من مسلمي اليهود، لنا حساب مثله نسندة إلى الإسكندر، فما ارتضاه الآخرون لما فيه من الطول، وقال قوم: يكتب عن تاريخ الفرس، فقيل إن تاريخهم غير مستند إلى مبدأ معين، بل كلما قام منهم ملك ابتدوا من لدن قيامه وطرحوا ما قبله، واتفقوا على أن يجعلوا تاريخ دولة الإسلام من لدن هجرة النبي (صلى الله عليه وسلم) من مكة إلى المدينة، لأن وقت الهجرة لم يختلف فيه أحد، بخلاف وقت ميله فإنه مختلف فيه، وكذا وقت ولادته، وأما وقت وفاته فهو وإن كان معيناً، فلا يحسن عقلاً أن يجعل الأصل لمبدأ التاريخ، إذن، وقت الهجرة، وقت استقامة ملة الإسلام وتوافد الوفود، وازدياد المسلمين، فهو مما يثير كُبه ويعظم وقعه في النفوس» (انظر السيد عبد العزيز سالم، مصدر سابق ص ٢١).

وكتب السيد عبد العزيز سالم نقلاً عن السخاوي أيضاً قوله: «إن هناك من يجعل أصل التاريخ الإسلامي مأخوذاً من اليمن استناداً إلى الرأي القائل بأن أول من أרך التاريخ يعلى بن أمية الذي كتب إلى عمر بن الخطاب كتاباً من اليمن مؤرخاً فاستحسنه عمر فشرع في التاريخ» (انظر السيد عبد العزيز سالم، مصدر سابق ص ٢١).

ومنذ وضع الخليفة عمر بن الخطاب تقويماً ثابتاً وهو التاريخ الهجري انتعشت حركة كتابة التاريخ عند العرب والمسلمين عامة. لقد اهتم العرب بعلم التاريخ اهتماماً بالغاً لئيلهم إلى معرفة مصائر الأمم الماضية وحوادث الأزمان السابقة فرووا أخباره وجمعوها ما استطاعوا من الروايات وألفوا فيه ولم

في أغلبه تاريخ حديث كبير بينما تجاوز الرومان هذا الإطار إلى فترات أطول وعلى مسرح الأحداث أوسع (انظر: أحمد محمود بشار، تفسير التاريخ منذ الفترة الكلاسيكية إلى الفترة المعاصرة، في مجلة عالم الفكر العدد ٤ إبريل/يونيو ٢٠١١م المجلد ٢٩ الكويت ص٥)، وتغيرت طريقة تفسير التاريخ وتقسيماته التي سادت في العصر الكلاسيكي لتحل محلها وتُسود أفكار القديس (أوغسطين ٣٥٤-٤٣٠م)، المبني على العقيدة المسيحية. فالزمن لم يعد مكرراً وإنما أصبح أحادي البعد مضطرباً ومتتابعاً لا رجعة فيه ويمتد من نزول (آدم عليه السلام) حتى يوم القيامة، وبدلاً من تقسيم الزمن إلى دورات كنا فعل اليونان والرومان قسّمه أوغسطين إلى ستة عصور متتابعة على نحو يرمز لأيام الخلق الستة. (انظر أحمد محمود بدر، مصدر سابق، ص: ١٠-١١).

وأدخل المؤرخون المسلمون تطويراً جديداً في مجال تقسيم التاريخ وتفسيره. لقد كتب هؤلاء التاريخ على نسق متتابع منذ بدء الخليقة وحتى عصر المؤلف ووجدت تقسيمات أخرى مثل التاريخ الحولي، أو حسب السنين، والتاريخ حسب الموضوعات، والتاريخ حسب الطبقات، والتاريخ حسب الأنساب.

ووصل رقيّ التفسير التاريخي لدى المسلمين بوضعهم قاعدة ناظمة للتطور التاريخي تندمج فيها منظومة من المسببات جغرافية وسياسية وسكولوجية وتسير وفقاً لها عملية تطور كل المجتمعات. وواضح هذه المنظومة هو عبيد الرحمن بن خلدون (توفي ٨٠٩هـ) في مقدمته المشهورة بمقدمة ابن خلدون وهي مقدمة كتابه (العبر في ديوان المبتدأ والخبر) لقد أشار إلى جوهر التاريخ بقوله: «إنه في الظاهر لا يدعو أن يكون مجرد أخبار عن الأيام والدول القديمة والأهم الماضية ولكنه في الباطن نظر وتحقيق وتعليل دقيق للكانات ومبادئها وهو يطلعنا على أسباب الوقائع

التي استقلت عن دولة الخلافة العباسية منذ نهاية عهد الخليفة المأمون وحتى سقوط آخر هذه الدول المستقلة وهي الدولة الطاهرية وذلك عام ١٥٢٦م.

ومن أبرز مؤرخي اليمن في عهد الخلافة الإسلامية أو الدول المستقلة: وهب بن منبه وعبيد بن شرية ونشوان بن سعيد الحميري وعمارة اليمني، أبو محمد، الحسن بن أحمد بن يعقوب الهمداني والخزجي، والرازي الصنعاني، وبامخرمة وآخرون.

لقد حاولنا في الصفحات السابقة تقديم عرض موجز لمعنى ومفهوم مصطلح التاريخ واهتمام العرب والمسلمين عامة بكتابة التاريخ، وفي السطور القادمة سوف نقدم لمحة تاريخية سريعة لراحل تطور موضوع تفسير التاريخ وتقسيمه إلى مراحل منذ عهد اليونان وحتى عصرنا الراهن.

يعتبر هيرودوتس بحق (أبو التاريخ) خاصة وأنه كان أول من أهمل تدوين الروايات المرتبطة بالآلهة والأبطال وانصرف إلى البحث وتسجيل وقائع الزمن الذي عاش فيه. ويعود الفضل إلى هيرودوتس بإضفاء معنى استقصاء علم التاريخ في كتاباته (انظر: قاسم يزبك، مصدر سابق، ص ٧-٨).

وفي الفترة الممتدة طيلة عصور اليونان والرومان والمسماة بالعصر الكلاسيكي كان القاسم المشترك بين الطرفين هو نسبة الأعمال التاريخية للإنسان وتفسير الأحداث بأسباب إنسانية لكنهما اختلفا بسبب اختلاف الظروف في مدى الإطار التاريخي فكان التاريخ عند اليونان

**** ماذا وكيف ولماذا حدث؟ ثلاثة أسئلة محورية لمن أراد أن يكتب التاريخ.**

**** ابن خلدون أول من طبق منهج البحث العلمي في الكتابة التاريخية.**

الثلاثي لجموعة (الإنسانيين) وهو: نور، ظلام، وعودة النور، ثم عدلت تسمية الفترة الوسطى في القرن السادس عشر من مصطلح (الظلام) إلى مصطلح (الوسط) .. ولتحقيق الإنسجام الفكري للعصر وتعيين واقع أوروبا الجديد عن الماضي تم تقسيم

التاريخ إلى ثلاث مراحل وهي: القديم والوسط والحديث. وهذا التقسيم هو الذي ساد لاحقاً (انظر: أحمد محمود بدر، مصدر سابق، ص ١٨-١٩).

وفي القرون الثلاثة الأخيرة للألفية الثانية أي من القرن الثامن عشر وحتى القرن العشرين ظهرت فلسفات عديدة لتفسير التاريخ وانتقاله من مرحلة إلى أخرى ومن أبرز هذه الفلسفات وأعلامها الأسماء التالية:

(١) جيوفاني باتيستا فيكو (١٦٦٨-١٧٤٤م): وهو إيطالي وقدم نظريته حول تفسير ومراحل التاريخ في كتابه (العلم الجديد في الطبيعة المشتركة بين الأمم): واعتبر فيكو الإنسان ليس مجرد عقل منض، وإنما عضو في جماعة، وبما أن العلوم الطبيعية لا يمكن أن تفسر تاريخه انطلق لتفسيرها من منطلق جديد اعتبره علماً وأنه مبتكره. عالج فيكو دخول الإنسان الى الحضارة وعلى أساس ما ورد في الكتاب المقدس عن بداية الخلق وحتى الطوفان .. ورأى فيكو أن الإنسانية تمر بعد ذلك بثلاثة مراحل هي: عصر الآلهة وهي مرحلة الطفولة

والأحداث وكيفية حدوثها» وتحدث عن فضل علم التاريخ وتحقيق مذهبهم فقال: «إعلم أن فن التاريخ غزير المذهب، جم الفوائد، شريف الغاية. إذ هو يوقننا على أحوال الماضين من الأمم في أخلاقهم، والأنبياء في سيرهم، والملوك في دولهم وسياساتهم حتى تتم فائدة الاقتداء في ذلك لمن يرويه في أحوال الدين والدنيا» (عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة تحقيق علي عبد الواحد وافي القاهرة ١٩٥٧م، ص ٢٠٨ وص ٢٥١)

وحدد ابن خلدون مواصفات ومتطلبات المؤرخ ومنها: اتساع المعارف، وحسن النظر، والتثبت، وعدم الاعتماد على المنقول، والإلمام بقواعد السياسة وطبيعة العمران، والاطلاع على طبائع الموجودات والإحاطة باختلاف الأمم والبقاع في السير والأخلاق والعوائد والنحل والمذاهب.

ويعتبر ابن خلدون أول من بحث من المؤرخين في الاجتماع الإنساني والعمراني ونظم الحكم والسياسة في العصر الإسلامي. وأول من طبق منهم منهج البحث العلمي في الكتابة التاريخية، فنظر إلى التاريخ العام الإسلامي نظرة شاملة واستخلص من الدراسات التاريخية السابقة عليه آراء جديدة في علم التاريخ ضمنها نظرات فلسفية تتضمن النقد والتحليل ما لم تعرفه مصنفات العرب في التاريخ قبله. ويطبق آراءه في فلسفة التاريخ عند تعرضه لدراسة تاريخ الدولة الإسلامية في المشرق والمغرب (السيد عبد العزيز سيال، مصدر سابق ص ٣٤).

وشهدت أوروبا في عصر النهضة تطوراً في الكثير من مجالات المعرفة ومنها كتابة وتفسير التاريخ وتحديد مراحلها. ففي هذه المرحلة تم التأكيد على مسار متصل بالنشاط الإنساني وتقسيمه إلى مراحل متميزة وتم اعتقاد الأساس

*** فيكو، رسم مساراً حلزونياً لتطور الأمم: يجمع بين الدائرة والخط المستقيم.

في حياة الإنسانية وتشمل عصر ما قبل التاريخ والثقافات البدائية، وعصر الأبطال وهي مرحلة الفتوة في حياة الشعوب حيث تحدث التغيرات بفعل الأبطال أشباه الآلهة ويظهر في هذه المرحلة مؤسسو المدن.

وعصر الرجال وهي مرحلة النضج والاكتمال

في حياة المجتمع إذ تتسم بنية التأسيس على مقتضيات العدالة برؤية عقل ناضج. ويرى فيكو أن المرحلة الأخيرة لا تدوم إلى الأبد بل تنهار بفعل الترف وبحب المال وظهور الطبقات وفساد النظم الاجتماعية. لقد رسم فيكو مساراً حلزونياً لتطور الأمم ويجمع بين الدائرة والخط المستقيم باعتبار أن التراجع فيه لا يعود لنقطة البداية (انظر: أحمد محمود بدر، مصدر سابق، ج ٢٣ - ٢٤).

(٢) فريدريك هيغل (١٧٧٠ - ١٨١٣م) :

هيغل فيلسوف ألماني مشهور صاحب نظرية (الديالكتيك أو الجدل) التي ابتدعها وفسر بها تطور التاريخ. لقد ميز هيغل بين سياق الطبيعة وسياق التاريخ باعتبار أن أحداث الطبيعة تكرر دون تطور فالفصول تتعاقب بانتظام ولا يوجد تطور بين حقبة وأخرى بينما لا يتكرر شيء بذاته في التاريخ. وهكذا يكون مسار التغير في الطبيعة دائرياً وفي التاريخ لولياً. ويتم التطور وفق آلية الديالكتيك التي ابتدعها هيغل وفقاً لثلاثة عناصر: الموضوع، نقيضه، مركب الموضوع المؤلف من كليهما. أما المحرك أو الدافع

للتغيير والتطوير فينبع من الإنسان نفسه الذي يشترك مع الحيوان في أشياء كثيرة ولكنه يتميز عنه بوجود العقل الذي يده على كيفية تأمين حاجاته وعلى تحقيق التطور.

(٣) داروين (١٨٠٩ - ١٨٨٢م) :

وهو صاحب نظرية النشوء والارتقاء وقد تم اعتماد هذه النظرية كأساس لتفسير التاريخ وذلك عبر إدخال التحولات البيولوجية والعروق في التطور التاريخي للشعوب، وعلى أساس التفسير العرقي قدم الباحثون نتيجتين: الأولى تقول إن الجنس البشري مستودع لأعراق كثيرة تتراوح بين أسفل المرتبة الدنيا وأعلى درجة في المرتبة العليا وهي التي أنتجت الحضارة الأوروبية ولكن هذه الأعراق أنهكت مما سيؤدي إلى انحطاط لا مفر منه.

والنتيجة الثانية وهي متفائلة وتعزز التقدم الأوروبي إلى تفوق عرقي، ووجدوا في ذلك تأكيداً للفكرة الداروينية حول الصراع من أجل البقاء وبقاء الأصلح وما دامت العروق الأوروبية هي الأصلح فالتقدم سوف يستمر (انظر: أحمد محمود بدر، مصدر سابق، ص ٢٧ - ٢٨).

(٤) كارل ماركس (١٨١٨ - ١٨٨٣م) :

وهو ألماني وإليه تُنسب نظرية التفسير المادي أي الاقتصادي الاجتماعي للتاريخ، وينظر ماركس إلى الاقتصاد لا على أساس أنه جانب فقط من جوانب الحياة بل الجانب الأهم الذي حكمت معطياته مسيرة الإنسانية منذ الأزل. كما لم ينظر للبشر كأمم بل كطبقات متناقضة، واستعار ديالكتيك هيغل ليجعل التطور يحصل من خلال صراع هذه الطبقات المتناقضة. وقسم ماركس تاريخ البشرية إلى خمس مراحل وهي المرحلة البدائية ومرحلة المجتمع العبودي والمرحلة الإقطاعية والمرحلة الرأسمالية والمرحلة

(٦) أرنولد توينبي (١٨٨٩ - ١٩٧٤م) :

ويرى توينبي (المؤرخ والمفكر البريطاني المعروف) أن الوحدات التاريخية ليست دولا أو عصوراً وإنما حضارات مثل حضارة أوروبا التي دعاها بالمسيحية الغربية، والحضارة العربية الإسلامية وغيرهما من الحضارات الأساسية في تقسيمه المعروف الحضارات، وتنشأ الحضارة عند توينبي من تحدي الإنسان للبيئة الصعبة، وأشكال التحديات كثيرة وتنمو الحضارة عندما يكون الرد على التحدي ليس قوياً وناجحاً فحسب وإنما يؤثر سلسلة تحديات ويتم الرد عليها بنجاح. وتقود النمو نخب أو أقلية مبدعة وتكون قدوة يتبعها أناس من المجتمع إما عبر المرور بتجربة مماثلة للتجربة التي مرت بها النخبة أو عن طريق محاكاتها، وهي الأكثر انتشاراً ويحسب النجاح أو الفشل في محاكاة النخبة تنشأ الطبقات الاجتماعية، ويرفض توينبي أسباب سقوط الحضارات بسبب الشيخوخة الثقافية أو بسبب الكوارث الطبيعية أو الحروب ويرى أن هذه نتائج وليست أسباباً لضعف وإنهيار الحضارات، ويقدم توينبي أسباباً أخرى لسقوط الحضارات ومنها انقلاب النخبة إلى أقلية قاهرة أو استعمال المؤسسات القديمة

***** داروين
جعل من
نظريته
(النشوء
والارتقاء)
أساساً لتفسير
التاريخ**

لعمليات جديدة أو الانحراف والضلال عن الاستثمار الملائم للرد الناتج ويرى أن مضير الحضارة إثر الانحطاط واحد من اثنين إما التجر أو التحلل إلى كيانات صغيرة (انظر: أحمد محمود بوز، مصدر سابق، ص ٣٤ - ٣٦).

الشيوعية والمرحلة الأخيرة تسبقها فترة تسمى بالعهد الاشتراكي وهي تمهيد لمرحلة الشيوعية التي هي مرحلة النهاية لصراع الطبقات والدولة ونهاية التاريخ وهي مرحلة أزلية لا نهاية لها وينعم فيها الناس كل حسب طاقته ولكل إنسان حسب حاجاته. ويرى ماركس أنه ليس بالضرورة أن تمر كل الشعوب بهذه المراحل في وقت واحد بل يحدث أن يصل شعب إلى مرحلة الرأسمالية في حين تكون شعوب أخرى ما تزال في المرحلة البدائية أو العبودية أو الإقطاع. وقدم لينين آراء بشأن إمكانية انتقال شعوب من مراحل ما قبل الرأسمالية إلى مرحلة تقترب أو تسير نحو المرحلة الاشتراكية، لقد احتوت الفلسفة الماركسية على بعض الأفكار والنظريات الاقتصادية الجيدة غير أنها كإفكار اجتماعية سقطت في التطبيق العملي فالاشتراكية كتمهيد للشيوعية انهارت في أقل من سبعين عاماً من تأسيس المجتمع الاشتراكي في ما كان يعرف بالاتحاد السوفيتي ودول أوروبا الشرقية (انظر: أحمد محمود بوز، مصدر سابق، ص ٢٨ - ٢٩). وفاديف ميخوف، الحضارة والتاريخ: دار التقدم، موسكو، ١٩٨٠م، ص ١٤٩ وما يليها).

(٥) أرنولد شبنغلر (١٨٨٠ - ١٩٣٦م) :

ويرى شبنغلر أن التاريخ هو قصة ما أسماه بالثقافات العليا وأقصى حد لعددها يصل إلى ثمان وهي: الهندية، البابلية، الصينية، المصرية، الكلاسيكية، العربية، المسيكية، الأوروبية. ومعيار تميزها هو حيويتها الخلاقة وإنجازاتها البارزة. ويرى شبنغلر أن لكل ثقافة شخصيتها المميزة التي تتعكس في منجزاتها ولا يحدث الاقتباس الحضاري والتفاعل أثرًا جوهرياً فيها. (انظر: أحمد محمود بوز، مصدر سابق، ص ٣٣ - ٣٤).

(٧) فرانسيس فوكوياما :

وهو أمريكي من أصل ياباني وقد بحث فوكوياما فكرة نهاية التاريخ عند هيجل وعند ماركس ولكن بطريقة مغايرة لما ورد في آراء الرجلين. لقد دون فوكوياما نظريته الحديثة في كتابه (نهاية التاريخ) الذي نشره عام ١٩٩٢م ونقله إلى العربية الدكتور حسين الشيخ.

لقد أعد فوكوياما كتابه (نهاية التاريخ) في مرحلة سقوط الاتحاد السوفيتي والمنظومة الاشتراكية المرتبطة به وبعض الأنظمة الدكتاتورية الأخرى في أوروبا وآسيا. ويرى فوكوياما أن هذا السقوط هو دليل على انتصار الديمقراطية الأمريكية والغربية ونظامها الاقتصادي وأن هذا هو نهاية التاريخ وبداية الحياة الأبدية للديمقراطية وأكد أن كل بقايا الدكتاتوريات في العالم سوف تنهار ليصبح للعالم نظام واحد وأن الاختلاف هو في زمن وصول هذه الأمة أو تلك إلى المحطة الأخيرة للتاريخ، ويقول فوكوياما في كتابه حول نظريته: «يمكن لنا أن نقول الآن إنه ليست هناك أيديولوجية ما يمكن أن تحل محل التحدّي الديمقراطي

التقدمي ويصدق هذا على أغلب أجزاء العالم الحديث... وحتى الذين لم يتبنوا الديمقراطية كمنهاج لهم سوف يتحدثون بلغة الديمقراطية من أجل تبرير انحراطهم في نظام عالمي أصبح الآن متيقفاً عليه. (فرانسيس فوكوياما)، نهاية التاريخ، ترجمة

*** التفسير المادي الاقتصادي الاجتماعي هو محور كتابة التاريخ عند كارل ماركس.

وتعليق حسين الشيخ: دار العلوم العربية، بيروت ١٩٩٢م، ص ٦١).

وتحدث فوكوياما عن الإسلام الذي يعتبره التحدّي الجديد للعالم الديمقراطي ويقول حول هذا الجانب ما يلي: «يبدو أنه من الممكن استثناء الإسلام مبدئياً على الأقل. من هذا الحكم العام حول الأيديولوجيات المتنافسة للديمقراطية فالإسلام يشكل أيديولوجية متجانسة ومنظمة مثله في ذلك مثل الديمقراطية والشيوعية مع دلالة الخاصة في الأخلاق ومذاهبه في السياسة والعدالة الاجتماعية. وقد هزم الإسلام في الواقع الديمقراطية الحرة في أجزاء كثيرة من العالم الإسلامي موجهاً تهديداً خطيراً للممارسات التحررية حتى في البلاد التي لا يمثل فيها قوة سياسية ذات بال. وقد شهدت نهاية الحرب الباردة في أوروبا تحدياً سافراً للغرب من العراق الذي يشكل الدين الإسلامي عاملاً في تكوينه الأيديولوجي. وعلى الرغم من الحديث عن جانبيه الإسلام العالمية إلا أنه تبقى الحقيقة الواضحة والأكيدة وهي أن هذا الدين ليس له أي جانبيه خارج المناطق ذات الثقافة الإسلامية. ويوجد حوالي بلون من البشر ذوي ثقافة إسلامية أي حوالي خميس العالم. إلا أنهم لا يستطيعون تحدي الديمقراطية الحرة الموجودة في بلادهم على المستوى الفكري أو النظري، وفي الواقع، فالواضح أنه بات ممكناً اختراق العالم الإسلامي على المدى الطويل. ويبدو أنه من أسباب إحياء الأصولية الإسلامية التهديد الذي أحسّت به هذه المجتمعات الإسلامية التقليدية بسبب اختراقها بالقيم والأفكار الغربية التحررية. (فرانسيس فوكوياما، نهاية التاريخ، مصدر سابق، ص ٦١ - ٦٢).

إن أفكار فوكوياما عبارة عن تبرير أيديولوجي لمحاربة الإسلام وقرصن الهيمنة الأمريكية على العالم وعلى وجه الخصوص البلدان النامية. وهي محاولة لطى تاريخ الحضارات ووضع تأريخ جديد هو تأريخ

توينبي يعتمد في قراءته للتاريخ على مدى نجاح النخب في تكوين المجتمعات.

من تطور للآراء
والتفسيرات للتاريخ
أصبحت بمثابة مدارس
أو فلسفات ومناهج
يحلل وفقها هذا المؤرخ
أو ذاك مادته التاريخية
ولذا لا نجد رؤية واحدة
للحدث التاريخي الواحد
بل أكثر من رؤية
وتفسير. (انظر:
محمود إسماعيل
إشكالية تفسير التاريخ

عند المؤرخين المسلمين، مجلة عالم الفكر، العدد ٤،
لعام ٢٠٠٠م، الكويت ص ٤١).

إن تفسير الحدث التاريخي أيضاً غير ممكن دون
الإجابة عن السؤالين الأول والثاني وهما ماذا حدث
وكيف حدث، والإجابة عن هذين السؤالين هي المادة
التاريخية التي يجمعها المؤرخ من المصادر.
وللمصادر كثرة ومتنوعة وتحتاج الى جهد كبير
لجمعها وترتيبها والتأكد من صحة محتوياتها سواء
كانت هذه المصادر مكتوبة أو مخطوطة أو شفهية أو
مصورة. وجمع المادة التاريخية من مصادرهما
يحتاج الى مساعدة علوم كثيرة مثل علم نقد الوثائق
وتحقيق المخطوطات وعلم الآثار وعلوم أخرى كثيرة
كالإحصاء وعلم الاجتماع وعلم اللغة. ولكل مرحلة
تاريخية مصادرهما والعلوم المساعدة الخاصة بها.

إن التأكد من صحة محتوى هذه المصادر أمر
صعب في كل المراحل التاريخية. ولكن أكثر
صعوبة بالنسبة لمصادر التاريخ الحديث والمعاصر
وعلى وجه الخصوص التاريخ الحديث والمعاصر
للدول النامية.

الامبراطورية الأمريكية وحضارتها.

لقد سجل مترجم الكتاب بعض التعليقات التي
تكشف وحشية وعدوانية أفكار فوكوياما ومنها :

- التناقض الداخلي الذي وقع فيه فوكوياما فهو
بشر بعالم جديد يتبنى الفكر الديمقراطي الليبرالي
وهو يشكل أو آخر يتبنى الفكر الشمولي الذي يجمد
التطور ويضعه في قوالب سلفاً وهذا يعني عودة
لفكر الشمولي ولكن من الباب الخلفي.

- التطبيق العملي للنظام الجديد الذي بشر به
فوكوياما يؤكد رفض هذا النظام الجديد للتعاضد مع
الآخرين ومثال على ذلك جوهر قضية البوسنة
والهرسك فهي ليست مشكلة تطهير عرقي بل رفض
الغرب وجود دولة إسلامية في قلبه حتى ولو كان
الإسلام هو الاختيار الحر لهذا الشعب.

- إن سياسة المجتمعات الديمقراطية الغربية منذ
سنوات هو التخلص من الملونين الغرباء في
المجتمعات الغربية وهذه السياسة هي عودة إلى
المجتمع القومي المطلق على ثقافة وعرقية واحدة أي
عودة إلى العنصرية والقومية العنصرية.

واختتم المترجم تعليقاته على كتاب (نهاية
التاريخ) بقوله: «في النهاية تظل نبوءة فوكوياما
مجرد نبوءة، مثلها في ذلك مثل نبوءة (هتلر) عن
(الرايخ الثالث) الذي سيعيش ألف عام، أو نبوءة
الأيديولوجية الماركسية عن (اليوتوبيا الموعودة) أو
نبوءة (شينجلر) عن (انهيار الغرب)». (انظر:
فرانسيس فوكوياما، مصدر سابق، تعليق المترجم،
ص ١٢ - ١٣).

حين يؤرخ المؤرخ لموضوع ما عليه الإجابة في
مادته المكتوبة على ثلاثة أسئلة وهي: ماذا حدث،
وكيف حدث؟ ولماذا حدث؟ محور الخلاف بين
المؤرخين هو الإجابة على السؤال الثالث فهذه
الإجابة هي ما يسمى بتفسير التاريخ وما سبق ذكره

التاريخ ودوره في الحفاظ على الهوية الإسلامية في عصر العولمة

مفهوم العولمة، هدفها، وتاريخ تطورها :

ولما كان التاريخ كما أسلفنا القول - تسجيلاً لحركة الحياة وإبداعاتها، فقد بات من الضروري التعامل مع الإيقاع السريع للعصر، خاصة وقد أصبح العالم كله كأنه قرية صغيرة بسبب ما حدث من ثورة كبرى في عالم الاتصالات وتقدم التقنية تقدماً هائلاً وتغير المعرفة. والتاريخ يؤكد أننا مع بداية الألفية الثالثة أصبحنا على أعقاب عصر جديد يطلق عليه اصطلاحاً عصر العولمة، أو نطلقاً في نظام عالمي جديد، أصبحنا نطالع فيه تقنية حديثة متقدمة أو ابتكاراً جديداً كل يوم. وبدأت الحدود والحواجز بين الدول تتساقط نتيجة هذا التقدم، وإذا كانت العولمة تقوم أساساً على حرية التجارة وانتقال البضائع، وتزايد التنافس بين الدول في كافة أرجاء المعمورة، فمسوف يتزايد ويتعاظم بالتالي دور التاريخ، لأن التنافس لن يستمر تجارياً فقط، وإنما سيتعدى الحياة الاقتصادية ليشمل الثقافات والحضارات.

وإذا كان هذا هو مفهوم العولمة، فمن الواضح أنه جاء نتيجة فكر اقتصادي «أنائي» بهدف سيطرة الدول الكبرى وتحقيق هيمنتها على العالم، بينما فكرة العولمة في الواقع فكرة قديمة حيث تمت في السابق في أطر جغرافية أصغر، مثال ذلك اليونان والرومان وسيطرتهما على أجزاء العالم القديم، ثم أعدنا نحن أبناء الأمة الإسلامية بعثنا من جديد،

صاحب التطور الحضاري الذي شهدته العالم في عصرنا الحديث تطور مماثل في مفهوم التاريخ وأسلوب تناوله ومنهجه، فالتاريخ - بلا شك - يحتل مكانة مرموقة في عصر يتميز بتقدم العلوم، ولقد بذل المؤرخون جهداً شاقاً في نقل التاريخ من مفهومه القديم المتمثل في الخطابات والأساطير إلى مفهومه الحديث القائم على دراسة التجربة الإنسانية بمعناها الشامل والبحث عن أسبابها الحقيقية في ثنايا التطور الحضاري للإنسان، فالتاريخ لم يعد مملوكاً للشعوب ذات الحضارة القديمة في الشرق الأدنى القديم والصين والهند، وإنما دخلت فيه جميع الشعوب واستعان منهجه بالعديد من العلوم لاستنباط الحقائق التاريخية المختلفة التي تعين على فهم حياة الشعوب وتجربتها عبر السنين، كما اتسعت مجالات دراسته وبحثه فأخذ من الشعوب والبيئة معاً.



إضـاءة

- مكتوبة في التاريخ.
- أستاذ ورئيس قسم التاريخ بكلية اللغة العربية والعلوم الاجتماعية والإدارية/ جامعة الملك خالد.
- رئيس تحرير مجلة بيار الصادرة من نادي أبها الأدبي.
- عضو اتحاد المؤرخين العرب.
- عضو جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون لدول الخليج العربية.
- شارك في عدد من المؤتمرات والندوات والمحاضرات والقائات التاريخية في المملكة العربية السعودية وخارجها.
- = مؤلفاته :
- اقتراعات المستشرق كارل بروكلمان على السيرة النبوية المطهرة.
- بحث في التاريخ والحضارة الإسلامية.
- الهجرات العربية إلى ساحل شرقي أفريقيا في العصور الوسطى وآثارها الاجتماعية والثقافية والتجارية حتى القرن الرابع الهجري.
- صفحات من تاريخ عسير.
- نشر عدداً وافراً من البحوث والدراسات الأكاديمية التاريخية في المجلات والدوريات العلمية، والمجلات العامة والصحف.

مع العولة يجدر بنا الإشارة - في إيجاز - إلى سلبيات وإيجابيات العولة، فالسلبيات عديدة. حيث نلاحظ أن نظام العولة يتطور ويتشكل باتجاه الأسوأ، مما يؤثر سلباً على النفس والصحة، وعلى الهوية وعلى الحضارة، فلا يلبي طبقاً لمفهومه الحالي تطلعات الأجيال البشرية والمجتمعات الدولية، وما تصبو إليه من أمن وعدالة وسلام للجميع، فتوجهات هذا النظام الجديد تتصادم مع كرامة الإنسان وحقوقه، وتكرس أسباب الفساد، سواء في البيئة أو في مجال العلاقات الدولية بين الشعوب.

فعلى سبيل المثال نلاحظ أن تحقيق الربح هو

ولكن دون أن نلث وراء تحقيق هيمنة استعمارية على الآخرين، فالإسلام دين عالمي، لم يأت إلى «شعب مختار» وإنما جاء للناس كافة مصداقاً لقوله تعالى (يا أيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم)، أي إنه دين ليشتعوب الأرض كافة، وليس ديناً عنصرياً.

كذلك شملت الثقافة الإسلامية أجناساً كثيرة أخرى غير العربية، وتمكن قوة هذه الثقافة في ديناميكيته وقدرتها على الانتشار في كل مكان من العالم، كما تمكن قوتها أيضاً في قدرتها على الاستمرار والتواصل عبر حقب التاريخ من الماضي إلى المستقبل. وهي التي ستكون سند الأمة الإسلامية الأولى في القدرة على الصمود ومعاشية أخطار عصر العولة.

فالثقافة الإسلامية هي القادرة وحدها على تحقيق نظام عالمي عادل يكفل للإنسان كرامته. وهذا واضح على امتداد صفحات التاريخ في تعامل المسلمين مع الأجناس الأخرى وأصحاب الديانات المخالفة - حيث تقدم هذه الثقافة القيم والمبادئ والمفاهيم الإسلامية القادرة على تحقيق العدل والمساواة بين كافة الشعوب - مما يتيح الحياة في بيئة سليمة تحقق للمجتمعات الدولية والأجيال البشرية تطلعاتها ورغباتها في تعايش عادل وأمن يستقل الجميع فيه بمظلة الرخاء والسلام.

فالتاريخ - كما هو معروف - ذاكرة أمة، وبما أنه هو الذي قام بتسجيل ملامح هذه الثقافة الإسلامية، فسوف يتمكن من تحمل مسؤوليته في عصر العولة حيث سينافس المتنافسين، وإن ينجح إلا أصحاب الريادة والقادرون على المحافظة عليها.

سلبيات عصر العولة ودور المسلمين في مواجهتها:
قبل الإشارة إلى علم التاريخ وقدرته على التعامل

الهدف الأسمى للشركات العالمية، حتى ولو جاء ذلك على حساب ضعف التوعية لدى جمهور المستهلكين لا سيما في الدول الفقيرة التي اصطلح على تعريفها بدول العالم الثالث.

ويتجلى التأثير السلبي هذا في ضعف المقدرة الاقتصادية لدول العالم الثالث ومنها الدول العربية التي لن تستطيع مجابهة المنافسة الاقتصادية للدول الأوروبية بسبب تواضع المستوى الاقتصادي العربي في ظل ضعف الإنتاج وعدم القدرة على الابتكار المتواصل، وتناقص الصادرات كمّاً

وكيفاً، ومحدودية التقنية العربية. والحقيقة أنه على مدار تاريخنا الإسلامي وجدنا أن التاريخ الاقتصادي للعالم الإسلامي قد حرص على عرض سبب وأوجه الازدهار التي تميزت بها بعض فترات تاريخنا الإسلامي، ومن هنا يمكن استخلاص الدرس للتعامل مع واقعنا الحالي.

ومما لا شك فيه أن العولة كما نراها الآن تهدد بالفعل أخلاقيات المجتمعات وخاصة الإسلامية، وتهدد الأجيال المستقلة بإكسابهم عادات وقيم وسلوكيات غريبة بعيدة كل البعد عن سلوكيات الإسلام، وتفرض فيهم أنماطاً معينة للحياة، حيث تحول المادة الصرفة لمحل القيم النبيلة والمواطف الإنسانية؛ وهذا يأتي الدور السياسي للتاريخ، حيث يجب علينا أن نفرض قي أبنائنا حب التعرف على البطولات الإسلامية والدراسة بعمق لتاريخ الأنبياء والطبقات وغيرها وذلك يساهم في تأصيل روح الانتماء كما سنوضح بعد ذلك.

أما دور المسلمين في عصر العولة: (فلا حل إلا المراجعة):
مواجهة سلبيات العولة، والسؤال الذي يطرح نفسه بعد ما عرضنا من أفكار هو:

** العولة فكر اقتصادي أناني هدفه الهيمنة على العالم.

ماذا يجب أن نفعله في عصر العولة؟
لأنها أصبحت حقيقة فلا جدوى من الخوف منها، كونها صارت واقعاً لا مفر منه، لذا فإن الفبرورة الفكرية والثقافية والدعوية تجتم علينا، عربياً ومسلمين أصحاب تاريخ وخضارة وقبل هذا وذاك دين عالمي الإسهام فيها وإبراز دور الإسلام المؤثر والفاعل في تنمية وتطوير المجتمعات في كافة المجالات السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية، وإيجاد صيغة متوازنة بين مضمون العولة، وواقعنا العربي والإسلامي

والتاريخي. تحقق لنا ما يكفله الإسلام من حقوق الإنسان، وما يشتمل عليه من مساواة وإخاء وعدل وتسامح، وإبراز المفاهيم بالبعد التاريخي والفقهية والفكرية حول فكرة النظام العالمي الجديد على أساس مفاهيم الإسلام وقيمه وتعاليمه. وهذا يتطلب منا اليقظة والذكاء المتقد، ومن ثم لا نخشى من العولة، بما نملكه من رصيد تاريخي ضخم ومستنير.

وهناك أيضاً العديد من الخواطر والطول التي تساعد على النجاح في هذه المواجهة منها على سبيل المثال لا الحصر:

١- تربية روح الانتماء بين مجتمعاتنا العربية والإسلامية وهذا لن يتأتى إلا بدراسة أخيار السلف الصالحين وتاريخ العظمة على امتداد تاريخنا. ولذا من الضروري التعمق في استخدام علم التاريخ كأحد الأسس الرئيسة لحماية قيمنا وتراثنا وثقافتنا والعمل على تحديثهم. والتصدي لمساوىء العولة عن طريق زيادة الاهتمام برعاية الطفولة وفقاً للمعايير الإسلامية، وضمان الوسائل المؤدية إلى تحقيق رخائها المستقبلي وتقديمها.

رغم ذلك لها أيضاً إيجابياتها في ظل تساوي وتكافؤ الفرص.

١ - من الناحية الاقتصادية : سوف يعطينا النظام العالمي الجديد الفرصة لزيادة الصادرات للأسواق العالمية، ومن قبلها زيادة القدرة الإنتاجية وجودة المنتجات، كنا ستزيد الاستثمارات الأجنبية في بلادنا ويشترط لتحقيق هذه الإيجابيات تغيير وتطور الأداء في مجالات التفكير والإنتاج والسلوك، والعمل والتعليم والتقنية وبأقصى سرعة. لكي تتمكن من اقتحام سوق الاقتصاد العالمي، وهذا لا يتم إلا بالاعتماد على الأبنس العلمية الدقيقة، وهكذا ستحتم العولة على رجال الاقتصاد الاعتماد على مرآة التاريخ ليفهموا الجسديات الأخرى التي سيتعاملون معها سواء كانت أمريكية أو آسيوية أو أوروبية.

كما أن إعداد دراسة التاريخ الاقتصادي والتوسع والتعمق فيه يعد ضرورة لمواجهة التحالفات والتكتلات الاقتصادية الحالية وفهمها فهماً صحيحاً، كما أن هذه الدراسة سوف تؤهلنا لحماية الثروات الطبيعية لامتنا الإسلامية من أخطار العولة في ظل اتفاقية «الجات» ولن تتحقق هذه الحماية إلا بالمزيد من التقدم في مجالات الإنتاج وتحقيق السيادة الوطنية على منابع هذه الثروات في ذات الوقت : ولا ينبغي لنا أن نتغفل أيضاً إمكانية استغلال إيجابيات العولة في المجال الاقتصادي سواء عن طريق استغلال العولة في مجال التسويق وتبادل المنتجات بشروط مرضية، أو عن طريق التعامل مع قوى اقتصادية قد تختلف معها استراتيجياتها.

٢ - البحث على العمل والالتزام والنظام بوجود القدوة الصالحة لذلك.

٣ - الاهتمام بتربية الفتاة وتعليمها وتزويدها بأدوات الثقافة وأسلحتها اللازمة، حتى يدعم دور المرأة (نصف المجتمع) الأم، وبذلك نهيء لها القدرة على النجاح في إعداد الجيل القادر على المنافسة والزيادة في عصر العولة. والتاريخ - كما نعلم - يمدنا بالكثير من سير النساء المسلمات اللاتي أدين دوراً مبرزاً في مجتمعاتنا الإسلامية في الماضي والحاضر، فلنحرص على تلقين الفتاة هذه السير الرشيدة.

٤ - الاهتمام بتدريس التاريخ الاجتماعي للأمة الإسلامية، وكيف اهتم المسلمون بالتنظيم الاجتماعي للأسرة وحرصوا حرصاً كاملاً على حماية تلك الوحدة الاجتماعية الأولى والرئيسة في المجتمع من منطلق أن في صلاحها صلاحاً للمجتمع بأسره.

٥ - الاهتمام بالدراسات الاقتصادية في تاريخنا الإسلامي، حيث إن الإسلام من خلال النظام الاقتصادي الذي نهجه المسلمون، أثبت ريادتهم على العالم المعروف آنذاك ولستين عنيدة، ومما حققه هذا النظام من تكافل اجتماعي باتباعه نظام الزكاة والخراج وبيت المال لرعاية غير القادرين وغير ذلك جعله نظاماً رائداً.

*** النظام الاسلامي هو القادر على ترسيخ عدالة تكفل للانسان كرامته.

إيجابيات عصر العولة وذور التاريخ في الاستفادة منها :

ويرغم السلبيات التي أوضحناها وبيننا كيف تهدد الهوية الإسلامية، وأبرزنا أن هذا التهديد لا يأتي إلا بتقاعسنا، وحيداً الأطر الرئيسية التي يمكن من خلالها مواجهة هذه السلبيات. فإن العولة



ودراسة بوعي وعمق ما تعكسه نروس التاريخ حتى يمكنها التعامل مع مختلف القوى السياسية في العالم وبخاصة تلك التي تختلف عنها ايدولوجياً.

أهداف تدريس التاريخ في عصر العولمة :

(١) تزويد الدارسين بالمصانق والمعلومات والنظريات والقوانين التاريخية بصورة تحقق أهداف التاريخ. ووفقاً لتطور مفهوم التاريخ من مختلف جوانبه على النحو الذي سبق وأوضحناه.

(٢) تدريب الدارسين على الأسلوب العلمي في دراسة التاريخ وإجراء البحوث المتصلة به، وخاصة أن الدارسين في الجامعات يكونون قد بلغوا درجة من النضج الفكري يساعد على ازدياد قدراتهم على الفهم والاستيعاب والتحليل وإدراك العلاقات والربط بينها واستنباط النتائج، والقدرة على الانتفاع بدراسة الظواهر التاريخية دراسة تساعد على تفهم حاضرهم والتخطيط لمستقبلهم والاستفادة من خبرات الأجيال السابقة.

(٣) ترسيخ وغرس القيم الروحية والمفاهيم الدينية والأخلاقية والسياسية التي يحتاج إليها الطالب في أثناء دراسته، كما يجب أن نضع في الاعتبار أن

أفضل حصانة للإنسان المسلم ضد سلبيات العولمة هو التعاون من أجل تشكيل الإنسان القوي القادر على فهم محتويات العولمة والتعايش معها والأخذ بإيجابياتها وتجنب سلبياتها.

(٤) أن يشارك المواطن الصالح الفاعل في مجتمعه بال رأي والفكر السديد ويتكوين رؤية تاريخية لدى الطلاب مستمدة من استقراء التجارب والخبرات والمواظ والعبر فيستطيع الطالب انطلاقاً من هذه الرؤية التاريخية أن يخل ويبربط الأحداث، ويكون من خلال ذلك موقفاً

٢- من الناحية الحضارية : سوف تكون لدينا فرصة كبرى لعرض القيم والمبادئ الإسلامية ومفردات تلك العقيدة السماوية السمحة دون تزيّد أو تعصب، وتعريف العالم ما يمكن أن تقدمه تلك الشريعة الإلهية لإنقاذ البشرية الفارقة في أحضان الحياة المادية، وتوضيح أن الإسلام وما اشتمل عليه من تشريعات عامة قابل للتطبيق في هذا العصر وغيره من العصور، وسوف تواجه في سبيل توضيح ذلك الحجة بالحجة، والعقل بالعقل، ونستطيع أن نقيم حواراً متحضراً قائماً على أساسيات الدين الإسلامي، وأعماق الجذور التاريخية لمجتمعنا الإسلامي وذلك يتطلب منا إعداد المثقف المسلم الملم بالمأ كاملاً بالشريعة الإسلامية فكراً وعقيدة ليتمكن من التفاعل مع ميادين الحوار الثقافي العالمي ويكون قادراً على طرح وبلاوة المشروع الحضاري الإسلامي المعاصر، أو بمعنى أدق طرح تفاصيل الإستور الإسلامي وتعريف العالم بما ينطوي عليه مصطلح « النظام الإسلامي » في مقابل ما يسمى بالنظام العالمي الجديد « عصر العولمة » وذلك بتوضيح المفهوم الصحيح للإسلام وإزالة الغين عنه والدفاع عن شريعتنا إزاء افتراءات أعداء الدين عليها . وتأكيد أن الإسلام يمثل نقلة من قومية الأديان

المتنافرة إلى عالمية الدين الواحد وهو الإسلام لأهم متعارفة في حياتها متعاونة على الأمر بكل ما قد عرف خبره، وعلى استنكار كل ما قد عرف شره.

*** التاريخ قيمة عليها في نقل التجارب عبر الاجيال للافادة منها في صياغة حاضرهم ومستقبلهم *

٢- من الناحية السياسية : وذلك يتم عن طريق استخدام أمثل لما أتاحتته التقنية الحديثة من ثورة في عالم الاتصالات للإعلان عن قيمنا وأخلاقنا النابعة من الشريعة الإسلامية، وعرض تفصيلي لقضايانا العادلة، وذلك لأن يتم إلا من خلال إعداد كوادر إعلامية مبدرة

- ألم يصل الإسلام حتى الأندلس في أسبانيا؟

- ألم يصل المسلمون لأواسط أوروبا؟

فمن خلال التوحيد كانت سيادة المنهج الإسلامي، ومن التكافل الاجتماعي «الزكاة - الخراج - بيت المال» كان النظام الاقتصادي الإسلامي والتنظيم التجاري، ومن العدالة والشرف والمساواة كانت علاقات المسلمين بالقوى الأخرى.

فمن خلال حقائق التاريخ التي لا خلاف عليها يتجلى فضل العرب

والمسلمين على المجتمعات الأخرى في مجال العلوم، ثم تراجع هذا الأمر نتيجة ضغبات منعاول الآخرين مما أدى لانتهاء الحضارة الإسلامية الزاهرة فحجب الإسلام عن دوره الحضاري، فحدث الاضطراب وظهرت قيم تتناقض وبقطرة الإنسان السليم وطبيعة تكوينه الزباني وسادت الحضارة الغربية التي أبدعت في منجزاتها الحضارية المادية، لذا فمن الضروري تنمية البحث العلمي وتشجيع البحوث التطبيقية وإحداث طفرة في مجال التعليم حتى تلحق بركب التقدم العلمي.

الاتجاهات المعاصرة في تدريس التاريخ في عصر العولمة :

تطور مفهوم التاريخ من تاريخ الأفراد والقادة والبطولات إلى تاريخ الشعوب والأمم والظواهر الحضارية المختلفة في مجالات الحياة المعاصرة (اجتماعية واقتصادية وثقافية وغيرها) . وهذه القضية يطول شرحها، والحقيقة الأكثر شيوعاً - ومما درسته وتدرسه - أن التاريخ مرتبط بالشخصيات السياسية والقادة والعسكريين، وهذا مفهوم يجب

**** مفهوم التاريخ تطور من تاريخ الافراد والقادة والبطولات الى تاريخ الامم والشعوب ***

ورؤية واضحة لما يجري من حوله سواء في مجتمعه المحدود مما يساعد على إسهام الإيجابي في حل مشاكله، أو في المجتمعات من حوله فيستطيع من خلال دراسة وفهم سير الأحداث وتلاحقها واتجاهاتها أن يكون ملماً بكل جديد يحدث من حوله، ولا يتأخر ذلك إلا من خلال تزويد الطالب بالمهارات والقدرات والخبرات والمنهج العلمي.

إن رقي المجتمع وتقدمه رهن بنجاحنا في غرس صفات الخلق والابتكار والتحليل والمبادرة، والاعتماد

على النفس، فالعقلية العملية تتغلب على المشاكل وتقهّر الصعوبات، وتبني المجتمعات على أسس سليمة وتختصر الزمن فتقطع المسافات بأقل قدر من الجهد والوقت، وبذلك تنفك من أسر التخلف وتلحق بركاب الدول المتقدمة.

(٥) مد الشباب بالزاد المعرفي، والقدرة على الوقوف أمام التفسيرات الخاطئة والمضلة التي تحاول التشكيك في قدرات أبناء الأمة الإسلامية وذاتهم وماضيهم الحضاري.

(٦) ترسيخ وعي الطلاب بقضايا الوطن والعروبة والإسلام، وعدم الانبهار بكل فكر يأتي من الغرب، وإلا سنجد أنفسنا وقد استسلمنا لهذا الغزو الفكري الذي يهدف إلى تخريب ثقافتنا، ونسبة كل ابتكار وتجديد لحرره المسلمون غير حق التاريخ إلى الآخرين، بهدف تناسي ثقافتنا الإسلامية الأصيلة ودورها الزاهر في إثراء الحضارات العالمية التي نهلت منها، وقت أن كنا نعمل ونبتكر.

ولعل انبهارنا الآن بفكرة العولمة أحد مظاهر هذا التأثير رغم أننا نحن المسلمين من أوائل من امتلكوا مقومات التميز والعولمة.

ب- قدرة المؤرخ على مساندة تقنيات العمل وفهم متغيراته، والإلمام بمبادئ القدرة على تحسين المنتج العربي ومنافسة المنتج الأجنبي.

ج- الإلمام بتطوير مفهوم الربح والتسويق بما يتماشى مع عصر العولمة ورغبتنا في إيجاد موطئ قدم في هذا العصر.

د- حب الأمة الإسلامية على استقطاب القدرات ورعايتها.

هـ- الأخذ بأساليب التطوير والتعليم والتدريب وتطوير الإدارة.

وبما يلاحظ أن التخصص في التاريخ قد فهم عند بعض الدارسين والمثقفين بطريقة خاطئة، وأنه يقتصر على التعمق في دراسة مجال معين في حقبة زمنية محددة قديماً أو وسطاً أو حديثاً، دون الحاجة إلى توافر الخلفية الثقافية اللازمة لوضع هذا المجال الدقيق أو التخصص المعين في إطاره العلمي السليم، وإدراك علاقاته بغيره من الدراسات والموضوعات التي يتضمنها التاريخ في تكامل وثيق، ويمكن القول عن العملية التربوية الآن إنها علم وصناعة تزود الجيل الصاعد بالقدرات والمهارات التي تمكنه من تطوير الجماعة إلى مستوى أعلى وحياة أفضل، والتاريخ بمفهومه الحديث هو من أقوى وسائل التربية الحديثة في تحقيق وظيفتها لتحقيق حركة الجماعة نحو ما هو أفضل، ويجب الوضع في الاعتبار دائماً أن الحياة العملية والعلمية - كما نرى الآن - دائمة التغير والتطور عصباً بعد عصب، ولابد أن يعطى التعليم قيمة تلك الحياة، فكما تطورت، تطور بمقدار تطورها، وإن لم نفعل ذلك نشأت فجوة بين أوضاع الحياة الواقعة من جهة وبين الشباب المتعلم من جهة أخرى، وبالتالي سيعيش حيشد واقعاً مختلفاً تجاوزته الأحداث فلا يستطيع التكيف معها ومجاراتها، ولا تستطيع المجتمعات الاستفادة من علمه الذي سيتحول إلى قيمة

علينا تجاوزه وليس معنى ذلك إنكار دور الفرد وأثره في التاريخ، ولكننا نقول إن الفرد أو شخصية البطل من صنع مجتمعه، وإنه نتيجة حتمية للقوى الفاعلة في المجتمع وظهوره يأتي استجابة لحاجات اجتماعية سواء كانت دينية أو سياسية أو اقتصادية أو عسكرية، إذن يجب دراسة القوى الاجتماعية والتحديات التي واجهتها الأمة فانبثق عنها ظهور البطل وفعالته ومجال تأثيره.

والخلاصة أنه يجب دراسة التاريخ على أسس فلسفة أحداثه أو الرؤية المعاصرة التي تسلم بأهمية الشعوب التي تنسب إليها أحداث التاريخ، فالشعوب هي التي صنعت التاريخ وتصنعه، فالزعيم أو الفرد أو البطل أو القائد، ليس إلا ظاهرة اجتماعية فلا حين في زعيم ولا أمل في نجاحه إلا إذا كان ممثلاً للأمة معبراً عن إرادة أبنائها.

وقد أصبح مفهوم التاريخ ضرورة ملحة حاضراً ومستقبلاً بفعل سطوة عصر العولمة الذي من الممكن أن يكون أحد سلبياته صبغ الثقافة بصبغة واحدة وفرض ثقافة واحدة من الثقافات على الدول التي ستتناقص عن مجازاة السياق وإن تجد لنفسها مكاناً في هذا العصر، لذا بات من الضروري على الأمة الإسلامية تطوير مفهوم الثقافة بوجه عام والتاريخ بوجه خاص، وتحديث كل الأسس الضرورية لعملية التنمية، وتطوير السلوك الاجتماعي، وأساليب العمل وممارسة الحياة الفاعلة، وحماية الأسس الرئيسة لثقافتنا، وتدعيم الوحدة الاجتماعية الأولى في المجتمع وتعني بها الأسرة المسلمة ورعاية الطفولة وضمان الوسائل المؤدية لضمان مستقبل زاهر لها.

ويمكن تلخيص هذه الاتجاهات في الآتي :

أ - القدرة على التحليل واستخلاص المتغيرات الاقتصادية والسياسية والثقافية والاجتماعية والتشريعية للعالم الخارجي.

عصر العولة الذي يستند على كل مقومات المجتمع في سبيل النهوض بمستواه.

تطوير أسلوب تدريس التاريخ في جامعاتنا:

إن التدريس فن قائم بذاته، مكوناته الموهبة والرغبة الى جانب المادة العلمية ولهذا نختلف كلنا في طريقة تدريسنا

للطلاب. والحقيقة أننا ندرس التاريخ لطلابنا لكن كيف؟ هل سألنا أنفسنا هذا السؤال، وأعتقد أنه سؤال مهم لأن مناهجنا مختلفة ووجهات نظرنا مختلفة أيضاً، ولكن يجب الاتفاق على الحد الأدنى من منهجية تدريس التاريخ، ومهامية التاريخ الذي ندرسه، ثم بعد ذلك الاتفاق على الحد الأدنى للمنهج أو الطريقة التي ندرس بها، والكثير من المشتغلين في تدريس التاريخ ينهج المنهج السريدي، ويقضي جل محاضراته أو محاضراته يتحدث عن معركة كذا أو قائد كذا، أو مؤامرة كذا، ومن ثم يحشو أدمغة الطلاب أو الدارسين بكلام عندما نمنع النظر فيه وتقييمه لا نخرج نحن ولا الطلاب بثمرة تذكر.

إن ما الفائدة من تدريس التاريخ؟ هذه الطريقة تنفر الطلاب من دراسة التاريخ باعتباره قصصاً، وللأسف هذا هو مفهوم التاريخ عند كثير من الطلاب. وإن عملنا بهذه الطريقة بقصد أو بغير قصد يؤدي لترسيخ هذا المفهوم في الأذهان، فيجب تحديد الهدف العام والهدف الخاص لكل محاضرة من المحاضرات قبل البدء فيها، وهل نريد أن نرسخ قيمة معينة ومعلومات تاريخية معينة، وهل هذا يتم عن طريق السرد؟ فنقول حيث كذا في عام كذا، هذا ليس المطلوب، الذي يطلبي التاريخ قيمته ونقله ووزنه وأبعاده ومعانيه. تحليل الحدث وتعليل الظروف والملايسات السياسية والاقتصادية والاجتماعية

** المؤرخ قارئ ذكي للأحداث.

سلبية لا تتفاعل مع الواقع.

ولعل الدراسات القرآنية هي أقرب الدراسات التي يمكن أن نسوقها كمثال بارز في هذا المجال، فعلاوة على إعجاز القرآن الرباني، فهو يحتوي على آيات تنبه الإنسان الى ضرورة بذل الجهد لتحصيل العلم وتطويره (وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون)، وقال تعالى:

{يا معشر الجن والإنس إن استطعتم أن تنفذوا من أقطار السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلا بسلطان}، والنفاذ هنا بمعنى العلم المشروط بتوفيق الله سبحانه وتعالى للعلماء.

وقد حث الدين الإسلامي على استخدام منهج البحث السليم وصولاً الى الحقيقة فيقول الله تعالى: {يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وقولوا قولا سديدا}، فالسداد في القول والفكر، وإعمال ملكة التأمل وادخال المعلومة دائرة التحليل من الشروط اللازمة للبحث العلمي. وقد سبق أن استخدم سيدنا ابراهيم عليه السلام منهج الإبداع والبحث والتأمل للوصول الى اليقين. كما اعتمد القرآن الكريم منهج الاستنباط في العلوم النظرية، مثلاً اعتمد منهج التجارب العملية في العلوم التطبيقية للتأكد من سلامة النتائج فيقول الحق سبحانه وتعالى: {أفلا ينظرون إلى الإبل كيف خلقت وإلى السماء كيف رفعت، وإلى الجبال كيف نصبت، وإلى الأرض كيف سطحت}، وغير ذلك من آيات تنبه الإنسان الى ضرورة استخدام العلم والجهد والمثابرة في سبيل تطويره من أجل رقي المجتمعات والإيمان بقدرة وودانية الخالق.

وفي ضوء هذا الفهم الموضوعي لأبعاد التاريخ وأهمية دراسته وتدريسه، والقائدة التي تعود على المجتمعات من وراء ذلك، يمكننا التعايش باقتدار مع

والفكرية والروحية التي حدثت في إطارها الذي يعطي الحدث معنى وجوهراً.

خاصة وأن هناك كثيراً من حالات الغموض التي تسيطر على بعض الوقائع التاريخية مما يوحي أحياناً بأنها لا تتمشى مع سياق زمانها، لذا يجب إمعان النظر والتمحيص والتأمل؛ كذلك هناك حالات أخرى دفعت فيها الحقيقة التاريخية في محذور تأثير العنصر الشخصي والابتعاد عن الموضوعية والانسحاق وراء الهوى، ومن ثم أصبح من الضروري تربية طلابنا الدارسين في مجال التاريخ تربية علمية سليمة تتفادى الوقوع في الفهم الخاطئ لهذه الحقائق.

كما ينبغي علينا أن نؤكد لطلابنا عدم إمكانية التسليم النهائي بصحة أحداث التاريخ بغير أثر تاريخي، وبدون سند أو وثيقة، وما بعدها ثم ندرّب أبنائنا على استخدام أسلوب المنهج العلمي والدليل المادي للأحداث التاريخية.

وبهذا فالتركيز على تدريس التاريخ لا يكون للحدث التاريخي وحده وإنما الظروف التي صاغت الحدث، وهي التي تجعل الحدث مفهوماً وتجعل له معنى، لأن الحدث نفسه مجرد زمان ومكان.

والزمان قد يكون أزمنة والمكان أمكنة، وصنع القرارات واتخاذها قد تتعدد أماكنها وأزمنتها، وظروف اتخاذها، فلابد من دراسة كل ذلك وربط بعضه ببعض حتى تخرج الصورة متكاملة، والإنسان هو صانع الأحداث ودراسة الجوانب المختلفة في هذا الإنسان قد تلقي الضوء على ظروف الحدث وعليها كاساتده أن نقود الطلاب دائماً إلى طرح السؤال لماذا؟ وكيف؟ ونستغفرهم وطاقتهم وجهدهم الإجابة على لماذا وكيف، وبهذا نكون إبتعنا المدرسة التطيلية وهي بدون منافس الخيار الأول والأفضل في تدريس التاريخ.

فمشكلة تدريس التاريخ ليست مسألة كم وإنما هي مسألة كيف، ولذا فعلاج المشكلة ليس القيام بزيادة عدد المحاضرات أو عدد المقررات، ولا بتجديد المقررات بإضافة موضوعات جديدة، وإنما العلاج يجب أن يكون كينافاً أي متعلقاً بالكيفية التي نعالج بها المقررات، وكيف نشغل الوقت المخصص للمحاضرة أو المادة معاً، والواجب أن ندرس الموضوعات التاريخية التي تفسر الحاضر بالماضي عن طريق المقابلة والربط والتفقد وتفسير الحوادث والوصول من كل هذا إلى رؤية جديدة تعلم الطلاب بعض الحكمة.

وهكذا فاستخدام الأسلوب العلمي في تدريس التاريخ بجامعاتنا يعد الأساس الذي نستند عليه في مواجهة ادعاءات أصحاب القوميات المعادية لقوميتنا الإسلامية. خاصة وأن منهم على سبيل المثال من أبدع في تثوين وتطويع الحقائق التاريخية لخدمة أهدافهم مثلاً فعلت القومية العبرية التي قدمت إلى العالم ما يصل إلى يقين الحقيقة مستخدمة أسلوب السيطرة الإعلامية بشكل يصل إلى حد أن التاريخ أصبح يتعرض علناً لعمليات تزيف تحت سمع وبصر العالم دون أن يتحرك. لذا

فعلينا مسؤولية ضخمة لكي نتجاوز ضيق الفهم الذي نعاني منه في إدراك مسؤوليتنا في فهم التاريخ، ومعنى هذا أن التاريخ ليس درساً في الوطنية السلبية التي تقوم على الإعجاب بالماضي والفخر بما صنع السلف، ولكنه درس في الوطنية الإيجابية، لا التفتني بالأمجاد لنقف متحسرين على ضياع تلك الأمجاد، بل يجب أن نعلم طلابنا لماذا؟ وكيف حقق الأجداد تلك الأمجاد الماضية؟ وما هي الأسباب التي جعلتها تاريخاً مشرقاً؟ ثم ماذا يجب علينا أن نعمل كي نصل إلى ما وصلوا إليه؟ بل كيف نتفوق ونتجنب

** التاريخ ليس قصصاً، بل هو مواقف وعبر

سرعة تبجيل نظرة الغرب إلينا ومن أهم هذه المقومات ما يلي:

(١) الاهتمام بالعنصر البشري والنهوض به وفك قيوده وإطلاق مقوماته اجتماعياً وسياسياً... الخ.

(٢) التركيز على أهمية العنصر الاقتصادي والحرص على تعددية موارده وتوسيع مساحات تعامله والعمل على استقراره.

(٣) توسعة وتحديث الفكر والثقافة وبعث أجواء التسامح والتقارب الفكري والأيديولوجي على مستويات مختلفة.

(٤) ضرورة الاهتمام والعناية بالنخبة ذات الكفاءات العالية المتكاملة والقادرة على بلورة مفاهيم وقيم الأمة الإسلامية وتصوراتها الإصلاحية.

(٥) العمل على تقديم دراسات وبحوث جادة ومتعمقة تتناول المستحدثات الحياتية المعاصرة، وتقديم دراسات موضوعية لطبيعية ومنهجية المجتمعات الإنسانية المعاصرة وتقييمها موضوعياً.

(٦) تقديم الصيغ الاجتماعية الإسلامية الكفيلة بتنمية وتأسيس إيجابيات عصر العولمة وتجاوز سلبياتها في إطار الفهم الموضوعي لوسطية الإسلام ومقاصد الشريعة.

(٧) تخفيف حدة الانبهار بالحضارة الغربية، والرغبة في استدراج المسلمين إلى العلمانية بتأثير الهيمنة الغربية المتعددة الأشكال والألوان اعتماداً على ضعف الالتزام بالإسلام شريعة وعقيدة في كثير من البلاد.

(٨) القضاء على ازدواجية التعليم الديني والعصري وخطره الواضح في ضعف وتفتيت الأمة الإسلامية وتمزيق شملها وإضعاف كياناتها وتبديد طاقاتها، وإخالتها في مهامات الضياع الفكري، وفقدان الذاتية الإسلامية.

أخطاهم؟ وذلك يتم في اعتقادي بأن نتجاوز العنصرية في فهم الرواية التاريخية، وأن نتجاوزها أيضاً في سرد أمثلة البطولة والعظمة.

ويجب أن نكون مبرين في تدريسنا للتاريخ، وأن لا يكون هم الواحد منا ملء فراغ في معلوماتنا التاريخية بوثيقة أو معلومة معينة مثلاً، ولكن المربي والمؤرخ معاً يكون هدفه إيضاح حقيقة تاريخية غير معروفة، أو تصحيح حقيقة تاريخية خاطئة، إلى جانب وضع قصة تشتمل على تركيب تصوري لعناصر الموضوع الذي يراد تدريسه على أن تكون تلك القصة علمية في جوهرها، فنية في التعبير عنها، ويجب على المؤرخ إعطاء المعلومات التاريخية وأن لا يغفل الجانب الأخلاقي، ودرس القيم والمثل الحميدة، ونبذ الاتكالية، والتدريب على الاعتماد على النفس، وتكوين الشخصية المستقلة، وتشجيع الجادة أو النقاش، كما يجب عليه أن يعمل على هدم المفاهيم التربوية الخاطئة والسلبية التي ترسبت في الأذهان من مراحل سابقة، بل يسعى إلى مفاهيم تربوية جديدة تعطي الطالب قدراً كبيراً من المشاركة التي تنمي شخصيته المستقلة، ويساعده ويعاونه كي يتعلم مواجهة المشكلات وإيجاد الحلول لها، بل يدعم لديه الشعور بالمسؤولية، كما يجب على أساتذة التاريخ أن يحرصوا على تقديم الزاد المعرفي إلى طلابهم، إلى جانب الإدراك بأن التعليم في جوهره ليس الحصول على الشهادات الجامعية أو الدرجات العليا فقط، بل هو عملية إعداد الفرد إعداداً يمكنه من النمو والتفاعل مع المجتمع فيقيد ويستفيد ويقدر ما يكون نمو الأفراد صالحاً وسويّاً يكون تقدم المجتمع وإزدهاره.

وذلك لن يتم إلا بتأصيل عدد من المقومات الأساسية في مجتمعاتنا الإسلامية تساعد على

وعندما يتأتى للتاريخ أن يقوم بهذا الدور الضيق
- في حالتى المحنة والإزدهار - فهو بلا شك عنصر
فاعل، أما إذا استبكت الأمم للتحديات، أو اطمانت
إلى حالة عارضة من حالات التقدم، فسرعان ما
يتنازل التاريخ عن مركز الفعل مكتفياً - حفاظاً على
أدنى درجات كينونته - بهامش الانفعال بالغير.

تتضح هذه الظاهرة بجلاء في أخطر محاور
إشكالية مآزق الدراسات التاريخية الغربية، وأعنى به
المحور الخاص بالهدف من إنتاج دراساتها
التاريخية. ذلك المحور الذى لخضناه في سؤال سهل
شديد الصعوبة والتعقيد في آن واحد وهو:

لماذا ندرس التاريخ ١٩ :

إن الإجابة عن هذا السؤال ستساهم إلى حد
كبير في فهم محاور الإشكالية الأخرى المتعلقة بـ
«كيف ندرس التاريخ» فتحديد الهدف يسهل كثيراً
كيفية الوصول إليه. أما أن ينتج المؤرخون
دراساتهم بدون وعى بالهدف من عملية الإنتاج
التاريخي فإنهم - حتماً - سيتخطون في كم وكيف
هذا الإنتاج، فضلاً عن تخليهم عن دورهم الأساسى
في إدارة الأزمة. ولهذا خطره - والإكتفاء بالانفعال
بمناصرتها المتمهية؟ إذ في عصور المحنة غالباً ما
ينقسم المجتمع بكل أسباقه النخبوية والجماعية
إلى العديد من المذاهب المختلفة المتصارعة والمتعصبة
- في الوقت ذاته - (هل هذا هو حالنا اليوم؟) وإذا
انجرف المؤرخ إلى دوامة هذا الصراع المتعصب
يدعى أنه ابن لهذه البيئة المؤزمة وينتمى إلى إحدى
شرائحها الفكرية، وبالتالي فهو نتاج ثقافة لأحد تلك
المذاهب المتصارعة، وبالتالي أيضاً فهو بالأساس
منفعل بهذا المذهب الذى ينتمى إليه، وهو ما سيؤدى
بالضرورة إلى انفعال دراساته التاريخية بالمذهب
ذاته: أقول إننا جئنا هذا وانجرف المؤرخ - كمنتج
لدراسة - إلى هذه الدوامة، فقد فقد الهدف من دراسة
التاريخ، أو بمعنى أدق تحول الهدف عنده إلى الدفاع
عن المذهب أو الفكرة التى يعتنقها، وتحول مفهوم
«توظيف التاريخ» كعامل استجابة لتحديات الأزمة

الدراسات التاريخية العربية في مآزق

من مركز الفعل الى هامش الانفعال

تشدد في عصور الأزمات والمحن
حاجة الأمم والشعوب إلى التاريخ
كعنصر مهم من عناصر استجابتها
للتحديات التى تواجهها، كما لا يمكن
الاستغناء عنه في عصور التقدم
والازدهار كعنصر مهم من عناصر
الحفاظ على أسس هذا التقدم وقياس
درجته ومحاولة دفعه للأمام وكشف
الطريق وتخليته من العراقيل أمام
استمرار الازدهار والتقدم.



إضاءاة

- عضو الجمعية التاريخية.
- عمل عضواً بالمكتب الفني لأمن عام المجلس الأعلى للآثار المصري ١٩٩٥-١٩٩٦م.
- إشراف على البعثة الفرنسية لترميم آثار القاهرة.
- له العديد من المقالات والأبحاث المنشورة بالصحف والمجلات العربية.
- يعمل الآن منيراً بمنطقة آثار جنوب القاهرة.

وكما أوضحنا في بداية هذا المقال، سرعان ما ظهرت أعراض المحنة على شكل مذاهب متصارعة متعصبة لتطبيق رؤاها الخاصة، وطفا الى السطح تيار القومية العربية - خصوصاً في عهد عبد الناصر - كروية لإدارة الأزمة على المستوى الإقليمي العربي، حينئذ غلب لتتاج الدراسات التاريخية المنفعلة بهذه الرؤية بهدف التأكيد على حتمية الوحدة العربية كمنطلق وأساس تاريخي تشهد له العصور والأزمنة التي مرت بهذه الرقعة الجغرافية التي يقطنها العرب والتي شاء الله ألا توجد بها حواجز طبيعية، وإنما هي «خطوط وهمية» صنعها «الاستعمار البغيض» ليفرق بين أبناء الشعب العربي الواحد، ولم يحاول منتجو هذه الدراسات وضع قضية الوحدة تحت منظور تاريخي صحيح يبحث - بأمانة وبغض النظر عن النتيجة - عن تاريخيتها، مراعيًا تطور الزمن، وتنامي الشعور بالقومية الإقليمية، وصيوع الزعامات، هذا فضلاً عن معرقات الوحدة، وعوامل نجاحها وما يتلأم من أشكالها مع خبرة الشعوب العربية التاريخية.

كذلك عندما تم إنشاء مجلس التعاون الخليجي، قدمت الدراسات التاريخية إنتاجها المنفعل بالحدث لا الفاعل له، مؤكدة على وحدة شبه الجزيرة العربية من الناحية التاريخية. ويصدق القول على اتحاد المغرب العربي وغيره من اتحادات الربع الأخير للقرن الماضي غير أن المؤكد لإنفعالية هذه الدراسات هو

الى مجرد «استخدام التاريخ» في مذهب الأزمة، مع ملاحظة أن حالة تذهب الدراسات التاريخية هذه لا نجدها فقط في شكل الانحياز إلى مذهب فكري على المستوى المحلي بين شعبي ما، وإنما نجدها أيضاً في أشكال أخرى متعددة على المستوى القومي لشعب واحد، أو على المستوى الإقليمي لمجموعة من الدول يربطها رباط القومية، أو على المستوى الحضاري لأمم الحضارات الواحدة.

وفي هذه الحالة كثيراً ما تتم الاستعانة بالإنتاج التاريخي لتأييد السياسات التي تتخذها الصفوة الحاكمة تجاه إدارة الأزمة، كما تتم الاستعانة بهذا الإنتاج من قبل الجماهير كخدر يحجب عنهم واقع المحنة ليضع أمامهم أمجاد ويطولات أسلافهم.

والدراسة التاريخية في هذه المرحلة منفصلة في الأساس بسياسات إدارة الأزمة، متعصبة معها، حيث إن منتج الدراسة منذ بداية الأمر بدأ دراسته واضعاً نصب عينيه فكرته المذهبية وبالتالي فإن نتيجة دراسته متوقعة، بل ومعروفة مسبقاً وليست سوى تحصيل حاصل للفكر الأزموي.

والشيء المؤسف والمحزن هو أن الدراسة التاريخية الفاعلة - لا المنفعلة - التي تحاول توظيف التاريخ بدعوى أنها تهدف إلى الخروج من المحنة وتبصير النخبة والجماهير بكامن الداء، ستوصف بالخيانة والعمالة والتبعية، في الوقت ذاته الذي ستوصف الأخرى المنفعلة بالوطنية والقومية والبطولة... إلى آخر النياشين البلاغية التي تجيدها أمم الأزمان.

استطاع معظم البلدان العربية الحصول على استقلاله الفعلي حوالي منتصف القرن الماضي ليوافق إدارة أزمة الاستقلال وإدارة شؤونها بنفسه - بعد أن كان مهموماً بإدارة أزمة الاستعمار - ولم تكن أزمة الاستقلال تلك تأخذ شكلاً داخلياً فقط في تلك البلدان، وإنما كانت لها أبعادها المحلية والإقليمية والعالمية. تلك الأبعاد التي مازلتنا نعيشها أو نعيش آثارها الى اليوم.

بالإسلام كمشروع حضارى وثقافى، وتبنى نظم حياة تراشئة في مواجهة المشروع الغربى الذى أطلق عليه «الغزو الثقافى».

- الثانية : تدعو الى تبني المشروع الحضارى والثقافى الغربى للخروج من المحنة الحضارية، مع تنويعات في درجة وكم وكيف هذا التبنى بين أصحاب هذه الطريقة.

ولم يكن منتج الدراسات التاريخية - على هذا الصعيد أيضاً - فاعلين في إدارة الأزمة، وإنما منفعلين بها حتى النخاع؛ إذ تمت الاستعانة بالتاريخ على مستوى الطريقتين لتأكيد صحة رؤى وحجج كل منهما، وحدثت عملية تنقيب واسعة النطاق - مبهورة يطابع الانتقائية - بهدف انتاج دراسات تاريخية تكون عموداً فكرياً لكل مذهب، وحظيت الفترة الممتدة من استقرار الرسول (صلى الله عليه وسلم) في المدينة، وحتى أواسط العصر العباسى بالتحام متزايد من قبل الطرفين، ليس من أجل استخلاص حقائقها التاريخية وإنما انتقاء للأحداث التى تؤيد حجج كل منهما؛ فاعتبرها طرف عسراً ذهبياً للشرعية الإسلامية والمشروع الحضارى الإسلامى ككل، واعتبرها الطرف الآخر نموذجاً مثالياً لحكومة ثيوقراطية مخفية تعتمد في حكمها على «الحق الإلهى» وتقوم في أساسها على قاعدة «السيف لمن أبى، والذهب الى من رضى»، ثم يغفل الجانبان العصور الممتدة من أواسط العصر العباسى وحتى تحول الدولة العثمانية الى الشرق العربى ويسط سيطرتها عليه، ليفحص الجانبان في أيام الدولة العثمانية ونظمها وسياساتها في المشرق العربى، لاستخراج - بطريقة انتقائية أيضاً - ما يمكن أن يضاف إلى الفترة الأولى لتأييد وجهتى النظر المتعارضتين. * * * * *
فيؤكد الطرف الأول استمرارية التقدم الحضارى الإسلامى خلال أيام العثمانيين الذين حموا الإسلام والمسلمين من أطماع الغرب، والذين حققوا حلم المشروع الإسلامى القديم المتمثل في فتح القسطنطينية بفضل ما حققوه من قيم العدل والحرية والمساواة، في الوقت الذى يؤكد الطرف الثانى على تدهور أحوال

تغيرها بالمقدار الموازى للتغير المرحلى الذى يطرا على فكر إدارة الأزمة:

فلدى أية بادرة للخلاف على رقعة أرض مهمة - ولو بلغ حجمها رأس نبوس - كما يقولون - على الحدود بين أية دولتين عربيتين، تجد نفس منتجى الدراسات التاريخية الزاعقة بالوحدة وباصطناعية الحدود، يؤكدون على ملكية هذه الرقعة لهذه الدولة أو تلك، ومنادين بالحقوق السياسية والتاريخية على هذه الرقعة منذ أقدم العصور، وإن ضممها الى الدولة الأخرى عدوان وانتقاص لا يستحق أقل من تجيش الجيوش للدفاع عن التراب الوطنى!!

إن الكثير من المؤرخين الكبار أنتج دراسات وثائقية على درجة عالية من الكفاءة، لكنها مع الأسف فقدت كل جذبيتها - كعنصر فاعل - بعد أن انحرفت الى دوامة التذهب، لقد أنتج أحد مؤرخينا الأكفاء - رحمه الله - دراسة عن مصر والسودان منفعلاً بفكرة «وحدة وادى النيل» التى كانت مسيطرة على رؤية النخبة وقتئذ، وفقدت الكثير من رونقها ومصداقيتها. وربما ألفت الأحداث المتلاحقة التى حدثت بعد ذلك على الصعيدين المصرى والسودانى بظلالها على نمط الإنتاج التاريخى المتعلق بالقضية ذاتها لنجد مؤرخاً آخر ينتج دراسة أكثر بعداً (من ناحية فكرتها) عن مجال الانفعال المتذهب.

**** عملية الانتاج التاريخى تتوقف على الهدف المرجو والغاية المبتغاه.**

تحت عنوان «الثوابت والمتغيرات في العلاقات المصرية - السودانية» وعلى الصعيد الحضارى واجهت الأمة العربية تحديات المشكلة الحضارية المتمثلة في تفوق الآخر الأوروبى، وانتشار قيمه الثقافية وتغلغلها، بطريقتين متضابتين ومتعصبتين: - الأولى: التمسك

الوسائل والطرق الخاصة بجمع المادة وتحليلها وعرضها، ولا يصح - بل لا يمكن في هذا الجانب - أن تلقى بظلال المذهب الذي ننتمي إليه على المنهج المستخدم، وإنما نصرف كل طاقاتنا البحثية من أجل أن نعرف «حقيقة ما حدث فعلاً في الماضي» على حد تعبير (ليوبولد فون رانكه).

*** التاريخ عنصر مهم من عناصر الاستجابة للتحديات.

فالتاريخ في هذه المرحلة يكون من أجل التاريخ فقط، لا من أجل التبرير أو التزويق أو الدفاع أو الهجوم، أما النتيجة في ما تسفر عنه الدراسة من حقائق، ويجب علينا مراعاة ما دعا إليه الكثير من العلماء بضرورة «الغوص تحت سطح الأحداث» للعثور على طبقة سفلى من الحقائق الثابتة تحت مد الأحداث وجذورها العابرة، كما ينبغي أن نميز بين البنية وبين الحادثة أو الموقف الواحد، أي بين تلك المقومات التي تستمر في البقاء وبين الحوادث التي قد تبدو خطيرة ساعة وقوعها، وسرعان ما يتلاشى تأثيرها إذ لا تمثل سوى موجبات على صفحة التاريخ لا ينبغي لها أن تحول اهتمام الباحث عن القوى الكامنة تحتها، أما الهدف فيمكن في الاستفادة من نتيجة الدراسة، وتوظيف هذه النتيجة للتشخيص أولاً ومحاولة وضع أسس العلاج ثانياً. إن دراسة تراعى ذلك كفيلة بأن تحقق هدفنا من دراسة التاريخ ألا وهو: تحديد خط سيرنا إلى الأمام، إذ نطمح في أن نعرف إلى أين نحن ذاهبون؟ ولن يتأتى ذلك إلا إذا عرفنا تجاربنا ماضينا بعمق وروية، أو كما يقول (جورج سانتيانا) «إن أولئك الذين لا يمكنهم تذكر الماضي مسقضى عليهم بتكراره».

المشرق العربي عموماً وفي جميع المجالات، نتيجة للنظم الجائرة التي وضعها العثمانيون لإدارة بلاد المشرق، إضافة إلى حالة العزلة الرهيبة التي أحضرت مجتمعات هذه البلدان في حالة تخلف وركود وسبات عميق، لم تقم منه إلا على صوت مدافع يونانيرت وهي تقذف القاهرة، فيصيح شيوخ الأزهر «ياخفى الألفاظ نجنا مما نخاف».

وفي وسط زخم هذا الإنتاج التاريخي المتضارب - نتيجة لانفعاله - لابد وأن تضعيف الحقيقة التاريخية نفسها والتي يفترض أنها الجوهر الذي يسعى المؤرخ إلى الحصول عليه في مرحلة إنتاج المادة التاريخية.

إن لحالة الانفعال هذه التي نتحدث عنها أثراً خطيرة، ليس على مستوى الدراسات التاريخية فحسب، وإنما أيضاً على مستوى مشروع الأمة الحضاري وقضاياها الفكرية، فعلى مستوى الدراسات التاريخية لابد وأن يؤدي الانفعال إلى ارتباك الدراسات التاريخية وتذبذبها حيال القضايا المتغيرة بسرعة، مما يؤدي بدوره إلى ارتباك متلقى هذه الدراسات وفقدان الثقة بها وبمنتجها.

ومن ناحية أخرى فإن تذهب هذه الدراسات ينعكس على المنهج المستخدم لإنتاجها، فالعلاقة جد وثيقة بين الهدف من الدراسة وبين أسلوب التعامل مع مادتها، حيث لا مفر لمثل هذه الدراسات من الجروح إلى الانتقائية وهو أمر يكفي لتدمير الدراسة التاريخية من أساسها.

أما على المستوى الثقافي العام، فنظراً إلى أن التاريخ يستخدم كقاعدة تبنى عليها معظم الدراسات الأخرى (السياسية - الاقتصادية - الاجتماعية - الإعلامية - التربوية) ... إنتاجها، فإن الخطأ في نتائج الدراسة التاريخية خطأ مركب يؤدي إلى انتكاسة أساسية في النتائج التي تقدمها تلك العلوم الأخرى. وأعتقد أنه من الأسباب المهمة التي جعلت الكثير من منتجي الدراسات التاريخية ينحرفون بها عن مركز الفعل إلى هامش الإنفعال، خلطهم بين المنهج وبين النتيجة وبين الهدف، فالمنهج يتعلق بجانب

التاريخ وعلاقته بالفلسفة

والاجابة على تلك الأسئلة متشعبة ومتعددة الرؤى، ولكن إذا أجبنا على ذلك وبدأنا برؤية الإسلام للتاريخ فنجد أن الإسلام أكد على أهمية قراءة التاريخ والاستفادة من قصصه في أكثر من موضع في القرآن الكريم حيث قال تعالى: [لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب]، وقال تعالى: [إن في ذلك لعبرة لمن يخشى]، فالإسلام أكد على قراءة التاريخ من أجل أخذ العبرة والاستفادة من عطاته ودروسه، ولذلك يجب أن نقرأ التاريخ من هذا المنظور ونتعرف على أحوال الأمم الماضية ونوظف ذلك لمعرفة الحاضر والتخطيط للمستقبل.

أما الفائدة من النظر في حوادث الزمان وقراءة الأحداث التاريخية قراءة متأنية فلها فوائد عديدة يمكن إيجازها في أن الهدف الأساسي من التاريخ أخذ العظة والعبرة... ولقد أكدت الآيات الكريمة على ذلك فقال تعالى: [أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم كانوا أشد منهم قوة وأثاروا الأرض وعمروها أكثر مما عمروها وجاءتهم رسلهم بالبينات فما كان الله ليعظمهم ولكن كانوا أنفسهم يظلمون].

ومن فوائد التاريخ تغذية العقل وتنمية الفكر وصقل التجارب... فمن عرفه لم يعيش عمره فقط بل إنه يعيش الدهر كله نتيجة لعرفة تجارب الأمم التي سطرت تاريخها بإيجابياتها وسلبياتها عبر حقب تاريخية متعددة.

ومن فوائده أن الإطلاع على سير الأنبياء والمصلحين يشهد هم القارئ على التأسي بسير أولئك الصالحين وما قابلوهم من صعوبات وهي درس من الدروس التي يستمد منها الصبر عند الشدائد.

التاريخ علم من العلوم المتخصصة والمشاعة في آن واحد، فهو علم له قواعده وطرائقه البحثية التي يعرفها المشتغلون به والمتخصصون فيه، ولكن لا يعني أن التاريخ يقتصر على تلك الفئة بل يتعدى ذلك ليصل إلى خاصة الناس وعامتهم فالحل مجبول على معرفة ماضيه والاستفادة منه بدرجات مختلفة.

والتاريخ علم من العلوم المفيدة الذي يمكن وصفه بأنه خبرات الماضي وصناعة الحاضر ورؤية المستقبل وعُرف بأنه دراسة التطور البشري في جميع جوانبه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والفكرية والروحية أي كانت معالم هذا التطور وظواهره واتجاهاته وباختصار إنه «وعاء الخبرة البشرية».

والسؤال الذي يطرح نفسه: هل فقهنا وأدركنا وفهمنا التاريخ على حقيقته؟

وما هي الاستفسارة التي جنبناها من قراءة التاريخ والتبصر في أحداثه؟ وما هو موقف الإسلام منه؟



إضاءة

- دكتوراه في التاريخ الحديث.
- عمل رئيساً لقسم التاريخ في كلية الآداب، جامعة الملك عبد العزيز.
- أستاذ مشارك للتاريخ الحديث.
- شارك في العديد من المؤتمرات المتخصصة والمؤتمرات العلمية.
- كتب عدداً من الأبحاث والدراسات.
- له مشاركات قلمية في الصحف والمجلات السعودية.

على جليل ولا حقير، ولم يسلم من نكدها غني عشقها وذاب فيها ولا فقير زهد فيها وأعرض عنها وأقبل على التزوّد للأخرة، ورغب في دار تنزهت عن هذه الخصائص» - -

ومن قوائد علم التاريخ الحفاظ على هوية الأمة وعلى التراث الإنساني في مجمله، فالتاريخ هو بمثابة الجذور للحضارات الإنسانية التي ولدت ونعت وترعرت ووصلت إلى ما وصلت إليه من تقدم ورفي، وهو السجل الذي تعود إليه كل أمة من أمم الأرض لتحديد هويتها ومشاركتها في بناء الحضارة الإنسانية، فامة بدون تاريخ لا هوية لها فيه كالشجرة التي لا جذور لها.

أما الشق الآخر من السؤال المطروح وهو ما علاقة الفلسفة بالتاريخ، فقبل الإجابة عليه يجب أن نذكر أننا لا نستطيع أن نفهم التاريخ ونستفيد منه حق الاستفادة بدون معرفة العلاقة بين التاريخ والفلسفة. فعلى أن التاريخ هو فحواضد الزمن ونكرها، إلا أن هذا المفهوم تطور عند المشتغلين بعلم التاريخ وأصبح مفهومه لا يقتصر على ذكر تلك الحوادث بل تحليلها وتبليها وتفسيرها والنظر في العوامل المؤثرة عليها منذ رواية الحدث حتى وصوله إلى القارئ أو المستفيد، ولقد أدرك الكثير من

ومن الفوائد التي يمكن الاستفادة منها في دراسة التاريخ الاستفادة من تجارب الغير في شتى شؤون الحياة السياسية والإدارية والاقتصادية والاجتماعية وغيرها، ولقد فطن المؤرخون إلى ذلك، فأشار ابن الأثير في كتابه الكامل في التاريخ بقوله «إن الحكام ومن إليهم الأمر والنهي إذا وقفوا على ما فيها - أي الدنيا - من سير أهل الجور والعدوان رأوها مدونة في الكتب يتناقلها الناس، ونظروا إلى ما أعقبت من سوء الذكر وقبيح الأحداث، وخراب البلاد وهلاك العباد وذهاب الأموال وقسب الأحوال استقبحوها وأعرضوا عنها وطروحا».

ومن الفوائد التاريخية التفكير في عظمة الله وسننه الكونية من تسيير أحوال الناس ومن العاقبة التي تتلو الحدث التاريخي، فالنظر في السنن الكونية نظرة فاحصة تؤكد أن التاريخ بعيد نفسه ولو تغيرت الأزمنة والأمكنة وصناع الحدث التاريخي فالدول الظالمة والحكام الجائرون مصيرهم الهلاك والأيام دول بين الناس وهذا ما أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله: (وتلك الأيام نداولها بين الناس).

ومن فوائده أيضاً الاعتقاد الجازم بأن الحوادث التاريخية هي مسؤولية يسأل عنها كل من كان وراء صناعة الحدث التاريخي. وهذا ما أشار إليه تعالى بقوله: (ولا تقف ما ليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسؤولاً) (الاسراء آية/٣٦).

هذه المسؤولية تقود المسلم إلى النظر للحياة الدنيا بأنها مجرد اختبار وابتلاء وهذا ما أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله: (إننا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميعاً بصيراً) (الإنسان آية/٢)، وتلك المسؤولية وذلك الابتلاء يقود المسلم إلى الحذر ومراقبة الله سبحانه في كل أعماله وأقواله والنظر إلى الدنيا بأنها ليست غاية أو هدف وهذا ما أشار إليه ابن الأثير بقوله «إن العاقل السليم إذا تفكر فيها - الحياة - ورأى تقلب الدنيا بأهلها وتتابع نيكاتها إلى أعيان قاطنيتها وأنها سلبت نفوسهم وخائنهم وأعدمت أصاغرهم وأكابرهم، فلم يتبق

المؤرخين أهمية المراحل التي تتلو رواية الحدث التاريخي وخاصة التعليل والتفسير، وأكدوا على أهميتها، وهذا ما أشار إليه ابن خلدون عندما وصف التاريخ بالفن حيث قال:

«أما بعد فإن التاريخ من الفنون التي تتداولها الأمم والأجيال... وهو في ظاهره لا يزيد على الإخبار عن الأيام والدول والسوابق من القرون الأول، تنمو فيها الأقوال، وتضرب بها الأمثلة، وتطرق بها الأندية إذا غصها الاحتفال، وتؤدي لنا شأن الخليفة كيف تقلبت بها الأحوال، واتسع لدول فيها اللطاف والمجال... وفي باطنه نظر وتحقيق وتعليل للكانات ومبادئها دقيق، وعلم بكيفيات الوقائع وأسبابها عميق فهو لذلك أصيل في الحكمة عريق».

فابن خلدون يشير في الشق الأول من تعريفه للتاريخ بأنه عبادة عن سرد أحداث الماضي وذكر أخبار الدول والحضارات وكيفية نشوئها وتدهورها وأقولها ومن ثم زوالها أما الشق الثاني فيشير إلى أن علم التأريخ فرع من فروع الحكمة أو الفلسفة لأنه يبحث في أسباب الأحداث والقوانين التي تتحكم فيها، وهذا ما يعرف الآن «بفلسفة التاريخ».

لقد بدا واضحاً بعد عصر ابن خلدون أن الكثير من المؤرخين بدأوا في التركيز على التفسير والتعليل باعتبارهما الركيزتان الأساسيتان في الوصول إلى الأسباب الخفية وراء الحدث التاريخي وبدأ التركيز على الفلسفة التاريخية التي يمكن تعريفها بأنها عبارة عن النظر إلى الوقائع التاريخية بنظرة فلسفية ومحاولة معرفة العوامل الأساسية التي تتحكم في سير الوقائع التاريخية والعمل على استنباط القوانين العامة الثابتة التي تتطور بموجبها الأمم والدول على مر القرون والأجيال، ويرى البعض أن فلسفة التاريخ لا تقتصر على ذلك بل تتعدى إلى رؤية المفكر للتاريخ أو حكمه عليه، ونتيجة لذلك أصبحت الفلسفة التاريخية منهجاً من مناهج علم التاريخ التي تعتبر من الضروريات في الوصول إلى الحقيقة التاريخية.

والعودة إلى الجذور وبيدات علم التاريخ عند المسلمين نجد أن علم التاريخ نشأ وتطور كغيره من العلوم ومر بمراحل متعددة في طريقة جمع الحوادث

وتبويبها وتفسيرها بل إن المؤرخين أخضعوه للضبط والدقة في روايتهم وطبقوا عليه منهج علم الحديث في الرواية والدراية وهذه المرحلة من مراحل الكتابة التاريخية مرحلة دقيقة إذ إنها هي الركيزة الأساسية التي يقوم عليها التعليل والتفسير. ومع ذلك ظلت الفترة الزمنية التي تلت ظهور الإسلام هي فترة تدوين الأحداث التاريخ دون النظر إلى ما وراء الحدث.

لقد كان هناك العديد من العوامل التي جعلت بعض المؤرخين المسلمين يهتمون بما سمي فيما بعد بفلسفة التاريخ ويعود ذلك إلى اهتمام القرآن الكريم بالقصص القرآني وبالزمن ماضياً وحاضراً ومستقبلاً، وكان لنشأة الفرق الإسلامية وانفتاح المسلمين على حضارات جديدة الأثر الكبير في التعرف على علوم جديدة كالفلسفة والمنطق والجدل وعلم الكلام وغيرها من العلوم التي تقوم على تحكيم العقل في الكثير من المسائل المختلف عليها. ومع أن علم التاريخ كان مرتبطاً أشد الارتباط بالعلوم الدينية وبالذات علم الحديث في الرواية وعلم الفقه في التفسير إلا أن ظهور التصوف والفلسفة جعلت بعض المفكرين ينظرون إلى التاريخ بأنه لا يقتصر فقط على حوادث الزمان الماضي وإنما أصبح الزمان يرتبط عندهم بالمستقبل الذي أشار إليه القرآن الكريم في أكثر من موضع وعبر عنه بالبرزخ بيوم القيامة وبالجنة وبالنار، والتحدث عن

ارتباط الماضي بالمستقبل أكد عليه القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة في الكثير من المواضع وقصة خلق الإنسان ما هي إلا تاريخ لتطور الحياة حيث أشار سبحانه وتعالى في سورة المؤمنون بقوله: (ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين * ثم جعلناه نطفة في قرار مكين * ثم خلقنا النطفة خلقاً فخلقنا العلقة مضعفاً فخلقنا

***** حركة التاريخ تعنى مجموع التطور البشري في ماضيه وحاضره ومستقبله.**

وهو مسؤول أمام الله سبحانه عن أعماله التي عملها في الحياة الدنيا، وهذا ما أشار إليه سبحانه وتعالى بقوله: [ألم تروا أن الله سخر لكم ما في السماوات وما في الأرض وأسبغ عليكم نعماً ظاهرة وباطنة ومن الناس من يجادل في الله بغير علم ولا هدى ولا كتاب منير] (لقمان: آية ٢٠). بل إن هذا الكون وسيلة للتدبر والتفكير والتبصر ويجب على المسلم أن ينظر إلى ذلك نظرة فاحصة ليزيد من إيمانه ولتبدأ نظرتة في نفسه وفي الكوكب الذي يعيش عليه.

أما النظر إلى السنن الكونية فيتمثل في النظام الرباني الذي سنه الله سبحانه وتعالى وأن هذه السنن تجري على جميع البشر والكانات، والمسلم ينظر لتلك السنن بأنها لا تتبدل ولا تتغير إلا بإرادة الله جلّت قدرته.

وباختصار فإن اهتمام المسلمين بالتاريخ انصب على التدوين وعلى المنهج ولكن ارتباط التاريخ بالحديث ومن ثم الفقه بل والتفسير جعل المسلمين ينظرون إلى التاريخ بأنه علم له أبعاد متعددة تأتي العظة والعبرة في مقدمتها، ولكي يصلح المورخ المسلم إلى تلك الأبعاد لابد أن يستمد رؤيته للتاريخ من عدة زوايا تتمثل في المحركات التي وراء صناعة الحدث وروايته وتحليله وتفسيره، وبدون استخدام المنهج العلمي في جمع المعلومات الخاصة بالحدث التاريخي لا يستطيع المورخ أن يصل للمرحلة التي تعد الأهم في الوصول إلى الحقيقة التاريخية، وهذه المرحلة تحتاج إلى معرفة ما وراء الحدث التاريخي أو ما وصفه ابن خلدون «بظاهر التاريخ وباطنه» أي أن المورخ المسلم يستمد رؤيته لتفسير أحداث التاريخ من رؤيته لله سبحانه وتعالى خالق الكون وأصنع نواميسه وخالق عوالمه ومدير أحداثه مع إعطاء اعتبار لاختلاف الفرد ومسؤوليته في ظل القدرات التي منحها الله إياه... ونتيجة لذلك فإن الفلسفة لا غنى عنها في قراءة التاريخ وسير أغواره ومعرفة أحداثه.

المُضغّة عظاماً فكسونا
العظام لِحماً ثم
أنشأناه خلقاً آخر
فتبارك الله أحسن
الخالقين * ثم إنكم بعد
ذلك لميتون * ثم إنكم
يوم القيامة تُبعثون *
ولقد خلقنا فوقكم سبع
طرائق وما كنا عن
الخلق غافلين [المؤمنون الآيات ١٢ - ١٧]، وأن هذه المراحل الزمنية ما هي إلا تاريخ لكل إنسان وفي

*** التاريخ سبب من أسباب الحكمة والفلسفة التي تبحث ما وراء الحدث.

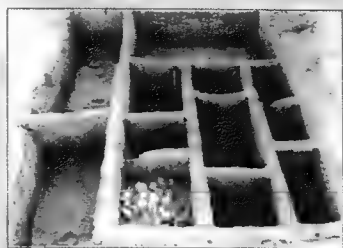
تاريخ كل إنسان حوادث مختلفة سيسال عنها وسوف يحاسب عليها أمام الله سبحانه وتعالى، ولقد ورد ذلك في الهدى النبوي في حديث «لا تزول قدما عبد يوم القيامة حتى يسأل عن أربع عن عمره فيما أفناه وعن جسده فيما أبلاه وعن ماله من أين أخذه وفيما أنفقه وعن علمه ماذا عمل به».

وورد في حديث آخر ما معناه «البناء مزرعة الآخرة»، وهنا يتضح ارتباط الحاضر بالمستقبل، وأصبح الزمن عند المسلم لا يقتصر فقط على حوادث الحياة الدنيا بل يتعدى ذلك ليصل إلى المستقبل الذي يمثل الأهمية الكبرى بالنسبة لحياة المسلم، ومن هنا بدأت الخلافات بين الفقهاء والفلاسفة في فكرة الزمن وكان من الذين تحدثوا حول إعطاء تفسيرات لذلك الغزالي والكندي وابن طفيل وابن رشد وغيرهم، وبالطبع كان لذلك الخلاف الأثر الكبير على تطور الكتابة التاريخية عند المسلمين، ولم يصبح التاريخ فقط تسجيل حوادث بل إنه فقه تلك الحوادث وفلسفتها.

إن الفلسفة الإسلامية للتاريخ تنطلق من ركائز عديدة تقوم على نظرة المسلم إلى أن الله خالق الكون وواضع نواميسه وأن الإنسان مكلف في هذه الحياة



إناء فخاري مزخرف من العصر الحجري الحديث
ويؤرخ بحوالي ٤٠٠٠ قبل الميلاد



مقبرة من اواخر عصور ما قبل التاريخ
تؤرخ بحوالي ٣٢٠٠ قبل الميلاد

قد يبدو من الغريب في عصر الكمبيوتر والفيديو والقيموتانية أن يتحدث متحدث عن حضارات لم يعرف أصحابها إلا الحجر كمادة يستخدمونها في كل أغراض حياتهم اليومية تلك الحياة البسيطة المتواضعة.

ولكن وبقليل من التأمل قد يدرك المرء أن تلك الفترات والعصور البعيدة كل البعد (زمنياً - فكرياً) عن عصرنا الحالي ما هي إلا اللبنة الأولى في البناء الحضاري الذي شيدته يد الإنسان منذ أن خلقه الله سبحانه وحتى اليوم.

تلك اللبنة التي لا يمكن لأي إنسان مهما حاول أن يتجاهلها، إلا إذا تنكرت البشرية لأصولها الأولى أو تجاهلت شقاء أسلافها الأوائل الذين واجهوا وحشية البيئة القديمة، وكما قال أحد علماء التاريخ:

عصور ما قبل التاريخ

نشأة الحضارة

في العالم العربي



إضاءة

- عضو الجمعية المصرية للدراسات التاريخية.
- باحث بالمجلس الأعلى المصري للآثار.
- يعمل حالياً مفتشاً للآثار بمنطقة آثار جنوب القاهرة
- بالمجلس الأعلى المصري للآثار ومشرفاً على مشروع إنقاذ وتطوير وترميم أسوار صلاح الدين الشرقية بالقاهرة.
- شارك في أعمال الحفائر والكشف الأثري عن أسوار صلاح الدين الشرقية أعوام ٩٨ - ٩٩ - ٢٠٠٠م.
- شارك في الإشراف على أعمال الترميم بمبنى أحمد كنفذا الرزان الأثري بمنطقة باب الوزير بالقاهرة.
- * المؤلفات:
- الأهرامات المصرية .. أسطورة البناء والواقع - بالاشتراك - كتاب صدر عن دار نشر عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية - القاهرة ٢٠٠٠م.
- * الترجمات:
- شارك في ترجمة كتاب (الخطوط) الصادر عن مركز الخطوط بمكتبة الإسكندرية ٢٠٠٤م.
- شارك في ترجمة موسوعة (تاريخ الكتابة) الصادرة عن مركز الخطوط بمكتبة الإسكندرية.
- له مجموعة من الدراسات والبحوث العلمية في مجال الآثار وترميمها.

لحكماء الغرب مما دفعهم لتوجيه الكثير من مجهوداتهم للكشف عن الأصول البعيدة للبشرية وذلك داخل بلادهم وخارجها في شتى أرجاء المعمورة حيث كان لهم السبق في هذا المجال في كثير من البلدان ومنها العالم العربي، وذلك فيما يبدو - قديماً وحديثاً - فاعلِب الأعمال والأبحاث الخاصة بعصور ما قبل التاريخ جاءت على أيدي علماء أجانب أو خرجت من هيئات أجنبية.

وقد ظهر ذلك حين بدأت البعثات الأثرية الأجنبية تتوافد على المنطقة بحثاً في البداية عن

«إن الحضارة لا تتمثل فحسب في عظام المنشآت كالأهرام وقصور فرساي أو العماير السامقة التي تصعد في الجو كأنها تنطح السحاب في نيويورك، بل هي تتمثل في صورة أوضح وأصدق في صغار المكتشفات التي تقوم عليها حياة البشر، فرغيف الخبز مثلاً أنفع للبشرية من الوصول للقمر، وبالفعل أنفقت البشرية عشرات الألوف من السنين حتى وفقت إلى صنع رغيف الخبز أو إثناء من الفخار .. فرغيف الخبز وإثناء الفخار مقياسان أصدق للتقدم الحق من الوصول للقمر والعودة بقطع من حجارته لأن رغيف الخبز لا يتأتى منه إلا كل خير وإثناء الفخار أدخل على حياة الإنسان تيسيراً بعيد المدى وكلاهما نقطة تحول في تاريخ الإنسان».

ونحن هنا في عالمنا العربي وفي ظل تلك الظروف الحضارية القاسية التي تمثل قمة الصراع الحضاري بين شتى الحضارات كان لزاماً علينا أن نعد أنفسنا لهذا الصراع ومن ثم كان من الواجب المساهمة في خلق وعي حضاري وتراثي وتاريخي فاعل في مجالات الحياة المختلفة وذلك رغبة في تعميق الانتماء لبلادنا ولحضاراتنا المتعاقبة وللإنسانية جمعاء وإبراز الهوية الحضارية والثقافية لعالمنا العربي بالتفاعل مع الثقافات الإنسانية الأخرى.

ومن هذه المنطلقات وانطلاقاً كذلك من أن صناعة المستقبل لا تستقيم إلا بدراسة الماضي واستقرائه، فإن معرفة بعض أسرار التاريخ واستكشاف بعض دلالته الجوهرية هي تهديد ضروري لأي نهضة حضارية.

وقد ظهرت هذه الحقيقة واضحة جلية منذ زمن

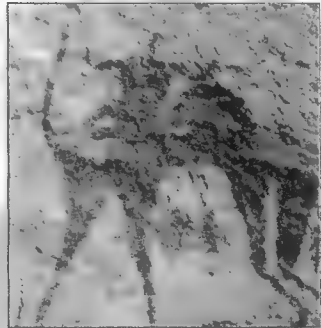
الكثوز المدفونة تحت الرمال، ثم أخذت تلك البعثات بعد ذلك الشكل العلمي المنظم الذي انتهج نهجاً تاريخياً مرتباً وكان من جراء ذلك بداية الاهتمام بآثار العصور السحيقة التي مرت على المنطقة وتعرف اصطلاحاً باسم عصور ما قبل التاريخ .. وهنا كانت بداية نشأة علم آثار ما قبل التاريخ في المنطقة العربية وهو العلم الذي يهتم بدراسة حياة الإنسان ومعتقداتها في الدهور البعيدة التي سبقت معرفته للكتابة، إذ اعتبر هذا الحدث بمثابة الحد الفاصل بين العصور التاريخية وما قبلها وهي الفترة التي يطلق عليها عصور ما قبل التاريخ أو العصور الحجرية، وذلك لأن إفسان تلك المرحلة صنع كل أدواته من الحجر قبل اكتشافه للمعادن والنار ولذلك صنف العلماء حضارات عصور ما قبل التاريخ على أساس نوع المادة التي استخدمت في صناعة الآلات الحجرية وأحياناً على أساس الطريقة التي اتبعت في صناعة تلك الآلات .. واتفق معظم العلماء على تقسيمات وتسميات تبدأ من الأقدم إلى الأحدث:

١ - حضارة العصر الحجري القديم وتقدر بداياتها بحوالي ٢٠٠.٠٠٠ سنة قبل الميلاد ويعتقد الباحثون أن هذا العصر يشمل نحو ٩٩٪ من تاريخ حياة الإنسان على الأرض منذ أن ظهرت الأدوات التي صنعها الإنسان.

أما عصور ما قبل التاريخ الأخرى وكل عصور التاريخ حتى زمننا الحاضر فتشمل إلى (٪) الباقي وقسم العلماء هذه الحضارة إلى ثلاثة أدوار يتميز كل منها بطريقة معالجة المادة الحجرية وأنواع الأحجار وتشظيتها وتهذيبها واتخاذها آلات تستخدم في مختلف المازب من فأس يدوية إلى رأس رمح إلى



أنية فخارية من أواخر عصور ما قبل التاريخ وعليها زخارف تصور مراكب وحيوانات وأجسام بشرية



رسم على الصخر لرجل يمتطي جمل وصيد السنم من ليبيا ويؤرخ بالآلف السادس قبل الميلاد

النحاس واستخدامه في أغراض حياته الانطلاقة الكبرى - بعد معرفة الزراعة والاستقرار - نحو التطور الحضاري الذي يمتد حتى عصرنا الحالي .

وقد تمتعت مظاهر تلك الحضارات في الكثير من المواقع الأثرية في العالم العربي حيث أدت البيئة الطبيعية للمنطقة العربية بوراً هاماً في إعطائها وضعاً متميزاً خلال عصور ما قبل التاريخ والفترات اللاحقة . .

ومن أهم مواقع ما قبل التاريخ في العالم العربي:

**** الحضارة
لا تتمثل في
المنشآت
الضخمة
والعمارة،
وناطحات
السحاب،
فحسب، بل
تمثلها أصغر
المكتشفات
التي تقوم
عليها حياة
البشر.**

**** المملكة العربية
السعودية :**

لا شك أن قسوة الظروف الطبيعية في شبه الجزيرة العربية قد قللت من محاولات البعثات الاستكشافية بها مما جعل معلوماتنا قليلة عن تلك المناطق، وأن كان الاتجاه الحديث اليوم هو بذل المحاولات الغديدة في استكشاف غموض حضارة هذه المناطق، إلا أنه رغم قلة ما توصل إليه العلماء فإن الشواهد تدل على أن

سكين وما إلى ذلك من آلات أخرى مصنوعة من عظام الحيوان وقرونه مثل الحزاب السننة ورؤوس السهام .

٢ - حضارة العصر الحجري الوسيط ويؤرخ هذا العصر بحوالي ٧٥٠٠ قبل الميلاد وحضارة هذا العصر ظهرت في بعض الأقطار ولم تظهر في البعض الآخر وتميزت بصناعة الأدوات الصغيرة الحجم «القرمية» وبوجود الكلاب المستأنسة التي اكتشفت عظامها للمرة الأولى في مواقع هذا العصر .

٣ - حضارة العصر الحجري الحديث ويؤرخ هذا العصر بحوالي ٥٥٠٠ إلى ٤٥٠٠ قبل الميلاد ويتميز بتطور عظيم في الاختراع والنظام الاجتماعي وهناك مظاهر عدة لهذه النهضة الحضارية ومنها معرفة الإنسان للزراعة واستئناسه للحيوان ومعرفة لصناعة الفخار والتطور الرائع في صناعة الأدوات الحجرية وبداية معرفة الإنسان لصناعة السلال من أعواد النباتات وكذلك نسج الكتان إلى اهتمام الإنسان بمدافن الموتى وقربائهم وانتقاله من حياة الكهوف إلى بناء مسكن بسيط له واهتمامه ببعض وسائل الترفيه مثل أدوات الزينة ومحاولة صنع أوان حجرية صغيرة .

٤ - حضارة العصر الحجري النحاسي ويؤرخ هذا العصر بحوالي ٣٥٠٠ قبل الميلاد ويستمر حتى بداية العصور التاريخية ما بعد الميلاذ . . ويميز هذه الحضارة معرفة الإنسان للمعادن وخاصة معدن النحاس وهو أول المعادن التي استطاع الإنسان أن يتعامل معها واستخدمها في صناعة أدواته جنباً إلى جنب أدواته الحجرية وتُعد معرفة الإنسان لاستخراج

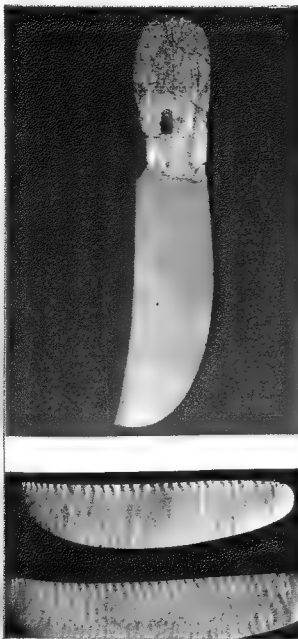
تأريخ المواقع استندت على طريقة أو نمط صناعة الآلات الحجرية [٥] - ٠٠ وعثر بالملكة العربية السعودية على مواقع تحمل الخصائص التقنية والشكلية لأدوات أواخر العصر الحجري القديم، ومنها مواقع حول وادي السهلاء ومدينة حائل وسكاكا وقلوة ووادي السرحان، وظهرت كذلك في المملكة العربية السعودية مظاهر العصر الحجري الحديث حيث تم العثور حول وإلي الجنوب من الضماسين وبالقرب من السليل على مجموعة من المواقع فيها مواد تشبه إلى حد كبير مجموعات العصر الحجري الحديث، كما كشف المسح الأثري الشامل لوكالة الآثار والمتاحف بالملكة العربية السعودية عن مواقع في المنطقة الشمالية قرب حائل وجبة وتبوك حوت ملققات سطحية حجرية شملت رؤوس السهام والتصال والمقاشط وتم العثور أثناء مسح المنطقة الوسطى على عدد كبير من المواقع التي تحتوى على آثار معمارية مازالت بحالة جيدة، منها مبان مصاحبة لمواقع العصر الحجري الحديث ومنها ركامات ترابية وحجرية تقام فوق القبور [٦] أما الآلات الحجرية فتميزت بالرؤوس الحادة ورؤوس السهام والتهذيب المرقق من الجهتين، واعتمد إنسان هذه المرحلة على الصيد وجمع الطعام ولم يعرف الزراعة ولكن بعد ذلك ظهر ملمح جديد من ملامح العصر الحجري الحديث المتأخر وتميز بالانتقال إلى الرعي والزراعة مع الاحتفاظ بالصيد كمصدر ثانوي ومن خصائصه رؤوس السهام المثقفة [٧].

* قطر :

تعتبر قطر من الناحية الأثرية أهم مناطق الخليج العربي إذ تتمثل فيها حضارات العصر الحجري من

أقليم شبه الجزيرة العربية كان ينعم بالظروف المناخية الملائمة لسكنى الإنسان فضلاً عن أنه عثر على آثار تشير إلى أنه كان هناك نهر واسع عند المنطقة السماة بالربع الخالي ويسمى بمنقحس (أيو بحر) ومعظم ما نعرفه عن آثار المملكة العربية السعودية في العصور الحجرية وصلنا من أعمال المسح والتنقيبات الأثرية التي جرت في الربع الأخير من القرن العشرين وأهمها مواقع العصر الحجري القديم التي تم الكشف عن معظمها أثناء المسح الأثري الذي تم في العام ١٩٧٧م [١]، وقد وجدت بمنطقتي حائل وسكاكا، والآلات المكتشفة تعكس وفرة الموجودات التي التقطت أثناء المسح وقد جاءت أقدم الأدلة الحضارية في الجزيرة العربية من مجموعة مواقع قرب الشويحية في شمال المملكة العربية السعودية ومن موقعين آخرين قرب مدينة نجران في جنوب المملكة [٢]، ورصد كذلك واحد وثلاثون موقعاً يعود تاريخها إلى العصر الحجري القديم ورصد كذلك أثناء المسح في المنطقة الوسطى والمنطقة الجنوبية الغربية ٢٦٧ موقعاً كانت ٦٤ منها تعود إلى العصر الحجري القديم [٣] ولم يتعرض منها للدراسة التفصيلية غير موقع صفاف بمنطقة الدوامي في وسط الجزيرة العربية..

ويبدو أن المواقع قد انتشرت على منحدرات صخرية قريبة من بحيرة قريبة [٤] وأغلب أدوات هذه المواقع المتعددة فؤوس يدوية وسواطير وأدوات ثلاثية السطوح ذات حدين ومقاشط ذات حد جانبي وأدوات للفرم وقليل من آلات النقش والتثقيب والسكاكين وجميع القطع التلقطت من على سطح الأرض ولم يكتشف أي منها بواسطة التنقيب ولذلك فإن عملية



(١) سكين من الصوان نو مقبض عاجي .. (٢)
سكاكين صوانية . شظيت اواخر عصور ما قبل
التاريخ حوالي ٣٣٠٠ قبل الميلاد

الصوان المتنوع ويلاحظ ظهور بعض السهائم ذات
العنق والأجنحة.

٤ - المرحلة الرابعة أو حضارة رؤوس الأسهم
الروانة : وتشهد هذه المرحلة اختفاء الماشط وظهور
عديد من السهائم ذات العنق والأجنحة وقطع ورقية

أقدم أدواتها وقد ظهرت آثار تلك الحضارات بعد أن
قامت بعثة دانمركية بالبحث عن المواقع القديمة وقد
تم رصد ٢٠٠ موقع يعود إلى عصور ما قبل
التاريخ [٨] .. وكانت هذه البعثة برئاسة كل من هـ.
كابل وهـ. مدسون ، وجزء من المواقع التي قاما
بالكشف عنها توجد في المنطقة الممتدة من «أم الماء»
شمالاً إلى «سلوى» جنوباً قرب الحدود مع المملكة
العربية السعودية [٩] .. ولسنوات جمع هـ. كابل
أعداداً كبيرة من الأدوات الحجرية من العديد من
المواقع شملت ٢٠٠٠٠ قطعة تمثل ١٢٢ موقعاً وتم
تسجيل ودراسة كل هذه الأدوات بدقة، وأصدر هذا
الباحث أطلساً عن حضارات العصر الحجري في
قطر عام ١٩٦٧م أبان فيه أنه اعتمد في تقسيمه
للحضارات المختلفة في قطر على أنماط الأدوات
الصوانية مع الغياب التام للمواقع الأثرية التي
يتوافر فيها التسلسل الطبقي [١٠] ، وقد قسم كابل
مكتشفات ما قبل التاريخ في قطر إلى أربع
مجموعات وفقاً للصناعات الحجرية على النحو
التالي:

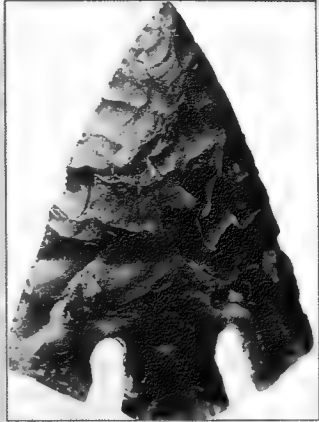
- ١ - المرحلة الأولى : تتم عن طابع العصر
الحجري القديم الذي شمل صناعات تمت بآلات
ضخمة غير مصقولة تعتمد على مواد أولية.
- ٢ - المرحلة الثانية أو حضارة الشقرة : تحمل
طابع العصر الحجري الوسيط وتتضمن تشظية
نصالية وسهاماً ذات عنق وأنوات نموذجية أخرى .
- ٣ - المرحلة الثالثة أو حضارة الجرافة : تحمل
طابع العصر الحجري الوسيط أيضاً وهي بعد
المرحلة السابقة بفترة ولا توجد بها تشظية نصالية
لكن تتميز بكثرة المحكات المصنوعة من حجر

الشكل ذات وجهين[١١].. وتجدر الإشارة إلى أنه لم يعثر على أي دليل للمعادن أو أدوات نحاسية أو برونزية كما أن الأدوات المصنوعة من الحديد نادرة للغاية.

لهذا فإن تصنيف العصور البرونزية والحديدية يعتمد مؤقتاً على التقسيمات العامة للفرات التاريخية الجزيرة العربية وتعوزنا الأدلة لهذين العصرين من دولة قطر.. ومن أشهر وأهم مواقع ما قبل التاريخ في قطر: دخان - بير أبروق - رأس عوينات على - رأس أبروق - الوصيل - عسيلة - شقرة رأس عوينات على - الجيب - الخور - بيرزكريت[١٢]..

*** الإمارات العربية المتحدة :

أظهرت التنقيبات الأثرية التي جرت خلال الأربعين سنة الأخيرة في دولة الإمارات العربية المتحدة التي بدأت على يد البعثة العراقية خلال الأعوام ٧٢-١٩٧٢ [١٣] كمّاً هائلاً من المعلومات لم تكن معروفة سابقاً وقد ازداد اهتمام الدوائر المعنية بالآثار بمسألة التنقيب في السنوات العشر الأخيرة من خلال بعثات محلية وأجنبية[١٤]، وكشفت هذه البعثات عن مكتشفات على جانب كبير من الأهمية عكست لنا التجمعات التي عاشت في هذه المنطقة فوضحت المكتشفات عن اتصال مع إيران «حضارات إيران» ومنطقة «بلوشستان» في باكستان الحالية وتأثيرها على ضفتي الخليج العربي[١٥]، وبدأ واضحاً من المكتشفات السابقة أن أقدم العصور التي تم التعرف عليها في الإمارات هي فترة العصر الحجري الحديث التي تؤرخ بحوالي ٥٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ قبل الميلاد حيث عثر في المواقع السفلى من تل جبل حفيت في



رأس سهم من العصر الحجري الحديث



فأس حجرية من العصر الحجري القديم

المسماة خطم ملاحه جنوباً ٥٠٠ وهذه النقوش عبارة عن نقوش لأشكال بشرية منفردة بهيئات مختلفة وحيوانات البيئة مثل الماعز والثور والغزال والأسماك والظواهر الكونية مثل الشمس والقمر والنجوم [١٨]، والدراسات التي تمت على هذه النقوش أوضحت أن بعضاً منها يعود إلى فترة الألف الثالثة قبل الميلاد وعند مقارنة النقوش في هذه المواقع ونتائج تنقيبات الموقع نفسه يتضح أن هذه النقوش أقدم من غيرها من النقوش المدروسة وربما تعود إلى نفس فترة الموقع وهو من العصر الحجري الحديث حوالي ٥٠٠٠ إلى ٤٠٠٠ ق.م [١٩].

* فلسطين :

تعد منطقة فلسطين وبحكم موقعها الجغرافي من أهم وأعنى المناطق في العالم العربي بالأثار والمخلفات البشرية منذ عصور ما قبل التاريخ والفترات اللاحقة لها وقد تأكد بالدليل الأثري أن أقدم الأنواع البشرية قد سكن هذه المنطقة حيث عثر على أدوات حجرية حصوية قليلة التهديب مع عدة قطع عظمية لجمجمتين وسن واحدة تعود للإنسان في تل العبيدية بالقرب من الساحل الجنوبي لبحيرة طبرية.

وهذه الآلات تشبه الآلات البدائية التي وجدت في مواقع ما يسمى بـ «القرن البشري» في أفريقيا ووجدت كذلك آلات من العصر الحجري القديم في كهف الطابون بجبل الكرمل وأم قطفة في شمال غرب البحر الميت [٢٠].

وعثر كذلك على بقايا عظام إنسان نياندرتال في مغارة الطابون ومغارة السخدل بجبل الكرمل ومعها

المناطق المجاورة لمدينة العين على مجموعات من الأدوات الحجرية الصوانية على سطح أكوام من الرمال المتماسكة على بعد عدة مئات من الأمتار من أقدم التلال، ووجدت حوالي عشرة منها في الجنوب من وادي العين ويغلب على هذه اللقى لون بني غامق، ولا يمكن تحديد تاريخها بدقة والغالب أنها من عصر متأخر كالعصر الحجري الحديث [١٦].

وقد تم الكشف كذلك عن موقع لفخاريات العبيد في إمارة أم القيوين حيث قام كل من ر. بوشارلاو إي. هيرنيك بالكشف عن تل قوقعي صغير في إمارة أم القيوين وبه أحجار مصقولة وفخار ينتمي إلى نمط (العبيد) العائد إلى بلاد ما بين النهرين وقد أسفرت عينة من القواقع أخذت من سياق لم تنله يد بالتقليب حيث استقرت بقايا السكنى البشرية مباشرة على التل الرملي عن تقدير يرد عمرها إلى حوالي ٣٢٨٠ ويتألف ما تم اكتشافه من حوالي ١٤٠ من الرقائق ومثل شبيه بالقرص وأداة مستدقة صغيرة مصقولة ومشحونة وأداتين مستدقتين مغزليتي الشكل لهما جزء مشحون مزدوج الوجه وخرزة محارية ٥٠ وعلى أساس هذه العثورات تم تحديد عمر الموقع بصفة مؤقتة بأنه يعود إلى أواخر الألف الخامسة والألف الرابعة قبل الميلاد [١٧].

ومن أهم مكتشفات العصر الحجري الحديث في دولة الإمارات العربية المتحدة النقوش الصخرية المكتشفة على سفوح الجبال المنقوشة على بعض الصخور على الطرق الرئيسية القديمة وبالذات قرب الويدان أو العين أو شواطئ البحار، وبالتحديد عثر على هذه النقوش في المناطق الجبلية من رأس الخيمة شمالاً وتستمر مع سلسلة جبال عمان

** صناعة المستقبل لا تقوم ولا تستقيم إلا بدراسة الماضي واستقرائه.

أدوات حَجَرِيَّة تعود إلى
العصر الحجري القديم
وتؤرخ بحوالي
١٠٠,٠٠٠ عام.

وبعد انتهاء
البلايستوسين وتلاشي
حضارات العصر

الحجري القديم بعد
توابع النطاق الجليدي
الأخير يبدأ عصر جديد

هو العصر الحجري

الوسيط الذي يفصل بين عصر الصيد وجمع الطعام
وبين عصر الزراعة وتربية الحيوان، وقد ظهرت آثار
ذلك العصر في وادي النطوف في فلسطين وتتسبب إليه
حضارة من أشهر حضارات الشرق الأدنى في تلك
المرحلة وهي الحضارة النطوفية، وقد سكن إنسان هذه
الحضارة الكهوف أو على مصاطب أمام هذه الكهوف
في جبال فلسطين والكرمل [٢١]، وقد اعتمد النطوفي
على الصيد كمصدر للغذاء حيث كشف عن شصوص
صيد الأسماك وكذلك عثر على العديد من الأدوات
الحجرية مثل السكاكين والأزاميل والمقاشط ورؤوس
السهام، واستخدم كذلك عظام الحيوان لصناعة
أدواته [٢٢].

وفي تلك المرحلة بدأت معالم الانتقال من المجتمع
الجامع للطعام إلى المجتمع المنتج له وقد عثر على عدد
من الأدلة الأثرية المعبرة عن الفكر الديني في تلك
الحضارة مثل بعض المقابر الفردية والجماعية التي
تؤكد اعتقاد إنسان تلك الحضارة في الحياة
الآخرة [٢٣].

وفي أريحا انتقل الفلسطيني القديم من العصر
الوسيط إلى العصر الحجري الحديث حيث حياة
الاستقرار والزراعة وصناعة الفخار والانتقال من حياة
الكهوف إلى السكن المبني داخل مستوطنة كبيرة يحيط
بها سور كبير لحمايتها وذلك في أريحا وأبي غدش
والخيّام وتل طور موسى [٢٤].

** سوريا ولبنان :

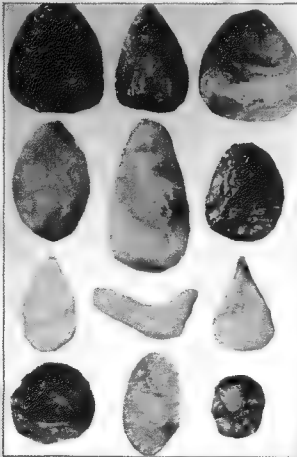
لقد وفرت منطقة سوريا ولبنان كل مقومات عيش
واستمرار إنسان ما قبل التاريخ ولذا نجد آثار هذا
الإنسان في كل مكان تقريباً وبخاصة في وديان
الأنهار وعلى شواطئ البحيرات والبحار وقد ضمت
التكوينات الجيولوجية الكثير من آثار الإنسان الأول
وبخاصة الأدوات الحجرية.

وأقدم آثار الإنسان في بلاد الشام تعود إلى
العصر الحجري القديم الذي بدأ هنا منذ حوالي مليون
سنة واستمر حوالي ١٠٠,٠٠٠ سنة [٢٥]، فقد عثر في
منطقة ست مرخوفي حوض نهر الكبير الشمالي في
محافظة اللاذقية في سوريا على أقدم مجموعة من
الأدوات هي فؤوس وقواطع ومعاول وسواطير وشظايا
ونوى [٢٦].

وفي لبنان وجدت أدوات وأسلمة من قطع الصوان
بشكل خشن على هيئة فؤوس يدوية أو مقاشط أو
سواطير في كهف عدلون الواقع في منتصف الطريق
بين صور وصيدا وعثر كذلك على آثار هذا الإنسان في
كهف أنطلياس وفي قصر عقيل [٢٧].

وتشير الدلائل إلى حدوث تغيرات مناخية تلت فترة
العصر الحجري القديم فغابات البحر المتوسط تراجعت
شمالاً ولذلك هجرت عدة مستوطنات قديمة وكذلك

الحجري القديم ويظهر من تطور بعض الآلات الحجرية في البحرين أن مستوطنات الصيادين في أواخر العصر الحجري القديم تحولت إلى نوع من الزراعة في الأجزاء الساحلية الغربية من الجزيرة في العصر الحجري الحديث وهذه الآلات عبارة عن قطع من حجر الصوان حادة وصغيرة وذات حافات مسننة كالمنشار استخدمت على ما يبدو كمنجل للحصاد ويلاحظ على بعضها لمعان يدل على استخدامها في قطع الحشائش ووجدت بين الآلات قطع من الصوان على هيئة رؤوس سهام لأن الإنتاج الزراعي كان يدعمه صيد الحيوانات [٢٩].



أنماط مختلفة من الأدوات الحجرية تعود للعصر الحجري القديم

اتجاه عدد من التلّوطين شمالاً إلى سوريا شعيماً وراء حيوانات الصيد، إذ عثر على مواقع نطوقية في منطقة البقاع مثل جبل السعدية وفي مريبط على الضفة الشرقية من نهر الفرات إلى الشرق من مدينة حلب بنحو ٨٠ كيلو متراً وعثر في مريبط على بقايا أكواخ طينية مستديرة الشكل وآلات حجرية جميعها من الصوان ومعظمها هندسية الشكل بهيئة الهلال والمعين والمثلث منها مثاقب ومناجل ومقاشط ورؤوس سهام وفؤوس ومخارز.

وفي نهاية العصر الحجري الوسيط وبدايات العصر الحجري الحديث انتقلت مراكز الحضارة من فلسطين إلى سوريا ولبنان حيث كان للجفاف تأثير أقل، ففي تل الرماح بالقرب من قطنا كشف عن آثار قرية زراعية وجد فيها فخار أحمر اللون [٢٨] وفي بقراس على الضفة اليمنى لنهر الفرات وجدت آثار قرية فيها بيوت مسورة مبنية بالطوب وبداخلها آلات حجرية كالرعي والمناجل وفخار مصقول وعظام للماعز والغنم المدجن وفي لبنان ظهرت حضارة الجبيل المبكرة وهي تمثل تطوراً ساحلياً للمستوطنات من النطرون حتى صيدا وكان هذا المستوطن على عين ماء وشيدت بيوته بالبردي.

** البحرين والكويت :

إن أسبق دول الخليج في البحث الأثري هي البحرين فالبعثة الدانمركية عملت بها كأول منطقة وذلك في موقع باريان الذي عثر به على فخار ملون يعود لفترة «حمدة نصر» التي تؤرخ بحوالي ٢٠٠٠ عام قبل الميلاد.

وعثر كذلك في البحرين على بعض مواقع للعصر

المناطق المحيطة به مثل البحرين والإمارات، بل وصل كذلك الى ايران حيث عثر على أوان فخارية ذات مقابض مزدوجة وهى مشابهة لما عثر عليه في موقع سيالك في إيران[٣٠].

ليبيا :

تعد ليبيا من أكثر الدول العربية ثراءً بآثار ما قبل التاريخ .. ولكنها تكاد تكون أقلها حظاً من البعثات والكشوف العلمية وربما يرجع ذلك لطروفها المناخية ولوجود أغلب مواقع تلك العصور البعيدة داخل قلب الصحراء مما جعل من الصعوبة بمكان الوصول إليها، إلا أنه وعلى الرغم من ذلك فقد قامت بعض البعثات الأثرية العلمية بالكشف عن مواقع لعصور ما قبل التاريخ في ليبيا حيث وجدت أدوات حجرية ممثلة لحضارة الحصى المشذب - وهى أقدم حضارات الإنسان - بالقرب من أماكن المحاجر القديمة حيث تم العثور على نماذج لها بالقرب من بشر الدوفاني شرق مدينة طرابلس وفي منطقة توكرة شمال شرق بنغازي وعند سفح الجبل الأخضر[٣١]، ثم ظهرت بعد ذلك صناعات العصر الحجري القديم النموذجية وذلك في الطبقة السفلى من كهف هوافتح الذى يقع الى الشرق من سوسة، كما تمثلت في آثار بشر الجرش في الصحراء الليبية بين جالو والكفرة وفي بعض مواقع فى رملة زلاف في فزان[٣٢] وتمثلت هذه الصناعات في الفؤوس اليدوية والمعاول ومثقبات وكرات حجرية.

ومن الجماهيرية الليبية جاءت آثار من العصور الحجرى الحديث من منطقتين رئيسيتين هما وادى الأجال حيث تم التقاط مجموعة من رؤوس السهام التى تظهر تنوع الأشكال ومهارة المصانع أما المنطقة الثانية



أدوات حجرية عبارة عن رؤوس سهام ونصال وتؤرخ بالآلاف السادس قبل الميلاد

وفي نهاية الساحل الغربى للخليج تقع الكويت وغالبية أرض الكويت متبسطة ذات شواطئ رملية مثل دبدة وليس في الكويت أنهار جارية سوى مجرى المقطع الذى يصب في الخليج العربي في خور المعطة جنوب شرقي الكويت ويضم رأس الخليج العربي جزراً مثل فيلكا ويويان وأم المرادم وقد تركزت المكتشفات الأثرية في الكويت في جزيرة فيلكا وبدأت عمليات الكشف الأثرى فيها في العام ١٩٥٨م حيث تم الكشف عن عدة مواقع لفترة العصور الحجرية ولكنها لم تدرس دراسة كافية حتى الآن .. وقد أظهرت المكتشفات وجود علاقة بين إنسان الكويت القديم وجيرانه في

في المكان المعروف باسم «وادي عفو» [٢٥] كذلك عثر على فؤوس يدوية مصنوعة من الحصى في وادي حلفا في شمال السودان. وفي عام ١٩٦٥م عند جبل الصحابة الى الشمال من مدينة حلفا عثرت البعثة الأمريكية على خمسين هيكلًا عظمياً تبين أن عمرها ما بين ١٢,٠٠٠ إلى ٨,٠٠٠ أي إنها ترجع إلى العصر الحجري القديم وهي أكبر مجموعة من الهياكل البشرية من نهاية زمن البلايستوسين يعثر عليها في قارة أفريقيا على الإطلاق [٣٦].

أما العصر الحجري الوسيط فيتمثل في السودان موقع الخرطوم حيث ظهرت به ملامح ذلك العصر وقد صنع إنسان ذلك العصر في السودان ولأول مرة الأواني الفخارية بشكل غير مصقول ولكنه زيناها بالزخارف البسيطة. وصانع هذه الحضارة التي أخرجت للعالم أول أوان فخارية بحضارة السودان القديم على الإطلاق وربما كانت هي أقدم أوان فخارية من قلب أفريقيا وهو من النوع المتأثر بالسلالات الزنجية.

أما بالنسبة للعصر الحجري الحديث فقد كشفت عمليات الحفر والتنقيب في موقع الشهبيناب غربي شاطئ النيل [٢٧] عن بقايا أكواخ من العصر الحجري الحديث وجدت فيها عظام الأغنام والماعز وأوان فخارية سوداء اللون منقوشة بزخارف ذات خطوط متعرجة وهناك موقع آخر خاص بتلك الحضارة هو موقع شجود جنوب شرق النقة في منطقة البطانة [٢٨] وينتمي إلى تلك الحقبة كثير من النقوش الصخرية التي عثر عليها مسجلة على صخور النوبة المصرية والسودانية وجدير بالذكر أن كثيراً من مظاهر حضارة العصر الحجري الحديث

فهي جبل الأكاكوس ومكتشفاته عبارة عن شقف فخارية عليها محاولات للترزين ونماذج من البلط الطرائية ورووس سهام ذات أشكال متنوعة [٢٢]. ولا نستطيع الحديث عن ما قبل التاريخ في ليبيا دون ذكر نقوش ما قبل التاريخ في الصحراء الليبية حيث تزخر الصحاري الليبية بمئات الآلاف من اللوحات الفنية أغلبها نقوش غائرة على صفائح الصخر في الكهوف والملاجئ الجبلية وتتركز الرسوم الملونة لفترات ما قبل التاريخ على المناطق الجنوبية من الجماهيرية وتكثر هذه النقوش في وديان جنوب الحمادة الحمراء وفي المرتفعات الصخرية ما بين وادي الأجال ووادي البرجوج، كما توجد في مرتفعات أكاكوس في أقصى الجنوب الغربي. وإذا تعمنا في الموضوعات التي تمثلها هذه النقوش وجدنا أغلبها يخص الحيوانات الاستوائية الكبيرة مثل الفيلة والزراف ووحيد القرن والتماسيح ويمثل بعضها الآخر نقوشاً لأبقار وأشكال إنسانية بشكل مجرد [٢٤].

** السودان :

تتفق الأبحاث الأثرية على أن السودان قد شهد العصور الحجرية بأنواعها المختلفة ويؤكد ذلك المخلفات الحضارية الخاصة بتلك العصور التي عثر عليها في مناطق عديدة من السودان، وأولى تلك المخلفات أدوات حجرية تنتمي للعصر الحجري القديم واكتشفت في المكان المعروف باسم «خور أبو عنجه» ويقع غرب النيل وتلك الأدوات عبارة عن فؤوس يدوية يدائية الصنع وعثر على مثيلاتها في مكان آخر يسمى «وادي سيرو» كما عثر عليها كذلك

الوجه ذات شكل كروي وأخرى ثلاثية الأوجه بالإضافة إلى قطع شبه كروية [٤١].

وبالنسبة للمغرب يضاف إلى مجمل صناعات العصر الحجري القديم صناعة مغربية الطابع وهي صناعات أطلق عليها الصناعات العاطرية نسبة إلى بئر العاطر بتونس وهي حضارة مغربية صميمة نبتت في المغرب ثم ما لبثت أن امتدت إلى مساحات بعيدة حتى وصلت إلى واحة الخارجة بمصر وأدوات هذه الصناعات عبارة عن اتصال مدببة ومقاشط وأدوات أحادية الوجه ذات ساق ونصال ورقية الشكل .

والمعتقد أن إنسان هذه المرحلة قد استخدم مواد أخرى غير الحجر كالعظام والخشب والجلود [٤٢] وتلي تلك المرحلة فترة تطور فيها الإنسان المغربي القديم حيث أصبحت آلاته أخف وزناً وأدق صنعةً وأصغر حجماً من الفترات السابقة، هذا، إلى جانب تقدم الفن التعبيري في الرسم [٤٣] ونحت الأحجار وصنع التماثيل.

ويطلق على هذه المرحلة في المغرب العربي اسم الحضارة القفصية نسبة إلى منطقة قفصه بتونس وأهم آلاتها الشفرات والأزاميل الجانبية والمقاشط ذات النهاية الحادة ونصال ذات من مطروق وتنتشر هذه الصناعات في المناطق الداخلية من تونس والمناطق الشرقية من الجزائر . أما بالنسبة للعصر الحجري الحديث فقد اقتصر في بادئ الأمر في المغرب العربي على الرعي وتدجين الحيوانات إلى جانب بعض الإنتاج الزراعي المحدود واستمر ذلك فترة طويلة من الزمن حتى أواخر الألف الثاني قبل الميلاد وبداية معرفة صناعة المعادن [٤٤].

بالفرطوم كان لها نظير معاصر يتمثل في حضارة العصر الحجري الحديث بمنطقة الفيوم في مصر ومن المواقع الهامة التي تنتمي إلى العصر الحجري بالسودان «قاديرو» و«قيلي» و«أكيا» و«جيلي» [٢٩].

** المغرب العربي :

تعد منطقة المغرب العربي (المغرب - تونس - الجزائر) من أقدم المناطق التي استوطنتها الإنسان القديم وقد أكد ذلك كثير من الشواهد الأثرية حيث عثر على آلات حجرية تعود لبدايات العصور الحجرية التي يطلق عليها الآلات الحصوية وهي عبارة عن فؤوس بدائية الصنع قليلة التشظية والتشذيب وعثر على نماذج من هذه الآلات في مواقع قفصه بجنوب تونس وموقع سيدي منصور بمنطقة قفصه وكذلك في موقع الحنش في الجزائر وموقع الحنك قرب الدار البيضاء في المغرب وموقع سيدي عبد الرحمن في المغرب أيضاً وتؤرخ تلك الفترة فيما بين ٥٠.٠٠٠ إلى ٢٢.٠٠٠ سنة قبل الميلاد [٤٥].

أما بالنسبة لمرحلة

العصر الحجري القديم فقد عثر له على مواقع متعددة في جميع أقطار المغرب العربي ويتميز هذا العصر بأدوات حجرية متقنة الصنع من حجر الكوارتزيت الرمادي والحجر الرملي الأخضر وأدواته عبارة عن فؤوس يدوية ثنائية

**** العصر الحجري القديم يشمل نحو ٩٩% من تاريخ حياة الإنسان على الأرض .**



نقش صخري لسفينة ترجع لآلاف الثالث قبل الميلاد ويظهر بها مجموعة لمجانييف على جانبي السفينة والنقش من جبل الجساسية (قطر)



نقش صخري يصور بقرة .. ويؤرخ بالآلف الثامن قبل الميلاد .. وهو من الصحراء الليبية

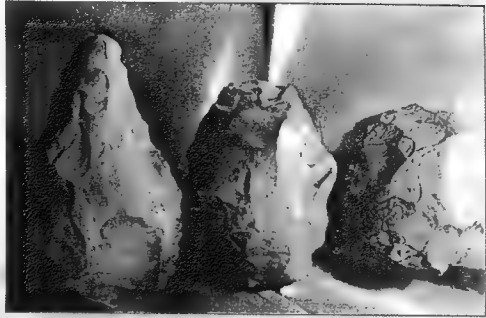
المكتشفة في شمال العراق، وكشف به عن أربع طبقات أثرية تمثل كل عصور ما قبل التاريخ في العراق وأهم مكتشفاته، وفي الطبقة الرابعة عثر على هيكل عظمية بشرية من نوع إنسان نياندرتال الذي

** العراق :

أظهرت الأبحاث الحديثة أن العراق كان من الأقاليم التي تميزت ببيئة طبيعية مزدهرة في عصوره القديمة حيث ثبت أن المناطق العراقية التي هي قاحلة في العصور الحديثة كانت عامرة بالحياة النباتية والحيوانية مما جعلها بيئة نموذجية لإنسان العصور الحجرية، وأكدت ذلك المكتشفات الأثرية الحديثة وخاصة تلك التي تعود إلى العصر الحجري القديم حيث عثر على آثار إنسان هذا العصر في عدة مواقع عراقية أهمها: (بردة بالكا) وهو موضع على بعد نحو ميل ونصف شمال شرق جمجال وعثر على أدوات حجرية ذات حدين وقؤوس كمثريّة الشكل ويغضّر نماذج من الأدوات الحصوية [٤٥].

ومن المواقع الهامة كهف «هزار ميرد» ويقع على بعد ١٢ ميلا جنوب السليمانية وكذلك كهف «زرزي» وكهف «شانيدر» الذي يعد أكبر وأشهر الكهوف

وظهرت أولى ملامح
العصر الحجري الحديث في
العراق في قرية «جرمو» في
شمال العراق حيث عثر بها
على أقدم نماذج الفخار
العراقي وهي أولى قرى
العصر الحجري الحديث [٤٨]
وهنا في «جرمو» ظهر الدليل
وللمرة الأولى على وجود
الزراعة في العراق وخاصة
زراعة القمح والشعير والعس
وكذلك قاموا باستئناس كل
من الماعز والكلب وكانت



أدوات حصوية من العصر الحجري القديم
تؤرخ بحوالي مائة ألف قبل الميلاد

الصناعة الحجرية تتكون بشكل أساسي من الصوان
الذي أضيف له الزجاج البركاني «الابوسيديان»
المستورد من شرقي الأناضول [٤٩] حيث صنع منه
أدوات مثل الفؤوس والرحى والمدقات والمجاش
والسكاكين والمناجل والنصال المثيتة بواسطة القار إلى
مقايض خشبية بالإضافة إلى الأدوات الصغيرة
«القرمية» ذات الأشكال الهندسية، وعثر في «جرمو»
على قلادة من خرز حجري وأساور وخواتم ودمى تمثل
المعبودة الأم.

ومن المظاهر الهامة بقرية جرمو بداية معرفة
الإنسان العراقي القديم ببناء بيته من اللبن - بعد سكناه
الأكواخ البدائية - ويضع بيوت جرمو كانت ذات
أساس من الحجر وجدرانها مكنسة بطبقة من الطين
الناعم وكذلك كانت الأرضية [٥٠].

ومن المواقع الهامة بالعراق المثلثة للعصر الحجري
الحديث قرية «حسونة» وهي ثاني أقدم قرية عراقية بعد

يؤرخ بالفترة فيما بين ٦٠٠٠ - ٤٥٠٠ قبل
الميلاد [٤٦] وعثر معه على أدوات حجرية عبارة عن
مناقب ومبنيات ومقاشط.

تلي ذلك مرحلة حضارية أخرى تميزت بالأدوات
الصغيرة الحجم «القرمية» وتمثلت تلك المرحلة في كهف
«زرزي» في السليمانية تحول بعدها الإنسان العراقي
إلى العصر الحجري الوسيط الذي ظهر خلاله علامات
انتقال الإنسان إلى مرحلة جمع الحبوب البرية وظهور
البواصر الأولى لأعمال زراعية تجريبية محدودة مع
محاولات أولية لاستئناس الحيوانات وأشهر مواقع ذلك
العصر «زاوي شمي» و«كريم شهر» و«ملفغات»
و«كردي شاي» ومن أدوات تلك المواقع المجاش
والهاونات والمدقات ومناجل مصنوعة من العظام ورحى
حجرية كما كشف داخل أحد المواقع عن بيوت محفورة
في الأرض وهي جدران مبنية بالحجارة وأرضيات
مطلية بالحجارة والحصى [٤٧].

بالأقصر وفي أبيدوس وإسنا والفيوم وفي منطقة أم النور بالقرب من نجع حمادى وفي منطقة الجبل الأحمر بالعباسية وفي نجع أحمد الخليفة وهو الموقع الوحيد الذي يعود الى هذا العصر وخضع للتنقيب العلمي الدقيق [٥٢].

تلي تلك المرحلة حضارة العصر الحجري القديم وفيها تطور الإنسان وطور معه أدواته الحجرية فقام بتقليل أحجامها وترقيق سمكها وتشذيب أطرافها فجعلها حادة قاطعة غير متعرجة وجعلها تشبه هيئة البياضى الكامل [٥٣].

وهناك تطور لاحق يتمثل في الأدوات المصنوعة من الشظايا الحجرية الرقيقة التى أعيد تهذيبها وعثر على نماذج منها في منطقة «الشويخات» بالقرب من قنا في صعيد مصر حيث تقع معظم مواقع العصر الحجري القديم الذى شغل الفترة من ٢١ ألف سنة إلى ١٢ ألف سنة قبل الميلاد [٥٤]. بعد ذلك حدث الانقطاع الأساسى بين عصور ما قبل التاريخ والعصور التاريخية، أنها فترة غير معروفة جيداً تفصل بين امتداد العصر الحجري القديم والعصر الحجري الحديث [٥٥]. وتمثل الفترة بين ١١ ألف سنة وبين ٨ آلاف سنة ق.م فجوة واضحة في دليل النشاط البشرى بوادي النيل ما لم تكن بقايا تلك الفترة قد اختفت تماماً تحت الرواسب الطينية إلا أن مخلفات الوجود البشرى تعود للظهور عند نهاية هذا الفاصل الزمني في وقت قلت فيه كميات المطر مما نتج عنه مجموعة من التغيرات المناخية حيث بالإنسان القديم الى ترك مستوطناته القديمة واللجوء الى الوادي وكان ذلك هو أول التحول إلى العصر

«جرمو» ثم قرية «الصوان» وقرية «مطارة» و«نينوى» ٠٠ أما مرحلة العصر الحجري النحاسي فهي من أهم الحضارات التى شهدها العراق وتتكون من أربعة فصول حضارية وتؤرخ زمنيا بالفترة فيما بين ٥٠٠٠ - ٣٠٠٠ قبل الميلاد وهذه الفصول هي العبيد - الوركاء - جمدة نصر - مسيلم.

وهذه الحضارات الأربع ثبت وجودها في كل أنحاء العراق شماله ووسطه وجنوبه كما ثبت وجودها في الخليج العربي وفي منطقة شرق جزيرة العرب.

*** مصر :

لم يكن المعروف من تاريخ مصر يرجع حتى سنة ١٨٩٥م إلى أقدم من عهد الملك سنفرؤ أي حوالي ٢٦٠٠ ق.م إلا أن عالم الآثار الإنجليزي بترى وفي شتاء عام ١٨٩٥م كشف بإحدى قرى صعيد مصر عن أول مواقع عصور ما قبل التاريخ في مصر تلي ذلك مجموعة كبيرة من الاكتشافات التى تمت على أيدي علماء آثار مصريين وأجانب لمواقع متعددة من شتى مراحل عصور ما قبل التاريخ واليوم يتفق علماء المصريات على أن الجانب الأكبر من مقومات الحضارة الفرعونية يضرب جذوره في الماضي السحيق لعصور ما قبل التاريخ.

وقد أثبتت الأبحاث أن مصر في العصر الحجري القديم كانت ذات مناخ حار رطب مما ساعد على انتشار الحيوانات والنباتات الكثيفة [٥٦] وتلك هي البيئة النموذجية لإنسان العصر الحجري حيث عثر على مخلفات هذا الإنسان من الأدوات الحجرية في عدة مواقع بمصر وأهمها منطقة بيبان الملوك

- (٢) عباس سيد احمد - ما قبل التاريخ في الجزيرة العربية - مجلة الدارة السعودية - العدد الثالث - السنة السادسة والعشرون.
- (٣) يوريس زار ينس وزملاؤه - حواية أطلال الاثارية - العدد الرابع ١٩٨٠م.
- (٤) عباس سيد احمد - مصدر سابق ص ٩٧.
- (٥) تقي النباغ - الوطن العربي في العصور الحجرية - دار الشؤون الثقافية العامة - الطبعة الاولى - بغداد ١٩٨٨م.
- (٦) يوريس زار ينس وزملاؤه - حواية أطلال الاثارية - العدد الثالث ١٩٧٩م.
- (٧) عبد الرزاق المعمرى - ثقافتان من العصر الحجري الحديث في الجزيرة العربية - مجلة ادوماتو العدد الأول ٢٠٠٠م.
- (٨) تقي النباغ - مصدر سابق ص ٦٢.
- (٩) درويش مصطفى الفار - صفحات عن ما قبل التاريخ في قطر أبحاث البعثة الدانمركية المجلس الوطني للثقافة والفنون والتراث النوحة - الطبعة الثانية ٢٠٠٠م.
- (١٠) محمد عبد النعيم - قطر آثار ما قبل التاريخ وفجرة الرياض ١٩٩٨م.
- (١١) ماري لويز اينيزان وآخرون - البعثة الفرنسية للكثار في قطر - المجلد ٢ فترة ما قبل التاريخ في قطر - باريس ١٩٩٨م.
- (١٢) محمد عبد النعيم - مصدر سابق.
- (١٣) تقارير البعثة العراقية العاملة في دولة الإمارات العربية - متحف العين ١٩٧٣م.
- (١٤) ناصر حسين العبدوي - النقوش الصخرية في دولة الإمارات - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - المؤتمر الثالث عشر - طرابلس ١٩٩٧م.
- (١٥) ناصر حسين العبدوي - دراسات في آثار وتراث دولة الإمارات العربية المتحدة - المجمع الثقافي مؤسسة الثقافة والفنون - أبو ظبي - الطبعة الأولى ١٩٩٠م.
- (١٦) تقي النباغ - مصدر سابق ص ١٣٩.
- (١٧) ر. بوشارلا - إي. هيرنيك - مذكرة مختصرة عن

الحجري الحديث حيث اتجه المصريون إلى تنويع الرزق والرقى بالصناعة الحجرية وابتداع صناعات أخرى مستحدثه، وظهرت لهم في هذا السبيل تسعة مجالات هي استئناس الحيوان وتربيته والاهتداء إلى زراعة الأرض والاستقرار بجانبها وصقل الأدوات الحجرية والارتقاء بها والاهتداء الى صناعة الفخار وتنويع أشكال الأواني وألوانها وبداية التمسك على عمل الحصير والسلال وغزل الكتان ونسجه ومحاولة صنع الأواني الحجرية والاهتمام بأدوات الزينة ووضوح الاهتمام بالمساكن وبداية الاهتمام بمدافن الموتى وقرايبيهم[٥٦].

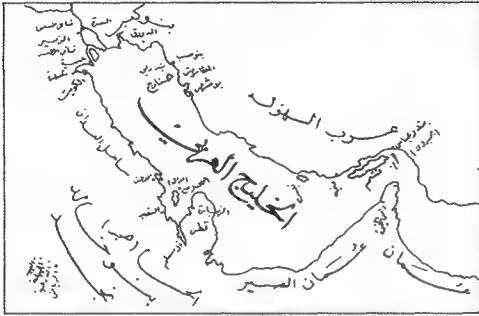
ومن أشهر مواقع العصر الحجري الحديث في مصر منطقة الفيوم وممردة بنى سلامة وحلوان وذلك في شمال البلاد «مصر السفلى» أما «مصر العليا» في الجنوب ففيها مواقع البداري ودير تاسا ومستجدة والهامة والطارف.

أما العصر الحجري النحاسي الذي بدأ عند أواسط الألف الخامس قبل الميلاد على وجه التقريب وامتد حتى بداية عصور الأسرات في نهاية الألف الرابع ق.م. وقد ظهرت آثار هذا العصر في منطقة البداري بشبوت ومنطقة قادة والعمره وما حولهما في قنا وسوهاج ومنطقة أبي صير الملق وجيزة عند مدخل الفيوم ومنطقة المعادي وطره وعين شمس بالقرب من الدلتا[٥٧].

الهوامش :

- (١) بيتر بار وزملاؤه - التقرير المبني عن المرحلة الثانية لمسح المنطقة الشمالية في سنة ١٩٧٧م حواية أطلال الاثارية - العدد الثاني ١٩٧٨م.

- (٣٦) نفس المصدر ص ٢٣.
- (٣٧) تقي الدباغ - مصدر سابق ص ١٢٩.
- (٣٨) محمد ابراهيم بكر - مصدر سابق ص ٢٥.
- (٣٩) بياتريكس ميدان رئيس - عصور ما قبل التاريخ في مصر - القاهرة - دار الفكر للدراسات والنشر والتوزيع - الطبعة الاولى ٢٠٠١ م.
- (٤٠) تقي الدباغ - مصدر سابق ص ٢٢.
- (٤١) حسن الشريف - مصدر سابق ص ٢٥٥.
- (٤٢) نفس المصدر ص ٢٧٧.
- (٤٣) منصور غافقي - الرسوم والنقائش الحجرية في تونس - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - المؤتمر الثالث عشر - طرابلس ١٩٩٧ م.
- (٤٤) رشيد الناصري - المغرب الكبير - العصور القديمة - الاسكندرية ١٩٦٦ م.
- (٤٥) حسن الشريف - مصدر سابق ص ٨٦.
- (٤٦) مجلة سومر - المجلد ١٤ سنة ١٩٥٨ م.
- (٤٧) تقي الدباغ - مصدر سابق ص ٨٧.
- (٤٨) أحمد سوسة - حضارة وادي الرافدين - بغداد - دار الرشيد ١٩٨٠ م.
- (٤٩) جيمس ميلارد - مصدر سابق ص ٦٢.
- (٥٠) نفس المصدر ص ٦١.
- (٥١) ابراهيم رزقانه - الجغرافية التاريخية - القاهرة - مكتبة الآداب ١٩٦٦ م.
- (٥٢) بياتريكس ميدان رئيس - مصدر سابق ص ٤٩.
- (٥٣) عبد العزيز صالح - حضارة مصر القديمة وآثارها - القاهرة - مكتبة الانجلو - ط ٢ - ١٩٩٢ م.
- (٥٤) جيفري سبنسر - مصر في فجر التاريخ - ترجمة/ عكاشة الدالي - مراجعة/ تحفة هندوسة - القاهرة - المجلس الاعلى للآثار ١٩٩٩ م ص ٢٤.
- (٥٥) نيقولا جريمال تاريخ مصر القديمة - ترجمة/ مافر جويجاتي - القاهرة - دار الفكر للدراسات - الطبعة الثانية ١٩٩٣ م ص ٣٠.
- (٥٦) عبد العزيز صالح - مصدر سابق ص ٧٩.
- (٥٧) نفس المصدر ص ١١٣.
- موقع فخاريات العبيد في اماره ام القيوين - ترجمة/ كامل يوسف حسين - مراجعة/ ناصر العبودي - مجلة دراسات العدد السادس اتحاد كتاب وأدباء الإمارات ١٩٩٣ م.
- (١٨) ناصر حسين العبودي - النقوش الصخرية - مصدر سابق ص ٢٤٧.
- (١٩) نفس المصدر ص ٢٤٧.
- (٢٠) تقي الدباغ - مصدر سابق ص ٤٥.
- (٢١) جيمس ميلارد - أقدم الحضارات في الشرق الأدنى - ترجمة محمد طلب - دار دمشق للطباعة والنشر - الطبعة الاولى ١٩٩٠ م.
- (٢٢) تقي الدباغ - مصدر سابق ص ٨٩.
- (٢٣) رشيد الناصري - تاريخ الفكر الديني - دار مكتبة الجامعة العربية - بيروت ١٩٦٩ م.
- (٢٤) تقي الدباغ - مصدر سابق ص ١٣٢.
- (٢٥) سلطان محيسن - بلاد الشام في عصور ما قبل التاريخ - الأبجدية للنشر - دمشق الطبعة الاولى ١٩٨٩ م.
- (٢٦) نفس المصدر ص ٧٣.
- (٢٧) تقي الدباغ - مصدر سابق ص ٤٥.
- (٢٨) الصالبيات الأثرية العربية السورية - المجلد ١٦ - الجزء الثاني ١٩٦٦ م.
- (٢٩) تقي الدباغ - مصدر سابق ص ١٣٨.
- (٣٠) ناصر حسين العبودي - دراسات في آثار وتراث دولة الإمارات ص ٢٥.
- (٣١) محمد مصطفى بازان - تاريخ ليبيا - الجزء الأول - بنغازي ١٩٧٣ م.
- (٣٢) حسن الشريف - عصور ما قبل التاريخ - الجزء الأول - الإسكندرية ١٩٩٨ م.
- (٣٣) نفس المصدر ص ٢١٩.
- (٣٤) جمعة محمد العناق - نقوش ما قبل التاريخ في الصحراء الليبية - المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم - المؤتمر الثالث عشر - طرابلس ١٩٩٧ م.
- (٣٥) محمد ابراهيم بكر - تاريخ السودان القديم - دار المعارف - القاهرة - الطبعة الثانية ١٩٨٧ م.



شكل يبين أهم المدن
والبلدات والقبائل
العربية
التي كانت في منطقة
الخليج العربي منذ
قديم الزمان.

قراءة جديدة في تاريخ

الخليج

العربي منذ

أقدم العصور

إن منطقة الخليج العربي طرات عليها تغيرات مناخية وبيئية متباعدة خلال العصور التاريخية المتتالية منذ أقدم العصور، فقد أكدت الدراسات أن بيئة منطقة الخليج العربي كانت معتدلة وذات كميات كبيرة من الأمطار المتساقطة خلال الفترة المحصورة بين ١١ - ١٠ ألف سنة قبل الميلاد حيث تتخللها أنهار المياه العذبة والبحيرات المترامية الأطراف والغابات الغناء والمساحات الخضراء الغنية بمختلف أنواع الحيوانات والنباتات والزرع فكانها كانت جنات الله تعالى على أرضه.

بينما كان التجمد والجليد سائدا في معظم الجانب الشرقي من اليابسة المطلة على منطقة الخليج العربي وكذلك في شمال شبه الجزيرة العربية حيث بلاد الرافدين وبلاد الشام اليوم، في الوقت الذي كان سائدا في شبه الجزيرة العربية حينها مناخ دافئ مع تساقط كميات أمطار جيدة جداً، مما جعل شبه الجزيرة العربية المكان المناسب لحياة كل من آدم وحواء ونسلهما دون غيرهم من مناطق الشرق الأوسط وما جاورها حيث كان الجليد سائدا فيها أيضاً، علماً أن مياه الخليج العربي لم تظهر بعد.



إهداء

- دكتوراة بايولوجي زراعة - عمل في عدد من الجامعات.
- رئيس قسم العلوم الأساسية جامعة التحدي - ليبيا.
- استاذ الاحياء المجهرية والكيمياء الحيوية - كلية العلوم جامعة الانبار - العراق.
- محاضر في كلية الزراعة - جامعة نيوكاسل - بريطانيا.
- له ٢٧ كتاباً ٠٠ ومجموعة من البحوث والدراسات.

ملها في الميلاد، لذلك كانت تعرف شبه الجزيرة العربية في ذلك الوقت أي خلال الألف الخامس قبل الميلاد باسم بلاد الإله [٢].

{إن أول بيت وُضع للناس للذي ببكة مباركاً وهدى للعالمين} (سورة آل عمران الآية / ٩٦).

أي أن سكان شبه الجزيرة العربية هم أول شعب عرف الله سبحانه قبل غيرهم من شعوب العالم وهذا يتطابق مع ما جاء في القرآن الكريم أيضاً وتشير إليه الآية المذكورة، ولذلك فإن أول بناء بُني للعبادة باذن الله سبحانه وتعالى كان بكة في شبه الجزيرة العربية، وهو بيت الله الحرام (البيت العتيق) في مكة المكرمة اليوم، وقد بُني قبل ميلاد نبي الله ابراهيم (عليه السلام) بزمن طويل، وقد عاش خلال القرنين الرابع والثالث والعشرين قبل الميلاد، وقد أمره الله سبحانه برفع القواعد من البيت ٠٠ أي أن مهد الحضارات الإنسانية والديانات السماوية كانت في شبه الجزيرة العربية منذ بداية الخليقة والخليج العربي جزء منها.

تسمية الخليج العربي قبل الميلاد:

ان الخليج العربي أطلق عليه قديما تسميات

لتبدأ بعد ذلك الظروف المناخية والبيئية بالتباين مع بداية الألف العاشر قبل الميلاد والتغير تدريجياً، فتصبح شبه الجزيرة العربية عند الفترة ٧ - ١٠ آلاف سنة قبل الميلاد أكثر دفئاً وذات كميات أمطار أقل عما كانت عليه في الفترة السابقة فانتشرت فيها القبائل العربية نحو شمال وجنوب شبه الجزيرة العربية بحثاً وراء الماء والكلأ [١]، كما دفع البعض من هذه القبائل الى الهجرة من شبه الجزيرة العربية الى شمال الجزيرة العربية حيث بلاد الرافدين وبلاد الشام وبلاد النيل بسبب انحصار مناطق الجليد فيها وارتفاع درجات الحرارة نحو الدفء، وهذا ما أكدته المؤرخ موسكاتي [٢] فقال: لو تتبعنا تاريخ الموجات البشرية التي انطلقت في هجرات تاريخية ببقين نحو ما نسميه المشرق العربي لوجدنا أن هذه الهجرات كانت دائماً وأبداً تنطلق من شبه الجزيرة العربية (شكل رقم ١).

على الرغم من ذلك بقيت شبه الجزيرة العربية منطقة ذات مستويات مطرية جيدة ولغاية الألف الخامس قبل الميلاد وهي الفترة التي بدأ يتشكل فيها الخليج العربي وتحديداً خلال فترة ٤٥٠٠ سنة قبل الميلاد حيث كان يصب فيه مباشرة كل من نهري بجلة والفرات في ذلك الوقت، ولذلك نعتقد أن هذه الفترة كانت فترة الطوفان العظيم التي أنجا الله سبحانه منها نوحاً عليه السلام ومن آمن بالله من قومه بالفلك.

يؤكد ذلك ما تذكره المصادر ومراجع التاريخ القديم في أن الأرض التي عاش فيها العرب ومنذ أكثر من عشرة آلاف سنة كانت ومازالت تعرف باسم شبه الجزيرة العربية حيث سالت فيها حضارات عظيمة وأهمها حضارة قوم عاد التي لم ير

العربية وأطرافها وسواحلها كانت ترتبط بنشاط تجاري ورعوي وأحياناً سياسياً [٨]، وهو ما يعرف اليوم بالتجارة الحرة والاتحاد السياسي، فقد كانت في شبه الجزيرة العربية الكثير من الحضارات كحضارة عاد وثمود وكذلك المدن منذ أقدم العصور الإنسانية، ومن أهم هذه المدن والبلدات هي مكة (بكة) ومكان Magan (سلطنة عمان حالياً) وملوखा Melukha (دولة الإمارات العربية المتحدة) وبلون Delmon (مملكة البحرين حالياً) وبيت يقين Bait Yakin (دولة الكويت حالياً) وهذا هو ما نجده اليوم بين دول مجلس التعاون الخليجي من تواصل تاريخي بين الماضي والحاضر في هذه المنطقة أيضاً.

تسمية الخليج العربي بعد الميلاد (قبل الإسلام):

جاءت تسمية الخليج العربي (ساينوس أرابيкус) تحديداً لأول مرة على لسان سترابون الإغريقي (٥٨ قبل الميلاد - ٢٣ ميلادية) وهو في ذلك يستشهد بأقوال مؤرخين إغريق آخرين يعود تاريخهم إلى قبل القرن الثالث قبل الميلاد، مما يؤكد أن هذه التسمية كانت سائدة قبل الميلاد بعدة قرون قبل ميلاد نبي الله عيسى (عليه السلام) وغيرها من المسميات العربية التي أطلقت من قبل على الخليج كما اسلفنا، وهذا ما جعل هذه التسمية معروفة لدى شعوب آسيا مثل الهند والصين وبلاد الرافدين وبلاد أفريقيا كما في بلاد النيل (أي مصر والنوبة) والحبشة وشعوب أوروبا حينها مثل (الإغريق والرومان) والتي لم يكن في غيرها حضارات أخرى سائدة في ذلك الوقت، حيث يستثنى من ذلك الأقوام التي ظهرت خلال القرن الرابع قبل الميلاد وهي أقوام رعية لم يكن لهم حضارة في حينها

مختلفة فإن أقدم ما كان يطلق عليه هو اسم «بحر أرض الإله» ولغاية الألف الثالث قبل الميلاد [٤]، ثم أصبح اسم الخليج العربي بحر الشروق الكبير حتى الألف الثاني قبل الميلاد [٥]، وسمي بحر بلاد الكلدان في الألف الأول قبل الميلاد [٦]، ثم أصبح اسمه بحر الجنوب خلال النصف الثاني من الألف الأول قبل الميلاد [٧].

ولو لاحظنا هذه التسميات فسنجدها جميعها ولاء استثناء هي تسميات عربية الأصل حيث جميعها نسبت إلى أرض شبه الجزيرة العربية من حيث العبادة في الأولى وشروق الشمس في الثانية وكذلك بالنسبة للقوم الذين سكنوها أو موقعها الجغرافي عندما اعتبر الخليج العربي جنوب بلاد الرافدين.

لقد تحدث إيراتوستينس الإغريقي (٢٧٦ قبل الميلاد - ١٩٤ قبل الميلاد) كما أشار إلى ذلك سترابون الإغريقي فقال: إن مياه الخليج العربي عميقة ويستشهد على قوله بنمو أشجار تشبه الفار والزيتون قبالة مدينة مكان (سلطنة عمان) وقبالة مدينة ملوखा (دولة الإمارات العربية المتحدة)، فيذكر المؤرخ الإغريقي أن هذه الأشجار يمكن ملاحظتها فوق سطح الماء أوقات الجزر وتختفي أثناء المد في الخليج العربي، كما ذكر أن فم الخليج العربي ضيق (أي عند مضيق هرمز في وقتنا الحاضر)، وأن الساحل الأيمن من الخليج العربي دائري الشكل لينحرف عند فم نهر الفرات وهذا يؤكد (القول لكاتب هذه الدراسة) أن نهري دجلة والفرات كانا يصبان في الخليج العربي مباشرة بشكل انفرادي، وليس كما نجدهما اليوم يصبان في شط العرب.

كما أكدت الدراسات أن مدن وبلدات شبه الجزيرة

سواحل دولتي الإمارات العربية المتحدة وسلطنة عمان حتى يومنا الحاضر .

أما شط العرب فتأغلب الظن أن المسلمين شقوا شط العرب ليصب في الخليج العربي بعد تمصير مدينة البصرة (العام ١٤هـ) للحفاظ على المياه العذبة من الضياع في الصحراء أو في المياه المالحة في الخليج العربي . أو أن شط العرب قد تكوّن بفعل عوامل جيولوجية أو بيئية ، أو بفعل العاملين معا خلال تلك الفترة أو قبلها .

الهوامش :

(١) سوسة ، أحمد ١٩٨١م، تاريخ حضارة الرافدين، المطبعة الحكومية، بغداد، ص ٢٤٤ - ٢٤٥ .

(٢) Moscat, 1955. Histoire Des Peuples semitiques. Paris, page 32 - 33.

(٣) Breasted, J.H. 1906. Ancient records of Egypt Chicago, vol. II, Page 274.

(٤) Breasted, Page 284.

(٥) Luckenbill, D.D. 1924. The Annals of Sennacherib. Chicago, Page 35 and 38.

(٦) Winckler, H. 1889. Die Keilschrifttexte Sargons. Leipzig, Page 37.

(٧) King, L.W. 1907. Chronicles of Early Babylonian Kings. London, vol. II, page 131.

(٨) Weissbach, F.H. (none) Wissenschaftliche Veröffentlichungen der Deutschen Orient-Gesellschaft. (WDOG), vol. IV, page 7.

(٩) Minorsky v: and Al-Alam, H. 1937. The regions of the world, A Parsion geography. London, page 52.

أي أنهم ظهروا هناك بعد أن قضى (نبوخذ نصر) على الأقوام الأصليين في تلك المنطقة وهذا كان خطأ استراتيجياً في حينه وبقيت انعكاساته حتى يومنا الحاضر .

تسمية الخليج العربي بعد الإسلام :

ان تسمية الخليج العربي ظلت معروفة منذ قبل الإسلام واستمرت الى ما بعد الإسلام لدى سكان شبه الجزيرة العربية وما جاورها من مدن وبلدات في شرقها وغربها وشمالها وجنوبها من أقطار المعمورة، بل وظلت هذه التسمية سائدة حتى بعد ظهور الدولة العباسية، حيث أصبحت تسمية الخليج العربي باسم خليج العراق[٩]، إلا أن كاتب هذه الدراسة يجد أن الاسم الأخير هو تسمية مجازية من حيث الموقع الجغرافي الجزئي وليس الكلي بالنسبة لشبه الجزيرة العربية ولأسباب قد تعود الى أن الدولة العباسية كانت عاصمتها في العراق، وأن شبه الجزيرة العربية هي جزء من الدولة العباسية في ذلك الوقت فجاءت التسمية الأخيرة بتلك الصيغة ومع ذلك فهي تسمية عربية أيضاً وهذا ما جعل المسميات العربية التي أطلقت على هذا الخليج العربي ظلت مستخدمة على مدى آلاف السنين المتعاقبة وحتى وقتنا الحاضر .

يؤكد ذلك أيضاً ما ذهب إليه المؤرخ الأوربي سترابون الإغريقي في تسمية الخليج العربي فقال ان مياه الخليج العربي عميقة ويستشهد على قوله بنمو أشجار تشبه الغار والزيتون كما ذكرنا سابقاً، وهي في الواقع (والكلام لكاتب هذه الدراسة) أشجار القرم الموجودة بكثرة في الخليج العربي قبالة

دوافع وأهداف الحركة الصليبية من خلال تحليل خطبة البابا أوربان الثاني

تعد الحملة الصليبية الأولى التي انطلقت الدعوة إليها في الغرب عام ١٠٩٥م/ ٤٨٩هـ على يد البابا أوربان الثاني (١٠٨٨ - ١٠٩٩م/ ٤٨١ - ٤٩٣هـ) من أهم أحداث العصور الوسطى قاطبة، وترجع أهميتها إلى ما تركته من آثار بعيدة المدى على الدولة البيزنطية والشرق الإسلامي. وقد اختلف الباحثون في الماضي في تكييف ماهية هذه الحروب ودلالاتها ومغزاها، وما انطوت عليه من أهداف ومشاريع، فبعضهم يعيدها إلى أهداف اقتصادية وآخرون إلى أهداف اجتماعية أو دينية، على أن الذي يتفق عليه عديد من الباحثين أن هناك مجموعة عوامل ودوافع دينية واقتصادية واجتماعية وسياسية، قد تكاثفت وتكاملت لتعلن عن المشروع الغربي اللاتيني الذي تمثل في الحروب الصليبية التي شغلت قرنين من العلاقات والأحداث بين الشرق والغرب.





إضاءات

- دكتوراه الفلسفة في التاريخ.
- عمل في الصحافة السعودية.
- شغل وظيفة مدير تحرير مجلة (اقرأ).
- رئيس التحرير المكلف مجلة (اقرأ).
- عضو اتحاد المؤرخين العرب بالقاهرة، والجمعية التاريخية السعودية، وجمعية التاريخ والآثار لدول مجلس التعاون الخليجي.
- شارك في العديد من الندوات واللقاءات والمؤتمرات عربياً ودولياً.
- يعمل الآن رئيس قسم التاريخ - كلية الآداب - جامعة الملك عبد العزيز.
- يعمل مستشارا لمعالى وزير الحج في المملكة العربية السعودية.

أوضاع اجتماعية واقتصادية تضافرت في مجموعها إلى تهينة المجتمع الأوربي لقبول الفكرة التي طرحتها البابوية بإعلان الحرب الصليبية ضد المشرق، إلا أن الذي لا يمكن إنكاره أن الدوافع قد اختلفت لدى الهيئة البابوية عن تلك التي دفعت أفراد المجتمع الأوربي بطبقاته المختلفة.

وكانت السنوات العشر التي سبقت الدعوة إلى الحملة الصليبية الأولى سنة ١٠٩٥م/٤٨٩هـ سنوات صعبة بالفعل على سكان أوروبا ولا سيما في شمال فرنسا وغرب ألمانيا، إذ شهدت تلك السنوات سلسلة تكاد تكون متصلة من الفيضانات والمجاعات، فمنذ سنة ١٠٨٩م/٤٨٢هـ كان الربع يمتلك السكان في تلك القرى والمدن، فلا يتركها إلا وقد حصد أغلبية سكانها بالموت والعذاب البطيء، وجميع الوثائق المعاصرة تشير إلى سوء الأحوال الاقتصادية في

ففي واحدة من أهم فترات العصور الوسطى الأوربية، والتي تجمع معظم الدراسات التاريخية أنها تبدأ من القرن الثالث إلى القرن الثالث عشر الميلادي، حيث تبدأ بعد ذلك عصور النهضة المبكرة، وجدت أوروبا - وبالأصح البابوية التي كانت المحرك والمهيمن على الأحداث معظم هذه الفترة - كعلاج لكثير من مشاكلها الدينية والاقتصادية والاجتماعية والعسكرية، أن تعمل على تجريد هذه الحملات العسكرية ذات الجيوش الجرارة متخذة تبريرات دينية ثبت من الدراسات التاريخية المختلفة أنها لم تكن سوى ستار لأهداف أخرى توختها هذه الحملات وتسترت خلفها.

ولعبت الكنيسة الغربية اللاتينية دوراً هاماً في إعداد هذه الحملات والدعوة إليها والتريض عليها، ومارست ضغوطاً مختلفة على السلطات العلمانية للمشاركة في هذه الحملات وتعبئتها بالجيوش والمعدات المختلفة.

ولما كان الغرب الأوربي هو منطلق هذه الحروب، والشرق البيزنطي هو معبرها الأول، والشرق الإسلامي هو هدفها، فقد مثلت هذه الحروب حلقة هامة من حلقات العلاقات بين الشرق والغرب، سواء الغرب الأوربي اللاتيني والشرق الإسلامي أو الغرب اللاتيني والشرق البيزنطي.

وقد لعبت الأوضاع الاجتماعية والاقتصادية والإقطاعية في الغرب الأوربي دورها الكبير في انطلاق مشروع الحملات الصليبية من الغرب إلى الشرق. فقد سادت في الغرب الأوربي بصفة عامة

فقد رأى البابا أن الحملة تحقق له أربعة أهداف أخرى غير هدفها الرئيس الواضح وهو استعادة الأراضي المقدسة من المسلمين، فهي ستؤدي إلى إعادة توحيد العالم النصراني في الغرب اللاتيني بعد المنازعات المريعة داخل هذا الغرب، وستزيد في هيبة البابوية أمام السلطات العلمانية التي كانت تناصبه العداء، وستعمل على إنهاء الشقاق بين الكنيستين الشرقية والغربية (الارثوذكسية والكاثوليكية)، ووجود قوة مثل هذه ستجعل صاحب القوة هو المتحكم في إقرار شروطه فيصبح الإمبراطور البيزنطي معتمداً أو حتى خاضعاً لجيش لاتيني، وستحمل حلاً لمشكلة الفرسان الفرنسيين والجيش الإقطاعية الفرنسية، وتلبي حاجات الكثير من السادة الإقطاعيين والفرسان كما أنها ستسخر جهودهم وطاقاتهم في خدمة الكنيسة، وتهدى لهم مجالا خصباً يمارسون فيه تطلعهم للمغامرة والحروب، وحلاً مناسباً لزيادة عدد السكان وزيادة عدد الفرسان الذين لا يملكون أرضاً في فرنسا[٤].

على أن هناك دوافع وطموحات أخرى يقال إنها سيطرت على البابوية في تلك الفترة منها تحقيق عالمية الكنيسة وتوسيع دائرة نفوذها حتى تشمل الشرق الإسلامي إضافة إلى الشرق البيزنطي والغرب اللاتيني.

وهناك من المؤرخين من يرى أن الحروب الصليبية كانت السياسة الخارجية التي ارتكبتها الكنيسة كحل لكثير من

غرب أوروبا وبخاصة في فرنسا أواخر القرن الحادي عشر، فالمؤرخ المعاصر (جيورج توجينيت) يؤكد أن فرنسا بالذات كانت تعاني مجاعة شاملة، فند وجود الغلال وارتفعت أسعارها ارتفاعاً قاحشاً مما ترتب عليه حدوث أزمة في الخبز، وهذه الأزمة ألجأت الناس إلى أكل الأعشاب والحشائش[٥]، كما يذكر الراهب (رالف جلابير) أن مجاعة رهيبة استمرت خمس سنوات ضربت شتى أرجاء العالم الروماني، بحيث لم ينج إقليم واحد من المجاعة ونقص الخبز ومات كثيرون بسبب الجوع، وقال إن الأوربيين اضطروا إلى أكل الحيوانات والزواحف القذرة، كما أكلوا لحوم البشر[٦]، على أن الحدث الأجدر بالتسجيل هنا أنه في سنة ١٠٩٥م/ ٤٨٩هـ (سنة إعلان الحملة الصليبية) حدثت مجاعة رهيبة شملت معظم أنحاء الغرب الأوربي، وقد وصف (سجيجير الجامايوي) هذه السنة بأنها «سنة مصائب، تقشت فيها المجاعة في كل مكان، وأخذ الفقراء بها يهاجمون الأغنياء لكي يسرقوهم، واخذوا يشعلون النار حتى في

ممتلكاتهم»[٧].

ويبدأ مؤرخو الحروب الصليبية قديماً وحديثاً تناولهم للدعوة إلى الصروب الصليبية عادة بالإشارة إلى المؤتمر الذي عقد في مدينة كلير مونت الفرنسية وإلى خطبة البابا أوربان الثاني - في هذا المؤتمر - التي دعا فيها إلى الصروب الصليبية، لقد تجاوزت أصدااء دعوة البابا مع طموحاته التي أراد أن يحققها في ضربة واحدة.





وهدموا الكنائس... وإن سمحتم لهم بأن يتابعوا
عدوانهم يصبح احتلالهم وقهرهم لشعب الله المؤمن
أشمل وأعم، لذا وبصلاة خاشعة فإنني، لا بل إن الله
وليس أنا، يحتكم يا جنود المسيح على أن تحضوا
الرجال مهما كانت مراتبهم، فرساناً كانوا أم مشاة،
أغنياء كانوا أم فقراء، أن يسارعوا لسحق هذا
الجنس الخسيس من أراضينا ويمدوا يد العون
للسكان النصارى قبل فوات الأوان» [٧].

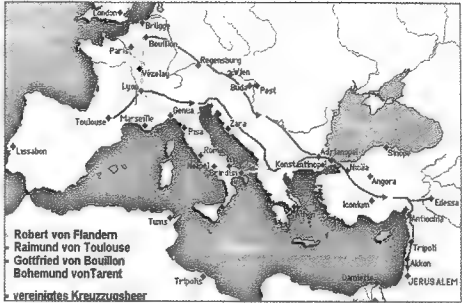
فهنا الهدف الأكبر استعادة القدس وإنقاذ الدولة
البيزنطية من هجمات الأتراك التي توشك على
اكتمال الانقراض عليها، وهناك سبب أو دافع آخر
نجده في النص الذي أورده روبرت الراهب يقول: «لأن
هذه الأرض التي تقطنونها تحيط بها البحار وقمم
الجبال وهي تضيق عن استيعاب أعدادكم الكبيرة
كما أنها بلاد ليست موفورة الثراء إذ أنها لا تنتج إلا
ما يكفي زراعتها بالكاد، وربما أنكم تقتلون بعضكم
بعضاً بحيث تهلكون من جراء الأذى المتبادل،

المشاكل الداخلية التي كانت تضطرم في الداخل،
وتوجيه هذه القوى لمحاربة الخارج» [٥].

إن قراءة متأنية لمقاطع من خطبة البابا أوربان
الثاني في كليبر مونت توضح لنا حقيقة الدوافع
والنوايا التي جاشت في صدر البابا وهو يعد لحملته
الصليبية بإعلان الشرارة الأولى لها في كليبر مونت.
والمعروف أن هناك اختلافاً بين المؤرخين الذين
سجلوا خطبة البابا أوربان الثاني، فكل منهم يورد
النص الذي تصور أن يكون البابا قد قاله في
خطبته، أو كان ينبغي أن يقوله [٦]. ونورد هنا
نصوصاً مما أورد هؤلاء المؤرخون نتلمس من خلالها
دوافع وأهداف البابا من إعلان دعوته للحروب
الصليبية.

يقول فوشيه الشارترى إن البابا قد نذر سامعيه
بوعودهم التي قطعوها على أنفسهم بحفظ السلام
ومراعاة حقوق الكنيسة، وقال لهم أيضاً: «فإن
عليكم وقد قوم الله اعوجاجكم أن تؤبوا مهمة ملحة
لكم ولله تستطيعون أن تظهروا فيها مدى صدق
نواياكم، عليكم أن تسارعوا لم يد العون لإخوانكم
القاطنين في الشرق الذين يحتاجون إلى مساعدتكم
وطالما التمسوها».

إن الأتراك وهم شعب فارسي، قد هاجمهم،
كما يعلم الكثيرون منكم، وتقدموا داخل الأراضي
الرومانية إلى أن وصلوا إلى ذلك الجزء من البحر
المتوسط الذي يدعى «نراع القديس جورج» لقد
انتزعوا شيئاً من أراضي «النصارى»، كما هزمهم
في سبع معارك حتى الآن، وقتلوا وأسروا الكثيرين،



خط سير الحملة الصليبية وصولاً إلى القدس

لنفسها نعطاً من الجندية لمساعدة
شعبها ولكنكم ترتكبون الشر الذي
يؤذيها ويهبط بها .. وإذا كنتم
حقاً تريدون أن تحرصوا على
أرواحكم، فإما أن تطرحوا شارة
هذا النمط من الغرورية، وإما أن
تتقدموا بجسارة كفرسان
المسيح، وتندفعوا بأقصى سرعة
ممكنة للدفاع عن الكنيسة
الشرقية .. أيها الإخوة يجب أن
ترتجعوا قزماً حين ترفعون يدا

بالعنف ضد النصارى، فإن تجريد سيوفكم ضد
المسلمين أقل شراً، إنها الحرب الوحيدة الصائبة، لأنه
من الخير والإحسان أن تخاطروا بحياتكم من أجل
إخوانكم» [٩].

فهنا إضافة إلى العوامل السابقة إعلان للحرب
المقدسة الصائبة التي تسعى إليها الكنيسة الغربية
حسب وجهة نظر البابا لتحقيق الوحدة مع الكنيسة
الشرقية في كنيسة واحدة، ولتقضي على كثير من
أمراض المجتمع الغربي.

وسبب آخر نجده في النص الذي أورده جيبتر
مقدم دير نوجنت فهو يقول على لسان البابا: « .. وإذا
كنتم تعتبرون أنكم يجب أن تتحملوا مشاق كبيرة
للقيام برحلة حج إلى مقابر الحواريين في روما أو
أضرحة غيرهم .. فما هو الثمن الذي ترفضون دفعه
في سبيل إنقاذ الصليب والدم والقيام برحلة حج إلى
بيت المقدس، فحتى الآن خضتم حروباً غير عادلة،

فلتبتئزوا الكراهية من بينكم ولتجمدوا منازلكم،
ولتوقفوا حروبكم، ولتخلوا عن كافة الشقاق والخلاف،
وسيروا على طريق الفريخ المقدس وحرروا هذه
الأرض من الجنس الشرير، وكونوا أنتم سائتها، فهذه
الأرض التي يقول الكتاب المقدس إنها تفيض باللبن
والعسل، وقد منحها الرب ملكاً للمؤمنين» [٨].

فهنا دافع آخر هو نبذ الحروب الإقطاعية وتوجيه
طاقات الفرسان إلى الشرق والأرض التي تفيض لبناً
وعسلاً، وبالتالي إيجاد الحل الأمثل للمشكلة
الاقتصادية والاجتماعية في أوروبا من مجاعات وفقر
وحروب إقطاعية.

وسبب آخر نجده في النص الذي أورده بلديرك،
كبير أساقفة دول فهو يقول «اسمعوا وعوا أنتم يا من
تختالون بشارة الغرورية، وقد ملاكم الفرور الشديد
أنكم تحاربون إخوانكم وتمزقون بعضكم إرباً، وليست
هذه هي الجندية الحق .. أن الكنيسة المقدسة حفظت

وهنا نجد أكثر من دافع وسبب فالرغبة في الوحدة أو بالأصح استعادة كنيسة القسطنطينية دافع، وتسهيل رحلة الحجيج النصراني إلى بيت المقدس بل والاستيلاء عليها، ويسط نفوذ كنيسة روما على كل الكنائس وفتح آفاق جديدة أمامها وتوسيع دائرة نفوذها لتشمل الشرق الإسلامي، وإقرار السلام في الداخل وتوحيد الجهود العسكرية إلى الخارج هي دوافع البابوية.

وبالرغم من الاختلاف الذي سبق أن أشرنا إليه في نصوص خطبة البابا إلا أنه يتضح لنا أن هذه النصوص تكاد تتفق على جملة أهداف حوتها خطبة البابا، ويشرت بها دعوته للحروب الصليبية، وهي في مجملها تحد المشروع الذي كانت تخطط له الكنيسة اللاتينية لتحقيق الأهداف التي رأت أن هذه الحرب ستحققها لها، وهو مشروع اكتتفته دوافع وأغراض منها ما أعلنته البابوية ليكون ستاراً، ومنها ما تسترت عليه ليبرز بعد ذلك، وقد أرادت الكنيسة أن يسير مشروعها هذا وفق برنامج مخطط ومدرس.

لقد أراد البابا من خلال خطبته ومن خلال ما حملته من أهداف ودوافع، الترويج لحملته الصليبية ولمشروعه الكبير الذي رأى فيه حلاً لعدد كبير من المشاكل الاجتماعية والاقتصادية للمجتمع الأوروبي، وفي نفس الوقت تحقيق نقله نوعية ومكانية لنفوذ البابوية وسيطرتها بحيث تشمل

غالباً ما وجهتم حرايكم في وحشية ضد بعضكم البعض في مجازر متبادلة بسبب الطمع والكبرياء فقط وهو الأمر الذي تستحقون بسببه الدمار الأبدي واللعنة الأبدي، والآن نقترح عليكم أن تشنوا الحرب التي تجلب لكم المجد الأبدي.. ويجب أن تفكروا بقدر ما يمكنكم في هذا.. وإذا كان الرب يتصرف من خلالكم بحيث تنتعش أم الكنائس من جديد بفضل تعاونكم لنشر النصرانية في آفاق جديدة.. وإذا لم تكن أقوال الكتاب المقدس تحرككم، وإذا لم تكن تحذيراتنا تصل إلى عقولكم، فإن اليأس الشديد الذي يمانيه أولئك الذين يرغبون في زيارة الأماكن المقدسة ينبغي أن يكون حافزاً لكم.. ما الذي يمكن أن نقوله عن أولئك الذين لا يملكون شروى نقيير والذين يسعون للحج في فقر وعري وليس لديهم شيء يخسرونه سوى أجسادهم فالتقود غير الموجودة تستخرج منهم بالتعذيب القاسي، فيشق جلد كعوبهم

الخشن وينتزع لثلاً يكونوا قد نسوا شيئاً تحتها، بل إن قسوة هؤلاء الرجال.. لتصل إلى حد أنهم يظنون أن أولئك التعساء قد ابتلعوا الذهب أو الفضة فيضعون في شرايهم مادة مسهلة ويجبرونهم على أن يتقيأوا أو يتبرزوا أو يمزقون إرباً كل الأمعاء بعد أن يبقروا بطونهم بحيث ينكشف كل سر مخبوء [١٠].. أتوسل إليكم أن تتصرفوا من أجل اورشليم التي جاءت منها الأسس الأولى لبنايتكم [١١]..

الإقطاع
الأوروبي
كان دوره
بارزاً
في
الحروب
الصليبية



فالفلاحون وعبيد الأرض دفعت بهم ظروفهم المعيشية التي كانوا يعيشونها وهم الطبقة الدنيا في المجتمع، والمجاعات التي كانوا يتعرضون لها بفعل العوامل الطبيعية، وبفعل الغارات المتتالية من المتبربرين الشماليين، أو من اعتداءات الفرسان، وحياة البؤس في أكوأخهم المتواضعة، وبفعل الجهل الذي صور لهم الظواهر الطبيعية على أنها معالم لنهاية العالم.

والفرسان بعد أن تطورت الأحوال بهم في القرن الحادي عشر، وجدوا أنفسهم يعيشون في بطلاة، جاءت الدعوة الى الحرب فرصة ذهبية لهم وجاء الإغراء بأرض الشرق وثرواته جاذباً لهم ولشاريعهم وأحلامهم في الثروة التي أخذوا يحرمون منها بفعل زيادة عددهم، وبفعل محاربة المجتمع والكنيسة لحروبهم وغاراتهم، ولأن الحرب مهنتهم، فإنهم قد وجدوا أنفسهم عاطلين عن العمل ولم تكن المبارزة التي اخترعوها لتقضي على ملهم الذي كانوا يشعرون به فقد جاءت الحرب الملعنة من البابوية سبيلا لهم وغرانا لنزوبهم السابقة التي ارتكبوها أثناء حروبهم الإقطاعية.

إن غطاء الحرب المقدسة الذي خرجت به الكنيسة تحت قيادة أوربان الثاني كان غطاء مناسباً وفاعلاً في تحقيق هدفه، ولكنه لم يكن غطاء شاملاً لأهداف كل فريق ممن شارك في الحملة أو دعي إليها، فالفهم الشعبي اختلف عن فهم النبلاء والفرسان اللذين اختلفا بالضرورة عن فهم الكنيسة وأغراضها.

أفاقاً أكبر ومواقع أكثر، ورغم هذه الدوافع والأهداف التي حملتها خطبة البابا أوربان في كليرمونت إلا أن أهدافاً أخرى غير معلنة، أو مؤجلة خططت البابوية لتنفيذها من خلال الحملة الصليبية الأولى، والحملة التي توالى وكانت الكنيسة الغربية توقد نارها.

نجح البابا في خدمة أهدافه بما أضفاه من قدسية على الحرب التي أعلنها، ومن غفران على من يشارك فيها، ووجد البابا في تصرفات أسلافه من

البابوات مندوحة ومبرراً لإطلاق صفة القداسة على حملته القادمة، فالقدوس أو غسطنوس قد أجاز الحرب في سبيل الكنيسة، وتبعه البابوات ليو الرابع (٨٤٧ - ٨٥٥ م/ ٢٣٣ - ٢٤١ هـ) فاكد الثواب لمن يسقط مدافعاً عن الكنيسة، وجاء يوحنا الثاني (٨٧٢ - ٨٨٢ م/ ٢٥٩ - ٢٦٩ هـ) فاعتبر المدافعين عن الكنيسة شهداء ومنح البابا الكسندر الثاني (١٠٦١ - ١٠٧٣ م/ ٤٥٣ - ٤٦٦ هـ) الغفران لجميع المحاربين في أسبانيا وشجع جريجوري السابع سنة ١٠٨٠ م/ ٤٧٢ هـ حملة جودفروي على أسبانيا.

والآن أصبح بوسع أوربان الثاني أن يمنح القداسة لحملته، بل ويعطي الغفران لمن ينضم إليها، ولقد ألهم قرار الغفران إضافة الى العوامل الأخرى حماس الغرب الأوربي في الانضمام إلى حملة أوربان الثاني الصليبية، وتمثلت هذه العوامل في الدوافع الحقيقية التي دفعت هؤلاء المنضمين الى الحركة.

المؤرخة الأمريكية دانا مونرو دراسة عن نص خطبة البابا في كلير مونت على أمل الحصول على النص الأصلي للخطبة بجمع النصوص المختلفة. انظر:

Dana. c. munro, The speech of pope urban II at Clermont, in American Historical Review, New York. 1906, vol. xl. p. 231.

(٧) فوشيه الشارترى، تاريخ الحملة على القدس، ترجمة زياد السلي، دار الشروق، عمان، ص ٣٦.

(٨) Edward Peters, The first crusade, Pennsylvania, 1963, p. 3.

(٩) المرجع السابق ص ٧.

(١٠) لم يرد هذا الاتهام في أي نص من النصوص الأخرى لخطبة البابا، ولا ندرى من أين جاء هذا المدعى بكل صنوف التعذيب التي رواها على لسان البابا، فلم يسبق أن ورد ما يشير إلى حدوث مثل ذلك بل إن حسن المعاملة وعدم الاستفادة من عوائد الحجاج النصارى الذين يزورون بيت المقدس ويصلون عادة فقراء متقشفين هو الصحيح، بل هناك وصف لحال النصارى في بيت المقدس على لسان بطريرك بيت المقدس ثيودوسيوس في الرسالة التي وجهها إلى زميله اجناطيوس بطريرك القسطنطينية يصف فيها أحوال النصارى في بيت المقدس ومعاملة المسلمين لهم بأنها كانت معاملة حسنة.

Edward Peters, op. cit. p. 15.

(١٢) لمزيد من التفصيل عن هذه الدوافع والأغراض

انظر: د. عمر يحيى محمد: الحملة الصليبية الأولى - بين نملياً وغريباً وإسلامياً، مكتبة دار جدة ١٤٢٦هـ.

ونظرة سريعة على الدوافع والأسباب التي دفعت من سيصبحون غداً قادة للحملة الصليبية الأولى تؤكد كم كان هذا الغطاء غير ملائم لهذه الحملات، فريموند كونت تولوز، وجود فروي دوق اللورين، كان يؤرقهما عدم وجود فرصة لإظهار البسالة والمغامرة في الوطن وروبرت كورتوز دوق نورماندي والابن الأكبر لوليم الفاتح كان يريد استعادة الهيبة التي فقدتها في وطنه بإحراز نصر كبير في الشرق، وستيفن كونت بلوا انضم إلى الحملة لأن زوجته الابنة الطموحة لوليم الفاتح قد حملته على الانضمام، والنورمان كانوا مدفوعين بكرهيتهم لبيزنطة وبرغبة أكيدة لأن ينتزعوا لأنفسهم بعض الممتلكات في الشرق، والبندقية كانت متحمسة للحرب لأسباب تجارية بهتة لمنافسة بيزنطة والتجار المسلمين [١٢].

الهوامش:

(١) د. سعيد عبد الفتاح عاشور، الحركة الصليبية، ج ٢، ص ٣٥.

(٢) Gilbert, R. History of Libania, P. 34.

(٣) Bradford, The Sward, P. 30.

(٤) Stephenson, Mediaeval History, p. 292.

(٥) أرنست باكر، الحروب الصليبية، ترجمة البار العربي، ص ١٠.

(٦) هناك أكثر من نص يتداوله المؤرخون لخطبة البابا أوربان الثاني في كلير مونت، مختلفة في كثير من الفاظها وتفصيلاتها، وربما يعود السبب إلى أن النص لم يسجل في حينه وإنما سجل بعد أن حققت الحملة الصليبية الأولى هدفها، ويعد أن جاء الدور على رجال الكنيسة والكتب الذين شارك بعضهم في الحملة ليسجلوا ما رأوه أو سمعوه، وقد كتبت

الهيمنة الروحية للدولة العثمانية على العالم الإسلامي

إن الهيمنة الروحية للدولة العثمانية على مسلمي العالم هي التي جعلت العلم التركي يرفرف في اندونيسيا حتى بعد سقوط الدولة.

فقد قضى الأمر وسقطت الدولة العثمانية، وسقطت معها تلك الهيمنة التي كانت تؤجج الوحدة بين شعوب العالم الإسلامي على تنوع هذه الشعوب، وامتداد الرقعة الجغرافية التي تشغلها. ولكن كيف احتلت هذه الدولة هذه المكانة؟ والإجابة على هذا السؤال توجب علينا البحث عن الكيفية عبر صفحات تاريخ هذه الدولة.

* الفترحات :

شغلت الدولة العثمانية المسلمين بانتصاراتها العسكرية، فلول مرة منذ عهد الدولة العباسية الأولى، يكتسب المسلمون أرضاً عن طريق الفتوحات العسكرية، وبالتالي فقد أعادت إلى النفوس والأذهان شيئاً ما كان مفقوداً، فبعد أن كانت بلاد المسلمين معرضة لهجمات المغول تارة وهجمات الصليبيين تارة أخرى، الذين كونوا إشارات لهم في بلاد الشام، ظلت إلى أن أجلاهم عنها المماليك، أصبح المسلمون في الدولة العثمانية هم أصحاب المبادرة في الوقت الذي ضعفوا فيه وهنوا في الأندلس.

فهذه القبائل التركية إبان تحركها غرباً

عندما زار الأمير محمد على ولي عهد مصر الأسبق اندونيسيا في عام ١٩٢٩م لاحظ أن العلم التركي يرفرف على سيارة البريد التي جاءت لتقله إلى الباخرة التي كان يستقلها الأمير، هذا العلم الذي كان يرمز لدولة الخلافة العثمانية في تلك البلاد القاصية، التي لم تخضع في يوم ما للسيطرة السياسية للعثمانيين، وفسر الأمير تمسك أهل هذه البلاد برمزية هذا العلم للدولة العثمانية بأنها عروة الدين تربط الممالك وتهييء للناس قبلة واحدة يتولون شطرها من كل فج، ومن العجيب أنه في تلك الفترة، وهو ما لم يذكره الأمير أن الخلافة كانت قد أُلغيت، وهي التي يرمز إليها العلم، وسيطر أتاتورك وأنصاره على الحكم في تركيا مثبرين النزعة القومية الطورانية ضد نظرية دولة الخلافة العثمانية التي طوى الكماليون صفحات تاريخها لتصبح جزءاً من الماضي [١]



إهداء

- مدير إدارة الإعلام - مكتبة الاسكندرية.
- له العديد من المؤلفات عن العمارة الإسلامية وفقه العمران والمنشآت المائية بالوطن العربي.
- له العديد من المقالات والابحاث المنشورة في المجلات والنواريات العربية.

الإسلامية إليها، فأطلق عليه البعض غزواً، ولكن الغزو لا يكون إلا من مستعمر يريد أن يستعبد، وأسماهم الآخرون فتحاً والفتح يكون لأراض جديدة لم تطأها أقدام المسلمين من ذي قبل. لكنه في الحقيقة ضم، أي توحيد العالم الإسلامي في هذا العصر في دولة واحدة تستطيع أن تجابه الأخطار التي تهدق بالامة، خاصة الخطر البرتغالي الذي أخذ يطوق جنوب الجزيرة العربية، وفشل المماليك في مجابهته وكبح جماحه. كذلك إيقاف الهجمات الصليبية على سواحل المغرب.

في هذا الوقت كان المسلمون تحت حكم المماليك يعانون معاناة شديدة، فقد ترتب على جلب المماليك كبار السن أن أصبحوا بدون تربية عسكرية وإسلامية سليمة وبالتالي فسد حكمهم وتصارعوا على النفوذ والأموال وفاق بالعباد الظلم وبالبلاد الخراب. على عكس ما كان عليه ممالك الصالح أيوب أصحاب دولة المماليك البحرية ذوو الأمجاد العسكرية في المنصورة، عين جالوت، وعكا، الذين جاءوا صفراء وربوا تربية إسلامية وعسكرية. فأصبح ولاؤهم للإسلام ثم للسلطان.

ترتب على ظلم المماليك للعباد، والحالة المتردية للدولة نتيجة لتصارعهم مع بعضهم البعض، وانهايار

اعتنقت الإسلام على المذهب السني، وهو حادث على جانب عظيم من الأهمية، ذلك لأن مذهب السنة الرصين الواضح قد اتفق وطبيعة الأتراك، وهكذا تكرر في التاريخ ميلاد تيار لا يقهر، بسبب اعتناق قبائل رعوية الأصل الإسلام على المذهب السني، وترتب على ذلك أيضاً أن تولدت روح جهادية ملأت تاريخ الدولة العثمانية، ومن ثم أنصف كثير من المؤرخين الأوروبيين الذين بدأوا مؤلفاتهم بالبحث عن البنية الأساسية للدولة أي اكتشاف طبيعتها [٢].

وأكثر الفتوحات التي جعلت للعثمانيين مكانة خاصة في قلوب المسلمين فتح القسطنطينية، ويعود ذلك إلى أن الرسول (صلى الله عليه وسلم) بشر بفتحها في حديث له، فقد قال عليه الصلاة والسلام «لتفتحن القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها، ولنعم الجيش ذلك الجيش». وكانت محاولات عدة لفتحها وقعت في عهد الدولة الأموية، ولكن منذ ذلك الحين لم يقم المسلمون بمحاولات جادة لفتحها، وتحقق ما بشر به الرسول على يد السلطان محمد الفاتح في مايو ١٤٥٣م.

وكان فتح القسطنطينية يحمل دلالات عديدة لعل من أبرزها نقل عاصمة الدولة من بروسه إليها، وهو ما يعني أن الدولة أصبحت أسيوية أوروبية وانتقل مركز ثقلها إلى أوروبا. وبالتالي بدأ انتشار الإسلام كدين في شرق أوروبا، ولأن القسطنطينية أو (إسلام بول) أي أرض الإسلام كما كانت تعرف بعد الفتح ارتبطت بأمجاد الدولة العثمانية، ولكونها رمز لانتقال وتوسع الدولة نحو الغرب فقد جاء نقل العاصمة منها إلى أنقرة رمزاً لتقوقع الدولة وتحولها إلى دولة ذات قومية محدودة.

ضم الدول الإسلامية :

نار حلال حاد حول ضم الدولة العثمانية الدول

الحجاز ، العراق ، اليمن والمغرب الإسلامي إلى دمج هذه الدول في كل موحد شاسع يحده المغرب الأقصى وإيران وبراري روسيا الجنوبية والحبشة .

وهذا الكل الموحد يمثل دولة تعتبر من حيث اتساعها (٢٥٠٠٠٠ كيلومتر في حال أقصى توسع لها) ومن حيث وجودها تسيطر على ثلاثة أرباع محيط البحر المتوسط الذي عد لفترة زمنية بحراً داخلياً تسيطر عليه الدولة العثمانية، كياناً سياسياً لم يعرف الغرب نظيراً له منذ نهاية الإمبراطورية الرومانية . وفقاً لتعبير (ج . سوفاجيه) ، فإن «كل رعية من رعايا السلطان (كان بوسعه) منذ ذلك الحين الانتقال من الدانوب إلى المحيط الهندي، ومن فارس إلى المغرب دون أن يكف عن أن يكون خاضعاً لقوانين واحدة ودون أن يكف عن التحدث بلغة واحدة واستخدام عملة واحدة، وهو ظرف خلق وحدة بين شعوب العالم الإسلامي» [٤] فحدثت هجرات متبادلة بين شعوب العالم الإسلامي ، فالمجتمع المصري في ذلك العصر كان يضم شوام، مغاربة، حجازيين وأتراك انصهروا جميعاً في بوتقة الأمة الإسلامية، وتزاجوا وتناسلوا مكونين المجتمع المصري الذي لم يعرف تفرقة بين أي فرد من أفرادهم . فالجنسية هنا للإسلام لا للأوطان .

وذلك المشهد يذكرنا بما شاع عنه الحديث في كتب الطبقات عن المشاهير والأعلام بنسبتهم لمدنهم وقراهم لا لدولهم، لأن الدولة هنا جزء من كل، كما أن المدينة جزء من الكل أيضاً، والكل هنا هو الأمة الإسلامية التي ينتمي إليها الجميع، والدولة زمنية، بينما الأمة لا يرتبط وجودها بزمن دينوي .

كما ترتب على ضم الحجاز إلى الدولة العثمانية أن أصبحت الأراضي المقدسة تحت رعاية سلطان آل عثمان، فتلقت سلطاتهم بليق، حامى حمى الحرمين الشريفين، وتولى العثمانيون تأمين طرق الحج الدولية وتوفير الخدمات عليها، وحمايتها من الأخطار الخارجية، وكسبوا بذلك مكانة خاصة لدى مسلمي العالم كونهم حماة ورعاة الحرمين الشريفين، فضلاً عن رعايتهم للقسس والمسجد الأقصى .

اقتصاد الدولة المملوكية بعد اكتشاف طريق رأس الرجاء الصالح وتطويق البرتغاليين لجنوب العالم الإسلامي، أن دعا علماء مصر العثمانيين لضمها لدولتهم .

ذكر ذلك عبد الله بن رضوان في كتابه: «تاريخ مصر»، فقال أن علماء مصر وهم نبض المجتمع يلتقون سراً بكل سفير عثماني يأتي إلى مصر، ويقصون عليه شكواهم من جور الغوري ويقولون له بأن الغوري، وهو السلطان قبل الأخير من سلاطين المماليك يخالف الشرع الشريف، ويستنهضون عدالة السلطان العثماني لكي يأتي ويضم مصر .

قال يانوسكي في كتابه عن السلطان سليم الأول، إن علماء مصر كانوا يرأسلون السلطان سليم الأول منذ بداية توليه عرش بلاده، لكي يقدم إلى مصر على رأس جيشه، ليستولى عليها، ويطرد منها الجراكسة (المماليك) . أما في الشام فقد رحب أهلها بمقدم العثمانيين، قبل قدومهم الفعلي، فعلى سبيل المثال، كان الغوري قد تحرك من مصر بجيشه إلى الشام، وفوجئ بأن الأهالي لقنوا أطفالهم صيحة «ينصرك الله العظيم يا سلطان سليم» .

في حين ، اجتمع العلماء، القضاة، الأعيان، الأشراف، وأهل الرأي مع الناس ليتباحثوا في حالهم، ثم قرروا أن يتولى قضاة المذاهب الأربعة والأشراف كتابة عريضة، نيابة عن الجميع، يخاطبون فيها السلطان سليم الأول ويقولون فيها أن الناس ضاقوا بالظلم المملوكي، وأن حكام المسلمين يخالفون الشرع الشريف، وأن السلطان إذا قرر الزحف على السلطنة المملوكية، فإن الشعب سيرحب به، وتعبيراً عن فرحته سيخرج للملاقاة، وقد طلبوا من سليم الأول أن يرسل لهم رسولا من عدة، يقابلهم سراً، ويعطيهم عهد الأمان، حتى تطمئن قلوب الناس، وهذه العريضة محفوظة في متحف طوبقوسراي باستانبول رقم (١٦٦٢٤/١) [٢] .

لقد أدى ضم الدولة العثمانية مصر، الشام،

الدولة العثمانية أعادت للمسلمين انتصارات وفتوحات انطوى عهدها منذ العصر العباسي.

تونس أن عدداً من المهاجرين الأندلسيين قد ذهبوا إلى بلغراد واجتمعوا هناك مع مراد باشا، أحد وزراء السلطان أحمد الأول، وأظلموه «على حالة الشقاء المريع الذي يواجهه إخواننا الأندلسيون في فرنسا وغيرها من البلاد».

والواقع أن عشرات الآلاف من المنفيين (تؤكد مصادر العصر أنهم كانوا يتراوحون بين ٢٠٠٠ و ٤٠٠٠) كانوا قد اتجهوا إلى فرنسا واستقلوا السفن في عام ١٦٦٠م في أجد ومارسليا، متجهين إلى تونس أساساً، ويستطرد عبد الرافع أن الوزير «قد كتب إلى ملك فرنسا بناءً على تكليف من السلطان طالباً إليه السماح بخروج مسلمي الأندلس الموجودين في بلاده، بوصفهم رعايا للدولة العثمانية، ونقلهم عن طريق البحر إلى البلاد الإسلامية، على سفن تخصه، وتزويدهم بما يحتاجون إليه» وامثال ملك فرنسا لهذا الطلب.

وعندما تم إبلاغ ملك أسبانيا، فيليب الثالث بهذا القرار «استولى عليه الفزع والرعب» وقرر طرد جميع المسلمين من مملكته، ووفرت حماية الدولة العثمانية لهم أن يغادروا أسبانيا دون أن يمسهم سوء من جانب الأسبان الذين كانوا يتمنون ويسعون جاهدين للقضاء عليهم، ويشهد نص عبد الرافع المحرر بعد خمسة وعشرين سنة من هذه الإقامة، على قوة الانطباع الذي احتفظ به الأندلسيون عن فعالية الحماية التي وفرتها لهم الدولة العثمانية إلى أن استقروا في تونس والجزائر [٧].

وكانت الدولة العثمانية قد سعت إلى الحد من الوجود الأوروبي على السواحل الجنوبية للبحر المتوسط، فقد كانت طرابلس الغرب في عهد سليمان القانوني تحت حكم فرسان مالطة وهم من

ويقدم لنا عبد الرحمن الجبرتي في تاريخه تحليلاً لسبب بقاء الدولة العثمانية، فهو يقول عن اهتمام السلاطين العثمانيين «بإقامة الشعائر الإسلامية والسنن

المحمدية، وتعظيم العلماء وأهل الدين، وخدمة الحرمين الشريفين، والتمسك في الأحكام والوقائع بالقوانين والشرائع، فتحصنت دولتهم وطالت مدتهم، وهابتهم الملوك، وانقاد لهم الملك والمملوك» [٥].

الذراع الطويل :

كانت الدولة العثمانية في أوج ازدهارها دولة غلمى يحيط بها جيرانها وأعداء الأمة، واستغلت قوتها في إنقاذ من كان بحاجة إلى الإنقاذ من المسلمين، ومدت ذراعها الطولى إلى كل مكان في أرجاء المعمورة طالما كان المسلمون في حاجة إليها وهذا الدور نفتقده اليوم فلا توجد دولة تؤدي هذا الدور لتشتت الأمة في دويلات ضعيفة مجزأة، فمع مأساة الأندلس يبرز دور الدولة العثمانية في حماية سواحل المغرب الإسلامي من هجمات الأسبان وغيرهم من الصليبيين على يد خير الدين برياروسا وأعوانه، الذي أربع أهل أوربا حتى صاروا يخوفون به أطفالهم ويطلقون عليه في أدبياتهم «القرصان» وكذلك أمنت الدولة العثمانية هجرة الأندلسيين من الاضطهاد الأسباني إلى ديار الإسلام، فقد قامت الدولة بدور المدافع عن الإسلام والمسلمين. وكان ذلك قبل وبعد الهزيمة النهائية للمسلمين الأندلسيين. فالأندلسيون سعوا إلى أن تدعمهم الدولة العثمانية من خلال عدد من الرسائل إلى سلاطين الدولة العثمانية [٦].

والنص البليغ الدالة عن الذكريات التي خلفها تدخل الدولة العثمانية لحماية المسلمين الأندلسيين هو ذلك النص الذي يرجع إلى عام ١٦٣٥م، الذي يروي فيه محمد بن عبد الرافع، وهو أندلسي مقيم في

فكرة الجامعة الإسلامية كان لها دورها الفاعل في جمع شمل المسلمين، وتوحيد قوتهم.

سفينة بقيادة خضر خير الدين، وحملت السفن من السويس، معدات عسكرية ومقاتلين من سلاح البحرية وسلاح المدفعية. ونتيجة لهذه المساعدة الفعالة اعترفت مملكة آج - التي كانت تحكم ماليزيا وشمالى جزيرة سومطرة بالتبعية للخلافة العثمانية - وبذلك امتد نفوذ السلطنة العثمانية إلى جنوب شرق آسيا. وتقلص النفوذ البرتغالي في هذه المنطقة نتيجة للتصدي المالىزي - العثماني له. تركت الأعمال المتتالية للدولة العثمانية لنجدة المسلمين أثراً طيباً في نفوس المسلمين تجاهها مما رسخ من هيمنتها الروحية على العالم الإسلامي، فهاهم مسلمو الهند قد أثار إلغاء الخلافة استياء شديداً لديهم، حيث عقدوا الآمال على تركيا لكي تخلصهم من الاستعمار البريطاني[١١].

على الجانب الآخر اكتسبت الدولة ولاء علماء العالم الإسلامي بسبب إجلالها العلماء، هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى بسبب دورها المجيد في الدفاع عن الإسلام والمسلمين، فالشيخ مرعي وهو مؤرخ مصري مات في عام ١٦٢٤م، يشي على الدولة العثمانية في اثنين وعشرين باباً في كتاب له، يسهب في كل باب منه في الحديث عن مآثر السلاطين العثمانيين. ومن هذه المآثر الأمن والنظام المكفولين في ربوع الدولة خاصة بالنسبة لطرق الحج، الانتصارات الحزرة على المشيحيين، ونمو الدولة، والإحترام الذى يحظى به العلماء والإشراف، تطبيق الشريعة، والافتقار بالامكان المقدسة.

يختم هذا بقوله بأن السلاطين العثمانيين يتمتعون بالشعبية بين صفوف رعاياهم الذين يتحدثون عنهم باحترام، ولا يكفون عن الدعاء لهم بأن ينصرهم الله. وهنا نستطيع أن نقول أن الدولة العثمانية هيمنت على مشاعر المسلمين لأنها قامت بالدور المنوط بأي دولة إسلامية مع ملاحظة أن هذه المكانة التى احتلتها الدولة العثمانية في نفوس المسلمين، احتلتها ولم يكن

الصليبيين، ونظراً لأن طرابلس من ديار الإسلام فقد وجه السلطان سليمان القانوني أمره إلى قبطان البحر العثماني طورغود رئيس بتخليص طرابلس الغرب من النفوذ المسيحي فقام هذا القبطان بأسطوله بمحاصرة طرابلس الغرب حصاراً شديداً إلى أن اضطرت حاميتها المسيحية إلى التسليم وكان ذلك عام ١٥٥١م. وعين طورغود رئيس والياً على طرابلس، وقد استشهد بعد ذلك عام ١٥٦٥م أثناء حصار العثمانيين لجزيرة مالطة.

وإذا كان هذا نذر من كثير مما اتخذته العثمانيون لحماية المسلمين في شمال أفريقيا، فقد كان لهم دور بارز أيضاً في مواجهة البرتغاليين في المحيط الهندي، ففي عهد السلطان سليمان القانوني توجهت قوة بحرية من السويس إلى المحيط الهندي تحت رئاسة سليمان باشا، فوصلت عدن سنة ٩٤٥هـ فاستولى عليها، ثم ألق منها قاصداً سواحل الهند فوصلها بعد أيام. وتحالف مع الملك محمود المغولي وأخذ يقاتل البرتغاليين حتى استولى منهم على قلعتى (كوله) و(كات) ثم عاد الأسطول العثماني بعد تواطؤ الملك محمود مع البرتغاليين، وفي طريق العودة رتب أمور عمان واليمن[٩].

وعندما طلب ملك آجة علاء الدين رعايت شاه قهار (١٥٣٧ - ١٥٦٨م) المساعدة من الدولة العثمانية للوقوف في وجه الأعداء البرتغاليين الذين تغلغوا بأساطيلهم في سواحل أندونيسيا ومارسوا القرصنة على شواطئ سومطرة مهددين بذلك مملكة آجة (١٥١٤ - ١٦٠٣م) أرسل السلطان سليم الثاني قوة بحرية عثمانية أبحرت من ميناء السويس سنة (٩٧٢هـ / ١٥٦٨م) وكانت هذه القوة مؤلفة من ٢٢

للمماليك، وكل أمر حسن للسلطان البعيد عنهم، خاصة أن سلاطين آل عثمان بعد انهيار الخلافة الصورية العباسية في القاهرة مع دخول العثمانيين مصر، صاروا هم الحكام الشرعيون الذي يسعى كل حاكم مسلم إلى الحصول على اعترافهم به ليكون من وجهة نظر أهل بلده ذا شرعية سياسية.

لقد فهم هذا سلاطين آل عثمان جيداً وسعوا إلى توظيفه في مرحلة انهيار الدولة ليكون عاملاً على تقويتها أمام الأخطار الخارجية، وكذلك ليكون مساعداً لهم على توحيد جبهتهم الداخلية في وجه أوروبا.

فالسلطان عبد العزيز وجد في إحياء الخلافة الوسيلة المناسبة لمساندة اتجاهاته السياسية ولتكتيل الرأي العام في العالم الإسلامي وراءه [١٢] وتبعه في هذه السياسة السلطان عبد الحميد، الذي أدرك أهمية الخلافة كوسيلة تجمع المسلمين، وتهدد مصالح الدول الاستعمارية، وهو يوضح ذلك في مذكراته بقوله «نعم، لم تكن لدي الطاقة ولا القوة لحاربة الدول الأوروبية بفردي ولكن الدول الكبرى التي تحكم شعوباً مسلمة عديدة في آسيا، مثل إنجلترا وروسيا، ترتعد من سلاح الخلافة الذي أحمله. ولهذا السبب استطاعوا الاتفاق على إنهاء الدولة العثمانية، وكان لزاماً عليّ ألا أستخدم هذا السلاح خارج حدودي حتى «اليوم المنتظر» لأن محاولة كهذه لم تكن تقيد إخواننا في الدين، ولا بلادي، قررت استخدام قوتي كخليفة في وحدة بلادي وأمنها، كما قررت العمل على سلامة إخواننا في الدين في الخارج ضد كل احتلال» [١٣].

اتبع السلطان عبد الحميد العديد من الوسائل لتحقيق فكرة ربط العالم الإسلامي، فيما عرف آنذاك بسياسة الجامعة الإسلامية، فاستمال العديد من الدعاة والسياسيين لسياسته ودعمهم بطرق شتى، ومنهم مصطفى كامل من مصر، الشيخ أبو الهدى الصيادي من سوريا، والشيخ عبد الرشيد إبراهيم

خلفاؤها أو سلاطينها من أصل قرشي وهو أحد شروط بعض الفقهاء فيمن يتولى الخلافة، هذه من ناحية ومن ناحية أخرى لو جاء حاكم مسلم وقام بواجبات الحكم الإسلامي لاعتبرنا حكمه شرعياً بناءً على القياس على الدولة العثمانية.

ومن الأهمية بمكان أن نشير إلى طبيعة نظام الحكم الذي كان يركز السلطات في يد السلطان والأجهزة المعاونة له، وفي نفس الوقت يترك قدرًا كبيراً من الصرية الإدارية للمؤسسات التي نمت وصارت لها تقاليدها الراسخة في الحضارة الإسلامية، كالنظيمات الحرفية، ومؤسسة الأوقاف، ونظم القضاء الشرعي... وكان السلطان محدود السلطات تجاه هذه المؤسسات التي كانت تعمل بفاعلية شديدة في المجتمع. كما أن السلطان لا يستطيع في قرارته أن يتجاوز حدود الشريعة.

وتعددت نظم الحكم داخل الدولة فنظام الحكم في الأناضول يختلف عنه في البلقان، ويختلف عن نظم الحكم في مصر والشام. ومن الملفت للنظر أن السلطان سليم عند فتحه مصر والشام ترك المماليك يديرون دفة الحكم فيهما، ولم يحاول أن يعتمد على أهالي البلاد المفتوحة في إدارة شئون الحكم، أو أن يعثمن الحكم فيها بصورة كاملة، وتسبب المماليك الذين انتهت دورهم العربي وهو الذي كان يعطى الشرعية السياسية لاستمرارهم في الحكم، تسببوا في مظالم لا حصر لها للمصريين والشوام على حد السواء في ظل الحكم العثماني اللا مباشر، ولا نستطيع أن ننعّم هذا القول على كل المماليك، بل على بعضهم حتى صارت مظالمهم تعج بها كتب التاريخ، ولم يكن يحد من هذا الظلم سوى تدخل علماء الدين، وزادت هذه المظالم مع ضعف قبضة السلطة العثمانية على الحكم.

وهذا يفسر لنا استمرار شعبية سلاطين آل عثمان حيث كان المحكومون ينسبون كل فعل ظالم

العثمانية، لإجراء إصلاحات جذرية سواء في الولايات التي كانت المظالم تستشري فيها على يد المالكين سواء في مصر أو الشام على سبيل المثال أو في مركز الدولة، أو في الجيش. وكان على الدولة العثمانية أن تنتظر حتى عام ١٨٢٦م لكي يتم إصلاح فعال في البلاد، حين نجح السلطان محمود في القضاء على الانتكشارية وكان ذلك بداية تكوين جيش حديث في الدولة العثمانية، ولكن جاء ذلك متأخراً، فقد كانت أوروبا منذ معاهدة قاينارجه حتى ١٨٢٦م أي في نصف قرن قد حدث بها الانقلاب الصناعي، ووصلت رؤوس الأموال إلى مبالغ ضخمة. هكذا كان لزاماً على الدولة العثمانية آنذاك أن تواجه تحديين الأول القوة الحربية لأوروبا المتنامية، والثاني القوة الاقتصادية المتنامية لأوروبا. وما لبثت أن تطورت الأوضاع ونشأت المسألة الشرقية، المتمثلة في رغبة أوروبا في التهام الدولة العثمانية، قطعة قطعة، وأكثر الأمور التي ساعدت على ذلك. كان الشباب التركي الذي نقل المفهوم القومي الأوربي إلى تركيا الذي تشرب النمط الحضاري الأوروبي دون وعي، وحاول أن يقلد لا أن يبتكر ويطور مفهوم الدولة العثمانية، دون أن يعي حقيقتها.

يجب أن نحذر حين نتحدث عن الدولة العثمانية وتاريخها حتى لا نحمل هذه الدولة مسؤولية انهيار الأمة أمام الغرب بصورة كاملة، فقد شاع في تلك الفترة ركون إلى عالية ديار الإسلام وأن الإسلام لا يقهر، ولكن غاب عن المسلمين أنه من السهل قهرهم حيث لم يفهموا الإسلام فهماً صحيحاً فكل فرد في الدولة في حالة سقوطها مسئول عن هذا السقوط أو الانهيار لأن فرض الكفاية هنا وهو إدارة شئون المسلمين تحول إلى فرض عين.

وتتحمل الدولة العثمانية مسؤولية لا سبيل إلى إنكارها، فقد أهملت الشؤون الداخلية، وتجديد دم الدولة على فترات متفاوتة حتى لا تترهل وتضعف نتيجة للجحود، وخاصة أن الخارج أصبح مبهراً بانتصاراته التي أصبحت رمزاً

من سيبيريا. كما سعى إلى تعريب الدولة العثمانية، ونشر العلوم الإسلامية وإنشاء مراكز للدراسات الإسلامية. وإقامة مشاريع لطرق المواصلات لربط أجزاء دولته، ومنها مشروع سكة حديد بغداد ومشروع سكة حديد الحجاز[١٤]، وانتهت هذه المشاريع وهذا المخطط بعزل السلطان عبد الحميد، وموت فكرة الجامعة الإسلامية بعزله.

لقد كانت محاولات السلطان عبد الحميد لإحياء الدولة، قد جاءت متأخرة، وهذا التأخر الزمني كان أحد عوامل فشلها إذ كان أنصار العلمانية من الشباب الأتراك ذوي الميول الأوروبية قد بدأ نفوذهم يزداد يوماً بعد يوم في الدولة. كان لسقوط هيبة الدولة العثمانية في أعقاب الحرب الروسية العثمانية التي استمرت في الفترة من ١٧٦٨ إلى ١٧٧٤م انتهت بهزيمة قاسية للدولة العثمانية، احتلت على إثرها روسيا القرم وأصبح لها لأول مرة مرفأ في المياه الدافئة، ثم اكتسبت الهزيمة صفتها الأكيدة بالاحتلال الروسي للقرم في ١٧٧١م ثم تأكيد هذا الاحتلال في ١٧٧٤م. هذه الحرب جعلت تركيا تهبط من وضعها عالمية أولى، إلى المرتبة الرابعة بعد إنجلترا وفرنسا وروسيا، دون مرورها بالمرتين الثانية والثالثة.

وعلى إثر هذه الحرب وقعت معاهدة قاينارجه التي وقعت في ١٧٧٤/٧/٢١م وأصبح للروس موضع قدم في البحر الأسود، وسيطروا على شبه جزيرة القرم العثمانية وكل سكانها مسلمين، وأصبح للروس حق التدخل في الدولة العثمانية لحماية رعاياها الأرثوذكس، وتدفع الدولة العثمانية غرامات حرب لأول مرة في تاريخها.

كانت الحرب الروسية إنذاراً واضحاً للدولة

القوة الحربية الأوروبية وضعف الدولة العثمانية
أسرع بانها يـ...ـارها.

- د. محمد عبد اللطيف البحراوي، من خصائص تاريخ العثمانيين وحضارتهم، ص ٢٠١، مجلة الدارة، العدد الرابع، السنة ١٢، رجب ١٤٠٨هـ / فبراير ١٩٨٨م.
- (٣) د. محمد حرب، العثمانيون في التاريخ والحضارة، ص ١٧٠، ١٧١، دار القلم، دمشق ١٩٨٩م.
- (٤) أندريه ريمون، الولايات العربية، ص ٥٥٧، دراسة في كتاب تاريخ الدولة العثمانية، ص ١، اشراف روبرت مونتران. ترجمة بشير السباعي، نشر دار الفكر للدراسات، القاهرة ١٩٩٣م.
- (٥) عبد الرحمن الجبرتي، عجائب الآثار في التراجم والأخبار، ص ١، ص ٢١، طبعة بولاق ١٩٨٢م.
- (٦) د. عبد الجليل التميمي، رسالة من مسلمي غرناطة الى السلطان سليمان القانوني، ص ١٦، مجلة الاصاله العدد ١٦، ١٩٨٢م.
- (٧) أندريه ريمون، مرجع سابق، ص ٥٤٩، ٥٥٠.
- (٨) د. محمد حرب، الحملات العربية في عهد سليمان القانوني ص ٣٣٦، مجلة الجامعة الإسلامية، العددان ٥٥، ٥٦، السنة ١٤، ١٤٠٢هـ.
- (٩) محمود السيد الدغيم، موجز تاريخ البحرية العثمانية حتى نهاية عهد السلطان سليم الثاني، ص ١١، بحث قدم إلى مؤتمر اتحاد المؤرخين العرب، القاهرة ١٩٩٣م.
- (١٠) محمود الدغيم، مرجع سابق، ص ١٥.
- (١١) د. أحمد عبد الرحيم مصطفى، في أصول التاريخ العثماني، ص ٣١٤، دار الشروق، ط ٢، ١٩٩٣م.
- (١٢) المرجع السابق، ص ٢٢٩.
- (١٣) مذكرات السلطان عبد الحميد، ص ١٤٧، تقديم وترجمة د. محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني، دار التعلم، دمشق، ١٩٩١م.
- (١٤) د. محمد حرب، السلطان عبد الحميد الثاني، ص ١٧٢، ٢٢٥، دار القلم، دمشق، ١٩٩٠م.
- (١٥) يلماز أوزتونا، تاريخ الدولة العثمانية، ص ٦٣١، منشورات مؤسسة فيصل، استانبول ١٩٨٨م.

للدولة، وصار تطويق الدولة من الداخل سهلاً ويمكننا وهو ما يتكرر اليوم بصورة مختلفة.

وإذا كنا ندعو إلى إعطاء الدولة العثمانية حقها كدولة إسلامية، عظمى فرضت سطوتها على أعداء المسلمين وديار الإسلام، فإننا نحذر من الإغراق في تمجيد الدولة بل يجب دراستها بصورة متوازنة تعطي لها حقها وتدرس سلبياتها للاستفادة منها، فنحن لا ندعو لعودة الدولة العثمانية، ولكن ندعو إلى قيام دولة عظمى للمسلمين تتولى أمرهم وتستفيد من التجربة التاريخية للدولة العثمانية.

وقد كان لعدم قيام دولة عظمى للمسلمين في أعقاب سقوط الدولة العثمانية، أثره في نمو مكانة هذه الدولة يوماً بعد يوم بين المسلمين، بحيث نستطيع أن نقول إن هيمنتها الروحية ظلت مسيطرة على المسلمين إلى اليوم.

وقد أدركت الحركة الكمالية ذلك، فكان القانون رقم ١٥٦ الصادر في ٢٦ رجب ١٣٤٢هـ / ٣ مارس ١٩٢٤م، بشأن إلغاء الخلافة العثمانية وإبعاد الأسرة العثمانية خارج الجمهورية التركية... وهذا القانون يحتوي على ثلاث عشرة مادة شديدة القسوة ضد أفراد الأسرة العثمانية بصورة غير مسبقة.

أخيراً جاء نقل العاصمة من استانبول إلى أنقرة ليعطي دلالات رمزية إضافية على انحسار هيمنة الدولة العثمانية على العالم الإسلامي، فاستانبول كان حلم فتحها يراود المسلمين منذ العصر الأموي، فكان فتحها رمزاً للمسلمين وانتصاراتهم، وامتداد الدولة في المحيط الأوربي، ونقل العاصمة إلى أنقرة يدل على تقلص محيطها الجغرافي، وتقلص نفوذها وتحولها الى دولة إقليمية - مفصولة عن دول الجوار.

الهوامش :

- (١) خالد عزب، رحلة الأمير محمد على إلى جاوة، صحيفة الحياة اللندنية ص ١٧، العدد ١١٨٠.
- (٢) Paul Coles: The Ottoman Impact on Eu-

حول قراءة اسلامية للتاريخ العثماني ودوره في الشرق العربي

ولم يكتف الفاتح العثماني المسلم بهذا بل سعى الى إسقاط الإمبراطورية المسيحية الثانية في روما، وأقسم على مواصلة الجهاد حتى يقدم الأكل لفرسه في منبج الكنيسة الرومانية، وسادت فكرة السعي لاختراق وسط أوروبا حتى الوصول إلى الأندلس لإنقاذ المسلمين بها، وعاشت أوروبا في هلع وفزع لم ينقذها منه سوى نبأ وفاة محمد الفاتح.

على أن الفلاح أو الشارع الأوربي لم يكن قد تعرف على شخصية المسلم وهويته بشكل مباشر منذ الفتح الإسلامي الأول حتى مجيء الفاتح العثماني، ولم يكن يسمع عن المسلم طوال هذه القرون سوى من خلال صيحات رجال الدين المسيحي الداعية إلى حشد الأموال والمتطوعين لمهاجمة المسلمين الكفرة البرابرة، وكلما منيت هذه الشؤد بالهزائم على يد المسلمين ازدادت موجة الكره والحقد على المسلمين فصورهم للأوربي على أنهم قراصنة ومفتصبون لقر الدين المسيحي ومهبط الأسيح وهو بيت المقدس من أجل مكاسب سياسية ومادية نعمت بها عدة أسر ظلت قابعة على صدر المجتمع الأوربي في الحكم فترة زمنية طويلة، ومكاسب حققها رجال الدين فأثروا ثراء كبيرا ونصبوا حول أنفسهم هالة كبيرة اعتمدت في مجملها على الضلال والتضليل كانوا هم أول من اعترفوا به وتأثروا عليه.

ومع أن الشعب الأوربي قد اعتبر ثورته على هذه الفئات، بعد أن اكتشف ضلالها وتضليلها، هو بداية

لم تقف محاولات التشويه والهجوم التي تعرض لها تاريخ الدولة العثمانية على المؤرخين الأوربيين واليهود وحدهم بل انجرف الى هذا الاتجاه أغلب المؤرخين العرب بشتى انتماءاتهم واتجاهاتهم، وكذلك المؤرخون الأتراك أنفسهم الذين سعوا لإدانة فترة الخلافة العثمانية كسبيل لدعم التحول القومي العلماني في تركيا بعد الحرب العالمية الأولى.

ويرجع موقف المؤرخ الأوربي إلى تأثره بنزعة الحقد والمرارة الموروثة لدور هذه الدولة على الساحة الأوربية حيث استطاعت أن تسقط إحدى الإمبراطوريتين الأوربيتين وهي الإمبراطورية البيزنطية وتتخذ من عاصمتها عاصمة لا ليتغير بعدها وجه التاريخ الأوربي من القسطنطينية (العاصمة المسيحية الأرثوذكسية) إلى اسلامبول «استامبول» (أي دار الإسلام).



إهداء

- أستاذ التاريخ الحديث والمعاصر.
- له العديد من المؤلفات التاريخية، وخاصة المتعلقة بجماعة الإخوان المسلمين والحركات الإسلامية في مصر.
- شارك في العديد من الندوات والمؤتمرات.

وكذلك تأييدها للعدوان الإسرائيلي الإنجليزي الفرنسي على مصر سنة ١٩٥٦م، الأمر الذي أدى إلى قبول الاتجاه القومي العربي وانحسار الاتجاه الداعي للإطار الإسلامي بعمقه التاريخي الذي قادته تركيا فترة الخلافة العثمانية.

ويأتى عامل التبعية البحثية لمدرسة التاريخ العربى لدارس التاريخ الغربية كعامل هام في الاتجاه نحو مهاجمة الخلافة العثمانية، ولا يرجع ذلك إلى سبق المدارس الغربية في ميدان الدراسات التاريخية فحسب بل يرجع كذلك إلى التقاء وجهات النظر بين المؤرخين الأوربيين والمؤرخين العرب حول تشويه تلك الفترة.

فقد اتجه كثير من المؤرخين العرب، مبهورين بالحضارة الأوربية، إلى إسناد كل ما هو مضمى في تاريخ بلادهم إلى بداية الاحتكاك بهذه الحضارة، واعتبروا بداية تاريخهم الحديث من وصول الحملة الفرنسية على مصر والشام وما أدت إليه من كسر جدار العزلة بين الشرق والغرب، وما أعقبها من قيام الدولة القومية في عهد محمد علي في مصر. وصحب ذلك اتجاههم لإدانة الفترة العثمانية التي عزلتهم عن أوروبا دون أن يقدروا الخلافة العثمانية حمايتهم من الهجمة الأوربية الشرسة.

ولقى هذا الاتجاه ترحيباً من قبل القوى الحاكمة في مصر آنذاك والتي سعت للاستقلال عن دولة الخلافة قبل وقوع مصر تحت الاحتلال البريطانى، كما استمر ذلك الترحيب بعد ذلك سواء من قبل السلطة الفعلية الممثلة في الاحتلال البريطانى أم من

عصر النهضة، وبداية مرحلة جديدة في تاريخه، إلا أنه لم يتخلص من تلك الرواسب الموروثة من هذه الفئات تجاه العالم الإسلامى بشكل عام وتجاه الدولة العثمانية بشكل خاص. ويقدر اندفاع قواته العسكرية المدعومة بحضارته المادية لتصفية الحساب مع الشرق عامة، والشرق الإسلامى خاصة، وتحقيق الأطماع على حساب شعوبه، كان اندفاع المؤرخين الأوربيين لتشويه التاريخ الإسلامى عامة والدور الإسلامى للدولة العثمانية بصفة خاصة.

وشارك الكتاب والمفكرون اليهود الأوربيين في نزعتهم العدائية تجاه هذه الدولة بعد أن فشلت كافة مخططاتهم في اغتصاب أى من أراضي هذه الدولة لإقامة كيان سياسى لهم طوال أربعة قرون هي عمر هذه الخلافة، وبرغم عوامل الضعف بها أغلب هذه الفترة، في حين استطاع اليهود - بمعاونة الاستعمار الغربي - أن يحققوا أهدافهم على حساب الأنظمة القومية التي قامت في العالم العربى والتي أضفت على نفسها صفات كالتقدمية والتحضّر واتهمت الخلافة التركية على طول تاريخها بالتخلف والرجعية والجمود وغير ذلك.

أما المؤرخون المسلمون في المشرق العربى فقد ساروا في ركب الاتجاه المهاجم لفترة الخلافة العثمانية مدفوعين إلى ذلك بعدد من العوامل يأتى في مقدمتها إقدام الأتراك بزعامة مصطفى كمال أتاتورك على إلغاء الخلافة الإسلامية في فبراير سنة ١٩٢٤م، وأعقب ذلك إقدام الحكومة العلمانية التركية بالتحول الكامل إلى المنهج العلماني في الجوانب الاجتماعية والاقتصادية والسياسية على حساب الاتجاه الإسلامى الذى ظل سائداً في تركيا منذ قيام الدولة العثمانية. وانخرطت هذه الحكومة في السياسة الأوربية المعادية للمشرق العربى الإسلامى، واشتركتها في سلسلة الأحلاف العسكرية الأوربية في أعقاب الحرب العالمية الثانية التي لم تلق ارتياحاً لدى بعض الحكومات وكل الشعوب العربية. وكانت تركيا من أوائل الدول التي اعترفت بقيام الكيان السياسى الإسرائيلي في فلسطين سنة ١٩٤٨م،

على في المنطقة العربية دورا قوميا حاول خلاله توحيد العالم العربي، وأن فشل في ذلك يرجع فقط إلى أنه لم يكن عربى الهوية وليس لغياب الإطار أو المفهوم القومى وغلبت الاتجاه الإسلامى في هذه الفترة، أو تفسير دوره على ضوء أطماعه الشخصية أو لارتباطه بالسياسة الاستعمارية التى دعمت وجوده.

أما المؤرخون السلفيون في المشرق العربى فقد اعتمدوا في هجومهم على فترة الخلافة العثمانية على ذلك الرصيد العدائى المتمثل في موقف هذه الخلافة من الدعوة الإصلاحية السلفية التى دعا إليها الشيخ محمد بن عبد الوهاب، وكذلك كون هذه الخلافة قد ساعدت على رواج الاتجاه الصوفى بما صاحبه من مظاهر تخل بالجوانب الأساسية للشريعة الإسلامية من منظور اتباع الاتجاه السلفى، فضلا عن أن دولة الخلافة في مراحلها الأخيرة قد تخلت عن التزامها الكامل بتطبيق نظام يستند الى الشريعة الإسلامية، وأسندت في هذه المرحلة المناصب الهامة إلى أتراك دون كفاة أو أحقية في حين أسندوا إلى العرب والمسلمين من غير الأتراك دورا ثانويا بسيطا في هذا النظام مما أثار عليها غضب كثير من العناصر العربية.

وساند المؤرخون الماركسيون هذا الاتجاه حيث اعتبروا فترة الخلافة العثمانية استمرارا لسيادة النظام الإقطاعى الذى تسيد تاريخ العصور الوسطى السابقة، وأن العثمانيين لم يحدثوا أى تغيير في وسائل أو قوى الانتاج، وأن التاريخ الحديث يبدأ بظهور الطبقة البورجوازية ثم الرأسمالية التى أسهمت في إحداث تغيير في الجوانب الاقتصادية والاجتماعية في بداية القرن التاسع عشر، والتقوا في ذلك مع المؤرخين الأوربيين من أصحاب الاتجاه الليبرالى وكذلك مع أصحاب المنظور القومى.

وينبغى أن نشير هنا إلى دور بعض المؤرخين والمفكرين النصارى واليهود الذين لعبوا دورا هاما في الترويج للاتجاهين الغربى والماركسى على السواء من خلال التأليف والترجمة لمؤلفاتهم، كما أنهم فيما طرحوه قد حاولوا أن يبتعدوا عن أى من الأطر الإسلامية الوحيدة مفضلين عليها الأطر القومية بمفهومها المحلى المحدود أو العربى أو

السلطة الشرعية الممثلة في الحكام من أبناء محمد على.

واتجه كثير من المؤرخين والمفكرين في مصر والشام الى تأصيل الإطار القومى وتعميقه من أمثال البستاني واليازجى وجورجى زيدان وأديب اسحاق وسليم نقاش وفرح أنطون وسلامة موسى، وهنرى كورييل وهليل شفارتز وميشيل علق وغيرهم، ويلاحظ أن أغلبهم من النصارى واليهود، فقد رأوا في الإطار القومى أنه الإطار الصحيح الكفيل بدفع شعوب المنطقة للتخلص من الاستعمار الغربى، مدفوعين إلى ذلك بإسهام هذا الإطار في دفع حركة النهضة والتحرر في أوروبا، دون محاولة فهم الاختلاف في طبيعة الشعبين أو اختلاف الظروف المحيطة بهما.

ولم يتغير هذا الاتجاه لدى المؤرخين العرب بشكل عام بعد قيام الثورة العسكرية في مصر سنة ١٩٥٢م، حيث اتجهت الحكومة العسكرية في مصر منذ البداية، والتقت معها أغلب الحكومات العسكرية العربية، الى دعم الإطار القومى المحلى أو العربى. كما أن أغلب هذه الحكومات قد ارتكزت على أسس أكثر علمانية في كافة الجوانب بما في ذلك الجانب الثقافى والفكرى، فنظروا إلى الوجود العثمانى في المشرق العربى على أنه كان غزوا واحتلالا، وأسندوا إليه - بطابعه الإسلامى - كافة عوامل التخلف والضعف التى أملت بالعالم العربى، واعتبروا كافة حركات الانشقاق والتمرد التى قامت إبان الفترة العثمانية، والتى دفعتها الأطماع الشخصية أو القوى الخارجية المعادية للخلافة الإسلامية، اعتبروها حركات استقلالية ذات طابع قومى كحركة على بك الكبير في مصر وظاهر العمر في فلسطين وحركة المعننين والشهابيين في لبنان والقرمانليين في ليبيا والحسينيين في تونس وغير ذلك، بغية تأصيل الاتجاه القومى الذى طرحوه.

بل ودعاهم هذا التأصيل الى اعتبار دور محمد

*** المؤرخون الأوروبيون حرفوا
التاريخ الإسلامى وشوهوه *

✳️ العلمانيون العرب كانوا أحد أسباب سقوط الدولة العثمانية.

بإطار من الموضوعية، التي اتسم بها هذا العمل في أغلبه، إلا أنه لم يعالج كافة جوانب التاريخ العثماني من جهة وكذلك فقد غلب عليه الجانب الحماسي الذاتي على الناحية الموضوعية في معالجة بعض القضايا التي تخللته من جهة أخرى.

لذلك فإنه من الواجب على المؤرخين من أصحاب المنظور الإسلامي إعادة النظر في أهم الجوانب في تاريخ الخلافة العثمانية أملا في التناغم تلك الشروخ التي نتجت عن صياغة تاريخنا من منظور قومي خدم أعداءنا في المقام الأول حيث ارتكز هدفهم على تمزيق الشعوب الإسلامية (إيران - العرب - تركيا)، ثم تحولوا إلى إحياء قوميات محلية من خلال الاهتمام بالآثار القديمة من منظور قومي متعصب لا من منظور علمي عملا على إحياء الحضارات البائدة وحتى يزداد المسلمون تمزقا.

ولعل من أهم الأمور المشجعة على ذلك الاتجاه حدوث تحول نسبي من بعض المفكرين الأتراك إلى الاتجاه الإسلامي جاء في أعقاب تحول نسبي مماثل في السياسة التركية تجاه المشرق العربي في أعقاب الرواج الاقتصادي الذي ساد بعض البلدان العربية بعد اكتشاف البترول، وأدى ذلك إلى تنشيط العناصر الفكرية الإسلامية في تركيا نفسها على الساحة السياسية والاجتماعية، فتكونت كلية للدراسات الدينية، واعتنت السلطات التركية بإعادة ترتيب أرشيف وثائق الفترة العثمانية، وإن كان المستقبل القريب هو الذي سيوضح مدى أصالة وجدية الاتجاه الإسلامي في تركيا أم أنه سيظل رهينة التحول الاقتصادي أو السياسي الحكومي، وإن كان هذا أو ذاك لا يغني عن إعادة النظر، ومن منظور إسلامي، في تاريخ الخلافة العثمانية ودورها في المشرق العربي.

حتى القارى العربى فى الجناحين الافريقى والاسيوى كمشروع الهلال الخصيب فى الشام أو مشروع وحدة وادى النيل بين مصر والسودان، فضلا عن جهودهم الواضحة فى إطار تنشيط وترويج الاتجاهات القومية المحدودة كالدعوة الى الفرعونية فى مصر وغير ذلك.

أما المؤرخون الأتراك الذين ظهروا فى فترة التحول القومى فى تركيا فى أعقاب الحرب العالمية الأولى فقد تحاملوا كثيرا على فترة الخلافة العثمانية سواء لمجاراة الاتجاه السياسى والفكرى الذى ساد بلادهم خلال فترة التحول الذى سعى - كطبيعة كثير من الأنظمة - أن يُحمل الفترة السابقة كافة جوانب الضعف والانهيار أو لتأثر الشعب التركى بالموقف الضعيف والمتخاذل الذى بدت عليه سلطة الخلافة حين منيت بالهزائم المتكررة إبان الحرب العالمية الأولى وضياع كثير من أراضيها وتسليمها بتوقيع معاهدة سيفر المهينة سنة ١٩١٨م، فى حين استطاعت الحركة القومية بزعامة مصطفى كمال أتاتورك أن تنقذ تركيا من هذه الإهانة وتستعيد الكثير من الاراضى التركية وتجبر اليونان والقوى الغربية التى تساندها على توقيع معاهدة لوزان سنة ١٩٢٢م، الى جانب تأثر المفكرين الأتراك بالموقف العربى الذى ساند الحلفاء الغربيين إبان الحرب الأولى ضد دولة الخلافة وإعلان الثورة عليها سنة ١٩١٦م.

ويبدو من خلال كل ذلك أن شبك الإدانة قد التقت برغم تفاوت الأسباب وتباينها على طريق تشويه المؤرخين لتاريخ الخلافة الإسلامية العثمانية. ولكون هذه المحاولات فى أغلبها قد غلبت عليها الذاتية أكثر من الموضوعية فقد أدى ذلك الى ظهور رد فعل إسلامى لدى بعض المؤرخين المسلمين فى ربيع القرن الفائت لعل من أهمها وأبرزها تلك المحاولة التى قام بها المرحوم الأستاذ الدكتور عبد العزيز الشناوى والتى بدت فى كتابه «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها» وبرغم الجهد المبذول، والدافع الإسلامى المحاط

الأوقاف والدراسات العثمانية الجديدة

ومع تطور الأيام ونمو الدولة الإسلامية انتشرت الأوقاف في شتى بقاع دار الإسلام حتى أضحت الوقف بحق ظاهرة اجتماعية اقتصادية أثبت دوراً بارزاً في حركة المجتمعات الإسلامية [١].

وفي العقود الأخيرة من القرن الماضي تم إعادة تنظيم دور الوثائق في معظم بلدان الشرق الأوسط، وساعد ذلك على اكتشاف العديد من وثائق الأوقاف وسجلات المحاكم الشرعية التي تعتبر مصدراً نفيساً للمادة التاريخية، وترجع معظم هذه المصادر إلى العصر العثماني نظراً لقربه النسبي، فالدولة العثمانية هي بمثابة آخر خلافة إسلامية، فضلاً عما عرف عن الإدارة العثمانية من بيروقراطية وتنظيم شديد للأداة الحكومية.

وساعد تنظيم الأرشيف العثماني على حدوث الانقلاب الكبير في ميدان الدراسات التاريخية العثمانية، هذا الانقلاب الذي دفع إلى الصدارة التاريخ الاجتماعي - الاقتصادي، الذي أصبح

عاجلت العديد من الدراسات القانونية والفقهية المقارنة مسألة الأصول الأولى لنظام الأوقاف، ورات تلك الدراسات أن نظام الوقف الإسلامي يتشابه مع ما عرفته الأمم السابقة من نظم مشابهة للوقف، إن لم تكن وقفاً بعينها، والعودة بجذور الوقف إلى أيام الفراعنة ثم الرومان وغيرهم، مع ربط الفقهاء المسلمين بين الوقف والدين الإسلامي، وظاهرة الوقف والهبة قد عرفتتها شتى المجتمعات في صور شتى.

ويرجع نظام الوقف الإسلامي في أساس نشأته إلى الوازع الديني حيث أرجعه البعض إلى حديث الرسول «صلى الله عليه وسلم» «إذا مات ابن آدم انقطع عمله إلا من ثلاث: صدقة جارية أو علم ينتفع به أو ولد صالح يدعو له» من هنا عرف الوقف بأنه صدقة جارية؛ وأيضاً ما عرف عن النبي «صلى الله عليه وسلم» من قوله لعمر بن الخطاب عندما أراد التقرب إلى الله بارض له «إن شئت حبست أصلها وتصدقت بقرتها» هكذا كان الوقف «حبس العين والتصدق بالمنفعة» أي أن أصل الوقف لا يباع ويتم التصديق ببيع العين الموقوفة، سواء كانت أطيافاً أم عقارات سكنية أم حوائط وغيره.

إضاءة

- حاصل على جائزة مبارك في مجال العلوم الاجتماعية لعام ٢٠٠٥م.
- أشرف على العديد من الرسائل العلمية بالجامعات المصرية.

العصر العثماني، منها ١٠ دراسات عن تاريخ الولايات العربية في هذا العصر. ويوضح ذلك زيادة الاهتمام بدراسة تاريخ الأوقاف في الولايات العربية في إطار إعادة كتابة التاريخ الاجتماعي - الاقتصادي للعصر العثماني.

وتنوعت موضوعات هذه البحوث لتشمل دراسة منهجية للأوقاف في عينة من سجلات المحكمة الشرعية في دمشق، أو دراسة النبلاء الحضريين والأوقاف الخاصة واستثمار رأس المال من خلال دراسة حالة عائلة طلبية في القرن السابع عشر، أو تتبع صيرورة وقف عبر القرون، نموذج وقف لهانم دمشقية، وأيضاً وقف بعض الأديرة المارونية في لبنان في القرن الثامن عشر، كما تم معالجة مسألة الوقف والحراك الاجتماعي في تونس، وهي من الأمور الهامة في التاريخ الاقتصادي للوقف، وعن مصر كانت هناك ثلاثة أبحاث عن وقف النبلاء في القاهرة، أو عن الوقف والعمران في القاهرة، وأخيراً حاول أحد البحوث معالجة مسألة العلاقات بين مصر والحجاز من خلال دراسة سفن الأوقاف في البحر الأحمر.

محط اهتمام الجميع، بعدما تركز مفهوم التاريخ سابقاً على مجال التاريخ السياسي فحسب. ولا أدل على ذلك من ظهور اللجنة الدولية للتاريخ الاجتماعي الاقتصادي للإمبراطورية العثمانية في تركيا في عام ١٩٧٧م، حيث عقدت هذه اللجنة عدة مؤتمرات دولية في هذا الشأن بدأتها من عام ١٩٧٧م وحتى الآن وجرى فيها فعاليات هذه الندوات في العديد من المدن الأوروبية مثل أنقرة، ستراسبورج، ميونخ، استانبول، أكس - ان - بروفانس، هايدلبرج وغيرها.

وفي تونس ومنذ بداية الثمانينيات بدأت سلسلة المؤتمرات الدولية حول تاريخ الولايات العربية في العصر العثماني [٢]، ودار المؤتمر الأول حول الولايات العربية ومصادر وثائقها، ولم يكن هذا الاختيار عشوائياً وإنما نتيجة الأرشيفات الجديدة التي ساعدت على الاستفادة من المنظور الجديد للتاريخ الاقتصادي - الاجتماعي في هذه الفترة.

ولا أدل على أهمية مسألة الوقف في الدراسات العثمانية بشكل علم وفي تاريخ الولايات العربية في العصر العثماني على وجه الخصوص من فحص محتوى أهم الدراسات الحديثة حول الأوقاف وهو كتاب «الوقف في العالم الإسلامي أداة سلطة اجتماعية وسياسية» [٣]. وهو كتاب جماعي صادر عن المعهد الفرنسي للدراسات العربية في دمشق في عام ١٩٩٥م، إذ يحتوي الكتاب على ١٦ دراسة حول تاريخ الأوقاف في العالم الإسلامي، منها حوالي ١٢ دراسة عن

الى دراسة وتفسير التاريخ الحضري لهذه المدن من خلال «المنظور الغربي» أي من خلال نماذج وجداول وأشكال وتصورات تقليدية للمدن الغربية ومحاولة البحث عن مثيل لها في المدن العربية. وبات هذه المحاولات دائماً بالفشل. من هنا جاءت الرؤية السهلة والخاطئة معاً حول «فوضى» المدن أو عدم وجود «تعمير حضري» و«تدهور» أوضاع المدن العربية تحت الحكم العثماني، وكان ذلك يخدم في النهاية المقولة والنغمة السائدة حول العصر العثماني بأنه عصر انحطاط. ولكن هذا الادعاء سقط أمام دراسات عديدة عربية وغربية.

وساعدت المصادر التاريخية الجديدة مثل وثائق المحاكم الشرعية وحجج الأوقاف ودفاتر الطابو على تقديم صورة دقيقة واقعية للمدن العربية، ولعبت الحاسبات الآلية والنظم المعلوماتية دوراً مهماً في الاستفادة المثلى من هذه المصادر.

ويعد أندريه ريمون من أهم مؤرخي المدن العربية في العصر العثماني، ويعد كتابه المدن العربية الكبرى في العصر العثماني [٤] من أهم الدراسات في التاريخ الحضري بشكل عام، ويمثل انقلاًباً خطيراً في هذا المجال، حيث لأول مرة تتم دراسة «المدن العربية» مجتمعة في دراسة واحدة، ويزيد من أهمية الكتاب أنه بدأ بنقد الدراسات الاستشرافية السابقة حول «عشوائية» المدن العربية وعدم وجود «مؤسسات بلدية» و«حياة جماعية» في هذه المدن. ويبرز ريمون مدى أهمية «الأوقاف» كمؤسسة اسلامية في

عمران المدينة العربية قائلاً «لقد قامت مؤسسة إسلامية خالصة وهي الأوقاف بدور هام في هذا التنظيم الخاص بالتوسع

وللتأكيد على أهمية الأوقاف في التاريخ العثماني تم تخصيص حلقة بحث عنه ضمن أعمال المؤتمر السادس للتاريخ الاقتصادي والاجتماعي للإمبراطورية العثمانية وتركيا، الذي انعقد في اكس - ان - بروفانس في فرنسا في عام ١٩٩٢، ونشرت بعض هذه الأبحاث ضمن أعمال الندوة بعد ذلك.

وسنحاول في الورقات التالية تقديم بعض النماذج المنهجية والعملية حول الدور الذي أدته حجج الأوقاف في إعادة كتابة التاريخ العثماني.

١ - الأوقاف وتاريخ المدينة الإسلامية:

يعتبر التاريخ الحضري من أهم الميادين التي شهدت تطوراً هائلاً في مجال تاريخ الولايات العربية في العصر العثماني. فحتى وقت قريب كانت معرفتنا عن «المدن العربية» في العصر العثماني تكاد تكون غامضة، وكانت الدراسة الاستشرافية تنظر إلى هذه المدن في هذا العصر على أنها تتسم بالفوضى والعشوائية وعدم وجود أي «نسق حضاري» واستمرار هذا الشأن حتى حدوث الانقلاب الحضري «الخطير» في النصف الثاني من القرن التاسع عشر بمجيء الاستعمار والتحديث.

في الواقع كانت المشكلة الرئيسية التي تواجه هؤلاء عند دراسة المدن العربية هي محاولتهم الدائبة

**** الوقف شكل قيمة انسانية واقتصادية واجتماعية رفيعة في المجتمع الاسلامي ***

✳ اندريه ريمون أثبت أهمية الأوقاف كمؤسسة إسلامية في عمران المدينة العربية.

العمراني» .. «وأصبحت عملية تخصيص وقف كبير هي بالضرورة عملية تخطيط حضري يمكن أن تؤثر على حي بأكمله وعلى إعادة تشكيله بالكامل» .. «وإننا

إسلامي غالب من حيث العمران والسكان والعادات والتقاليد .. إلخ، وهكذا، على سبيل المثال، تحولت بلغراد خلال قرن فقط من قلعة إلى واحدة من أكبر المدن في بلاد البلقان وبقيت حتى منتصف القرن التاسع عشر تدعى (دمشق الأوربية) و(بوابة الشرق)».

ندرك أن الأوقاف كانت تحقق إطاراً قانونياً سهلاً لتنفيذ عمليات عقارية واسعة النطاق وأن نظام الأوقاف يسد الفجوات في مجال تخطيط المدن وذلك السماح بالقيام بتنفيذ عمليات عمران متكاملة» .. «ومن الواضح أن الأوقاف الكبيرة قد ساهمت بقوة في تشكيل المساحات الفضاء بالمدن وفي تحقيق الترابط والتماسك في البد الحضري ونمو المدن».

٢ - الأوقاف والحياة التعليمية :

لعل من أم الأموار التي قامت بها الأوقاف في المجتمعات الإسلامية رعاية الحياة التعليمية والثقافية، ومن المعلوم مدى تشجيع الإسلام على القراءة والتعلم، ولهذا توجهت الأوقاف كصدقة جارية إلى إنعاش العلم والتعليم في الدولة الإسلامية. وأصبحت حجج الأوقاف بحق بمثابة لوائح تعليمية تنظم مناهج التعليم، وأوقات الدراسة، وحتى مكافآت الطلبة ومرتبات الأساتذة. سواء بالنسبة للتعليم الأولي، المنتشر عبر ظاهرة «المكتب» الكتابي، أو حتى المدارس والجوامع العريقة التي كانت بمثابة «جامعات أكاديمية» لا تقل عن نظيراتها الأوربية آنذاك مثل القرويين في تونس والأزهر في القاهرة والسليمانية في استانبول وغيرها.

ويرصد لنا المؤرخ التركي الشهير خليل اينالجيك[٥] الدور الهام الذي أنشئه الأوقاف في تطور القسطنطينية بعد فتحها إلى «استانبول الإسلامية»، ويبدأ ذلك التطور مع محمد الفاتح فيذكر اينالجيك: «بفضل نظام الوقف تأسست في استانبول مجمعات عمرانية ثقافية تجارية» .. ويرى أن أعمال الأوقاف في عهد محمد الفاتح قد دفعت المؤرخ المعاصر نشري إلى القول بأن «السلطان محمد هو الذي أنشأ استانبول» واستمرت هذه السنة الحميدة بعد ذلك على أيدي خلفائه من السلاطين.

ويشير محمد الأرنؤوط[٦] إلى ظاهرة مهمة وهي دور الوقف في إضفاء الطابع الإسلامي على بلاد البلقان بعد فتحها في العصر العثماني، ونشوء «المدن الإسلامية» في المنطقة «ليس من المستغرب أن تكون المدن الجديدة التي نشأت في بلاد البلقان خلال العصر العثماني بطابع شرقي

وسنأخذ على سبيل المثال حجة وقف سبيل وكتاب عبدالرحمن كتحدا[٧] في القاهرة مثالا

** تنشيط الحركة التعليمية كانت واحدة من معالم الوقف ومعطياته.

ويختتمون مجلسهم بالمكتب المذكور في كل يوم قبل أذان العصر بقراعتهم الحزب المعتاد ويهدون ثواب ذلك في صحائف مولانا الواقف المشار إليه ووالده ثم إلي روح والده وأخيه وسائر أموات المسلمين حكم العادة في نظير ثمن جرايتهم الجاري بها العادة في كل سنة سبعة آلاف نصف ومايتا نصف».

وقد استلقت الدور الذي أدته الأوقاف في الحياة التعليمية في العصر العثماني انتباه علماء الحملة الفرنسية الذين وصموا الدولة العثمانية بإهمال التعليم «ومن الأمور اللافتة للنظر أن المدارس العمومية لا تدين بوجودها إلا لأعمال البر (يقصد الأوقاف)، وهذه المدارس كبيرة العدد في أية مدينة تحظى بدرجة ما من الأهمية، ويقوم الرجل الثري (يقصد الأوقاف) عادة بتخصيص جزء من الميراث الذي سيتركه الأولاد لإنشاء مدرسة عمومية والصرف عليها. انظر إذاً كيف يقوم كرم وتضحية الخاصة بسد ثغرات الإهمال الإجرامي من جانب الحكومة؟ ولولا حسنات هؤلاء الأغنياء لكانت مصر وتركيا معاً محرومتين تماماً من معرفة المبادئ الأولية للتعليم» [٨].

إن علماء الحملة الفرنسية هنا ينظرون إلى الدولة العثمانية بمفهوم «الدولة القومية» السائد آنذاك في أوروبا، حيث يعتبر التعليم والصحة وغيره من المهام القومية للدولة، بينما الدولة العثمانية في الحقيقة هي وريثة مفهوم الدولة في الإسلام، حيث يتاح الدور الأكبر لمؤسسات العمل الأهلي، وهو ما تعود إليه أوروبا الآن تحت مفهوم «المجتمع المدني».

على أهمية ججج الوقف في إعادة كتابة تاريخ التعليم في العصر العثماني، فضلاً عن أهمية الوقف في الحياة التعليمية والثقافية.

فعلى سبيل المثال تذكر الوثيقة من ضمن الانفاقات مرتبات الأساتذة والطلاب نظير عملهم: «يصرف لرجل من حفلة كتاب الله المبين يكون صالحاً ديناً مؤدباً لأطفال المسلمين يعلمهم حروف الهجاء والخط والقرآن العظيم على العادة، في كل سنة عن معلومه سبعمائة نصف وعشرون نصفاً فضة، وما يصرف لمن يكون فقيهاً أيضاً بالمكتب المذكور في نظر ثمن جرايته في كل سنة خمسمائة نصف وأربعون نصفاً فضة، وما يصرف لكل من يكون فقيهاً أيضاً في ثمن كسوته في شهر رمضان من كل سنة في ثمن شاس فرحة ومصبغة ومقطع قماش وقاروق وبابوج مايتا نصف ثنتان وستون نصفاً فضة .. وما يصرف لرجل من أهل الدين والصلاح يكون عريفاً بالمكتب المذكور يُحَفِّظ الأيتام ويعلمهم في غيبة الفقيه وحضوره القراءة والكتابة حكم العادة عن معلومه في كل سنة أربعمائة نصف وثمانون نصفاً فضة، وما يصرف أيضاً لمن يكون عريفاً أيضاً عن ثمن جرائته في كل سنة ثلاثمائة نصف وستون نصفاً فضة .. وما يصرف لعشرون يتيماً من أيتام فقراء المسلمين يكونوا دون البلوغ يجلسون بالمكتب المذكور يتعلمون القرآن العظيم

٣- الأوقاف والتاريخ الاقتصادي :

هكذا ساعدت الأوقاف على إعادة كتابة التاريخ الاجتماعي الاقتصادي للدولة العثمانية، وأحدثت انقلاباً كبيراً في هذا المجال ظهرت انعكاساته في العديد من الدراسات الجديدة التي استطاعت تنقية التاريخ العثماني من الآراء الاستشراقية القديمة حوله.

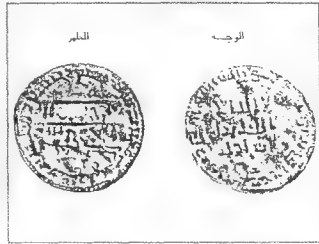
الهوامش :

- (١) محمد عفيفي: الأوقاف والحياة الاقتصادية في مصر في العصر العثماني، القاهرة ١٩٩١م.
- (٢) لابد هنا أن نشيد بسلسلة النوات التي تمخض عنها العديد من المنشورات من جانب مؤسسة التميمي في تونس وجهود د. عبد الجليل التميمي، وسيراً على رصد جهود المؤسسات العلمية نشيد أيضاً بجهود لجنة تاريخ الشام بالجامعة الأردنية وجهود وأعمال د. عدنان بخيت وتلاميذه، وبالنسبة للجهود الفردية لابد من الإشارة إلى أعمال عبد الكريم رافق في سوريا وعصام خليفة في لبنان، وعبد الرحيم عبد الرحمن في مصر.
- (٣) Deguihhem, R.ed., Le Waqf dans l'aspace islamique, Damas 1995.
- (٤) أندريه ريمون : المدن العربية الكبرى في العصر العثماني، ترجمة : لطيف فرج، القاهرة ١٩٩١م.
- (٥) خليل اينالجيك : تاريخ الدولة العثمانية، ترجمة : محمد الأرنؤوط، بيروت ٢٠٠٢م.
- (٦) محمد الأرنؤوط : دور الوقف في المجتمعات الإسلامية، دمشق ٢٠٠٠م.
- (٧) حجة وقف عبد الرحمن كتحدا، وزارة الأوقاف المصرية، حجة رقم ٩٤١.
- (٨) موسوعة وصف مصر، ترجمة زهير الشايب، ج ١، المصريين المحدثون، القاهرة، د.ت.
- (٩) محمد عفيفي : المرجع السابق.

تأتي الأوقاف على قدر كبير من الأهمية بالنسبة لأوضاع العقارات والأراضي، نظراً لأهمية الدور الذي قامت به الأوقاف في التاريخ الاقتصادي في عالم الإسلام. ورغم الاهتمام المبكر بدراسة تاريخ الأوقاف، لم يحظ تاريخ الأوقاف الاقتصادي في العصر العثماني باهتمام ملحوظ حتى السنوات الأخيرة، على الرغم من الكم الهائل من وثائق الأوقاف التي ترجع إلى هذا العصر مقارنة بالعصور السابقة، هذا فضلاً عن أهمية الأوقاف في التاريخ الاقتصادي للولايات العربية، إذ وصل حجم الأوقاف في الأراضي الزراعية في مصر في مطلع العصر العثماني إلى حوالي ٤٠٪ من حجم هذه الأراضي. هذا فضلاً عما تقدمه لنا دراسة الأوقاف من أبعاد ونتائج حول الأوضاع العقارية (ملك - إيجار - استبدال - خلو وغيره) بشكل عام سواء للعقارات أو للأراضي الزراعية [٩].

ومن ناحية أخرى تعد ظاهرة «الوقف النقدي» أو وقف النقود من أهم الظواهر المميزة للتاريخ الاقتصادي للأوقاف في العصر العثماني. إذ يعبر عن تطور كبير على المستوى الفقهي والعملية آنذاك، حيث يتم وقف مبالغ كبيرة تقدم للتجار وأصحاب الحرف ببيع من المال يعوه إلى الوقف، بحيث يضمن للوقف مصيدراً مالياً لتغطية نفقات مشاريعه الخيرية. وبهذا الشكل تحول الوقف إلى مؤسسة مالية تمول مشاريع التجار وأصحاب الحرف، وما ترتب على ذلك من إنعاش الحياة الاقتصادية آنذاك، فضلاً عن تنمية الوقف لأمواله.

شهدت فترة العصور الوسطى العديد من مظاهر العلاقات الاقتصادية بين العرب وأوروبا، فضلاً عن إسهامات الفكر الاقتصادي العربي، ذلك الفكر الذي كان إفراساً للبيئة العربية قبل الإسلام وبعده، وتحلى ذلك بشكل كبير في مجال التجارة العالمية، ففي الوقت الذي كان فيه المجتمع الأوربي الوسيط يعيش مرحلة النظام الإقطاعي Feudalism [١] بكل علاقات التبعية بين ملاك الأراضي الزراعية Lords والافصال Vassals كانت التجارة العربية تمارس دورها التاريخي في نقل السلع والبضائع الشرقية من الشرق إلى الغرب عبر العديد من الطرق التجارية البرية والبحرية التي تصل ما بين أسواق الشرق الآسيوي، وموانئ الخليج العربي وبلاد الشام، والحقيقة أن الانقلاب الاقتصادي في العصور الوسطى لم يتم في ظل عصر الإقطاع الزراعي الذي ساد الغرب الأوربي، وإنما تحقق بفضل الحركة التجارية الكبرى في شرق البحر المتوسط عبر الإسهامات الكبرى للإمبراطورية البيزنطية منذ القرن الخامس إلى القرن السابع الميلادي، ثم العرب المسلمين في فترة الفتوحات الإسلامية والمد العربي بداية من القرن الثامن حتى نهاية القرن الثاني عشر الميلادي.



دينار الملك أوفو الذهبي
(بتصريح من المتحف البريطاني بلندن)

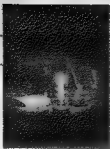
أثر الفكر

الاقتصادي

العربي الإسلامي

على أوروبا في

العصور الوسطى



إضاءة

- دكتوراه الفلسفة من قسم التاريخ.
- أستاذ مساعد/ كلية الآداب / قسم التاريخ.
- من مؤلفاته :
- يزنطه والمدن الإيطالية، العلاقات التجارية.
- الاقتصاد الصليبي في بلاد الشام.
- دراسات في تاريخ العصور الوسطى.
- له العديد من المقالات والدراسات المنشورة في المجلات والصحف المحلية والعربية.
- عضو عامل في بعض الجمعيات المختصة.

العملات التي اكتشفت في أقاليم بحر البلطيق في روسيا، وتعود إلى الفترة ما بين القرنين السابع والحادي عشر الميلادي [٧].

على أن الانتشار الكبير للتجار العرب والمسلمين منذ القرن السابع الميلادي كان في أرجاء الإمبراطورية البيزنطية وخاصة بعد فشل مسلمة بن عبد الملك في فتح القسطنطينية (٩٩هـ/ ٧١٧م) وموافقة الإمبراطور البيزنطي ليو الثالث الأيسوري على طلبه ببناء مسجد بالمدينة [٨] ويمكن اعتبار هذا المسجد بمثابة نواة الحي الإسلامي. ذلك الحي الذي سكن به التجار المسلمون إبان إقامتهم بالقسطنطينية حتى بدايات القرن الثالث عشر وتحول العملة الصليبية الرابعة اتجاهها لغزو القسطنطينية ١٢٠٤م.

انتشر التجار المسلمون في أسواق القسطنطينية بشكل متزايد وخاصة في القرن العاشر الميلادي حيث اهتم «كتاب الوالي» [٩] بالإشارة إليهم في عدة فصول منه وكانوا يحملون معهم الحرير والتوابل والطور والملابس الكتانية. وعلى الرغم من أن المدة القانونية لبقاء التجار

ومنذ وقت مبكر وصل التجار العرب إلى أقصى الغرب الأوربي، فقد كان هناك العديد منهم في بريطانيا الرومانية [٢]، كما انتشر التجار العرب في القرنين السادس والسابع الميلاديين في دولة الفرنجة وخاصة في مدن باريس ومارسيليا وتور [٣] حيث كانوا يمارسون تجارتهم بين الشرق والغرب عبر الطرق البرية والموانئ الأوربية.

ولا نتحدث مصادر دولة الفرنجة بعد ذلك عن التجار العرب والمسلمين المشاركة، إلا أن ذلك لا ينفي وجودهم، خاصة في ظل وجود العلاقات الجيدة بين شارلمان (٧٧١ - ٨١٤) وهارون الرشيد (٧٨٦ - ٨٠٩). حسب المصادر الفرنجية - حيث حملت سفارة الأخير العديد من الهدايا الشرقية الفاخرة، كالتوابل والطور [٤].

ونظراً لعدم تأثر التجار بحالات العداء المتبادلة بين المسلمين في الأندلس، وشارلمان، فإن ذلك يسمح باستنتاج وجود العديد من التجار المسلمين المغاربة والأندلسيين في أسواق الفرنجة في القرنين الثامن والتاسع الميلاديين.

وهناك دليل يثبت انتشار التجار والنقود العربية الإسلامية في دولة الفرنجة زمن شارلمان، حيث ذكر ثيودولف أسقف أورليانز (٧٩٨م) أن العملة الذهبية العربية كانت تنافس العملة اللاتينية الفضية [٥] ويدل هذا أيضاً على بداية سيطرة العملة العربية على سوق النقد في غرب أوروبا وذلك بفضل قيمتها العالية وثبات عيارها قياساً بالعملة الأوروبية في العصور الوسطى مما جعلها تتصدر - إلى جوار العملة البيزنطية [٦] - عرش المعاملات التجارية في عالم العصور الوسطى وهو ما كشفت عنه الحفريات الحديثة حيث تم العثور على كميات كبيرة من العملات العربية في كافة أرجاء أوروبا، من ذلك

وجود العديد من التجار المسلمين القادمين من مصر والشام والأندلس ويصف السلع والبضائع التي قام التجار بجلبها الى السوق.

كذلك وجود التجار المسلمين في أممات المدن التجارية الإيطالية، كاسواق البندقية وجنوا بالإضافة إلى أسواق مدينة بيزا في القرن الصادي عشر الميلادي، وكان المسلمون قد نجحوا في غزو المدينة الأخيرة مرتين (١٠٠٤، ١٠١٩م) [١٥].

كان التأثير العربي على الممارسات التجارية في بيزنطة والمدن التجارية الإيطالية واضحاً بدرجة كبيرة، حيث تعلم التجار الإيطاليون - الذين حملوا عبء الثورة التجارية الأوروبية منذ بداية القرن الثاني عشر - درسهم التجاري الأول من تجار الضفة الشرقية للبحر المتوسط [١٦]. وهم التجار العرب والمسلمون. فقد تعلم الأوروبيون منهم استخدام العديد من مفردات التعامل التجاري، التي دخلت الى اللغات الأوروبية مثل السمسار Sansal، الحلقة galega تعريفه الجمارك Tariffa [١٧] ديوان الجمرك Douane.

فضلا عن ذلك فقد تعلم التجار البيزنطيون والإيطاليون فن إدارة الأسواق من العرب والمسلمين عبر استخدامهم لوظيفة المحتسب في المجتمع العربي الاسلامي [١٨] من ذلك. استحدثت هذه الوظيفة في الإمبراطورية البيزنطية في القرن العاشر الميلادي، وكان الى القسطنطينية هو الذي يتولى أعمال المحتسب في أسواق المدينة، وتنظيم عمليات البيع والشراء وتوقيع العقود [١٩]، ومراقبة التجار وحوائجهم، ومراجعة السلع والبضائع التي يجري بيعها في الأسواق. كما كان للمحتسب في

الأجانب في القسطنطينية كان يجب ألا تتجاوز ثلاثة أشهر إلا أن كتاب «الوالي» يتحدث عن وجود تجار عرب شوام بلغت إقامتهم بالقسطنطينية عشر سنوات متصلة [١٠].

ويرى أحد أشهر المتخصصين في التاريخ الاقتصادي الأوروبي الوسيط أن هؤلاء التجار العرب ربما كانوا من المسيحيين الذين انحدروا من هجرات قديمة إلا أنه يؤكد أن بعضهم كان من المسلمين الذين لم تكن لديهم النية في التحول عن الإسلام [١١]. كما يتساءل أحد أهم الباحثين العرب في التاريخ البيزنطي حول كيفية اكتساب هؤلاء التجار العرب لحق الإقامة الدائمة في القسطنطينية، ولا يستطيع الجزم بأنهم وكلاء للتجار العرب الكبار في الشام [١٢]. وفي تصوري أن أية محاولة لتفسير هذا الوجود الدائم والمستمر للتجار الشوام في القسطنطينية إنما يعود إلى كونهم مستوطنين شبه دائمين للحى الاسلامي في القسطنطينية الذي كان نواته مسجد مسلمة بن عبد الملك (٩٩هـ/ ٧١٧م).

كذلك انتشر التجار المسلمون في أسواق مدينة طرابيزون على البحر الأسود وجلبوا إليها الحرير والتوابل والطور وبضائع العراق وفارس وبلاد المشرق الاسلامي [١٣]. كما ارتاد التجار المسلمون سوق

مدينة خوناي البيزنطية في آسيا الصغرى، بالإضافة إلى وجودهم بكثافة في أشهر الأسواق السنوية البيزنطية طوال العصور الوسطى، وهو سوق مدينة سالونيك في بلاد اليونان.

وهناك نص أدبي يعود للقرن الثاني عشر الميلادي [١٤] يصف طبوغرافيا السوق، ويذكر

**** حركة التجارة الكبرى في شرق البحر المتوسط كان لها دورها الفاعل في تشييط الحركة التجارية في أوروبا.**

** العملة الذهبية العربية نافست العملة اللاتينية في أوروبا

ومنذ وقت مبكر فرضت النقود الإسلامية تأثيرها الكبير على العمليات التجارية في شواطئ البحر المتوسط بفضل نجاح التجارة الإسلامية وانتشارها، بل بدأت بعض القوى المعاصرة للمسلمين في تقليد العملات

الإسلامية، من ذلك قيام الإمبراطورية البيزنطية في القرن الثاني الهجري / الثامن الميلادي بضرب عملات بيزنطية فضية (مليارات) ثم ضربها على دراهم أموية أصلية، وظلت النقوش الأموية على العملة البيزنطية تثبت ذلك بالدليل القاطع، وهي عملات تحمل تواريخ (٨٧هـ / ٧٠٦ م، ٩٨هـ / ٧١٧م) [٢١] وكان الغرض من ذلك تسهيل العمليات التجارية المحلية والصفقات الصغيرة.

ولم تفرض العملات الإسلامية سطوتها على شواطئ المتوسط فقط، بل تعدت ذلك إلى المحيط الاطلنطي مما يدل على مدى قوة ونفوذ النقود الإسلامية، من ذلك سك الملك الانجلو ساكسوني أوفيا Offa ميركيا Mercia (مملكة انجلو سناكسونية في وسط إنجلترا الحالية) (٧٥٧ - ٧٩٦ م) عملة ذهبية كانت تحمل اسم الملك أوفيا Offa Rex محفوراً من اليمين إلى اليسار على حسب الكتابة العربية من جهة، وتحمل نقشاً عربياً على الناحية الأخرى [٢٢] وهذه العملة تقليد واضح للدينار الإسلامي، مما يدل على قوة نفوذ العرب في التجارة والاقتصاد العالمي في القرن الثامن الميلادي.

وامتان دينار الملك أوفيا بسمات خاصة جعلته فريداً في نوعه قياساً إلى كافة العملات الصادرة في أوروبا الغربية على وجه الإطلاق طوال فترة العصور الوسطى، ولابد أن ضرب هذا الدينار كان من أجل

القسطنطينية منذ القرن العاشر الميلادي سلطة مراقبة تجار المجوهرات والضيافة وتجار الملابس الحريرية، وتجار المنسوجات الحريرية الشامية، وتجار المنسوجات الكتانية، وتجار العطور والروائح، وصناع

الشمع والصابون والجلود وباعة المواد الغذائية، والجزائرين، وباعة الأسماك، والخبازين، وأصحاب الحانات.

كما تجلى تأثير الفكر الاقتصادي العربي الإسلامي على أوروبا في مناطق جغرافية أخرى، من ذلك عندما وصل الصليبيون إلى الشرق العربي، ونجحوا في تأسيس مملكة بيت المقدس، وإمارات الرها وإنطاكية بالإضافة إلى كونتية طرابلس، لم يجدوا بداً من الاعتماد على «الاحتسب» في إدارة ومراقبة الأسواق الصليبية، فاستخدموا هذه الوظيفة تحت لقب Methesep [٢٠] الذي كان يساعد الفيكونت في الإشراف على عمليات البيع والشراء بالأسواق، وملاحظة السلع الفاسدة، وتقديم تقرير بالتجار الجشعين، بالإضافة إلى ذلك كان على المحتسب مراقبة الأسواق الصليبية ليلا لمنع حوادث السوق.

كذلك امتد تأثير الفكر الاقتصادي العربي على التجارة الأوربية ليصل إلى مجال النقود والعملات، وعلى الرغم من أن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان قام بضرب الدينائير الذهبية الإسلامية لأول مرة ٧٤هـ / ٦٩٢م في محاكاة للنقود الذهبية البيزنطية. فإن ذلك لم يستمر إلى الأبد، وكان للمسلمين عملاتهم الذهبية المتفردة بنقوشها أولاً وبقيمتها العالية ثانياً.

** العملة العربية في العصور الوسطى سيطرت على سوق النقد في غرب أوروبا.

التعامل به
في التجارة
الخارجية
مسح
المسلمين
بعد سيادة
الدنانير

العربية لعرش التجارة العالمية غربى المتوسط.

وقام أحد الباحثين العرب المعاصرين قام بدراسة أحوال مملكة ميركيا في عصر الملك أوفيا، وضربه للعملة الذهبية المشابهة لعملات العباسيين، ومن خلال هذه الدراسة توصل الباحث الى نتيجة مؤداها اعتناق أوفيا للإسلام مستشهداً بالعلاقة السيئة بينه وبين شارلمان ملك الفرنجة من جهة، والبابوية في روما من جهة أخرى[٢٣].

وإذا عدنا مرة أخرى إلى حوض البحر المتوسط، نجد أن النورمان بعد غزوهم صقلية في القرن الحادي عشر، وجدوا بها عملة اسلامية هي ربع الدينار أو الرياى، واستخدمها الملك النورمانى وليم الثاني (١١٦٦ - ١١٨٤) بعد ذلك بنفس الاسم رباى rubai وهو الأمر الذى يؤكد ابن جبير لدى مروره بصقلية بعد عودته من الشام (٥٨٠هـ / ١١٨٤م)[٢٤].

واستمر النورمان في استخدام العملة الاسلامية الى أن ضربوا عملتهم الذهبية التى كانت تسمى تارى - فجرى استخدامها في ممتلكاتهم في صقلية وجنوب إيطاليا[٢٥].

على أن التأثير الكبير للنقود العربية والإسلامية كان في بلاد الشام إبان السيطرة الصليبية، فحينما أخذ الصليبيون في الاستقرار في الشرق العربي، وبدأوا في إقامة مؤسساتهم الادارية والحكومية،

واجهتهم مسألة إيجاد النظام المالى الملائم. ونظراً للانتشار الساحق للنقود الذهبية الإسلامية في الشام، في مقابل ما عرقوه في أوروبا الغربية من نقود فضية مثلت العماد الرئيسى للنظام النقدي الأوروبى، فقد حاول الصليبيون التوافق مع النظام المالى الاسلامي، وهكذا كان عليهم اتخاذ قرار حاسم، وهو استمرار العمل بالعملة الذهبية على حساب العملات الفضية التى تعودوا عليها في بلادهم[٢٦].

ويمكن القول أن النظام النقدي للصليبيين بالشام قد انقسم الى قسمين أساسيين، هما النقود الذهبية والفضية عالية القيمة، التى جرى ضربها تقليداً للنقود الذهبية والفضية للفاطميين والإيوبيين في مصر والشام، ونقود برونزية وتحاسية ذات كتابات يونانية أو لاتينية أو فرنسية[٢٧].

ونظرا لوجود الكيان الصليبي وسط مجتمع نقدي متقدم، وحين لم يكن لدى الصليبيين عملتهم الخاصة بهم، قاموا بتقليد النقود الذهبية والنحاسية الخاصة بالخليفة الفاطمي المستنصر بالله ٤٢٧ - ٤٨٧هـ / ١٠٣٥ - ١٠٩٤م، وكذلك نقود الخليفة، الأمر بالله ٤٩٥ - ٥٢٤هـ / ١١٠١ - ١١٣٠م، كما قاموا بتقليد نقود الأمير الظاهر غازى الأول ١١٨٦ - ١٢١٦هـ[٢٨].

وبالمقارنة مع الدينار الإسلامي القديم الذى احتوى على ١٢٥ جم من الذهب الخالص تقريباً، فإن الدينار الفاطمي المتأخر، الذى قام الصليبيون بتقليده كان أخف وزناً، وأقل قيمة، لكنه كان أثقل وزناً وأعلى في حجم الذهب عن العملة الصليبية التى سميت بالبيزننتات الإسلامية - Bisantinus Saracenatus[٢٩] ونتيجة لعملية تقليد الدينار الفاطمي، فإن البيزنانت الصليبي كان يماثل من حيث الشكل العام فقط، لكن الكثير من الكلمات والحروف المنقوشة

الإسلامية [٢٢] وهو ما دعا السلطات الصليبية للالتفاف حول قرار الحرمان الكنسي عن طريق سك عملات جديدة تحتفظ بنفس النقوش الإسلامية السابقة مع إضافة بعض النقوش المسيحية للعملة، مع كتابة «ضرب بعكا» ١٢٥٠م، بتجسد الابن والابن والروح القدس [٢٣].

ويمكن الاتفاق مع الرأي القائل بأن البيزانت الصليبي هو نفس الدينار السوري [٢٤] الذي تكرر ذكره في المصادر الإسلامية ومما يدعم اتفاقنا مع هذا الرأي ما نعرفه عن تساوى ما يدفعه التاجر في العام ١١٨٤م من رسوم جمركية عن بضائعه حين مروره عبر بوابات عكا، حيث تتحدث المصادر الإسلامية [٢٥] عن وجوب دفع قيراط واحد (القيراط = ٢٤/٨ من الدينار) في حين تحدثت المصادر الصليبية [٢٦] عن وجوب دفع كارويل واحد (الكارويل = ٢٤/٨ من البيزانت)، وكذلك الأمر عند حديث ابن جبير عن ضريبة الرأس، حيث يذكر أنه دفع ديناراً وخمسة قرايط [٢٧] الأمر الذي يقدره أحد المؤرخين المحدثين ببيزانت وخمسة كارويلات [٢٨].

كذلك امتد تأثير الفكر الاقتصادي العربي على الممارسات التجارية الأوربية في العصور الوسطى

**** في القرن العاشر
الميلادي اضطر
الأوروبيون الى استخدام
وظيفة (المحتسب) على
المفهوم العربي**

لم تكن مفهومة بسبب تقاطع كلماتها، ووجود العديد من الدوائر والخطوط العمودية بها، وكانت هذه النقود الصليبية تنقش عليها نفس الكتابات المسجلة على النقود الفاطمية للفظ الجلالة «الله» واسم النبي «محمد» وأسماء الخلفاء ودور السك الإسلامي والتواريخ الهجرية [٢٠] تماماً كما كان ينقش على النقود العربية.

وأبرزت عمليات التقليد المستمرة للعملات العربية والفاطمية والأيوبيية العديد من العملات الذهبية الصليبية التي أمكن استعمالها في عمليات التجارة الداخلية والخارجية الكبرى، ولدفع الفدية بها في حالة الوقوع في الأسر، كذلك قام الصليبيون بضرب عملات فضية ونحاسية من أجل إتمام العمليات التجارية اليومية البسيطة [٢١].

وبشكل عام يجب تفسير تقليد الصليبيين للعملات العربية الإسلامية في خلال السياق العام للاستقرار الصليبي في الشام، وخاصة في مراحله الأولى، حيث قام الصليبيون بالعديد من عمليات التقليد للمسلمين على الصعيدين الاقتصادي والاجتماعي.

على أن تقليد الصليبيين للنقود العربية بالشام، بنفس نقوشها الإسلامية، كان لابد له من الصدام بتعليمات الكنيسة الغربية، وهو الأمر الذي يفسر التغيير الكبير في العملات الصليبية منذ العام ١٢٥٠م، وذلك بسبب نزوح وضمة الرسول البابوي Euder de Chateauroux من وجود نقود صليبية تم ضربها في عكا وطرابلس ونقش عليها اسم النبي محمد (صلى الله عليه وسلم) بالإضافة الى التاريخ الهجري، الأمر حدا بالبابا انوسنت الرابع In-nocent IV (١٢٤١ - ١٢٤٥م) الى إصدار قرار بتحريم التعامل بالنقود الصليبية ذات النقوش

Commenda الذي كان أحد أهم أسباب التوسع التجاري في البحر المتوسط في العصور الوسطى، لكونه أحد أهم أركان الاتفاقيات القانونية الخاصة بالعمليات التجارية في موانئ البحر المتوسط وفي شكله البسيط كان هذا العقد عيارة عن اتفاق بين التاجر المستثمر والتاجر المسافر، بحيث يقوم الطرف الأول بالتمويل الكامل للرحلة التجارية البحرية التي سوف يقوم بها الطرف الثاني، الذي لا يساهم في الرحلة سوى بمجهوده الشخصي. وعند انتهاء الرحلة التجارية يتم توزيع الأرباح بينهما بحيث يحصل التاجر المستثمر صاحب رأس المال - على ثلاثة أرباح الأرباح، بينما يحصل التاجر المسافر على الربع الباقي [٤٠] أما في حالة الخسارة، فكان التاجر المستثمر يتحمل وحده الخسارة المادية عن طريق فقده لرأسمال الرحلة التجارية، بينما لا يخسر التاجر المسافر سوى مجهوده فقط.

وكان العقد السابق يسمى Commenda أحادية، أما في عقد Commenda الثنائية فكان التاجر المسافر يشارك مشاركة مادية في الرحلة عن طريق مساهمته بنصف رأس المال - على سبيل المثال - مما يجعل من عملية توزيع أرباح الرحلة التجارية مسألة مختلفة عن العقد الأول، فيتم اقتسام الأرباح بمقدار النصف للتاجر المستثمر والنصف الآخر للتاجر المسافر [٤١].

ونظراً لتلقى التجار الإيطاليين درسهم التجاري الأول من التجار العرب والمسلمين الشوام على الشواطئ الشرقية للبحر المتوسط [٤٢] كان من الضروري لهذا العقد من التأثير بالمؤثرات الإسلامية، وهناك تشابه كبير بينه وبين عقد القراض أو المضاربة الإسلامية [٤٣] الذي يتكون من طرفين تاجر مستثمر وآخر مسافر أو جوال، بحيث يدفع الطرف الأول للثاني

والصغيرة أيضاً، ومن المعروف أن تجار المدن التجارية الإيطالية، وخاصة مدن البندقية - جنوا - ييزا قد استخدموا العديد من العقود التجارية المختلفة في تجارتهم مع التجار العرب والمسلمين في مصر والشام، وكذلك مع التجار الصليبيين بالموانئ الصليبية بالشام، وأيضاً مع التجار الإيطاليين والبيزنطيين داخل اقاليم الامبراطورية البيزنطية.

وقبل الولوج إلى ذكر أنواع العقود التجارية التي تأثرت بالمؤثرات العربية الإسلامية، يجدر بنا التذكير بأن التأثير الإسلامي يتضح منذ اللحظات الأولى وخاصة في عمليات كتابة وتسجيل وتدوين العقود لدى التجار الإيطاليين فمن المعروف أن المسلمين كانوا متقدمين في مسائل كتابة وتسجيل الأعمال التجارية، وعرفوا مبكراً عمليات التدوين على أوراق البردي [٢٩] وذلك حتى ظهرت صناعة الورق في سمرقند، حيث ظلت الدولة الإسلامية هي الموطن الرئيسي للورق، الذي انتشرت صناعته في دمشق وطرابلس وطبرية بالشام.

وأهم أنواع العقود التي استخدمها التجار الإيطاليون في أوزيا وإبان نهضتهم التجارية منذ أوائل القرن الثاني عشر الميلادي، هي التي عرفت باسم: Commenda وقرض البحر Mutuum، فضلاً عن عقود المشاركة العائلية Fraterna وستحاول في السطور التالية توضيح التأثيرات العربية الإسلامية على هذه العقود.

استخدم
التجار
الإيطاليون
بكثافة عقد

❖ الصليبيون في بلاد
الشام نقشوا العملة
بحسب المضمون العربي
وكلماته.



الدينار العباسي الذهبي، الذي ضرب أوقاف ديتاره على طرازه
(بتصريح من متحف الفن الإسلامي بالقاهرة)

يتعاملون به.

وبالإضافة إلى العقود التجارية السابقة، استخدم التجار الإيطاليون والأوروبيون عقد المشاركة العائلية [Fraterna] ٥٠] وخاصة مع ازدياد النشاط التجاري مع موانئ الشام والقسطنطينية ومصر وشمالى افريقية. وبجانب أفراد الأسرة الواحدة، اشتمل عقد المشاركة أيضا على أفراد من خراج الاسرة أو العائلة، لكنهم يمتون إليها بصلة المصاهرة أو التبعية، وكان هذا العقد يجمع بين عدد من المستثمرين والتجار المرتبطين معا بمسئولية قانونية غير محدودة، وتم استخدام عقد المشاركة في التجارة البرية أكثر من التجارة البحرية.

وكما تأثر التجار الإيطاليون والأوروبيون بالتأثيرات الإسلامية على العقود التجارية السابقة تأثروا بها أيضا في عقد المشاركة العائلية [Fraterna]، حيث استخدم المسلمون هذه العقود في تجارتهم البحرية والبرية قبل الأوروبيين ومن بعيد [٥١].

والحقيقة أن التأثيرات الإسلامية على

رأس المال ليكون أمانة في يده، ولا يقوم بالتدخل في عملية المضاربة. وعند الأرباح يحصل صاحب رأس المال على النصف أو الثلث أو الثلثين حسب بنود العقد [٤٤].

وفي المضاربة الإسلامية كانت خسارة التاجر الجوال أو المسافر لرأس المال محل خلاف بين الفقهاء، فعلى حين يذكر السرخسى أن المضارب مسئول عن ضياع رأس المال لأنه أمانة في يده [٤٥] يذكر الشيبانى والسيوطى عكس ذلك وينفيان مسئولية المضارب عن خسارة رأس المال [٤٦].

وهكذا يظهر تأثير عقد القراض أو المضاربة الإسلامى على عقد الـ Commenda على الرغم من وجود فوارق شكلية بينهما، من ذلك أن عقد المضاربة كان يستخدم بشكل واسع في التجارة البرية، على حين كان عقد Commenda يستخدم بنطاق واسع في التجارة البحرية كذلك كان رأس المال في عقد Commenda يتكون من النقود أو المعادن الثمينة أو السلع والبضائع، بينما كان رأس المال في عقد القراض من النقود فقط [٤٧].

كذلك استخدم التجار الإيطاليون والأوروبيون عقد قرض البحر Mutuum [٤٨] الذى هو تعاقد بين التاجر المقرض والتاجر الجوال من أجل القيام برحلة تجارية، وبعد انتهاء الرحلة يعيد التاجر الجوال مبلغ القرض الذى استلمه بالإضافة إلى نسبة الزيادة التى يتم الاتفاق عليها. ومن أجل تفادى التحريم الكنسى الربا، كان يتم إخفاء نسبة الزيادة عن طريق كتابة مبلغ كبير في عقد قرض البحر [٤٩] أكبر من المبلغ الذى تم إقراضه بالفعل، ولم يظهر تأثير الفكر الاقتصادي العربى على هذه النوعية من عقود قرض البحر، بسبب تحريم الشريعة الإسلامية للتعامل بالربا، ووجوب معاقبة من

*** نظام العقد التجاري العربي لم يتجاوز التجارة الإيطاليون في التبادل التجاري مع العرب.

الممارسات
التجارية
أوروبا في
العصور
الوسطى لم
تقف عند
العقود

التجارية فقط، بل عرف التجار الإيطاليون السفاتج [٥٢] والحوالات المالية من التجار المسلمين واستخدموها لإرسال الأموال [٥٢] وذلك اعتماداً على براعة المسلمين في عمليات البنوك والائتمان بشكل لم يكن موجوداً لدى التجار الإيطاليين، أو حتى لدى الإمبراطورية البيزنطية [٥٤] فاستخدم التجار الأوربيون والصليبيون السفاتج والحوالات بشكل متزايد، وقامت المدن الإيطالية بأعمال الائتمان منذ نهاية القرن الثاني عشر الميلادي [٥٥] فكان تجار مدن جنوا وبياكزا المقيمين في مدينة عكا يقومون بمنح القروض للسلطات الصليبية، وإلى فرق الداوية والاستبارية بالمدينة، وفي نفس الوقت كانوا يستطيعون استعادتها حين يريدون من قواد الهيئات العسكرية السابقة في الغرب الأوربي [٥٦].

وكان الذين يريدون رهن أملاكهم في فرنسا يستطيعون السفر إلى المستعمرات الصليبية بالشام، حيث يتسلمون من مقدمي الداوية الاستبارية مقابلاً يساوي إيرادات أملاكهم في فرنسا [٥٧].

كان هذا بعض تأثير الفكر الاقتصادي العربي الإسلامي على الممارسات التجارية الأوربية في العصور الوسطى من ناحية وجود التجار العرب والمسلمين في الأسواق الأوربية الغربية والشرقية، كذلك ارتفاع قيمة النقود العربية الأمر الذي أجبر الأوربيين على تقليدها، بالإضافة إلى استعانة التجار الغربيين

الهوامش :

بالخبرات التجارية العربية عبر استخدامهم للمحتسب، والسفاتج، والحوالات المالية، فضلاً عن تأثرهم بالنظام بعقود التجارة العربية مثل عقود المضاربة وعقود المشاركة العائلية.

(١) هناك العديد من الدراسات التي تتناول النظام الإقطاعي الأوربي في العصور الوسطى، لكن ما زال أهمها ما كتبه مارك بلوك. أنظر:

Marc Bloch. Feudal Society, Trans by L. A. Manyon, 2 Vol. London, 1962

Charles Worth, P., Trade Routes and Commerce of the Roman Empire, Cambridge, 1926. pp. 20-238

Gregory of Tours, History of the Franks. (٢) Trans. by L. Thorpe, London, 1974, p. 433

ويعتبر كتاب جريجوري التوري أهم مصدر عن تاريخ الفرنجة في الفترة ٤١٧ - ٥٩١ وتم اختصاره وإكماله حتى العام ١٨٦٧ في حواشي فريجاريس وهو يذكر التجار العرب تحت اسم (السوريين أو الشوام).

Einhard and Notker the stammerer. Two (٤) Lives of Charlemagne, Trans by. Therpe London, 1967, PP. 70. 143, Einhard, the Life of Charglmange, Trans by S.E. Turner, Michigan, 1969, p. 42.

وينكر إينهارد مؤرخ شارلمان أن هارون الرشيد منح شارلمان حق امتلاك القبر المقدس في بيت المقدس. وهو كلام يفتقر إلى الدليل التاريخي فلم يذكر أي مصدر فرنسي أو عربي آخر تلك المقولة التي تحتاج إلى تأكيد مستحيل.

Lopez, R & Raymond, I, Medieval Trade (٥) in the Mediterranean World, London 1955, P. 36: Doc. 8

ح ٢ بيروت، د. د. ص.

(١٤) يسمى هذا النص Timarion وهو نص بيزنطي مجهول تم تأليفه في القرن الثاني عشر الميلادي انظر:

Tozer, H. F., Byantine Satire in, Journal of Hellenic Studies, II, 1981. P. 244

Maragone, B. Annales Pisani, VI Part (١٥) II, Bologna, 1936, P. 4

Lieber, A. E, "Eastern Business practices and Medieval European commerce" in The Economic History Review, XXI, 1968, p. 230

Edler, F, Glossary of Medieval Terms (١٧) of Business, Italian series, 1200 - 1000 cambridge, Mass, 1934, pp. 131, 209, 288.

(١٨) عرف المسلمون «المحتسب» منذ وقت مبكر في أسواق مكة والمدينة، حيث كان عليه التأكد من مطابقة عمليات الشراء والبيع للشريعة الإسلامية، كذلك كان يشرف على نوعية المبيعات، وعلى كافة المعاملات التجارية في الأسواق. وهناك العديد من المصادر الإسلامية التي تتحدث عن الحسبة والمحتسب نكتفي بذكر بعضها:

القلقشندي، صبح الأمشى وصناعة النشاء، ح ١، القاهرة، د. د.، ٤٦١ - ٤٦٢، ح ١٢، ص ٤٧٢، النويري، نهاية الأرب في فنون الأدب، ح ٦ القاهرة، د. د.، ٢٥٢ - ٢٥٣.

(١٩) عن المحتسب في الأسواق البيزنطية في القرن العاشر الميلادي، انظر: «كتاب الوالي» حيث يحدد كيفية الإشراف على أسواق المدن، وعلى التجار المحليين والأجانب، والعقوبات المحددة للخروج من نظام السوق وسلطة والي المدينة.

Beignot (ed.) Livre des Assises de Je- (٢٠) rusalem, Tom. II, in Recueil d'Histoire des Corisades, Paris, 1884; pp. 243 - 244, Smith, J.R. "The Survival in Latin Palestine

(٦) حول دور العملات العربية والبيزنطية في تجارة العصور الوسطى. انظر:

Lopez, R 'The Dollar of The Middle Ages' In Journal of Economic History, XI, 1951, PP. 209-234

(٧) ف - هايد تاريخ التجارة في الشرق الأدنى في العصور الوسطى ترجمة أحمد رضا، ح ١، القاهرة ١٩٨٠م ص ٧٥.

(٨) ابن كثير، البداية والنهاية، ح ٩، بيروت ١٩٦٦م، ص ٢٢٨، وهناك مصدر بيزنطي آخر هام كتبه الامبراطور البيزنطي قسطنطين السابع (٩١٣ - ٩٥٩م) يشير الى بناء مسجد القسطنطينية حسب طلب مسلمة بن عبد الملك. انظر: قسطنطين السابع، إدارة الامبراطورية البيزنطية. ترجمة سعيد عمران، بيروت ١٩٨٠م، ك ٩، ص ٦٤.

(٩) كتاب الوالي Eparchikon قام بتصنيفه الإمبراطور ليو السادس (٨٨٦ - ٩١٢م) ويتحدث عن دور والي القسطنطينية في الإشراف على جميع العمليات التجارية والصناعية بها انظر: ليو السادس: كتاب الوالي، ترجمة السيد الباز العريتي - مجلة كلية الآداب - جامعة القاهرة، المجلد ١٩، الجزء الأول، مايو ١٩٥٧م، ف ٩ ص ١٦٢ - ١٦٣، ف ١٠ ص ١٦٤.

(١٠) المصدر السابق، ف ٥، ص ١٥٦

Lopez, R "Foreigners in Byzantium" in (١١) Bulletin de L'Instiutte Historique Belge de Rome - XLIV, 1974, P348

(١٢) وسام فرج، الدولة والتجارة في العصر البيزنطي الاوسط (من نهاية القرن السابع الى نهاية القرن الحادي عشر الميلادي)، الحولية التاسعة، الرسالة الثانية والخمسون، آداب الكويت ١٩٨٨م، ص ٤١.

(١٣) اشارت العديد من المصادر العربية الى الدور التجاري لمدينة طرابزون. انظر على سبيل المثال الاصطخري، مسالك الممالك، لبنان ١٩٧٢م، ص ٨٨٨، الاريسي، نزهة المشتاق في اختراق الافاق

and Social History of the Orient, Vol. vii,
1964, P. 168.

(٢٧) رأفت النبراوي: المسكوكات الصليبية في مصر
والشام، رسالة ماجستير غير منشورة، كلية الآثار،
جامعة القاهرة ١٩٨٠م ص ٣.

Schlumberger, G. Numismatique De (٢٨)
L'Orient Latin, Vienne, 1954, P. 134

رأفت النبراوي: المرجع السابق، ص ٣٠ - ٣٢.
Prawer, J., The Latin Kingdom of Je- (٢٩)
rusalem, London, 1974, p. 385

Schlumberger, Numismatique, P. 131, (٣٠)
Idem, Les prencipautes Fraques du Levant,
Paris, 1877, p. 19

Ehrenkrutz, Op. cit, P. 169, Prawer, Op. (٣١)
cit, p. 387

Prawer, Op. Cit, P. 387, Mayer, H., H. (٣٢)
The Crusaders, Trans, By, J. Gillinghem. Ox-
ford, 1972, p. 163

Prawer. Op. Cit, P. 387 (٣٣)
(٣٤) رأفت النبراوي، المرجع السابق، ص ١٥، حيث يستدل

على ذلك بأن المصادر الصليبية قامت بذكر الدينار
العربي (المصري) والبيزانت الصليبي المضروب على
الطراز العربي. كما قامت المصادر العربية بذكر
الدينار المصري والدينار السوري، ونظرا لأن المصادر
العربية لم تذكر البيزانت الصليبي في نفس الوقت الذي
لم تذكر فيه المصادر الصليبية الدينار السوري على
الرغم من اتفاقها على ذكر الدينار العربي، مما يشي
بأن البيزانت الصليبي المذكور في المصادر الصليبية،
هو نفسه الدينار السوري بالمصادر العربية.

(٣٥) ابن جبير الرحلة، ص ٢٧٤.
Beugnot, (ed), Assisès de Jerusalem, (٣٦)
Tome II, P. 174.

(٣٧) الرحلة ص ٢٧٤.
La Monte, Feudal Monarchy in The Lat- (٣٨)
in Kingdom of Jerusalem 1110 - 1291 Cam-

of Muslim administration" in Holt (ed) The
Eastern Mediterranean Lands in The period
of Crusades, Worminister, 1977, p. 15

(٣٩) وبسام فرج: العلاقات الامبراطورية البيزنطية والدولة
الاسوية حتى منتصف القرن الثامن الميلادي،
الاسكندرية ١٩٨١م، ص ٣٢٢.

(٤٠) عزيز سوريال عطية: العلاقات بين الشرق والغرب،
تجارية، ثقافية، صليبية، ترجمة فيليب صابر، القاهرة
١٩٧٢م، ص ١٧٢.

(٤١) مصطفى حسن الكتاني: عصر أوقا ملك انجلترا
الانجلو ساكسوني ٧٥٧ - ٧٩٦م، الاسكندرية ١٩٨٦م،
ص ١٠٨ - ١٢٠. واورد الباحث صورة ضوئية لدينار،
أوقا الذهبي:

أولا: الوجه:
هامش: محمد رسول الله ارسله بالهدى وبين الحق
ليظهره على الدين كله.

مركز
لا اله الا
الله وحده
لا شريك له.

ثانيا: الظهر:
هامش: بسم الله ضرب هذا الدينار سنة سبع
وخمسين ومائة.

مركز
محمد
رسول
الله.

(٢٤) ابن جبير الرحلة، بيروت ١٩٨٦م، ص ٢٧٢.
Robbert, L., "Reorganization of The Ve- (٢٥)
netian coinage By Doge Enrico Dandolo" in ,
Speculum, XLIX, 1974 P. 49 not. 3 Stern, S,
History and Culutre in the Medieval Muslim
World, London, 1984, P. 189

Ehrenkrutz, A, "Arabic Dinars Struck by (٢٦)
the Crusaders" in Journal of The Economic

١٠٦

الرقعة ولو الحجة ١٤٢٦ هـ - ديسمبر ٢٠٠٥ م يناير ٢٠٠٦ م

Lopez, R. The Commercial Revolution (٥٠) of the Middle Age, 950 - 1350, Cambridge, 1976. pp. 74 - 5

(٥١) عن استخدام التجار المسلمين لعقود المشاركة العائلية انظر :

Goitien S. D "Commercial and Family Partnerships in the Countries of Medieval Islam, in Islamic Studies" III, 1964, pp. 328 - 32

(٥٢) السفجة كلمة فارسية معناها ورقة مالية أو خطاب ضمان أو كميالة، وعلى صاحب المال أن يبعث هذا الخطاب (السفجة) لوكيله بأن يدفع مالا قرضاً يأمن به من خطر الطريق. وكانت السفجات والحالات من وسائل المعاملات المالية والتجارية التي كثر استخدامها في النولة العربية الإسلامية نتيجة لازدهار حركة التجارة وازدياد نشاط المعاملات التجارية والمالية. وكان للسفجات قيمة المال، إذا كان بمقدور التاجر العربي أن يشتري بضاعته، ويفترض ثمنها من بيت مال الاقليم المقيم به، مقابل سفجة يدفع بها اليه، انظر: مسكويه، تجارب الامم، القاهرة ١٩١٤م، ص ١٨٩، أدى شير، الالفاظ الفارسية المعربة، بغداد، ١٩٩٢م، ص ٩١.

Ashtor, E. "Banking Instruments between The Muslim East and The christian West, In Journal of European Economic History I. 1972, p 572

Lopez, "the Dollar f The Middle Ages" (٥٤) P, 221

Heaton, E., Econmic History of Eu- (٥٥) rope, New York, 1948, PP. 177 - 8

Richard, J., The Latin Kingdom of Je- (٥٦) rusalem, Vol., II Trans by, Shirley, Amsterdram, 1979, P.377

Ibid, P. 375 (٥٧)

(٥٨) المسور الرفقه نقلاً عن مصطفى الكتاني - عصر أوفاء ملك إنجلترا - ص ١٨٣ / ١٨٥.

bridge, 1432, P. 175.

Lieber, Op. Cit, P. 231 (٢٩)

De Roover, F.E, "Partnership Accounts (٤٠) in Twelfth Century Genoa" in, Bulletin of The Business Historical Society, Vol, XV, 1941, P. 87 Krueger, H.C, "Genoese Merchants, Their Partnerships and Investment.s, 1155 - 1164 in studia in Onre di Armando Saponi, Milan, 1955, p. 258

Pryor, J "Mediterranean Commerce in (٤١) The Middle Ages: A voyage Under contract of Commenda" In viator, 14, 1983 p. 147

Lieber, Op. Cit, p. 235. (٤٢)

Udovich, A. L. "At The origin of the (٤٣) Western Commenda: Islam, Israel, Byzantium" in speculum, XXXVII, 1962, P. 168

ومن المعروف ان المضاربة في الإسلام مشتقة من الضرب في الأرض. (وأخرون يضربون في الأرض يبتغون من فضل الله) (آية ٢٠ سورة الزمل).

(٤٤) السرخسي: كتاب المبسوط ح ٢٢، بيروت ١٩٩٢م، ص ٢٣، ٨٢ - ٨٤.

(٤٥) نفسه، ص ١٦٨.

(٤٦) الشيباني، جزء من الامالي، حيدر آباد، ١٣٦٠هـ، ص ١٤١، السيوطي، تنوير الحوالك شرح على موطأ مالك، ح ٢ القاهرة ١٣٥٢هـ، ص ١٧٥.

Pryor, J, "The Origins of Commenda (٤٧) Contract" in Speculum, LII 1977, P. 13.

De Roover, Business Record of an Ear- (٤٨) ly Genoses Notary 1190 - 1192, in, Bulletin of the Business Historical Society XIV, 1940, P. 45

Hoover, C. B, "The Sea Lea Loan in (٤٩) Genoa in the Twelfth Century" in the Quarterly Journal of Economics XL, 1926 P/ 499



يعد كتاب المقريري[*] «اغاثة الامة
بكشف الغمة» توثيقاً مهماً من وثائق
التاريخ الاقتصادي لمصر على وجه
الخصوص في العصور الوسطى
الاسلامية، كما يعد في الوقت نفسه
مشروعاً محكماً لمعالجة اشكاليات
الازمة الاقتصادية التي مرت بها مصر
في الفترة من العام ٧٩٦ حتى العام
٨٠٨هـ.

والمنهج الذي اتبعه المقريري هو
الاستدلال، اذ كان دليله في البحث في
الكليات ميدان التاريخ الواسع وفعل
الانسان فيه على المستوى الاقتصادي
والاجتماعي والسياسي، ولاستخراج
الاسباب ورصد ما وقع في مصر من
ازمات اقتصادية أدت في كثير من
الاحيان الى تشوهات في جسد الكيان
المصري اقتصاداً ومجتمعاً ونظاماً،
فكان يعمل الازمة ويحللها ويبين مدى
انعكاسها على النظام السياسي
لتحفزه على التدخل في السوق لاعادة
التوازن، لكن قلّ ما كانت وسائل
التدخل خارج اشكال القوة والعنف،
واصابة المنافع لاهل الدولة في كثير من
الاحيان من جراء هذه الازمات.

مشروع المقريري

للاصلاح الاقتصادي

للأزمة الاقتصادية

٧٩٦ - ٨٠٨ هـ في

مصر المملوكية

طويل بمسألة «قصور جري النيل بمصر وعدم نزول المطر في الشام والعراق والحجاز وغيره، أو أمة تصيب الغلال من سمائم تحرقها أو جراد ياكلها أو ما شابه ذلك» [٤].

٢ - أما القسم الثاني من الاسباب فقد أوجملها على النحو الآتي:

يقول المقرئزي «ونحن الآن في أوائل سنة ثمانمائة وثمانية للهجرة والامر فيها من اختلاف النقود وقلة ما يحتاج اليه وسوء التدبير وفساد الرأي» [٥].

اختلاف النقود:

وهو يعني بذلك أن النقد المتداول في مصر الملكية كما بينه في كتابه سالف الذكر كان على ثلاثة أنواع من المعادن هي الذهب والفضة والنحاس، كما أن مصادر اصدار هذه النقود مختلفة وعلى وجه الخصوص الذهبية والفضية منها، فكان معروفا في التداول من الدينار الذهبية الاجنبية في الاسواق المصرية (الأفرتي) وهي الدينار البندقية ويسمى بالدوكية والمشخص، وكذلك الافلوري وهو عملة فلورنسا الذهبية الى جانب الدينار الذهبية المصرية وهي تختلف في مجملها بالعيار والأوزان، أما الدراهم الفضية فانها اما مفشوشة أي محتوية النقد من الفضة لا يتجاوز الثلث الى النصف [٦] أو انها معدومة في الاسواق أي أنها ليست في التداول، إما بسبب قلة ما يستخرج من الفضة من مناجم سيناء أو قلة امداد أوربا لمصر بمعدن الفضة، بل هربت الفضة الى أوربا فأصبحت الدراهم الفضية سلعة سعر تبادلها مع الذهب في مصر ١ - ١١ وفي أوربا ١ - ٩، فكانت تجارة مربحة [٧]، لذلك فان السوق خلا الا من النقود النحاسية (الدراهم) حتى

اما على الصعيد الاجتماعي يتجسد في تقسيم حد للمجتمع، فئة قليلة متخمة مترفة واكثرية محرومة تعيش دون حدود الكفاف، كذلك انعكست هذه الازمات على الاسعار فكانت ترتفع بشكل غريب تؤدي الى زيادة الكتلة النقدية في التداول نتيجة اختفاء السلع (المعروض السلعي) بشكل تراجع الانتاج أو الاحتكار مما يؤدي الى تقاوم الازمات بارتفاع الاسعار وبشكل مستمر حيث ينعكس هذا على اقيام صرف النقود التي تفقد اقيامها ومحتواها السلعي بشكل سريع ومستمر مما يدفع الناس الى استبدالها بسلع لأن الاحتفاظ بها خسارة مستمرة.

مصر في هذه الحقبة الزمنية مجتمع زراعي، وان السيادة في الاقتصاد هي للقطاع الزراعي بوصفه أكثر القطاعات الانتاجية مساهمة في عملية خلق القيمة المادية وتشغيل اكثرية الناس [٨] لذلك فان الازمات الاقتصادية تحدث من خلال التراجعات التي تصيب الانتاج في القطاع الزراعي اذ تنسحب بتأثيرها على بقية الأنشطة في القطاعات الأخرى بشكل اختلالات هيكلية يستمر أثرها على مدى زمني بعيد تاركة أثراً واضحاً على حجم السكان وكمية الانتاج والتراجعات التقنية في الحرف والصنائع [٩].

وقد شكلت هذه الاختلالات بمجملها سببا للتخلف والتراجع الاقتصادي في مجتمع مصر الملكية ولزمن طويل.

الاسباب :

يقسم المقرئزي أسباب (الحن) الازمات الاقتصادية الى قسمين:

١ - الاول يركز على ما يعرفه المقرئزي من أحوال الوجود وطبيعة العمران [١٠]، وهذا مرتبط منذ زمن

دورا في رفع الاسعار بدلا من أن تدخل الدولة السوق داعمة أسعار الحبوب كبدور لغرض استزراع موسم قادم، على هذا فإن ارتفاع الاسعار أدى إلى تراجع استزراع الرقعة الزراعية وظهر ذلك بشكل قصور في المعروض السلعي للموسم القادم علاوة على أن السلع الزراعية تسحب معها السلع البديلة والمكملة في ارتفاع اسعارها.

سوء التدبير وفساد الرأي:

ومن تأمل هذا الحادث من بدايته إلى نهايته وعرفه من أوله إلى غايته، علم ما بالناس سوى تدبير الزعماء والحكام وغفلتهم عن النظر في مصالح العباد [١١]. ونرى أن المقريري يضع يده على ثلاثة مفاصل في النظام الاقتصادي المصري الملوكي الذي تعرض إلى عدم حسن تدبير الحكام:

أولا : ولاية الخطط السلطانية والمناصب الدينية بالرشوة كالوزارة ونيابة الاقاليم وولاية الحسبة وسائر الاعمال [١٢]، وهذه الوظائف السامية هي بمجملها تمثل الادارة البيروقراطية لدولة الممالك، ولما كانت هذه الوظائف لا يمكن الوصول إليها إلا بعد أن يبذل من يترشح لتوليها المال الجزيل. لذا فإن جل همهم عند تولي منصب من هذه المناصب هو جمع ما انفقوه من اموال فضلا عن هدفه الاساسي وهو الاثراء قبل أن يغادر المنصب هذا «لذلك سيلجأ المتولي إلى شتى الوسائل من ضرائب ومغارم مما يثقل كاهل الرعية الذين» تمزقوا كل ممزق عن اوطانهم: فقلة مجابي البلاد ومتحصلها، فقلة ما يزرع بها ولخلو اهلها ورحيلهم عنها لشدة الوطأة من الولاة عليهم [١٣].

**** ارتفاع السلعة
الزراعية يسحب معه
ارتفاع السلع البديلة
والمكملة.**

كثرت كثرة بالغة وصارت المبيعات وقيم الاعمال كلها تنسب إلى القلوس خاصة [٨]، والسبب في ذلك هو أن هذه الدراهم النحاسية تفقد قيمتها بسرعة واستمرار قياسا بالتناثرين الذهبية والدراهم الفضية مما دفع الناس إلى عدم الاحتفاظ بها ، وكقاعدة اقتصادية فإن سرعة تداول النقود وفي كون المعروض السلعي يعاني من قصور في تلبية الطلب فإن الاسعار سوف ترتفع مما يؤدي إلى فقدان النقود جزءا من قوتها الشرائية وباستمرار . وهذا الأمر لا يعالج من خلال الاصدار النقدي وزيادة كتلة النقود في السوق، لأن الامر سوف يتفاقم بشكل موجات من الغلاء والتضخم لكون الاقتصاد كان يعاني اصلا من قصور في العرض وتراجع في الانتاج [*].

قلة ما يحتاج اليه:

والمقريري يعنى بذلك المعروض السلعي (دالة العرض) حيث أن الزراعة في مصر مرتبطة بجريان النيل، فقد حصل أن قصر جري النيل سنة ٧٩٦هـ «وارتفعت الاسعار حتى بلغ سعر القمح إلى سبعين درهماً للاردب» [٩] الا عندما عاد النيل إلى ما كان عليه في كثرة الماء وأراد الناس الكثير من الحبوب كبذور للزراعة ولنفس السنة المذكورة، ويسبب احتكار الحبوب من قبل السلطان والامراء، ارتفعت الاسعار (حتى بلغ سعر كل اردب من القمح إلى نحو مئتي درهم والتعبير بمائة وخمسة دراهم) [١٠]، وبذلك نرى أن ارتفاع الأسعار لم يكن بسبب قصور قيصان النيل لغرض الوفاء بالرأي بل من جانب الدولة ممثلة بالسلطان والامراء الذين مارسوا

دالتي العرض والطلب فما كان من السلطان ومستشاريه إلا أن يعالجوا الأمر بالتوسع في الإصدار النقدي «تضخم كتلة النقود» وأي نقود؟ نقود تفقد محتواها بسرعة وباستمرار، نقود نحاسية «دراهم نحاسية»

استقر السوق على تداولها فأصبحت قيما للاعمال وثمنا للمبيعات واجرة البيوت والبساتين ومهور النساء وغيرها، كانت الاسعار تقرر تقريبا بالدرهم ولكن الدفع كان يتم بالفلوس [٢٠].

بعدما استطاعت النقود النحاسية الرديئة أن تطرد النقد الجيد من السوق وهي (الدراهم الفضية) التي كانت هي الأخرى قد طرأت النقد الجيد من السوق (الدينار الذهبي) وحلت محله، انه قانون المقرري الذي فصله بشكل دقيق وعبر مراحل زمنية [٢١].

هذا القانون الذي نسب الى توماس غريشام بعد أكثر من مئة سنة وفقا للمنجز الحضاري الغربي في مجال التاريخ الاقتصادي، إذن في الوقت الذي كان النقد السائد في مصر (الدراهم النحاسية) كانت أوروبا على مشارف نظام جديد في تحديد أشكال الثروة الا وهو آراء التجاريين الذين كانوا يرون في المعادن النفيسة الذهب والفضة الشكل الحقيقي للثروة القومية في هذا الوقت بالذات وهي بدايات القرن الخامس عشر حيث «تولى محمود بن علي الاستادار أمر الاموال السلطانية، فاتجه الى القوائد وتحصيل الاموال فكان مما احدث الزيادة الكبيرة من الفلوس، فبعث الى بلاد الفرنجة لجلب النحاس الأحمر وضمن داز الضرب بالقاهرة بجمل من المال، واتخذ بالاسكندرية دار ضرب لعمل الفلوس» [٢٢].

الانتاج الزراعي في العهد المملوكي يمثل عصب الاقتصاد

ثانيا : غلاء الاطيان [١٤] كانت طبيعة علاقات الإنتاج في القطاع الزراعي موروثة من الايوبيين اسباب المالك، فقد ابتدعوا الإقطاع الحربي لغرض سبام وهو تحرير الأرض من الصليبيين [١٥]، وتغيرت الاهداف

التي استحدثت من اجلها الإقطاع الحربي حتى صار الإقطاع صيغة من صيغ النهب والاستغلال لجهد الفلاحين، إن المقتطعين هم «اهل الدولة أولي الجاه وأرباب السيوف» [١٦].

والعلاقة بين المقتطعين والفلاحين لم تكن مباشرة فقد استحدثت حلقة وصل بينهم وهم خدم الامراء الذين شاركوا الفلاح والمقتطع ريع الأرض، ولغرض زيادة محصولاتهم لم تكن هناك وسيلة خيرا من ان «يجعلوا زيادة مقادير اجرة الأرض حتى بلغ الفدان لهذا العهد نحو من عشرة أمثال» [١٧]، وهذا الارتفاع في اسعار ايجار الأرض سحب معه اسعار البذور وكلفه الحرث والبيادر والحصاد وغيرها من التكاليف من اعمال جسور الري [١٨] أي أن ما يصيب الفلاح من ريع الأرض قليل بالرغم من زيادة الانتاج، فما كان من الفلاحين إلا الهجرة من الريف «فتمطعت أكثر الاراضي في البلاد» [١٨] حيث شكل الهروب من الارض تكديسا للمسيدين في المدن المصرية الكبرى.

ثالثا : رواج الفلوس [١٩] : لقد رافق التراجع في انتاج القيم المادية (الحاجات الأساسية) نتيجة لسوء علاقات الانتاج التي كانت تعمل لمصلحة المقتطعين واعوانهم في القطاع الزراعي، ارتفاعا هائلا في الاسعار جاء على شكل موجات متتابعة من الغلاء والتضخم نتيجة لاختلال حالة التوازن بين

وهي كما استعرضناها على النحو التالي :

١ - اختلاف النقود

٢ - قلة ما يحتاج إليه

٣ - سوء التدبير وفساد الرأي .

الا أن من يتدبر الفصلين الأخيرين من كتاب (اغاثة الأمة بكثف الغمة) موضوع البحث يجد أن المقريري يركز على الإصلاح النقدي في المقام الأول ولربما كان المقريري يحس بالمستقبل وفقا لما يجري من حوله على مستوى أبعد من أسباب الأزمة الاقتصادية المصرية بالاشارة الى تكالب أوروبا على فضة مصر وذهبها واستيراد احد رجال بلاط سلطان المماليك للنحاس الاحمر من أوروبا، مع كون المقريري قد اكد في القصول الأولى من الكتاب موضوع البحث من أن هناك أسبابا حقيقية للآزمات مجسدة في قصور العرض السلمي وسوء تدبير وفساد رأي الحكام وأهل الدولة، أي أن الادارة البيروقراطية كانت تعمل في غير مصلحة الرعية، ومع انه لم يقترح نظاما غير نظام الاقطاع الحربي الذي كان سائدا والذي كان يتحكم بعلاقات الانتاج واشكال توزيع الربح، ولم يقترح نظاما للولايات والمناصب السامية في دولة المماليك التي دب اليها الفساد بأنها لا تولى الا بالرشوة، وكأنما لسان حاله كان يقول: (ما جئت لاطرح حولا بل جئت لاثارة المشاكل).

وهو بذلك يتقارب مع استاذة عبد الرحمن بن خلدون في أن وصف العمران كما هو موجود لا بما يخصه من احكام الشرع، على هذا نجده يقدم اطروحات اصلاحية تعد مشروعا لنظام نقدي مغاير لما هو سائد يتضمن رؤية اقتصادية ملائمة لمرحلة العصور الوسطى في وقت بدا الفكر التجاري (الماركنتلي) يقدم اطروحاته الأولى في أوروبا، والنقد النحاسي (الدرهم النحاسية) اوضحت في مصر قima

اذن

قام

باستيراد

النحاس

من أوروبا

في مقابل

تصدير

** عند تراجع

العملات الذهبية

والفضية ترتفع قيمة

الدرهم النحاسية .

الفضة للاروبيين[٢٢]، فأوروبا كانت تسعى الى احتباس الذهب والفضة لأنها الثروة الحقيقية ومصر تقرر رسميا أن نقدها المتداول هو الدرهم النحاسية، امام هذه المتغيرات الاقتصادية بدأت الازمة في مصر تتفاقم من خلال طرق معالجتها .

وعلى الرغم من أن الميزان التجاري لا يزال يعمل لمصلحة مصر من خلال تجارة العبور «الترانزيت» مع أوروبا . الا أن ما يصل مصر من نقود ذهبية وفضية كان يجد طريقه الى أن «يتخذ حليا يتفنن امراء السلطان واتباعهم في دواعي الترف وتأنقهم في المباهاة بفاخر الزي وجليل الشارة»[٢٣] أو انها تذهب (في الانعام على امراء الدولة ورجالها وفي نفقات الحروب والاسفار وفي صلوات زمن الغلاء)[٢٤] .

لقد كانت ميزانية السلاطين العسكرية والمبالغ التي دفعوها لجندهم كبيرة حيث يدفع احد السلاطين قبل الحملة العسكرية كنفقة لجنده مبلغا من (٤٠٠٠٠٠) (٦٠٠٠٠) دينار بل أن احد السلاطين انفق ثلاثة ملايين دينار على حروبه، وبذلك فقد كان الانهيار الاقتصادي احد الاسباب للسقوط السياسي والعسكري لدولة المماليك[٢٥] .

مشروع الإصلاح :

نبينا مشروع الإصلاح الاقتصادي عند المقريري اصلا بالمفاصل الاقتصادية التي اصبحت بالاختلال

للأعمال وإثمانا للمبيعات، بل أن هذه الدراهم هي مقياس القيمة لكل شيء (الذهب والفضة وسائر المبيعات كلها من مأكول وملبوس وغيره، وخراج الأرضين إنما ينسب إلى الفلوس) [٢٦].

إن تضخم الكتلة النقدية يؤدي إلى ارتفاع الأسعار وفي الوقت نفسه إن ثقة الناس بهذه النقود (الدراهم النحاسية) منخفضة مع كونها مقياساً للقيمة وإثمان المبيعات، لكون هذه النقود تفقد من قيمتها الشرائية باستمرار في سوق تبادل العملات قياساً بالدينانير الذهبية والدراهم الفضية التي تتمتع بثبات نسبي في سوق الصرف، من ناحية أخرى عدم استقرار دالة العرض بقدرتها على تلبية الطلب بسبب كون عرض السلع الزراعية عديم المرونة في الأمد القصير.

لذلك فإن الضرر سوف يلحق بالمحتفظين بهذه النقود من جراء التضخم الذي يؤدي إلى تآكل أجزاء كبيرة من قوة النقد الشرائية، من طرف آخر فإن التضخم النقدي الذي أدى إلى تفاقم ارتفاع الأسعار لم يرافقه ارتفاع حقيقي في الأجور يتناسب مع معدلات التضخم، من هنا جاء تأكيد المقريري على الإصلاح النقدي ليفسر أن قيمة الدراهم النحاسية القانونية أضحت أقل من قيمتها الاسمية كما أنها وجدت بالأساس كنقود مساعدة (تصرف في محقرات المبيعات ونفقات البيوت) [٢٧].

إذاً، لابد من العودة إلى قاعدة نقدية تستمد قوتها القانونية بشكل أكبر من قيمتها الاسمية ينسب إليها قيم الأعمال وإثمان المبيعات حيث لا يكاد يكون فيها تفاوت لثبات أسعار صرفها النسبي.

على هذا يقترح المقريري بأنه (لو وفق الله من أسند إليه أمر عياده رد المعاملات إلى ما كانت عليه قبل المعاملة بالذهب خاصة، ورد قيم السلع وعوض

أن ثقة المقريري بقاعدة المعدنين للإصلاح الاقتصادي ي جاءت من خلال

*** الاحتكار السلعي

من قبل التجار وكبار

رجال الدولة أثر كبيراً

في زيادة الأسعار.

الهوامش :

(٥) هو تقي الدين أحمد بن علي المقرئزي، وهي نسبة إلى قرية من قرى لبنان في منطقة بعلبك، حيث نزلت أسرته إلى مصر واستقرت في مدينة القاهرة بالجمالية حيث ولد في العام ١٣٦٤م - ٧٦٦هـ. تتلمذ المقرئزي على يد علماء ذلك العصر وفي علوم شتى ومنها العلوم الدينية والعلوم العقلية. ومن أبرز من ترك أثراً في المقرئزي هو أبو زيد عبد الرحمن بن خلدون وكانت بصمات الأخير واضحة في كتاباته وعلى وجه الخصوص في الشأن الاقتصادي والاجتماعي، التحق المقرئزي بعمله في ديوان الانشاء، وشغل فيه الوظائف السامية، قاضياً وأستاذاً للحديث ومحتسباً إلى جانب التأليف في ميدان التاريخ لمصر والعالم الاسلامي وبعض النواحي الاقتصادية والاجتماعية حتى وافاه الاجل المحتوم في العام ١٤٤٢م - ٨٤٥هـ رحمه الله تعالى.

(١) د. فاضل الصب، آراء المقرئزي في الغلاء والتضخم، ندوة الاقتصاد الاسلامي - معهد البحوث الاسلامي، بغداد ١٩٨٣م، ص ٤٦٠.

(٢) آ. آشور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي للشرق الاوسط في العصور الوسطى، دار قتيبة، دمشق ١٩٨٥م، ص ٣٩٠ - ٣٩١.

(٣) تقي الدين المقرئزي، اغاثة الأمة بكشف الغمة، كتاب الهلال، القاهرة ١٩٩٠م، ص ٧٨.

(٤) المصدر السابق، ص ٧٩.

(٥) المصدر نفسه، ص ٨٠ - ٨١.

(٦) د. رأفت محمد التبراي، السكة الاسلامية في مصر، عصر دولة المماليك الجراكسة، مركز الحضارة العربية للعلوم والنشر، القاهرة ١٩٩٣م، ص ٢٨٥ - ٣٠٢.

(٧) آ. آشور، التاريخ الاقتصادي، مصدر سابق، ص ٣٨١.

(٨) المقرئزي، اغاثة الأمة، مصدر سابق، ص ١١٩.

[٥] يذكر يودان (١٥٣٠ - ١٥٩٦) للميلاد أن قيمة النقود تتغير في اتجاه تغيرات كمية النقود، وطبقاً لنظرية كمية النقود فإن العلاقة التي تربط كمية النقود وكمية السلع تكون على اساس أن كمية النقود = كمية السلع ×

اتخاذ
الدينار
والدرهم
مقياساً
لقيمة
الاعمال
واثمان

الحبايات أجبرت عدداً من السكان للرحيل طلباً للرزق في أماكن أخـرى.

المبيعات، (فمن نظر إلى اثمان المبيعات باعتبار الفضة والذهب لا يجدهما قد غلت الا شيئاً يسيراً) [٣١].

ولو اتخذنا نموذجاً من سلعة ولتكن القمح بأسعار الدينار الذهبي لوجدنا:

سعر ١٠٠ كغم من القمح في مصر[*] -

السعر

١٠٧ دينار قانوني

١٢٥٠ - ١٣٠٠

٨٥ دينار قانوني

١٣٠٠ - ١٣٥٠

٧٤ دينار قانوني

١٤٠٠ - ١٤٥٠

٥٧ دينار قانوني

١٤٥٠ - ١٥٠٠

فأسعار القمح مستمرة بالانخفاض باعتبار الدينار الذهبي حتى عندما جرى تخفيض الدينار الاسلامي (الاشرفي) سنة ١٤٢٦ للميلاد الذي أصدره السلطان الاشرف برسباي لمواجهة النقود الايطالية الراجحة في الاسواق [٣٢]. اما في حالة نسبتها إلى الدراهم النحاسية (قامر لا اشنع من ذكره) [٣٣].

رحم الله المقرئزي ذلك المفكر من اجل امته، فقد كان قلباً يخفق حباً لها، عاش مخلصاً لعلمه وفيها لمن علمه متخذاً من علمه وسيلة للإصلاح وإسعاد الناس، ووقفنا الله في مداومة على ذكر عظماء امتنا مخلصين لهم في تأصيل علومنا وأدبنا وقنوننا فهم بداياتنا وعمقنا في التاريخ، ولكن خير خلف وهكذا يجب أن نكون.

النقود الذهبية وكيف جاءت النقود النحاسية كتنقود مساعدة وكيف أصبحت النقود الرائج، ص ١٠٧ - ١١٩ كذلك انظر: ناشانيل شميت، ابن خلدون، دار المأمون، بغداد ١٩٩٩م، ص ٤٠، حيث يشير الى أن كارل جوهان ثورنبيرك كان يمتلك نسخة من كتاب قرطاس ابي الحسين، هذه النسخة تم نشرها في مدينة ايسالا السويدية عام ١٨٣٩م وتحتوي على خمس صفحات من تاريخ البربر لابن خلدون، كما انه وجد اثناء رحلته الى منطقة فرانك التي كانت سابقا تحت الحكم الاسلامي نسخا من اعمال ابن خلدون باللغة اللاتينية، ووجد اعمالا تعود الى بعض العلماء العرب امثال المسعودي وابن الاثير والمقريزي وبهاء الدين السيوطي... الخ، ليست هذه المسألة مثيرة للجدل وتستحق البحث والاستقصاء للوصول الى الحقائق ورسم الاصول للكثير من الاطروحات الاقتصادية.

- (٢١) المصدر السابق، ص ١١٨.
- (٢٢) المقريزي، النقود القديمة الاسلامية، نشره الاب انستاس الكرملي في كتابه النقود العربية وعلم النبات، القاهرة، سنة ١٩٣٩م، ص ٦٩.
- (٢٣) المقريزي، اغانة الامة، مصدر سابق، ص ١١٨.
- (٢٤) المصدر السابق، ص ١١٩.
- (٢٥) آ. أشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، مصدر سابق، ص ٤٢٣.
- (٢٦) المقريزي، اغانة الامة، مصدر سابق، ص ١٢٦.
- (٢٧) المصدر السابق، ص ١٣٢.
- (٢٨) المصدر نفسه، ص ١٣٤ - ١٣٥.
- (٢٩) المصدر نفسه، ص ١١٧.
- (٣٠) د. رأفت محمد النبراوي، السكة الاسلامية في مصر، مصدر سابق، ص ٢٢١.
- (٣١) المقريزي، اغانة الامة، مصدر سابق، ص ١٣٠.
- (*) الجدول منقول عن آ. أشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، مصدر سابق، ص ٤٠٧.
- (٣٢) د. رأفت محمد النبراوي، السكة الاسلامية في مصر، مصدر سابق، ص ٢٥٣.
- (٣٣) المقريزي، اغانة الامة، مصدر سابق، ص ١٣٠.

متوسط اسعار السلع والخدمات. وتفسير هذه العلاقة هو أن تغيرات نسبية في مستوى الاسعار. انظر للتوسيع: بكتور مجدي محمود شهاب، الاقتصاد النقدي، الدار الجامية، بيروت ١٩٨٨، ص ٤٤، كذلك د. رمزي زكي، مشكلة التضخم في مصر، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٨٠، ص ٣٧ - ٣٨.

- (٩) المصدر السابق، ص ٧٩.
- (١٠) المكان نفسه.
- (١١) المصدر السابق، ص ٢٧.
- (١٢) المصدر نفسه، ص ٨١.
- (١٣) المصدر نفسه، ص ٨٣.
- (١٤) المصدر نفسه، ص ٨٤.
- (١٥) انظر: احمد صادق سعد، تاريخ مصر الاجتماعي والاقتصادي، دار ابن خلدون، بيروت ١٩٧٩م، ص ٢٦٩.

- (١٦) المقريزي، اغانة الامة، مصدر سابق، ص ٨٥.
- (١٧) المصدر السابق، ص ٨٤.
- (*) يبدو من خلال هذه النصوص أن المقريزي يشير الى نظرية نفقة الانتاج بلفته فهو يربط بين ارتفاع تكاليف الانتاج وبين ارتفاع الاسعار، أو بين تقلب اثمان المنتجات الزراعية نتيجة نقص العرض الذي يسببه انصراف المزارعين لارتفاع تكلفة العمل الزراعي، انظر: د. عبد الله عبد الغني غانم، المشكلة الاقتصادية ونظرية الاجور والاسعار في الاسلام، المكتب الجامعي الحديث، الاسكندرية ١٩٨٤م، ص ١٤٥.
- (١٨) المصدر نفسه ص ٨٦، كذلك انظر: آ. أشتور، التاريخ الاقتصادي والاجتماعي، مصدر سابق ص ٤٠٨.

- (١٩) المقريزي، اغانة الامة، مصدر سابق، ص ٨٦.
- (٢٠) د. رأفت محمد النبراوي، السكة الاسلامية في مصر، مصدر سابق، ص ٣٢٠.
- (*) المقريزي، اغانة الامة، مصدر سابق، حيث خصص فصلا يبين كيفية اتخاذ النقود الذهبية والنقود المساعدة الفضية وكيف حلت النقود الفضية محل

تعتبر المسكوكات الإسلامية مرآة صادقة لأهم أحداث التاريخ الإسلامي، وسجلاً منظوراً لما كانت عليه أحوال البلاد الإسلامية طيلة العصور الإسلامية المتتالية، إذ لا يوجد حقل في التاريخ خدمته مسكوكاته بالقدر الذي خدمت به المسكوكات الإسلامية التاريخ الإسلامي، على حد قول جورج مايلز في كتابه The Numismatic History OF Rayy

وعادة ما تفصح المسكوكات (النقود) عن دلالات عدة لهوية الأمة التي قامت بسكها، وتفسر العديد من جوانب حضارتها ممثلة في أمجادها التاريخية وفعاليتها السياسية والاقتصادية، كما تكشف عن أبعادها الجغرافية ووزنها المالي وثقلها الدولي وقسماتها الفنية، كما تعبر بمآثوراتها المنقوشة عليها عن معتقداتها ونسج حياتها الاجتماعية، والسكة هي أحد أهم شارات الملك الثلاثة (السكة، الدعاء على المنابر، الطراز)، كما أنها وثائق رسمية لا يمكن الطعن فيها بسهولة والخطأ فيها نادر وهي المرجع الرئيسي إذ ما تناقضت الروايات، فهي بذلك تعد من أهم مصادر التاريخ إذ تكشف لنا عن خفايا كثيرة وحقائق تاريخية أهملها المؤرخون،



صورة رقم (١) وجه درهم ساساني



صورة رقم (٢) ظهر درهم ساساني

المسكوكات

الإسلامية

موسوعة

تاريخية شاملة



إهداء

- من مواليد الاسكندرية في ١٩٨٢/٨ م.
- حاصل على ليسانس الآثار الإسلامية - جامعة الاسكندرية.
- باحث ماجستير الآثار الإسلامية في مجال المسكوكات الإسلامية - جامعة الاسكندرية.
- تحقيق كتاب (نيل القريزي) لعبد الحميد بك نافع، مشاركة مع دكتور خالد عزب.

وتعريب العملة وذلك بتقليد كل من الدرهم والدينار في عهد كل من عمر بن الخطاب سنة ١٧هـ ومعاوية بن أبي سفيان (٤١ - ٦٠هـ) (صورة ٤) غير أن هذا الوضع تقرر مع استقرار الأمور للخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، إذ قام عبد الملك بتعريب النقود وتحريرها من المظاهر الساسانية والبيزنطية التي علق بها حتى عام ٧٦هـ (صورة ٦، ٧).

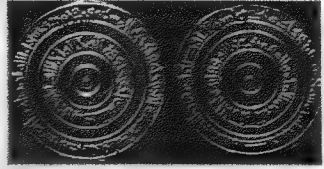
ومنذ ذلك التعريب اختفت من الدراهم الفضية والدينار الذهبية كافة الصور والنقوش التي كانت تسجل عليها مثل صورة كسرى الفرس ورسم معبد النار المجوسي في وجهي الدراهم أو هيورة الإمبراطور البيزنطي وعمود هرقل في الدينار، واختفت معها أيضا الكتابات البهلوية واليونانية لتحل مكانها كتابات عربية مقتبسة من القرآن الكريم تعبر عن معنى الرسالة المحمدية.

ومهما قيل عن أسباب تعريب النقود إلا أن الدافع الذي دفع عبد الملك لذلك إنما كان نابعا من السياسة التي انتهجها، وهي صبغ المظاهر الساسانية للدولة بالصبغة العربية توطيدا لسلطة الدولة، التي كانت أهم شاراتها السكة. ومن خلال النقود التي

وتكمن أهمية المسكوكات كونها مصدرا وثيقا لدراسة الأسماء والألقاب إذ أنها تسلط الضوء على الكثير من حوادث التاريخ فتظهر بعض ما غمض وتضيف إليه ما سقط من أيدي النساخ وما أهمل عمدا أو سهوا، فهي بمثابة سجل لأحداث العهد الذي ضربت فيه تعكس من خلالها جميع أحوال الدولة السياسية والاجتماعية والاقتصادية والدينية والمذهبية.

وكانت المسكوكات الإسلامية تحمل التاريخ الهجري المتسلسل، وهذه ميزة عظيمة جدا للمسكوكات الإسلامية، ذلك لأن النقود الساسانية مؤرخة بعدد سنوات حكم كل عاهل فقط، وكذا النقود البيزنطية، لذا فقد برزت أهمية دراسة المسكوكات الإسلامية، التي تعتبر موسوعة تاريخية كبرى لأحداث التاريخ الإسلامي، وهو ما يمكننا تتبعه على الوجه التالي:

عندما هاجر النبي (صلى الله عليه وسلم) من مكة المكرمة إلى المدينة المنورة كان يجري تداول عملتين رئيسيتين في شبه الجزيرة العربية، هما الدرهم الساساني (صورة ١ - ٢) والدينار البيزنطي (صورة ٣) إذ لم يكن لسكان الجزيرة العربية عملات خاصة بهم، باستثناء بلاد اليمن وحفاظا على الأوضاع الاقتصادية في البلاد والعلاقات التجارية التي ارتبط بها العرب مع الدولتين الساسانية والبيزنطية، أقر الرسول (صلى الله عليه وسلم) تداول هذين التقدين، لكن مع بزوغ دولة الإسلام التي وضع أسسها النبي (صلى الله عليه وسلم) ومناطقها لقوة هاتين الدولتين في عهد الخلفاء الراشدين بدأت أولى محاولات الاستقلال المالي



صورة رقم (٣) دينار بيزنطي

وصلتنا نجد أن تعريب السكة قد مر بمراحل تدريجية حتى وصل إلى الصور التي كان عليها الدينار العربي الذي تمثل الكلمات الإسلامية قوامه الأساس، حيث سُجِّل فيه [محمد رسول الله أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله] في هامش الوجه، وفي المركز شهادة التوحيد «لا إله إلا الله وحده لا شريك له»، أما الظهر فقد احتله جزء من البسمة وتاريخ الضرب الهامش، في حين سجلت سورة الإخلاص [قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد] في المركز.

وقد حرص خلفاء الأمويين ومن بعدهم خلفاء بني العباس على وحدة طابع النقود الإسلامية في الأمصار كلها حتى ليصعب التمييز بين هذه الإصدارات النقدية من حيث مكان الضرب إن لم يذكر صراحة على النقود مثلما كان الحال في الدنانير الذهبية التي لم تشر إلى

دار الضرب أو السك حتى عهد

ال خليفة العباسي المأمون بن هارون الرشيد، في حين تفردت الدراهم الفضية بالإشارة إلى مكان السك منذ بداية تعريبها، وإن لم يخل ذلك بوحدة طرازها بين الأمصار المختلفة.

وعندما نجح العباسيون في إسقاط الأمويين وقتل مروان بن

محمد آخر خلفاء بني أمية في عام ١٢٢هـ أرادوا تخليد هذا الحدث على إصداراتهم النقدية، ولما كانت أسماء الخلفاء لا تسجل عادة على العملات بعد تعريبها، فقد عمد أبو العباس السفاح إلى تغيير الاقتباس القرآني من سورة الإخلاص المسجل على مركز وجه الدراهم وظهر الدنانير، ووضَّع مكانه في ثلاثة أسطر (محمد رسول الله) وكأنه بذلك يستكمل شهادة التوحيد التي ورد نصفها الأول على الوجه الآخر (لا إله إلا الله وحده لا شريك له).

والحقيقة أن هذا الاختيار العباسي جاء منسجماً مع فحوى الدعوى التي قوضت أركان الخلافة الأموية، وهي التي اتخذت لجهودها عنواناً مطاطاً ألا وهو الدعوة للرضا من آل محمد وقد أتاح هذا شعار الفضفاض لأبي مسلم الخراساني وغيره من دعاة العباسيين في بلاد فارس وخراسان أن يستقطبوا كل المناوئين للأمويين بما في ذلك العلويين والشيعة الذين ظنوا أن مثل هذا الشعار قد يحمل إلى سدة الخلافة واحداً من أئمة الشيعة أو حفدة الإمام علي بن أبي طالب رضي الله عنه.

وقد اطلعت المسكوكات الإسلامية منذ بداية سكها بدور لا يقل عن دورها الاقتصادي، ألا وهو الدور الإعلامي خلال فترات الاضطرابات والصراعات

السياسية بين الدول والحكام. إذ عادة ما تحمل تلك المسكوكات نصوصاً، أو صوراً، أو رموزاً للتعبير عن رسالة سياسية، أو مذهبية، إذ طرح هذه النقود لإبلاغ الرعية بذلك من خلال تداولها بينهم، إما بطريقة رسمية من قبل الدولة في المناسبة التي

في حين كانت المسكوكات
الساسانية تؤرخ بعدد سنوات كل
حاكم في الحكم، فإن المسكوكات
الإسلامية كانت تحمل التاريخ
الهجري لسكها.

النقود يتم طرحه في المناسبات الدينية تقرباً إلى الشعوب أطلق عليه اسم «خرابيب» جمع خروبة لتوزع في بعض المواسم والأعياد مثل عيد النيروز وخميس العهد، كما ضرب الفاطميون نوعاً آخر

عرف باسم الغرة يصدر في غرة كل عام هجري كعطايا لأرباب الوظائف من أصحاب السيوف والأقلام وغيرهم من المقربين.

أما هولاكو الذي كان بوزيا، فقد حرص في العملات الذهبية والفضية (صورة ٩) التي أصدرها في ممتلكاته الإسلامية على الحفاظ على الطابع المألوف للنقود الدولة العباسية، وخاصة من ناحية إثبات شهادة التوحيد وغيرها من الماثورات والعبارات التي توضح العقيدة الإسلامية، وفيما عدا ذلك فقد أخذ هولاكو يغير في كتابات النقود وفقاً لمتطلباته الخاصة، ولإدراكه العميق لمغزى ما يسجل على النقود من عبارات دينية ومدى تأثيرها على الذين يتداولونها فقد اتجه إلى تطويع بعض الكتابات للترويج للأفكار والاتجاهات السياسية التي يريد لها الذبوع بين الرعية.

** عبد الملك بن مروان عرب المسكوكات لتحمل الفكر العربي والإسلامي.

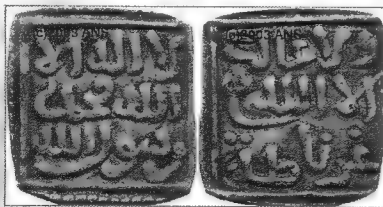
سكت من أجلها، وإما يطرقة غير رسمية من جماعة أو أفراد سراً أو علناً حسب الموقف السياسي من الدولة. علماً بأن المسكوكات الدعاية غالباً ما تكون نقوداً للتعامل الرسمي تقوم

بدورها في إتمام عمليات التبادل التجاري على أكمل وجه، غير أن هذا الدور يأتي بالدرجة الثانية بعد دورها الإعلامي الذي سكت من أجله.

وقد أهتم الفاطميون في مصر بالمسكوكات الدعاية بهدف امتصاص سخط أعدائهم وكسب مودة شعوبهم ليس فقط بعد تأسيس القاهرة، بل بذلت محاولات قبل مجيء الفاطميين لمصر عن طريق هذه النقود الدعاية، فعندما انتشر الدعاة الفاطميون في أواخر العصر الإخشيدي بمصر أخذوا البيعة للخليفة المعز لدين الله من كثير من رؤساء الجند الإخشيديين ووزعوا بنائير ذهبية باسم المعز جاؤا بها معهم بهذه المناسبة وسجلوا عليها مكان الضرب وتاريخه مصر سنة ٣٤١هـ - ٩٥٦م وحمل على أحد وجهيه عقيدة المذهب الشيعي «لا إله إلا الله محمد رسول الله وعلي أفضل الوصيين ووزير خير المرسلين» (صورة ٨). كما نشر Miles في

مؤلفه عن السكة الفاطمية ديناراً ضرب المعزية سنة ٣٥٨هـ نستنتج منه أنه من الدنانير التذكارية التي ضربها الفاطميون باسم مصر قبل فتحهم لها كنوع من الوسائل الإعلامية وتعبئة النفوس والأذهان تمهيداً للفتح، باعتبار أن المسكوكات أهم مظاهر سيادة الدولة.

كما ابتكر الفاطميون نوعاً جديداً من



صورة رقم (٤) درهم معاوية بن أبي سفيان (٥٦هـ)

** المسكوكات الإسلامية

تعد واحدة من مصادر

التاريخ الموثوق فيها.

وقد
تميزت
دنانيير
هولاكو
الأولى بأنها
تحمل اسم
القان

الأعظم منكوقان، بالإضافة إلى اسم هولاكو، ولقب
مالك رقب الأم في إشارة إلى نجاحه في بسط
سيطرته على الفرس والآثراك والعرب والروس
والصينيين. وهو اللقب الذي ظل مرتبطاً بخانات
المغول حتى بعد انقسام الدولة بين الأمراء المتنازعين
وانحسار نفوذها.

كما لم يقتصر دور المسكوكات الإسلامية على
التعامل الاقتصادي والدعاية السياسية في حقبة
تاريخية ما، بل تجاوز ذلك إلى الدور الوثائقي الذي
جعل من النقود الإسلامية منهلاً غذياً نستقي منه أدق
المعلومات وأصدقها لكتابة تاريخ منطقة ما، في حقبة
زمنية تنقسم بالغموض أو عدم الدقة والوضوح في
مصادرها التاريخية أو لاختلاف الروايات عند
المؤرخين، الأمر الذي دفع الكثير من الباحثين إلى عدم

الجزم والبت في العديد من القضايا التاريخية المهمة،
مما نتج عنه تضارب كبير بين الآراء فيما بينهم. ومن
أمثلة القضايا التاريخية التي حسمت من خلال
المسكوكات الإسلامية، قضية تاريخ بناء قصر
الأكخضر، وقضية تحديد العام الذي انتقلت فيه
الخلافة العباسية إلى بغداد (مدينة السلام)، وقضية
تاريخ بناء مدينة فاس، إذ كان للعثور على عملة
إسلامية ضربت في مدينة فاس بين عامي ١٨٥هـ و
١٨٩هـ دوراً في حسم الخلاف حول بنائها أُنيت سنة
١٧٢هـ على يد إدريس الأول بن عبد الله، أم سنة
١٩٢هـ على يد إدريس الثاني إذ قطعت هذه العملة
بصحة التاريخ الأول.

أضف إلى هذا أن النقود الإسلامية تعد المصدر
الوحيد للتأريخ لدويلات إسلامية غفلت مصادر التاريخ
عن التحدث عنها، مثلاً الحال في الدويلات التي قامت
في منطقة الخليج العربي، إذ نجد أن المعلومات
التاريخية الخاصة بها في كتب التاريخ قليلة جداً، لذا
فإن قطع النقود المعدنية تمثل مصدراً هاماً من مصادر
تاريخ المنطقة إذ وصلت إلينا عملات لدويلات قامت في
تلك المنطقة المعلومات التاريخية التي أوردتها المصادر
التاريخية عنها قليلة لذا كانت المسكوكات الوسيلة
الوحيدة التي استطعنا من خلالها
استقاء العديد من الدلائل السياسية
والمذهبية لتلك الدويلات مثل الدولة
العينية في البحرين ودولة بني وجيه في
عُمان.

ويسجل التاريخ سبقاً هاماً لساحل
الخليج العربي عامة، وعُمان خاصة في
مجال المسكوكات يتمثل في أن أقدم دار
إسلامية لضرب النقود في شبه الجزيرة



صورة رقم (٥) دينار عبد الملك بن مروان (المرحلة الأولى)



صورة رقم (٨) دينار الخليفة العزيز بالله الفاطمي

والخليفة الراشد بالله (٤٠١ - ٤٠٣ هـ) في الرملة. مثمنا شاركت المرأة المسلمة الرجل في الكثير من نواحي الحياة التي أظهرت فيها نبوغاً لا يقل عن نبوغ الرجال. فقد شاركت المرأة الرجل في ضرب النقود بأسمائهن وألقابهن بحكم إدارتهن البلاد، إذ يذكر أن السيدة زبيدة زوجة هارون الرشيد، أمرت بسك دراهم تحمل اسمها نكايه بزواجها الأخريات، كما قامت الملكة شجر الدر بضرب دنانير ودراهم تحمل اسمها ولقبها، إذ يضم المتحف العراقي فلما نحاسيا ضرب بدمشق سجل عليه «الملكة شجر الدر سنة سبع وأربعين»، كما يوجد في المتحف البريطاني ديناراً ذهبياً ضرب القاهرة سنة ٦٤٨ هـ سجل عليه «المستعصمية الصالحة ملكة المسلمين والددة الملك المنصور خليل أمير المؤمنين». ومن النساء الأخريات

اللائي سجلن أسماءهن على النقود السلطانية الأيلخانية ساتي بك

*** المسكوكات الإسلامية
تجاوزت الدور
الاقتصادي إلى الاعلامي،
والسيادي والتاريخي
والوثائقي.

العربية قد أنشئت بعمان، فأقدم قطعة نقود معدنية عرفت بشبه الجزيرة العربية تم ضربها في عمان، وهي درهم فضي يعود لعهد الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان، تحمل اسم عمان، وتاريخ الضرب سنة ٨١ هـ / ٧٠٠ م.

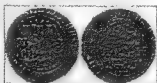
ولعل أشهر ما سجلته المسكوكات الإسلامية الخروج المروع على الخلافة العباسية من قبل القائد أبي الحارث ارسلان البساسيري الذي خلع طاعة العباسيين ودعا للفاطميين على منابر عاصمة الخلافة السنية مدينة السلام، معلناً تبعيتها لخلافة القاهرة الشيعية بزعامه المستنصر بالله، مسجلاً ذلك على دنانير ضربت بمدينة السلام حاملة عبارة «علي ولي الله» الماثورة الشيعية العظمى ومؤرخة بشهر رمضان عام ٤٥٠ هـ.

كما سجلت المسكوكات الإسلامية في القرن الخامس الهجري حدثاً فريداً وهو وجود خمسة خلفاء في العالم الإسلامي، كل منهم يدعو نفسه (أمير المؤمنين) ذاكراً ذلك على النقود المضروبة كوسيلة تثبت أحقيته. وهم الخليفة العباسي القادر بالله (٣٨١ - ٤٢٢ هـ) في بغداد، والخليفة الفاطمي الحاكم بأمر الله (٣٨٦ - ٤١١ هـ) في القاهرة،



صورة (٦) دينار ابن مروان (الرحلة الثانية)

والخليفة الأموي المؤيد بالله (٤٠٠ - ٤٠٣ هـ) في الأندلس، والخليفة الرسي حسنين بن القاسم (٤٠١ - ٤٠٣ هـ) في اليمن،



صورة (٧) دينار ابن مروان (الرحلة الثالثة)

السياسية بين الدويلات المختلفة، من علاقات صداقة ومودة، أو علاقات عداً وأختلاف مذهبي، فعلى سبيل المثال يشير تسجيل شعار دولة بني الأحمر حكام غرناطة «ولا غالب إلا الله» (صورة ١١) على نقود المرينيين، وبني زيان إلى علاقات الصداقة التي ربطت بين دول المغرب والأندلس، إذ كان لدويلات المغرب دوراً كبيراً في مد يد العون لمن تبقى من المسلمين في بلاد الأندلس وغرناطة لمواجهة طوفان الاسترداد.

وفي الشرق وجد نوع آخر في العلاقات بين القوى المتجاورة متمثلاً في قيام القوى الصليبية على الساحل الشامي بضرب دنانير بمقرقتهم على الطراز الفاطمي وينفخ النقوش العربية للتعامل به مع سكان البلاد الأصليين من العرب، لعل أهمها يميز الدنانير الإسلامية عن تلك التي ضربها الصليبيون تقليداً لها هو وجود أخطاء عديدة في الكلمات المكونة للعبارة التي اشتمل عليها الإصدار النقدي للصليبيين. ومثال على ذلك دينار صليبي ضرب تقليداً لدينار الأمر جاءت كتاباته على النحو التالي «لا اله إلا الله محمد رسول الله على ولد الله» وبسم الله أرحم ألد محميو وضرب هذا النيز مصر تسعين». ولعل هذه العبارات الخاطئة تكون مقصودة لذاتها من قبل الصليبيين، بغرض الاساءة لعقيدة المسلمين.

وإلى الجنوب من بلاد العرب، وبالتحديد ببلاد اليمن نجد نوعاً آخر من العلاقات بين الدول. ألا وهو علاقة الولاء المذهبي، ومن أشهر أمثلته الدولة الصليحية وعلاقتها بالدولة الفاطمية وهي علاقة أسسها المذهب الشيعي الذي ربط بين الدولتين، وانعكس على مسكوكات الدولة الصليحية، إذ ضرب الصليحيون نقودهم منذ بدء دعوتهم، فأول دينار (وهو من نقود الداعية) وجد منضروباً للصليحيين سنة ٤٢٣هـ/



صورة رقم (٩) دينار هولكو



صورة رقم (١٠) درهم ساتي بيك خاتون

خاتون أخت السلطان أبي سعيد بهادر (صورة ١٠)، حيث يحتفظ المتحف العراقي بدرهم فضي ضرب بالحلّة سنة ٧٣٩هـ سجل عليه «السلطان العادل ساتي بيك خان خلد الله ملكه»، كما يوجد مثال آخر ضرب بغداد سنة ٧٤٠هـ سجل عليه «السلطان ساتي بيك خان خلد الله ملكه»، كما يوجد بالمتحف العراقي فلس سجل عليه «السلطان ساتي بيك خلد ملكها».

وقد عكست النقود الإسلامية المضروبة العلاقات الدولية بين الدويلات الإسلامية والقوى المتجاورة، ففي بلاد المغرب

الإسلامي
عكست
النقود
الإسلامية
أنواع
العلاقات

*** المذاهب الدينية
والطائفية التي حكمت
العالم الإسلامي كانت
واضحة في المسكوكات.



صورة (١١) نصف درهم بني الأحمر بقرنائة



صورة (١٢) دينار السلطان الملك الأشرف شعبان

اليمن عن مضر
باعتقاد حكام
اليمن بالدعوة
الطبيعية، بينما
كانت مصر تعتقد
بالدعوة الحاقضية،
فاستقلت اليمن
عن الفاطميين فلم
تضرب العملة
بأسمائهم.

أما نقود

المالِك في مصر

فقد تميزت عن

غيرها من نقود

العالم الإسلامي

عامة ونقود مصر

خاصة بكونها منضطربة بسبب ظروف العصر
السياسية لا سيما إذا لاحظنا أن النقود الملوكية
كانت حقاً شخصياً للسلطان نفسه ترتبط بقوته
وضعفه وتستمد منه بقاها وتداولها، فهي تتمتع
بالثقة والقبول ما بقي السلطان على عرشه حتى إذا
ما آل أمره إلى غيره أصبحت نقوداً عتقاً وضرب
غيرها جدداً، ويمكن استثناء بعض فترات الاستقرار
السياسي في عهد كل من السلاطين الظاهر بيبرس
والمصور قلاوون والناصر محمد بن قلاوون، أما
بعدها فكان الصراع على السلطة على أشده، وبما
زاد الأمر سوءاً منذ عهد المالِك الجراكسة تيوؤ
عدد من الألقاب عرش السلطنة عن طريق الوراثة
وكان بقاؤهم مرهوناً بقوة كبار الأمراء والأحرار،
فإذا استطاع أمير ما بمساعدة إحدى الجماعات

١٠٤٩م، كتب عليه ضرب في صنعاء كما كتب عليه
اسم الداعي علي بن محمد فقط دون ذكر اسم
الخليفة الفاطمي، إلا أنه كتب عليه الماثورة الشيعية
المعروفة وهي (علي ولي الله)، مما يدل على أن علي
الصليحي في هذه الفترة لم يعلن إظهار التبعية
للخلافة الفاطمية، واكتفى بإظهار الانتماء الشيعي
وإسماعيلي بتلك العبارة، وربما يكون سبب ذلك
تولي المستنصر الخلافة الفاطمية وهو طفل فظل
يتربص بثبوت سلطته، أو بسبب عدم إثارة القبائل
اليمنية ضده حتى يتمكن من تثبيت أقدامه وتكوين
قوته.

وبعد أن خلا الأمر لعلي الصليحي قام بضرب
دينار جديد في زبيد عام ٤٤٢هـ / ١٠٥٠م، يحمل
اسم الداعي علي بن محمد الصليحي ممهوراً بعبارة
(علي ولي الله) بالإضافة إلى عبارة (سيف معد)
ويقصد بالمعد لقب المستنصر بالله الفاطمي، وقد
كتب عليه: على أحد وجهيه: لا إله إلا الله محمد
رسول الله علي ولي الله. وعلى الوجه الآخر: أمر به
الأمير سيف المعد على بن محمد.

كذلك ضرب دينار آخر في زبيد سنة ٤٤٥هـ /
١٠٥٣م، سجل عليه «المستنصر بالله أمير المؤمنين
الإمام معد أبو تميم». كما ضربت دنانير في عدن
للسليحيين عام ٤٨٦هـ / ١٠٩٣م، تحمل اسم الخليفة
المستنصر بالله الفاطمي، وعبارة «الملك السيد المكرم
عظيم العرب سلطان أمير المؤمنين».

ومن الملاحظ أن الدنانير ظلت تضرب في عهد
السيدة الحرة باسم المكرم، كما ضربت عملة
صليحية (ربيع دينار) في ذي حجة سنة ٥٣٠هـ /
١١٣٥م، تحمل اسم المكرم فقط دون ذكر اسم
الخليفة الفاطمي، ويعود ذلك إلى انفصال الدعوة في

المسكوكات الإسلامية كان لها أثرها الواضح في التبادل التجاري الدولي

السيطرة
والتغلب
على
منافسه
أزاح
السلطان
الطفل

واعلى العرش مكانه وياتالي كان يقضي على نقوده ويضرب نقودا جديدة وهنا تظهر لنا مجموعة مختلفة من النقود المتتابعة لحكام لم يكن حظ بعضهم يزيد على أكثر من أن يلمس عرش السلطنة المملوكية حتى يتسلمه غيره، لهذا تستطيع القول أن ما ورد من كُتبي وألقاب لأصحاب هذه النقود لم يكونوا يستحقونها ولم تكن تمثل أخلاقهم من قريب أو بعيد وإنما ورثوها وراثة العرش (صورة ١٢).

ويسجل التاريخ أن طراز النقود المملوكية بما تضمنته من شهادة التوحيد والرسالة المحمدية كان من بين الأسس التي بنى عليها السلطان سليم الأول عدوانه على مصر مدعيا أنه وقف عند حد الشرع الشريف في حربه ضد الدولة المملوكية فقد استفتى المفتي على جمالي أفندي في مسائل ثلاث أوردها المؤرخ النمساوي Hammer في كتابه «تاريخ الدولة العثمانية» أهمها السؤال الثالث ونصه: «إذا كانت أمة (يقصد المماليك) تتأفق في احتجاجها برقم كلمة الإسلام فتنتش آيات كريمة على الدنانير والدراهم مع علمها بأن النصارى واليهود يتداولونها هم وبقية الملأحة من أهل الأمواء والنحل فيدنسونها ويرتكبون أفعط الخطايا بحملها معهم إذا ذهبوا إلى محل الخلاء لقضاء حاجاتهم، فكيف ينبغي معاملة هذه الأمة؟» فتجيب المفتي بأن هذه الأمة إذا رفضت الإقلاع عن

ارتكاب هذا العار جاز إبادةها - والحق أنه كما يقول D'Ohsson تعليقا على هذه الفتوى «أن قضاة الجواب لا يضاهيه شيء سوى حماقة السؤال، ذلك لأن النقود المملوكية وغيرها من النقود منذ تعريبها وهي تحمل شهادة التوحيد والرسالة المحمدية وآيات مقتبسة من القرآن الكريم إلى جانب العبارات المذهبية سنية كانت أم شيعية، ولم يحتج على ذلك أحد من الغيورين على الدين قبل السلطان سليم كما لم تكن نقوش المسكوكات الإسلامية يوما ما مصدر فتوى لتبرير حرب الإبادة ضد من يضربها (صورة ١٣ - ١٤).

ويمكننا من خلال أسماء مدن السك الواردة على المسكوكات الإسلامية معرفة مدى النفوذ السياسي لكل دولة، ولكل حاكم بعينه. إذ تعتبر دار ضرب النقود أو سك العملات من الجهات الرئيسية في الدولة، ومن أهم المؤسسات في حياة المجتمعات، وهي الجهة الوحيدة التي تملك حق إصدار مختلف أنواع العملات سواء كانت ذهبية أو فضية أو نحاسية، وما عداها لا يحمل أي صفة قانونية بل يدخل في نطاق عمليات التزييف التي تحاربها الدولة.

لذا فقد باشر خلفاء الدولة الإسلامية منذ تعريب النقود في عهد الخليفة الأموي «عبد الملك بن مروان» الإشراف على دار الضرب واستمر هذا الإشراف حتى عهد «هارون الرشيد» حيث تنازل عن الإشراف لوزيره «جعفر بن يحيى البرمكي».

وتمتع الولاة أيضا بحق الإشراف على دور الضرب منذ عهد الخليفة «عبد الملك بن مروان» وأول من نال هذا الحق هو «الحجاج بن يوسف الثقفي» وإلى العراق، وفي بداية الدولة العباسية أعطت هذا الحق للولاة منذ ولاية «علي بن سليمان بن علي» الذي تولى إمارة مصر ما بين عامي (١٦٩ - ١٧١هـ) وكان



صورة (١٣) وجه دينار السلطان احمد الثالث - ضرب مصر



صورة (١٤) ظهر دينار السلطان احمد الثالث - ضرب مصر

الرأي خاصة أن مدينة الإسكندرية مركز تجاري هام ليس للدولة فقط بل للتجارة العالمية حيث تعد المدينة سوقاً نقدية دولية يتم تداول أنواع عديدة من العملات في أسواقها، لذلك ولضخامة حجم التبادل التجاري والمعاملات المالية فيها فلا بد من

وجود دار لضرب النقود تقوم بتلبية تلك الحاجات. ٢- إن عدم العثور على قطع نقدية إصدار دار ضرب الاسكندرية مؤرخة بعد عام ٨٢٤هـ ليس دليلاً على توقف دار الضرب عن العمل فقد تكشف لنا الأيام وتخرج لنا الحقائق ما يحض هذا الرأي، كما أن أصحاب هذا الرأي يقومون بتاريخ وتحديد مكان ضرب بعض الإصدارات غير المؤرخة ومجهولة مكان الضرب بالمقارنة مع بعض الإصدارات المؤرخة والمعروفة المصدر سواء من حيث الكتابات أو أسلوب الخط أو ترتيب الكلمات وأشكالها.

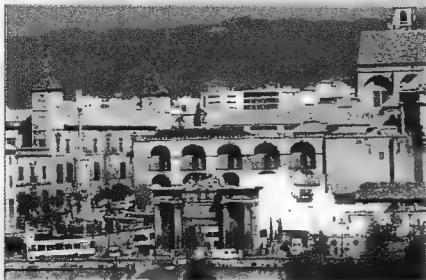
وهكذا نرى أن دراسة المسكوكات الإسلامية تكشف عن أشياء كثيرة توضح الأحداث التي نعرفها من المصادر التاريخية، بل إنها قد تؤكد حدثاً وتفيي آخر.

«احمد بن طولون» أمير مصر يشرف على دار الضرب بنفسه وكذلك تمتع بهذا الحق أمراء الدولة الإخشيدية في مصر ما بين عامي (٣٢٢ - ٣٥٨هـ) وكانت دار الضرب تخضع لإشراف دقيق من الإخشيد نفسه، ولعل أول وزير نال ثقة الخلافة وأعطى حق الإشراف على دار الضرب هو «علي بن عيسى بن ماهان» وزير الخليفة «موسى الهادي» وقد تمتع وزراء الدولة الإسلامية بحق الإشراف المباشر على دار النك بل قد يصل الأمر الى أن تنسب النقود المضروبة إليهم مثل الدنانير السالية نسبة الى «يلغا السالمي» وزير الملك الناصر «فرج بن بروق» في العصر المملوكي.

ولعل من أهم المشاكل التي تشغل بال باحثي المسكوكات الإسلامية «مشكلة توقف دار ضرب الإسكندرية عن ضرب النقود خلال العصر المملوكي» إذ توجد آراء تقول أن دار ضرب الإسكندرية استمرت في عملها طيلة العصر المملوكي البحري وفترة من العصر المملوكي الجركسي حتى نهاية فترة حكم السلطان الملك المؤيد شيخ عام ٨٢٤هـ معتمدين في ذلك على عدم وصول أي قطع نقدية من إصدار دار ضرب الإسكندرية بعد هذا التاريخ.

ولكن هذه الآراء تفتقر إلى الحجة القوية لعدة أسباب :

- ١ - عدم ذكر المصادر التاريخية أية إشارة لتوقف دار ضرب الإسكندرية عن العملة في تلك الفترة وهي فترة ثرية بالمؤرخين الذين غطوا بكتاباتهم التاريخية كافة نواحي تاريخ دولة المماليك.
- ٢ - إن الظروف الاقتصادية للدولة لا تؤيد هذا



تأثير البيئة المحلية في الرواية التاريخية الأندلسية في العصر الأموي

من المعروف أن الفتح العربي لأسبانيا (الأندلس)، تم في عهد الخليفة الأموي الوليد بن عبد الملك، وبقيادة موسى بن نصير وطارق بن زياد سنة ٩٢هـ / ٧١١م. على أن المهم هنا هو أن هذا الفتح لم يكن مجرد حدث عسكري صعدت فيه الجيوش الإسلامية إلى أقصى شمال شبه جزيرة ايبيريا ثم هبطت الى جنوبها مثل ميزان الحرارة أو الترمومتر، بل كان حدثا حضاريا هاما امتزجت فيه حضارات سابقة كالفينيقية واليونانية والرومانية والقوطية، مع حضارة جديدة لاحقه وهي الحضارة العربية الإسلامية، ونتج عن هذا المزيج حضارة أندلسية مزهرة وصلت الى الفكر الأوروبي المجاور وأثرت فيه، كما تغلغلت في الحياة الإسبانية وتركت فيها أثارا عميقة مازالت معالمها واضحة الى اليوم. ولا شك أن وضع الأندلس الجغرافي في الأطراف الغربية البعيدة للعالم الإسلامي، وبجوار الغرب المسيحي في قلب أوروبا، قد جعلها في مواجهة مستمرة مع الدول اللاتينية المسيحية هناك، وهذا جعلها بالتالي أكثر الدول الإسلامية معرفة وتأثرا بها. ذلك لأن الحياة الإسلامية في اسبانيا لم تعرف الانفصال الجغرافي أو العنصري أو الحضاري بين المسلمين والمسيحيين بل كانت هناك حياة مشتركة بينهم.



إضاءة

- دكتوراة في الآداب - جامعة أسبانيا.
- أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية - جامعة الاسكندرية.
- عمل أستاذاً للتاريخ الإسلامي في عدة بول عربية وغربية.
- وكيل معهد الدراسات الإسلامية بمريد.
- شارك في العديد من المؤتمرات والندوات التاريخية.
- عضو اتحاد المؤرخين العرب.
- حقق عدداً كبيراً من كتب التراث الإسلامي.
- له مؤلفات عديدة منها:
- قيام دولة المماليك الأولى في مصر والشام.
- دراسات في تاريخ المغرب والأندلس.
- مملكة غرناطة في عهد السلطان محمد الخامس.
- = مجموعة من البحوث والدراسات في مجال التاريخ والدراسات الإسلامية.

مأضيها عن حاضرها - ومن ثم عكف المؤرخون الأندلسيون على تقصى الحقائق وتلمس الأخبار من مختلف مظانها القديمة لمعرفة تاريخ بلدهم الأندلس منذ العصور السابقة للحكم الإسلامي في إسبانيا أيام الرومان والوندال والقوط، إلى جانب متعرفة الأمم الإسبانية والأوروبية المعاصرة والمصاحبة لهم في العصر الإسلامي الوسيط.

ومن أهم المصادر الأوربية القديمة التي اعتمد عليها الأندلسيون في هذا الصدد، كتاب «التواريخ السبعة في الرد على الوثنيين».

Historiarum Libri Septemadussos Paganos
الراهب الروماني الأسباني (هروشيوس) Paulus Orosius الذي عاش في أواخر القرن الرابع وأوائل الخامس الميلادي - والكتاب تاريخ للعالم القديم منذ بدء الخليقة حتى أيامه سنة ٤١٦م [١].

وهذا التداخل والتواصل المستمر بين الإسلام والمسيحية في شبه جزيرة إيبيريا، قد أعطى الأندلس رغم تعلقها بالوطن الأم بالشرق - أعطاه طابعاً فريداً وشخصية مستقلة مميزة، بحيث يمكن القول بأن الحضارة الأندلسية، حضارة إسلامية عربية إسبانية، ولا يمكن أن نسميها إلا بهذه التسميات الثلاث.

ولا شك أن هذا التداخل الحضاري المشترك، قد تأثرت به أيضاً كتابة التاريخ الإسباني بشقيه الإسلامي والمسيحي في العصر الوسيط، مما جعل المصادر الأندلسية العربية، والحواليات المسيحية الإسبانية تمثل مظهراً رائعاً لذلك الدور الثقافي الذي قامت به إسبانيا في مزج حضارتى الشرق والغرب. لقد أقبل الأندلسيون على كتابة تاريخ بلدهم الأندلس بولع شديد، فهو عندهم تاريخ عربي إسلامي يعتد بعرويته وعقيدته، وقد بلغ حماسهم به إلى درجة أنهم كانوا يعتبرونه أنبل علم عندهم على حد قول المؤرخ الغرناطي ابن سعيد المغربي.

والتاريخ الأندلسي في مظهره ومنهجه وأسلوبه، تاريخ عربي إسلامي له شخصيته التي لم تلبث أن فرضت نفسها على المدونات والحواليات والملاحم الإسبانية وأثرت فيها - على أن الذي يهمنا في موضوعنا، هو أن هذا العطاء الثقافي العربي الذي تأثرت به المصادر الإسبانية المسيحية، كان يقابله في الوقت نفسه أخذ من الثقافة المحلية اللاتينية واليونانية في هذا الحقل التاريخي. وذلك لأن الأمة الإسبانية التي اندمجت في جسم الدولة الإسلامية بالأندلس، لم تدخل بأشخاصها فقط، بل دخلت بتاريخها وحضارتها أيضاً، إذ لا يمكن فصل

عنه الجغرافي الأندلسي أبو عبيد البكري (سنة ٤٨٧هـ / ١٠٩٤م) أوصاف بعض النواحي مثل الجزء الخاص بوصف جزائر فرطناطش Fortunatas وهي المسماة بالسعادات أو الخالذات أو جزر كنارياس أو كنارياس غربي المغرب في المحيط الأطلسي [٣]. وهذه النقول تدل على حرص المؤرخين الأندلسيين على الاستفادة من تراث الأقدمين.

ولم يقتصر الأمر على المصادر اللاتينية، بل اعتمد الأندلسيون أيضاً على المصادر اليونانية القديمة، وخير مثال على ذلك كتاب الحشائش أو الأدوية المفردة Materia Medica للطبيب اليوناني ديوسقوريدس Dioscrides Biganius الذي عاش في القرن الأول الميلادي في جنوب آسيا الصغرى بمدينة عين زربة بولاية قليقية.

ونظراً لأهمية هذا الكتاب في تاريخ الطب، فقد أمر الخليفة الأندلسي عبد الرحمن الناصر بترجمة هذا الكتاب إلى العربية سنة (٢٣٧هـ / ٩٥٠م) وشكلت لجنة علمية لهذا الغرض كان من بين أعضائها الطبيب عبد الرحمن بن الهيثم، والطبيب اليهودي حسداى بن شبروط، وأبو عبد الله الصقلي الذي كان يجيد اللغة اليونانية وله إلمام بتركيب العقاقير، والراهب المستعرب نيقولا الذي أرسله الأمبراطور البيزنطي قسطنطين السابع للمساهمة في إنجاز هذا العمل الكبير [٤]. ولقد أثار ظهور هذه الترجمة الكاملة لكتاب ديوسقوريدس في الأندلس موجة من الحماس بين

ونظراً لأهمية تاريخ هروشيوس، فقد أمر الخليفة الأموي عبد الرحمن الناصر الذي حكم الأندلس من سنة (٣٠٠ - ٣٥٠هـ / ٩١٢ - ٩٦١م)، أمر بترجمة هذا الكتاب من اللاتينية إلى العربية وقام بهذه المهمة الفقيه الأندلسي قاسم بن أصبغ البلياني (نسبة إلى بليانة Baena من أعمال قرطبة) بالاشتراك مع قاضي النصارى الوليد بن الخيزران المعروف بابن مغيث.

ولقد استفاد المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون من هذا الكتاب ونص بعضهم صراحة على ذلك أمثال الرازي والعنزي والبكري والإدرسي وابن خلدون وغيرهم. وقد قام لزحوم الدكتور عبد الرحمن بدوي بنشر هذا الكتاب في بيروت قبل وفاته بعدة سنوات ١٩٩٠م.

وهناك مؤرخ إسباني لاتيني قديم آخر اعتمد عليه المؤرخون والجغرافيون الأندلسيون في تاريخ الفترة السابقة للحكم الإسلامي في إسبانيا وهو (القديس إيزودورو الأشبيلي) San Isidoro الذي تطلق عليه المصادر العربية اسم (اشيدور) وقد عاش من سنة ٦٠٠هـ إلى ٦٣٦م، وكان أسقفاً لمدينة أشبيلية وكتب عدة كتب أهمها كتاب مشاهير الرجال، وكتاب أصول الكلمات Etimologias.

فالمؤرخ الأندلسي أحمد بن عمر العنزي المعروف بابن الدلائل [٥] (ت سنة ٤٧٨هـ / ١٠٨٤م) ينص صراحة على اسمه اشيدور حين يتحدث عن ملوك القوط وعن مدينة طالق Italia الرومانية القريبة من أشبيلية التي مازالت آثارها باقية إلى الآن. كذلك نقل

**** الثقافة الإسلامية في الأندلس تفاعلت
مع مجموع الثقافات المستوطنة هناك.**

٥٩٥هـ / ١١٩٨م) الذى اشتهر بشروحه لفسلفة أرسطو بين الأوربيين لدرجة أنهم تصوروا أرسطو بعمامة من شدة إعجابهم بشروحه على حد قولهم.

وظل أخذ المؤرخين الأندلسيين من الرواية الاسبانية المسيحية باقيا مستمرا حتى نهاية الحكم الاسلامي في اسبانيا، وكان هذا أمرا طبيعيا - كما أسلفنا - بحكم الجوار والمعاشة بالاضافة الى ما عرف عن الأندلسيين من ولع شديد بعلم التاريخ لهذا اقبل الأندلسيون بحكم هذه الحاسة التاريخية على معرفة أخبار الممالك المسيحية الاسبانية والأوربية التى عاصرت الحكم الاسلامي في الأندلس وتدوين ذلك في مؤلفاتهم. ومن أمثلة هؤلاء المؤرخين نذكر:

المؤرخ والفقيه أبو بكر محمد القرطبي المعروف بابن القرطبة. صاحب كتاب تاريخ افتتاح الأندلس. عاش في القرن الرابع الهجرى أو العاشر الميلادى، وواضح من اسمه أنه من سلالة امرأة قوطية وأسبانية وهي الأميرة سارة حفيدة ملك اسبانيا القوطى غيطشه، وقد تزوجها القائد العربى عيسى بن مزاحم في دمشق عندما ذهب الى هناك لبحث ميراث أبيها مع الخليفة الأموى هشام بن عبد الملك، ثم عادت مع زوجها الى اسبانيا ومن سلالتها جاء هذا العالم أبو بكر محمد بن القوطية الذى تأثرت كتابته بتلك النزعة الوطنية الاسبانية التى ينتمى إليها، فيروى قصصا شعبية من هذا الطابع المحلى الاسباني الأصل مثل قصة أحد أجداده الكونت أربطباس بن غيطشة الذى كان أول قومس (أي رئيس) باسبانيا الاسلامية وكيف أن عبد الرحمن الداخل لما اغتصب بعض ضياعه وهب إليه أربطباس وحديثه حديث الند للند وأعجب به صقر قریش وأقامه

الأندلسيين الذين أقبلوا على دراسة الطب والنباتات الطبية متخذين من هذا الكتاب مصدرا رئيسيا لهم [٥].

والواقع إن علوم اليونان وأسماء أبطالها كانت معروفة ومألوفة بين الأندلسيين، ومثال ذلك الشاعر القرطبي سعد بن عبد ربه [٦] (ت ٣٤١هـ / ٩٥٢م) الذى كان معنيا بكتابات الاغريق وعلومهم الأوائل، كذلك يشير الوزير الغرناطى لسان لدين بن الخطيب (ت ٧٧٦هـ / ١٣٧٤م) إلى أن حكم الفرس وسياسة اليونان كانت تدرس في الأندلس ولا سيما لأبناء الطبقة الراقية وضرب مثلا على ذلك فى عهده بالملك الغرناطى اسماعيل الثانى بن أبى الحجاج يوسف بن الأحمر الذى كان يتعلم هذه المادة على يد مملوك مسيحي الأصل اسمه عبّاد [٧]، بل إن بعض الأندلسيين كان يتسمى باسم أخيل Aquiles بطل حروب طروادة في الملاحم الاغريقية في إلياذة هوميروس، مثل عياش بن أخيل صاحب شرطة القائد موسى بن نصير [٨]، ومثل الشاعر أبى القاسم أخيل بن ادريس الذى عاش بمدينة رنده Randa في جنوب الأندلس على عهد الموحدين [٩]. بل ان الأندلسيين أطلقوا هذا الاسم أيضا على بعض قطع اسطولهم البحرى، وقد أشار بذلك المؤرخ الاسباني المعاصر لويت دي أبالا في حولياته (القرن ١٤م) عند قوله إن ملك قشتاله الفونسو الحادى عشر استولى على سفينة حربية غرناطية كبيرة من الطراز اليونانى القديم تسمى أخيل Oxel وذلك في سنة ١٣٤٢م (٧٤٣هـ) [١٠].

هذا، ولا يغيب عن الأذهان الفيلسوف القرطبي ابو الوليد محمد بن رشد Avessoes (توفي سنة

قوساً (أي رئيساً) لأهل ملته من النصارى.

هذه القصة تعبر عن واقعة سياسية محلية هامة
وهي انشاء رئاسة عليا لأهل الزمة من النصارى في
الأندلس [١٨].

كان ابن القوطية مسلماً ومتعصباً للإسلام وضليعاً
في العلوم الفقهية واللغوية وله كتاب آخر في النحو
يعرف بكتاب الأفعال نشره المستشرق الإيطالي
اجناسيو جويدي ، أما كتابه تاريخ افتتاح الأندلس
فيتناول الأحداث التي مرت بالأندلس منذ الفتح العربي
حتى وفاة الأمير عبد الله الأموي سنة ٢٠٠هـ وبداية
عهد حفيده عبد الرحمن الثالث (الناصر) والكتاب
نشره باسكوال دي جاينجوس P.De Gayangos
وترجمه الى الإسبانية خوليان ريبيرا J. Ribera
(مدريد ١٩٢٦م).

والى جانب ابن القوطية، هناك المؤرخ الطبيب
القرطبي عريب بن سعد (ت ٣٧٠هـ / ٩٨٠م) وعنوان
كتابه: «مختصر تاريخ الطبري»، وقد يبدو من العنوان
أنه مجرد اختصار لتاريخ الطبري في حين أنه في
الواقع ذيل أوصلة على تاريخ الطبري ولا سيما في
أحداث المغرب والأندلس، إذ أن الطبري لم يهتم إلا
بتاريخ المشرق بصفة خاصة، وقد نشر دي خويه De
Goeje الجزء الخاص بتاريخ المشرق من كتاب
عريب [١٢] ويسماه صلة تاريخ الطبري، أما الجزء
الخاص بتاريخ المغرب والأندلس، فلا نعلم عنه سوى ما
قاله المستشرق الهولندي دينهارت دوزي من أن ابن
عذارى قد نقل قطعاً منه في الجزء الثاني من كتابه
البيان المغرب [١٢].

انفرد عريب بن سعد بروايات تاريخية هامة مثل
قوله في فتح الأندلس أن موسى بن نصير نهض بنفسه

الى لقاء الخليفة الاموى الوليد بن عبد الملك بدمشق
حيث استشاره في فتح الأندلس فأشار عليه بأن
يختبرها بالسرايا ولا يغزو بالمسلمين [١٤]. هذه
الرواية تختلف عن بقية الروايات التي تجمع على أن
الاتصال بينهما تم عن طريق المراسلة - كذلك حاول
عريب بن سعد تصحيح بعض الأخبار الشائعة بين
الناس عن أحداث الفتح العربي للأندلس مثل قوله:
«وأصاب طارق مائدة منظومة بالدر وإلياقوت
والزبرجد، وهي التي يزعم الناس أنها مائدة سليمان
بن داود عليهما السلام، ولم تكن كذلك ، غير أن أهل
الحسبة من العجم كانوا إذا حضرتهم الوفاة، أوصوا
للكنائس بمال كثير تصنع منه كراسى توضع عليها
الاتاجيل في الأعياد، فكانت تلك المائدة مما يتفوق فيه
الملوك».

هذا التفسير الفريد يدل على تلك المعاشاة التي
مكنت عريب من معرفة عادات المسيحيين في اسبانيا .
وقد لاحظ ذلك المؤرخ التونسي ابن الشباط (ت سنة
٦٨٤هـ) عند قوله: «واعلم أن هذا القول غريب من
عريب، لم يذكره فيما علمت غيره، وإنما ذكروا كهم
أنها مائدة سليمان بن داود» [١٥]: هذا، وكان عريب
بن سعد طبيباً للخليفة الحكم المستنصر بالله إلى
جانب كونه كاتباً ومؤرخاً، وقد كتب كتاباً في أمراض
النساء، وكتاباً آخر سماه «تقويم قرطبة»، وهو تقويم
حسابي ملكي يتناول علاقة الشمس بالمحاصيل
الزراعية في فصول السنة المختلفة، وقد نشره دوزي
كملاحق لكتاب البيان المغرب لابن عذارى بعنوان:
«تقويم قرطبة لسنة ٩٦١م» (Le Calendries de
Cordoue de l'année 961).

وهناك العالم القروي (نسبة إلى القيروان) القاضي

بكتير من قاضى الجماعة في الاندلس، فهو الذى يعين ويعزل القضاة في جميع الاقاليم، فهو قاضى الدولة كلها ومن سواه في الولايات نواب عنه.

مثل آخر نضربه في هذا الصدد، وهو المؤرخ القرطبي أبو مروان حيان بن خلف بن حيان (توفي ٤٦٩هـ/ ١٠٧٦م) وهو يعتبر من أعظم مؤرخى اسبانيا الإسلامية والمسيحية في العصر الوسيط، فهو بمنزلة الطبرى بالشرق. ولقد ثبت من الأخبار التى أوردها في كتابيه (المقتبس، والمتين)، أنه على دراية واسعة ومعرفة دقيقة بكل ما يتعلق بتاريخ اسبانيا الإسلامية والمسيحية حتى أيامه بل وايضا بعض جوانب من التاريخ الفرنسى فيما وراء جبال الپيرتات في الشمال. ومثال ذلك انفراده برواية أخبار الجحافل التركية المجرية الوثنية التى جاءت من وسط أوربا وأغارت على الثغر الأعلى في شمال شرق الاندلس واحتلت مدينة بريشتو Barbastro في عهد الخليفة عبد الرحمن الناصر (٢٣٠هـ/ ٩٤٢م) ثم انسحبت منها نتيجة لبرودة الشتاء وقلة الموارد [١٧].

ولقد أثار ما كتبه ابن حيان عن الممالك الاسبانية والأوربية دهشة المؤرخين الأوربيين الذين رأوا في تفسير ذلك أنه لا بد وأن ابن حيان كان يعرف اللاتينية التى مكنته من الاطلاع على المدونات المسيحية أو أنه كان على اتصال ببعض ثقات المؤرخين المسيحيين بدليل اشارته الى رواة العجم

محمد بن حارث الخشنى (ت ٢٧٠هـ/ ٩٨١م) الذى انتقل من تونس الى قرطبة بدعوة من الخليفة الاموى الحكم المستنصر الذى أباح له دخول مكتبة القصر والاستفادة من كتبها، وهناك ألف كتابا بعنوان «القضاة بقرطبة»، تحدث فيه عن عادات الاندلسيين ولباسهم ولقبتهم، ونخص بالذكر اشارته الهامة الى انتشار اللغة الاسبانية بين الاندلسيين لدرجة أن بعض القضاة كانوا يتقنونها ويناقشون المتهمين بها أثناء المحاكمة، وأورد أمثلة عديدة على ذلك [١٦]. ولا شك أن ظاهرة ازدواجية اللغة Bilingue بين المسلمين والمسيحيين في اسبانيا، كانت شائعة ومنتشرة لأنها تتفق مع التجانس التاريخي لأحداث هذه المنطقة من حيث الزواج المختلط والامتزاج الثقافي بين العربية والاسبانية.

كذلك يقارن الخشنى في كتابه بين نظام القضاء في الاندلس، ونظام القضاء في المشرق الاسلامى. فكبير القضاة في الاندلس كان يسمى بقاضى الجماعة ونفوذه كان قاصرا على العاصمة قرطبة، فلم يكن له سلطان على بقية القضاة في الاقاليم والمدن الاندلسية، فهم مستقلون بأنفسهم والخليفة هو الذى يعينهم أو يعزلهم، ولا يفتاز قاضى الجماعة عنهم إلا من الناحية الأدبية باعتباره قاضى العاصمة ومستشار الخليفة.

أما في المشرق، فكبير القضاء في مصر والعراق كان يعرف بقاضى الجماعة وكان نفوذه توسع

المكونات الحضارية لاسبانيا هي الاسلامية العربية الاسبانية.

في بعض الأخبار التي أوردها مشوية إليهم.

عاش ابن حيان حوالي تسعين سنة وعاصر عظمة الخلافة الأموية كما عاصر الأحداث الدافية التي أدت إلى سقوطها . وقد أثر ذلك في حياته وفي إنتاجه لأنه كان من انتصارها . وتلحظ ذلك في كتاباته حيث القسوة والمرارة وسلطة اللسان ضد الخونة والمفسدين لدرجة أن المؤرخين الذين نقلوا عنه بعد ذلك أمثال ابن بسلام، وابن عذاري وابن الخطيب اضطروا إلى تهذيب عباراته وحذف القبيح من كلماتها .

ولقد وصل إلينا من كتاب المقتبس في أخبار بلد الأندلس لابن حيان خمس قطع منفصلة وهي:

القطعة الأولى: تتناول إمارة الحكم الربضي الأموي والسنوات الأولى من عصر ولده عبد الرحمن الثاني تحقيق ونشر الدكتور محمود على مكي (الرياض ١٤٢٤هـ/٢٠٠٣م).

القطعة الثانية: تشمل الجزء الأخير من إمارة عبد الرحمن الثاني والخطر الأكبر من إمارة ولده محمد، تحقيق ونشر الدكتور محمود على مكي (بيروت ١٩٧٣م).

القطعة الثالثة: تتناول عهد الأمير عبد الله بن محمد الأموي (٢٧٥ - ٣٠٠هـ) نشرها الراهب الاسباني ملتشور انطونيا (باريس ١٩٣٠م).

القطعة الرابعة: تتناول معظم عهد الخليفة الأموي عبد الرحمن الثالث (الناصر) نشر شالميتا وكورينطي ومحمود صبح (مريد ١٩٧٩م) واطلقوا عليها الجزء الخامس.

القطعة الخامسة: تتناول عصر الخليفة الأموي الحكم المستنصر بالله بن عبد الرحمن الناصر، نشر وتحقيق عبد الرحمن الحجى (بيروت ١٩٦٥م).

أما كتاب المتين لابن حيان فهو يؤرخ الفترة التي عاش فيها وشاهد أحداثها بنفسه، وهذا الكتاب مفقود للأسف، لكن المؤرخين الذين جاؤا بعده نقلوا عنه في كتبهم جزءا كبيرا من هذا التراث الضائع وعلى رأس هؤلاء الأديب الأندلسي أبو الحسن على ابن بسلام في كتابه النخبة في محاسن أهل الجزيرة.

وما يقال عن ابن حيان يقال أيضا عن معاصره وصديقه المؤرخ الفقيه الأديب: أبو محمد علي بن حزم القرطبي (توفي سنة ٤٥٦هـ/ ١٠٦٤م).

ينحدر من أسرة اسبانية الأصل من بلدة لبلة في جنوب غرب الأندلس. كان أبوه أحمد وزيراً للحاجب المنصور بن أبي عامر، ولهذا عاش ابن حزم الفترة الأولى من حياته حياة سعيدة مزجة في قصور الخلافة بقرطبة، وتعلم في صغره على أيدي النساء مما يدل

*** التاريخ الأندلسي في شخصيته الإسلامية فرض نفسه على المدونات والحوليات والملاحم الإسبانية وأثر فيها.

الحادى عشر الميلادى (الخامس الهجرى) - نُشر هذا الكتاب في القاهرة سنة ١٢٢٦هـ وكتب على هامشه كتاب الملل والنحل للشهرستانى الذى عاش بعد ابن حزم بنحو قرن من الزمان في المشرق - وقد ترجم الراهب الاسبانى أسين بلاثيوس كتاب الفصل الى الاسبانية في خمسة أجزاء خصص فيه الجزء الأول ونصف الجزء الثانى كدراسة تفصيلية عن ابن حزم (مدريد ١٩٢٧ - ١٩٢٨).

- أما كتابه: «جمهرة أنساب العرب» ، وهو عظيم الفائدة لمن يدرسون تاريخ الإسلام في المشرق والمغرب، ويتناول الكلام بصفة خاصة عن القبائل والأسر العربية والبربرية والاسبانية الأصل التى عاشت في الأندلس - ومن أهم رواياته تعجب ابن حزم من أن قوما من قبيلة (بلي) من قضاة لا يحسنون الكلام باللاتينية لكن بالعربية فقط نساوهم ورجالهم [١٨]، فاستتناؤه لقبيلة (بلي) يدل على أن الكلام باللاتينية كان شائعا في أنحاء الأندلس وأن ابن حزم كان يجيدها ايضا، وقد يؤيد ذلك تفسيره لبعض الأسماء اللاتينية الأصل، وترجمته لها ترجمة عربية صحيحة مثل قوله: «ومن ولد أمية بن الحكم بن هشام» ، الوزير عبد الله بن عبد العزيز الملقب (بالطره شقه)، ومعناه الحجر اليايس [١٩] Predra) Seca) وهي ترجمة صحيحة. وكتاب جمهرة أنساب العرب نشره ليقل بروفنسال في مجموعة ذخائر العرب سنة ١٩٤٨م وأعاد نشره الدكتور عبد السلام هارون (القاهرة ١٩٧١م).

ومن مؤلفات ابن حزم التاريخية «كتاب نقط

على مكانة المرأة الأندلسية في ذلك الوقت. وقد أثرت هذه الحياة المترفة في تنمية مشاعره، كما مكنته من التفرغ للدراسة والتحصيل على كبار علماء عصره.

ومن أهم مؤلفاته :

- كتاب طوق الحمامة في الألفة والألف - وهو

يعتبر أول دراسة نفسية تحليلية لعاطفة الحب والمحبن، كما أنه لم يعتمد فيه على ما كتبه الأقدمون من أشعار الغزل وبكاء الأطلال والدمع، بل سلك طريقا مستقلا يبين نضجه وأصالته واعتداده بنفسه وفي ذلك يقول في مقدمة كتابه: «ودعنى من ذكر أخبار الأعراب والمتقدمين، فسبيلهم غير سبيلنا وقد كثرت الأخبار عنهم، وما مذهبى أن أنضي مطية سوى». ثم يكرر هذه النزعة الإبداعية بقوله:

أنا الشمس في جو العلوم منيرة

ولكن عيبي أن مطلعى الغرب!!

وقد نشر هذا الكتاب وترجم إلى لغات أوربية عديدة مثل بتروف الروسى، ونيكل الأمريكى، وبرشيه الفرنسى وجارثا جوث الاسبانى وغيرهم.

- أما كتابه «الفصل في الملل والأهواء والنحل»

فهو يختلف عن كتاب طوق الحمامة إذ يتناول دراسة الأديان والمذاهب والفرق الدينية المختلفة ومقارنة بعضها ببعض الآخر ويلاحظ أن هذا النوع من الدراسة وهو التاريخ المقارن للأديان، لم يوجد في أوربا إلا في القرن التاسع عشر الميلادى، وهذا يرينا أهمية كتاب الفصل الذى ألفه ابن حزم في القرن

وصار مثل معاصره ابن حيان حاد الطبع والمزاج سليل اللسان، حتى شقته لسانه سيف الحجاج في المشرق!! اعتنق ابن حزم المذهب الظاهري الذي نشأ بالمشرق على يد داود بن علي الأصبهاني، واصطدم بفقهائ المالكية الذين ألجأوا عليه الناس والحكام فأحرقوا كتبه ولم يحضروا مجالسه، فاضطر إلى الاعتزال في بيته الريفي في مدينة ليله بالقرب من اشبيلية في غرب الأندلس وهناك ألف عدة كتب لم تتخط عتبة داره كما يقول معاصره ابن حيان وتوفي سنة ٤٥٦هـ / ١٠٦٤م، عن واحد وسبعين سنة.

لقد كان ابن حزم رجلاً عقلانياً يأخذ بالعقل ويخالف بالعقل ولهذا نراه صاحب رأى مستقل وموضع مديح الكثيرين من فلاسفة المسلمين أمثال الغزالي وابن رشد ومحيي الدين بن عربي وغيرهم. كذلك يروى عن الخليفة المغربي أبي يوسف يعقوب المنصور الموحدي أنه قال على قبره مرة: «كل العلماء عيال على ابن حزم».

الهوامش :

- (١) يعتبره المؤرخون ليلاً لكتاب مدينة الله للقدس أوغسطين.
- (٢) راجع (العزري: كتاب توصيع الأخبار وتوزيع الآثار والبستان في غرائب البلدان والمسالك إلى الممالك، نشر الدكتور عبد العزيز الأهواني (مديرد ١٩٦٥م) والدلائل نسبة إلى ولاية Dolias إحدى قرى الريفية جنوب شرق اسبانيا.
- (٣) راجع (بالتتيا: تاريخ الفكر الاندلسي ص ٣١١، ترجمة الدكتور حسين مؤنس).
- (٤) سبق ان ترجم هذا الكتاب إلى العربية ترجمة جزئية قبل ذلك الوقت بنحو قرن في مدينة بغداد على عهد

العروس في أخبار بني أمية» وهو عبارة عن تراجم متفرقة ل خلفاء بني أمية في الأندلس مع الاهتمام بالأحداث الغربية والموضوعات النادرة في عهدهم مثل: تسمية من ولي الخلافة في حياة أبيه، ومن وكى الخلافة صنياء، وأكثر الخلفاء عمراً، وما إلى ذلك. وقد نشر هذا الكتاب المستشرق الألماني زايوبك في غرناطة سنة ١٩١٩م ثم ترجمه إلى الاسبانية المستشرق الاسباني لويس سيكودي لوثينا سنة ١٩٤٦م، ثم أعاد نشره الدكتور شوقي ضيف في مجلة كلية الآداب جامعة القاهرة سنة ١٩٥٤م.

وينسب لابن حزم رسالة هامة عن حضارة الأندلس بعنوان: (رسالة في بيان فضل الأندلس ونكر علمائه) أورد المؤرخ الجزائري احمد المقرئ نص هذه الرسالة في كتابه (فتح الطيب من غصن الأندلس الرطيب) الجزء الرابع ص ١٥١ وما بعدها ، طبعة الشيخ محي الدين عبد الحميد.

كتب ابن حزم هذه الرسالة رداً على رسالة ابن الربيب التميمي القيرواني التي يذكر فيها تقصير أهل الأندلس في تخليد أخبار علمائهم ومآثر فضلهم وسير ملوكهم، فانبهرى ابن حزم يذكر علماء الأندلس ويعدد أفضالهم ومؤلفاتهم في حماس بالغ لوطنه[٢٠]. وقد كانت هذه الرسالة بداية للعديد من رسائل أخرى كتبها علماء الأندلس حول فضائل الأندلس أمثال ابن سعيد المغربي[٢١]، وأبي الوليد الشقندي[٢٢]، ولسان الدين بن الخطيب وغيرهم[٢٣].

عاصر ابن حزم عظمة الخلافة الأموية بالأندلس كما شاهد سقوطها، وكان من أنصارها، ولهذا أثرت هذه الأحداث في نفسه تأثيراً كبيراً فاعتزل السياسة

(١٢) راجع (عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري، نشر: دي خويه، لين ١٨٩٧م).

(١٣) عندما نشر دوزي كتاب البيان المغرب لابن عذارى كتب في الصفحة الأولى ما يأتي: «الجزء الأول، واختلطت به قطع من نظم الجمان لابن القطان، والجزء الثاني واختلطت به قطع من عريب بن سعد».

(١٤) ابن عذارى: البيان المغرب ج ٢ ص ٦ (طبعة بيروت).

(١٥) احمد مختار العبادي: تاريخ الاندلس لابن الكريبوس ووصفه لابن الشباط ص ١٤٩ (مطبعة ١٩٧١م).

(١٦) راجع (الفشني: كتاب القضاة بقرطبة ص ٩٦، ص ١٣٨ - ١٣٩، نشره وترجمه إلى الإسبانية خوليان ريبييرا (مطبعة ١٩١٤م) وأعاد نشره عزت العطار السيني (القاهرة ١٩٥٤م).

(١٧) راجع (احمد مختار العبادي: خبر ظهور الترك بالثغر الأعلى سنة ٣٣٠هـ/ ٩٤٢م، نص جنيد لابن حيان القرطبي (مجلة المناهل، الرباط العدد ٢٩ سنة ١٩٨٤م).

(١٨) ابن حزم: جمهرة انساب العرب ص ٤١٣ (تحقيق عبد السلام هارون) ولعل المقصود بالطينية عند ابن حزم هي اللاتينية العامية أو العجمية التي كانت شائعة بين الأندلسيين (الرومانسية) والتي تطورت منها اللغة الإسبانية الحالية (القشتالية).

(١٩) نفس المصدر السابق ص ٩٨.
(٢٠) راجع (حوثالث بالثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص ٢٢١ ترجمة حسين مؤنس، احسان عباس: رسائل ابن حزم (مصر ١٩٥٤م).

(٢١) المقرئ: فتح الطيب ج ٤ ص ١٧١.

(٢٢) المقرئ: فتح الطيب ج ٤ ص ١٧٧.

(٢٣) راجع كتابنا (مشاهدات لسان الدين بن الخطيب في المغرب والاندلس، مجموعة من رسائله (الاسكندرية ١٩٥٨م).

الخليفة العباس المتوكل (٢٢٢ - ٢٤٧هـ) غير أن المترجم واسمه اسطفان بن باسيل لم يستطع ترجمة أسماء عدد كبير من الألوية لعدم معرفته ما يقابلها بالعربية ولهذا بقيت اسماءها على صورتها اليونانية بحروف عربية إلى أن جاء دور الأندلس وترجم الكتاب كاملا في عهد الناصر.

(٥) يشير المستشرق البريطاني دي لاس أويري إلى أن النسخة القطية الأندلسية لهذا الكتاب محفوظة في مكتبة البودليان بلكسford (أويري: مسالك الثقافة الافريقية إلى العرب ترجمة د. تمام حسان ص ٢٥٧.

(٦) هو ابن عم صاحب كتاب العقد الفريد احمد بن عبد ربه (توفي ٣٢٨هـ/ ٩٤٠م) (بالثيا: تاريخ الفكر الأندلسي ص ١٥٦).

(٧) ابن الخطيب: نفاضة الجراب في عللة الاغتراب ص ١٠٤ (نشر وتحقيق د. احمد مختار العبادي).

(٨) ابن قتيبة: الامامة والسياسة ج ٢ ص ٨٠.

(٩) المقرئ: فتح الطيب ج ٥ ص ٢٣٣ - ٢٣٤ (طبعة محيي الدين عبد الحميد).

(١٠) وردت الكلمة هكذا Oxel وتنطق أخيل لأن حرف الإكس X في الإسبانية القديمة كان بمثابة الغاء (j) في الإسبانية الحديثة فضلا عن انه يمثل أيضا حرف الغاء في اللغة اليونانية. ومن الطريف أنه بسبب هذا الحرف الإكس X أطلق الانجليز على القصة الإسبانية المعروفة نون كيوخوت اسم Don Quixot. راجع (Lopey de Ayala: Cronica de los reyes de Castillo tomo IP.280).

هذا، ويشير المستشرق الأسباني Alvaro Galmes Fortunos إلى أن حكم اليونان ظلت تدرس في الأندلس حتى أيام المورسكين في القرن الخامس عشر الميلادي.

(١١) راجع (ابن القوطية: تاريخ افتتاح الأندلس نشر جابنجوس ص ٣٨).



تعتبر منطقة غرب إفريقيا منطقة هامة من مناطق انتشار الاسلام في إفريقيا وذلك لما نهض فيها من الحركات الاسلامية العديدة، ولما قام فيها من امارات اسلامية كبيرة في مناطق غانة القديمة، ومالي وسنغال وبرنو، وصكتو وغيرها، ولما انتشر فيها من مراكز ثقافية اسلامية كبرى في ثُمبُكُتُو وقاؤ وجني وأقدس وصُكُتُو وكاسينا وغُونْدُو وغيرها .

ادى قيام هذه الحركات والامارات والمراكز الى انتشار الثقافة العربية الاسلامية مما افرز علماء ومؤرخين ومفكرين مسلمين أثروا ساحة المنطقة باسهاماتهم في مجال التراث العربي الاسلامي، وخلفوا الكثير من المخطوطات التي تحمل هذا التراث وتعمل على حفظه عبر القرون والاجيال . هذه المنطقة التي تعرف ببلاد السودان تمثل اخصب مناطق إفريقيا وراء الصحراء انتاجاً علمياً عربياً في فترة عرفت في تاريخ الإسلام بعصر الانحطاط .

وبالرغم من أن المؤرخين المسلمين أمثال ابن خلدون والسعدي والمقرئزي والتونسي وغيرهم قد تناولوا في مؤلفاتهم قدراً كبيراً من أخبار المسلمين والاسلام في المنطقة، فإن كمّاً كبيراً من تراثها الحضاري وأخبار حركاتها ورجالها ظل مجهولاً في عمومته أو في تفاصيله .

جهود

علماء

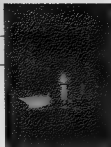
خلافة

صُكُتُو

في كتابة

تاريخ بلاد

السودان



إضاءة

- دكتوراة أصول التربية - جامعة أفريقيا العالمية ٢٠٠٦م.
- أستاذ أصول التربية - كلية التربية - جامعة أفريقيا العالمية.
- عمل أستاذاً للترجمة والتربية والفكر الاسلامي والاعلام في عدد من الجامعات السودانية.
- عمل أستاذاً بكلية تدريب المعلمين في نايجيريا.
- عمل أستاذاً لشعبة الدراسات الاسلامية في جامعة صككو - نايجيريا.
- رئيس لجنة البحوث شعبة الدراسات الاسلامية - جامعة صككو - نايجيريا.
- عضو لجنة الترجمة في المركز الاسلامي في جامعة صككو - نايجيريا.
- مؤلفات :
- الأدب الاسلامي الافريقي - المداخل الى الثقافة الافريقية - المداخل الى الترجمة.
- شارك في العديد من الدراسات والبحوث الاكاديمية والنوآت والمحاضرات واللقاءات.

التاسع عشر، يشير إليها الكتاب الغربيون خطأً بإمبراطورية الفلاني[٢] وذلك لإخفاء الأسس الإسلامية التي قامت عليها، ولصيفها من جهة أخرى بالصيغة القبلية[٣] التي جاء الإسلام أصلاً لإبطالها وإزهاق فعاليتها.

كان العامل الفعال وراء نجاح الشيخ عثمان بن فودي قائد حركة الجهاد التي أفضت إلى إرساء قواعد الخلافة، أنه منذ أن بدأ دعوته عمل على إقامة دولة العلماء وذلك بإذكاء الروح العلمية في أعوانه المباشرين له، وأغلبهم من عائلته التي عرفت عبر تاريخها الطويل قبله[٤] بحمل لواء العلوم العربية والإسلامية في المنطقة. أدى ذلك بالطبع إلى بروز عدد كبير من العلماء في الخلافة في حركة علمية غير مسبوقه في المنطقة شملت الرجال والنساء من أسرة[٥] الشيخ وأقاربه.

سميت الخلافة باسم عاصمتها صككو التي تقع

ولهذا كان لرجال المنطقة دورهم في تسجيل بعض هذه الأخبار وإرساء قواعد وتقاليد كتابة التاريخ فيها.

وإذا كان التمبكتي قد اسهم بصورة فعالة في كتابة تاريخ منطقته والمناطق التي تجاورها، فإن كثيراً من أخبارها وأخبار حركاتها ورجالها بعد عصر التمبكتي ظلت مفتقرة الى من يدون تاريخها ويعرف بحقيقتها.

ولعل خلافة صككو وبما سبقها من حركة ودعوة وجهاد، من أهم الامارات التي قامت في المنطقة خلفت تراثاً حضارياً هائلاً في منطقة شمال نايجيريا لم يكشف النقاب بعد عن كثير من تفاصيله.

وفي مجال كتابة تاريخ المنطقة اسهم علماء تلك الخلافة اسهاماً كبيراً في كتابة تاريخها على اعتبار ذلك امتداداً لتقاليد من سبقوهم في التأريخ لزمانهم ومكانهم، وعلى اعتبار ضرورة التاريخ للخلافة باعتبارها واحدة من الامارات الاسلامية الكبرى في المنطقة، ثم على اعتبار أن قيادات تلك الخلافة رجال عظماء كان لهم دورهم في اثراء حركة التاريخ الاسلامي والحضارة الاسلامية لا بد من ابرازه.

في هذا البحث عمد الكاتب للتعريف بدور هؤلاء واسهامهم في التاريخ للمنطقة بصفة عامة، وللخلافة بصفة خاصة، ولهذا جاء البحث تعريفياً محضاً وذلك لقلة الاطلاع في المشرق العربي على تاريخ هذه المنطقة وتاريخ رجالها وعلمائها واسهاماتهم، أملاً في أن يكون البحث فاتحة خير في التناول التفصيلي لهؤلاء العلماء من قبل كاتب البحث أو من غيره والله ولي التوفيق.

خلافة صككو من أقصى وأوسع الإمارات الإسلامية[٦] في افريقيا وراء الصحراء في القرن

في الجزء الشمالي الغربي من دولة نايجيريا الحالية، حيث كان الشيخ قد ارتحل إليها من (سيفوا) بعد نجاح دعوته وإقامة دولته التي قسمها قبل وفاته عام ١٨٧٧م إلى قسمين رئيسين جعل على الجزء الشرقي منها ابنه وخليفته من بعده أمير المؤمنين محمد بيلو، وعلى الجزء الغربي أخاه وزيره الأكبر الأستاذ الفقيه الشيخ عبد الله بن فودي [٦].

لا تزال مدينة صكتو حاضرة الخلافة تحتفظ باسمها ومكانتها الدينية وبها إلى اليوم قصر (سركن مسلمي) أمير المؤمنين. وقد حظي كاتب هذا البحث بالعمل بجامعتها لفترة تجاوزت الست سنوات، مما وجه نظره إلى البحث في الخلافة وقادتها وعلمائها منذ أكثر من عشرين عاماً.

كان التأليف والكتابة سمة مميزة لقادة الخلافة وعلمائها في شتى ضروب المعارف العربية والإسلامية، فالشيخ عثمان بن فودي له ما يربو على التسعين [٧] عملاً علمياً ما بين كتاب ورسالة، والشيخ عبد الله أخوه الأصغر، له أكثر من مائة وسبعين عملاً علمياً، وأمير المؤمنين محمد بيلو له أكثر من مائة [٨] عمل علمي. وللعديد من علماء الخلافة كمّم مماثل من المؤلفات، وأغلب هؤلاء وغيرهم من أقرباء الشيخ عثمان شعراء [٩] لهم شعر رصين ربما عدّ من عيون الشعر العربي.

لم ير النور من هذا التراث الغزير إلا النذر اليسير، بينما ظل القدر الأكبر منه مخطوطاً في دور الوثائق بـنايجيريا وغيرها من الدول المجاورة وفي المتاحف الأوربية.

القدر الأكبر من مؤلفات علماء الخلافة يتعلق بالعلوم الشرعية والسياسة الشرعية، وذلك لاهتمام قادة الخلافة بتعليم العامة وتعريفهم بأصول الرسالة التي قامت عليها الخلافة «كان الهم الأول لقادة خلافة صكتو هو تيسير المسلمين في المنطقة بالإسلام ومبادئه وتوعيتهم من أجل إقامة مجتمع إسلامي واع» [١٠]، يلي ذلك العلوم العربية والإسلامية التي كانت تستهدف طلاب العلم والأمراء والمجاهدين والولاة، إيماناً من الشيخ وقياداته بأن دولة الإسلام الحقيقية لا تقوم إلا على أساس متين من العلم والمعرفة، ولهذا كثر في مؤلفات الخلافة ما يسمى بالنجم والضياء، الإرشاد والتنبية، والبيان والسراج وغير ذلك مما يقصد به إثارة الطريق لأفراد المجتمع على اختلاف طبقاتهم وأنوارهم [١١].

أما المؤلفات المتعلقة بكتابة التاريخ فتعد بالنسبة لمؤلفات علماء الخلافة الغزيرة، جزءاً يسيراً [١٢] ومكملاً لمهمة التوعية، والتعريف بأهمية الحركة التي قام بها الشيخ وجدواها في المنطقة.

كانت هناك أسباب موضوعية وراء جهود علماء الخلافة لكتابة التاريخ يمكن تلخيصها في جملة من النقاط أهمها:

النقطة الأولى: ترتبط بمبررات حركة الجهاد [١٣] وقيام الخلافة في تلك المنطقة، ولعل أول ما يمكن ملاحظته في ذلك، أن إشكالا قد واجه قادة الجهاد يتمثل في أن أهل المنطقة مسلمون سبق إليهم الإسلام [١٤] فكيف تجلّ مقاتلتهم؟

كان لابد من تبيير علمي لقيام الحركة بأسرها،

*** خلافة صكتو أوجدت تراثاً حضارياً ضخماً في منطقة شمال نايجيريا.

المظهر الأول : التركيز على حاجة المنطقة

للحركة، تناول مؤرخو الخلافة طبيعة أهلها وممارساتهم وعاداتهم التي اختلط فيها الإسلام بالكفر، وفي ذلك حرص مؤرخو الخلافة على إظهار أنواع البدع التي كان يمارسها الحكام وتبعثهم فيها الرعية، استعرضوا في ذلك فساد الحكام والأمراء والأثرياء، وتناولت المؤلفات أيضاً علماء المنطقة وقضاتها الذين يستعين بهم الحكام ويسميهم الشيخ عثمان علماء السوء لأنهم يزيتون للسلطين أعمال الشر والظلم وحب النساء، ولا يهتمون بإصلاح الحكام والرعية، ويغلب عليهم الجهل والضلال وحب الجاه والمال.

المظهر الثاني : هو أن الحركة بأسرها كانت

قائمة على دعائم قوية تتمثل في ثلاث مجالات هي مجال السند التاريخي، ومجال السند العلمي، ومجال السند الروحي:

ففي التاريخ حرص مؤرخو الخلافة على إظهار العمق التاريخي لقبيلتهم القلاني وضلوعها في الدعوة للإسلام وعلى فرع القلبي بصفة خاصة حيث عرف هذا الفرع في تاريخ المنطقة بالدعوة إلى الله، وحمل لواء الإسلام وثقافته، وفي هذا الفرع حرص هؤلاء المؤرخون على إبراز البيت الذي ينتمي إليه الشيخ عثمان قائد الحركة [٢٠] والقادة الآخرون من أقربائه.

أما في مجال العلم فنلاحظ أن قيادة الخلافة الذين شرعوا في كتابة التاريخ يركزون تركيزاً شديداً وواضحاً على إبراز دور هذه الأصول والفرع، ثم دور العائلة المباشرة فيه، ونشير هنا بصفة خاصة إلى حرصهم الشديد على تأكيد أصالة الشيخ وأعوانه في هذا المجال، وذلك بإبراز التقاليد العلمية المتوارثة لهذه العائلة عائلة الشيخ المباشرة

زاد من هذا الإشكال أن بعض علماء المنطقة من المسلمين كانوا يهاجمون الحركة من وقت لآخر [١٥]، أدى هذا الإشكال إلى أن يكتب العلماء عن تاريخ المنطقة، وتحديد طبيعتها وطبيعة أهلها وقبائلها وأجناسها، وهويتها وهوية ملوكها وعلمائها ومكانتهم من الإسلام والكفر فكان كل ذلك بمثابة تمهيد للكتابة عن الحركة ومبرراتها، ثم التاريخ لها والترجمة لقياداتها.

النقطة الثانية : تتعلق بإيجاد سند تاريخي

للحركة في المنطقة، اقتضى ذلك أن يتناول علماء التاريخ الحركات السابقة، والدعاة الذين قادوا حركات مماثلة، وما واجههم من تحديات ومواجهة، ومن تصفية في أحيان كثيرة [١٦] يدخل ذلك بالطبع - من زاوية ما - في تبرير مقالة أعداء الدعوة إلى الله، غير أن السند التاريخي للحركة كان العامل الفعال وراء كتاباتهم. فقيادة الجهاد كانوا يؤمنون بأن ما جاءوا به كان تكملة وإتماماً لما بدأه من سبقوهم من علماء غرب أفريقيا [١٧] وعلماء بلاد هوسا منطقتهم المباشرة [١٨] بل أن هناك إشارات واضحة في كتاباتهم لتاريخ الحركة تؤكد إيمانهم القاطع بأن حركتهم لم تكن إلا امتداداً لحركة الإسلام الأولى ولهذا كانوا يشبهون أحوالهم ومواقفهم في القتال ضد أعداء الإسلام، بمواقف الإسلام الأولى مثل موقعة (تيكن كوتو) التي شبهها الشيخ عبد الله [١٩] بمعركة بدر، في مكانها وظروفها القتالية حيث كثر فيها الكفار وقتل المسلمون، ومنع ذلك كان النصر خليفهم.

النقطة الثالثة : تتعلق بأمر التوثيق لحركة الجهاد

وإبراز أطوارها المختلفة حيث حرص مؤرخو الخلافة على تركيز جوانب محددة في توثيقهم يمكن حصرها في مظهرين:

والضياء وغيرها مما هو معروف في مؤلفاتهم في الفقه والسياسة الشرعية وللشيخ عبد الله بن فودي باع طويل في هذا المجال [٢٣].

أما مجال الزهد والصالح فقد اهتم المؤرخون بإبرازه بصورة واضحة خاصة عند الحديث عن الشيخ عثمان قائد الحركة وأمير المؤمنين الأول فيها، وهو أمر لا يمكن أن يخطئه قارئ سيرة الشيخ عثمان التي كتبها مؤرخو الخلافة على اختلاف طبقاتهم فالشيخ محمد بيلو ابن الشيخ عثمان بن فودي في انفاق الميسور [٢٤] والشيخ عبد الله بن فودي وزير الشيخ الأكبر في ديوانه تزيين الورقات [٢٥]، والوزير غداً بن ليم في روض الجنان [٢٦]، والشيخ عبد القادر بن مصطفى في قطائف الجنان وأخبار البلاد الهوسية والسودانية [٢٧] والوزير جنيد في ضبط الملتقطات [٢٨] كل هؤلاء يركزون بصورة جلية على صلاح الشيخ عثمان وولايته التي لم يكن أحد في الخلافة يشك فيهما قط.

والصلاح والولاية عند قائد الحركة واقع هام من الناحية التاريخية لأنها تؤكد الشرعية الدينية من جهة وتنفى من الجهة الأخرى أي مطمع دنيوي أو عرقي في قيادته للحركة. هذه النقطة لا تنفصل بالطبع عن النقطة السابقة الذكر التي تناولنا فيها تبرير الحركة في منطقة مسلمة في عمومها خاصة وأن بعض مظاهر الصراع القبلي [٢٩] والجهوي [٣٠] أخذت تطفح إلى السطح بعد التجاح العسكري الباهر الذي حققته الحركة.

لم يقتصر التاريخ بالصلاح على قائد الحركة، بل تخطاه إلى أعوانه وقادة حركته، فالشيخ عبد الله أخوه وساعده الأيمن قد ركز في مؤلفاته التوثيقية [٣١] على إبراز ارتباطه الوثيق بأخيه الشيخ عثمان وملازمته له

في التضلع في علوم العربية والإسلام والعمل على نشرها. يظهر ذلك في كتاب الشيخ عبد الله الذي سماه: (إبداع النسخ من أخذت عنه من الشيوخ)، وهو منظومة شعرية جميلة سجل الشيخ عبد الله فيها سنده في علوم العربية والإسلام. ولعل أول ما يطالعنا في ذلك التركيز على العائلة وأفرادها الذين أخذ عنهم أصناف العلوم بدءاً بجده رقية وأبيه وأمه وأخيه (الشيخ عثمان نفسه) ثم أعمامه وأخواله وبنيتهم. أخذ عنهم صنوف العلوم العربية والإسلامية يقول الشيخ عبد الله في مطلع المنظومة:

عليّ نظم شيوخ صاح أولهم أبي
معلمي القرآن وهو مؤثبي
وتأنيهم عثمان، شيعي وعمدتي
سراجي في علم الشريعة مذهبي [٣٢]

عدد الشيخ عبد الله في هذه المنظومة بالإضافة إلى أبيه (فودي) الفقيه وأخيه عثمان قائد الحركة، عبداً لا يستهان به من الأعمام والأخوال الذين أخذ عنهم علوم النحو والصرف والعروض وعلوم القرآن والفقه والحديث والأصول وغيرها، مما يؤكد ضلوع العائلة الكبرى في هذه العلوم [٣٣] وتقاليدها، ولا يخفى على القارئ الكريم الأهمية التاريخية لهذا التوثيق، فقد اتضح من كتاباتهم الأخرى اهتمامهم بإثبات أن الخلافة والحركة بأسرها كانت تقف على أسس علمية قوية وهذا عامل منطقي هام في بيئة قد لا يظن بأن حركة الإصلاح فيها. تنطلق من قواعد فقهية وشرعية راسخة، ولهذا نجد أن علماء الخلافة قد ركزوا في اتجاه آخر على التأليف في الفقه والسياسة الشرعية بالقدر الذي يبين سلامة الأسس والمبادئ التي تستند إليها الخلافة. وهذا مجال ليس لهذا البحث إمكان الخوض فيه، غير أننا نشير إلى مؤلفات النجم

صلاح قاداتهما وصدق توجههم في عملهم كله إلى الله سبحانه، وتجدر الإشارة هنا إلى أن كُتَاب سيرة القادة الثلاثة كان لا يخالفهم الشك في أمر قيام خلافة صكتو في مبدأ أمرها على أسس روحية قوية وأن سر نجاح الحركة كان مرتبطاً بذلك [٢٩] وهذا بالطبع لا يلغي الأسس العلمية والتنظيمية والسياسية والعسكرية بل يقويها ويؤكد صدق التوجه إلى الله سبحانه فيها [٤٠].

وفي جانب آخر حرص المؤرخون على إثبات أن الحركة قد اتبعت نسق الحركات الإسلامية منذ فجر الدعوة عند الرسول (صلى الله عليه وسلم) مروراً بالحركات التي قامت في غرب أفريقيا والمغرب العربي ويمثل ذلك أيضاً في عدة محاور تلخصها في ما يلي:

أولاً: محور التكوين :

وفي ذلك نلاحظ أن الشيخ عثمان قد كون جماعته بصورة مماثلة للنسق الإسلامي حيث سماهم الجماعة كما هو الحال في الحركات السابقة واللاحقة وكان يسمى أعوانه ومريديه الإخوان كما هو واضح من خطابه ورسائله ومؤلفاته [٤١] وهذا بلا شك ربط تاريخي للحركة بالتقاليد الإسلامية في الإصلاح لأنه يبين سلامة التنظيم وانتباهه وانطلاقه من أصول الدعوة في الكتاب والسنة وتاريخها البعيد والقريب.

يرتبط هذا بالطبع بالأصول التي مرّ ذكرها:

حذو القذة بالقذة في ممارسته للتصوف وتلمذه على نفس الشيوخ الذين تتلمذ عليهم الشيخ عثمان في العلم وفي حفظ القرآن عبر نفس الأسد الذي اتبعه الشيخ عثمان. وحتى في التأليف في هذا المجال فإننا نلاحظ بوضوح أن الشيخ عبد الله في مقابل كتاب الشيخ عثمان المسمى أسانيد الفقير [٢٢] قد نظم منظومة شعرية سماها (ضياء السند) أوضح فيها سنده في التصوف على نفس النسق، ولا يشك كاتب هذا البحث في إمكان صلاح الشيخ عبد الله الذي حدث له في توجهه الصوفي حالة مشابهة لما حدث لحجة الإسلام الإمام الغزالي [٣٣] حيث لاحظ الكاتب ترك الشيخ عبد الله الوزارة والجاه العريض واطهار التوجه إلى الحجاز، غير أنه عاد من مدينة كانو بعد بضع سنين بكتابين أحدهما في تفسير للقرآن في أربعة أجزاء سماه ضياء التاويل [٣٤] وآخر في السياسة الشرعية سماه (ضياء الحكام) [٢٥].

يعزز التأكيد على إمكان صلاح الشيخ عبد الله وربما ولايته ما كتبه صاحب سيرته فيما بعد: سعد بن عبد الرحمن في مخطوطة ترتيب الأصحاب [٣٦]، ينطبق أمر التوثيق لصالح قادة حركة الجهاد أيضاً على أمير المؤمنين الشيخ محمد بيلو بن الشيخ عثمان حيث كتب المؤرخون [٣٧] عن زهده كما كتب هو عن انخراطه في سلك الزهد في الدنيا وأخذ الطريق بسند معلوم [٣٨].

فالخلافة إذن كانت تقف على أساس متين من

** عثمان بن فودي عمل على

إقامة دولة العلماء في صكتو..

باعتبارها مؤسسة راسخة الجذور في تاريخ الإسلام البعيد والقريب من جهة، وباعتبارها من جهة أخرى ضرورة حتمية لسلامة الشيخ وجماعته، وهي من جهة ثالثة وسيلة الاستعداد للدفاع عن النفس وعن الدعوة إلى الله تماماً كما فعل قادة الحركات الذين سبقوهم وذلك واضح من تصنيف المؤرخين لمناطق نفوذ ملوك الهوسا بأنّها دار كفر في مقابل دار الهجرة موطن الإيمان [٤٦].

ثانياً: محور الهجرة :

وهي أساس في الدعوة منذ فجرها، ركز مؤرخو الخلافة على إبرازها والتأمين على صحته في مسار الحركة، وقد ارتبط هذا الجانب من تاريخ الإسلام بالمواجهة والتعرض للخطر، والاستعداد للدفاع عن النفس [٤٣] ولأن البلاد التي تحرك فيها الشيخ عثمان هي بلاد إسلام في مجملها فإن مبرر الهجرة كان هاجساً كبيراً بالنسبة لقادة الجهاد ولهذا نجد أن الحديث عنها في مؤلفاتهم متكرر بنفس الوتيرة التي حرص الشيخ على إبرازها فيها في تنبيه الإخوان عن أحوال أرض السودان وكتابه المعروف: بيان وجوب الهجرة [٤٤] وهو وإن لم يكن كتاب تاريخ في أصله وصادته فقد ركز على حدث هام من أحداث الحركة التي سبقت الجهاد وقيام الخلافة الأمر الذي أبرزه الشيخ في عنوان أشهر كتبه على الإطلاق [٤٥].

كانت هجرة الشيخ من منطقة (غويير) التي سيطر عليها ملوك الهوسا الذين ناصبوا الشيخ العداوة وأضرموا له ولأعوانه الشر، إلى منطقة في الشمال بعيداً عن مرمى سهامهم تسمى (قُد)، وقد حرص مؤرخو الحركة على التركيز على مبررات الهجرة

ثالثاً: محور الاستعداد للدفاع عن النفس :
يرتبط هذا المحور ارتباطاً وثيقاً بالهجرة لأنها وسيلته، فالاستعداد يقتضي الاستقرار في مكان يمكن الاطمئنان إليه من جهة عدم إمكان وصول الخصوم إليه ومن جهة أخرى صلاحيته لأمر الاستعداد، وتوفر سبله من خيل ورجل وعتاد . وقد بذل مؤرخو الحركة جهوداً علمية جبارة لتبرير القتال في منطقة مسلمة، مركزين في ذلك على حقيقة استفاضة الإسلام في المنطقة في غير ملوكها . فالقتال إذن ليس ضد المسلمين من العامة، وإنما هو ضد الملوك الذين يحاربون الإسلام وأهله، وبالطبع ضد من يؤيهم من المسلمين . هذه النقطة أفاض علماء الخلافة في الحديث عنها في مؤلفاتهم، التاريخية منها وغير التاريخية مستعنيين فيها بآراء العلماء الذين سبقوهم في المنطقة . وتبرز هنا شخصية عالم سوداني كبير استشهد به علماء ومؤرخو الخلافة، هو محمد بن عبد الكريم المغيلي التلمساني الذي سبق بالكتابة عن قتال أهل المنطقة وذلك في أجوبة كتبها عن أسئلة

*** صكتو قسامت وتأسست على

نشر الاسلام والعلم الشرعي.

الأحيان [٥٢] طابعاً عنصرياً خطيراً في المنطقة
لا تزال آثاره باقية إلى اليوم [٥٣].

رابعاً : محور حملات الدعوة والتعبئة العامة :

ركز المؤرخون بصفة خاصة على جهود الشيخ
عثمان المبكرة في التعريف بنفسه وبدعوته، ثم
التعريف بالإسلام وحقيقته إذ كان من اهتمامهم
الواضح في ذلك بيان المناطق التي غطتها هذه
الحملات في بلاد هوسا - ولعل أول ما يطالع القارئ
في ذلك التركيز على الحدود التي رسمها الشيخ
لقيام الخلافة وتشمل المناطق التي لم يشم أهلها
رائحة الإسلام [٥٤] - شملت التعبئة جانبيين : الجانب
الداخلي إعداد العلماء والقادة من بين أعوانه
والجانب الخارجي تهيئة المنطقة بأسرها لقيام
الخلافة.

ولعل أول ما يلاحظ في الجانب الداخلي، أن
معظم العلماء القادة الذين اعتمد عليهم الشيخ كانوا
من قبائل الفلاني، لا تعصب لأهل كما يحلو لمؤرخي
الغرب أن يستنتجوا، ولكن لحقيقة أن أغلب هؤلاء
كانوا قبل حركة الجهاد من حملة العلوم الإسلامية
في المنطقة خاصة التورود أو التورنكاو الذين
اشتهروا بذلك قبل ظهور الحركة ببضعة قرون [٥٥] -

ولهذا لم يكن غريباً أن يكون أمراء الخلافة في
مناطقها المختلفة من هؤلاء وهذا تقليد أصبح سائداً
ومقبولاً حتى اليوم [٥٦] لأن أهل العلم والإيمان أحق
بتولي زمام الأمور في دولته في منطقة غلب على
أهلها الجهل والعصيان

كما تلاحظ أن التركيز على تقوية الجبهة
الداخلية قد نتج عنه توجه علمي حقيقي انتظم كل
اعوان الشيخ رجالاً ونساءً ونجم عن ذلك افراز كم
هائل من العلماء والشعراء الذين أسهموا بصورة

وجهها إليه أحد المشهورين من أمراء بلاد السودان
يسمى أسكيا محمد الذي كان يقاتل خصوم الإسلام
في منطقته [٤٧] -

ولا يخفى على القارئ الكريم الأهمية التاريخية
للاستشهاد بالآراء العلمية الصادرة عن علماء
المنطقة لمعرفة أهلها، وبحقيقة الكفر والإيمان في
شعوبها، وملوكها - وفي نفس الاتجاه استشهد علماء
الخلافة بآراء علماء مشاركة ومغاربة، خاصة تلك
التي كانت موجهة إلى أمراء المسلمين ببلاد
السودان [٤٨] -

كان أهم ما يرمى إليه علماء الخلافة التركيز على
أدلة تبرير أمر الاستعداد للقتال وإيجاد السند
الفقهي القوي له وذلك لما لاحظوه من اهتمام الشيخ
عثمان في بيان وجوب الهجرة بهذه القضية حيث
خصص لها ما يزيد على الثمانية فصول من
كتابه [٤٩]، ولما أصبح يرد عليهم من نقد علمي من
بعض الحكام المسلمين بالمناطق المجاورة، خاصة
منطقة برنو - ولعل أول ما يطالع القارئ في
كتاباتهم في تلك الرسائل التي كانت متبادلة بين قادة
الحركة وبين الشيخ محمد الأمين الكانمي [٥٠] حول
شرعية القتال في المنطقة التي كانت تقع في نفوذه
حيث حرص علماء الجهاد على تعداد وتصنيف
مظاهر الشرك والكفر التي كانت سائدة حتى في
بلادهم وأقار العلماء في منطقته لها، وعدم مواجهتهم
لها، الأمر الذي يجعل قتالهم مشروعاً من الناحية
الفقهية - هذه القضايا كانت تواجه العلماء في
الخلافة وما يترتب عليها مثل قضية الاسترقاق
والسبى وسلب الأموال في مثل هذه المناطق وما
ترتب عليها من آثار أصبحت مسار جدل فقهي حتى
عند قادة الخلافة فيما بينهم [٥١] واتخذت في بعض

أما الشيخ محمد بلو فهو مؤرخ حركة الجهاد الأول بدون منازع، ذلك لأن الهدف الأول من تاريخه المسمى اتفاق الميسور [٥٩] هو التاريخ لحركة الجهاد والخلافة الإسلامية التي نتجت عنه، ومنطلقات الشيخ محمد بلو شبيهة كل الشبه بمنطلقات عمه الشيخ عبد الله، فهو يكتب من منطلق أمير المؤمنين لأنه تولى الخلافة بعد أبيه، ويكتب أيضاً من منطلق القائد المباشر للعديد من المعارك الحاسمة في الحركة فهو الفاتح الأول والمقاتل الجسور الذي حقق النصر وارسى قواعد الخلافة وهو أيضاً يكتب من منطلق الشاعر الذي يفتخر بنصره على أعدائه، فقد تخلل كتابه العديد من القصائد التي أنشأها في الفروسية والفخر واعتبره البروفيسر عبد الله الطيب شاعراً فحلاً بها [٦٠].

الجزء الذي يتناول تاريخ التكرور في كتاب الشيخ محمد بللو قليل مقارنة بالتاريخ للخلافة فضلاً عن كونه مأخوذاً عن مؤرخي المنطقة ممن سبقوه، أما التاريخ للخلافة فهو لب الكتاب وجوهره، ويتميز فيه عن عمه عبد الله بأنه شمل فترة ما بعد الجهاد وقيام الخلافة وإرساء قواعدها وهو أمير المؤمنين فيها.

ولعله من الصعب جداً أن تجد في تاريخ الاسلام وحركاته الكبرى قائداً أرخ لحركته ولهذا فإن ما كتبه هذان القائدان يعد أمراً غير مسبوق في نظر هذا الباحث، بهذه الكيفية وبهذا الكم. ولعل شخصية الشيخ عثمان العظيمة هي التي دفعت هؤلاء القواد إلى تسجيل تاريخ الحركة التي قادها هذا الرجل الروحي العظيم الذي كان بعيداً بجسده عن ميادين القتال قريباً بروحه منها يقول الشيخ عبد الله في وصف جنوده الذين أمره الشيخ عثمان عليهم:

أَسَاسُهُمْ دَعَاؤُ الْقَادِرِي لَنَا

إِمَامَنَا رَاجِمَاتُ جَمْعِ كُفَّارِ

فعالة في إنجاح الحركة وإقامة الخلافة على أسس متينة. وامتدت التقاليد العلمية في الخلافة إلى الأجيال اللاحقة التي أسهمت في التاريخ للخلافة، وإدارة شئونها قبل سقوطها على يد المستعمر الإنجليزي بعد أكثر من مائة عام من السيادة والازدهار.

خامساً: محور الجهاد:

حيث حرص مؤرخو الخلافة على تسجيل خطوات الجهاد وحرابه وتفاصيل دقائقه. يلاحظ في ذلك أن التاريخ كان يستهدف أمرين هامين: الأمر الأول إبراز نصر الله تعالى للمجاهدين ضد أعدائهم حيث روى المؤرخون أنواعاً من المعجزات والكرامات التي حدثت، خاصة في الأطوار الأولى للجهاد حين كان المؤمنون قلة ضعفاء وخصومهم كثر أقوياء.

المقدمون من المؤرخين كانوا شاهد عيان ولذلك كانوا يسجلون تفاصيل الأحداث، فالشيخ عبد الله بن فودي صاحب الحضور الكامل في الحركة، قد سجل لتلك الأحداث شعراً في ديوانه ذي القيمة التاريخية الكبرى [٥٧] من عدة منطلقات: منطلق القائد الأعلى للجيش والوزير الأكبر في الخلافة، ومنطلق الشاعر الذي يفرح بالنصر ويسأس للهزيمة، ومنطلق الجندي والمقاتل الجسور الذي يعتد ببلائه وانتصاره على أعدائه، ثم منطلق العالم الفقيه العارف بالشرع وسياسة. كل ذلك واضح في قصائده التي سجلها في ذلك الديوان، وقد زادت من أهمية ديوانه التاريخية المقدمات الهامة التي كان يقدم بها القصائد في ديوانه الشهير. يسجل لنا الشيخ عبد الله أحداث الجهاد كاملة وكان يربط في مدحه وراثته ربطاً محكمًا بين الشخصيات ودورها في الجهاد ولهذا فهو في اعتقاد هذا الباحث شاعر الجهاد الأول في غرب إفريقيا [٥٨].

يُخربون بيوت الكُفَر أنْ نزلوا

ديار كفر فسات حالُ ذي الدار

حدود السودان الغربي وأرض للسودان الشرقي ولعله أول من فصل القول في بلاد النوبة من مؤرخي الخلافة.

يمتاز عبد القادر بن مصطفى عن بقية مؤرخي الخلافة بأنه اهتم بما يعرف بالتاريخ الجغرافي (historiography) [٦٤] حيث اطلع على العديد من المصادر العربية التي تناولت تاريخ المنطقة [٦٥] ولعل مما يعيب تاريخ عبد القادر أنه اعتمد بجانب ذلك على الروايات الشفاهية دون تحليل وتقصى، فجاء كتابه مشحوناً بالأخرافات والأخبار المبتورة والروايات والناوذر التي لا سند فيها، ولعله كان مغرماً بجمع غرائب الأخبار في منطقة السودان دون الحيلة التي كانت عند سابقيه كصاحب الاتفاق [٦٦] ويختلف عبد القادر عن سبقوه بأنه لم يك من بيت الإمارة على الرغم من أن أمه خديجة كانت البنت الكبرى للشيخ عثمان كما ورد في هوامش هذا البحث [٦٧]، ولم يكن من بيت الوزارة بالرغم من أن أباه مصطفى التورودي كان من المقربين للشيخ عثمان المخلصين له ولحركته، ومع ذلك كان دور عبد القادر كبيراً في التاريخ للخلافة وفي تمييزها وتميز قادتها بأشعاره العربية الرصينة [٦٨] فإذا ما وصلنا إلى عهد الوزير الدكتور جنيد وجدنا أن كتابة التاريخ لاتزال الشغل الشاغل لعلماء الخلافة حتى بعد زوالها وبقاء آثار قليلة منها. فقد كتب الوزير جنيد كتابه ضبط اللقطان [٦٩] على قرار ما قام به الوزير غداد بن ليم.

ولعل مما هو واضح أن تقليد كتابه تاريخ الخلافة أصبح امرأ متوارثاً خاصة في بيت الوزارة، وهو

أما الوزير غداد (القطقاط) بن ليم وهو من المتقدمين نسبياً، فإنه في تاريخه للخلافة [٦١] قد عني بصورة مباشرة بإبراز شخصية الشيخ عثمان، وعظمته، ومكانته وعني بصورة خاصة بإظهار ولايته بكراماته وأثرها الفعال في إنجاح الحركة وإنشاء الخلافة، وهذا واضح من عنوان كتابيه ومحتواهما.

لم يكن الهدف من ذلك تبرير شرعية الجهاد وحسب، وإنما رمى الكتابان إلى تسجيل سيرة الرجل باعتباره من الأعلام، والشيوخ العظام الذين نصروا الإسلام في تلك البلاد، وهذا تقليد جرى عليه المسلمون منذ عهد الرسول (صلى الله عليه وسلم) عند ابن إسحاق وابن هشام وأغلب قادة الحركات الإسلامية وشيوخها نهض بينهم من يكتب سيرتهم.

فإذا جئنا إلى إسهام عبد القادر بن مصطفى وهو من المتأخرين من مؤرخي الخلافة نسبياً فإننا نجده قد حرص على تسجيل أحداث الجهاد بتركيز خاص على قادته وأعدائه مشيراً بصراحة إلى ضعف التاريخ في المنطقة وضياح حقائقه بسبب إهمال أهل المنطقة لكتابة التاريخ وسيرة رجاله وحركاتهم [٦٢]. ومكانتهم من الدعوة إلى الله.

عمد عبد القادر إلى كتابة تاريخ خاص بخلافة صكتو ركن فيه كما فعل (القطقاط) على الشيخ عثمان مسجلاً سيرته وحياته [٦٣] أما كتابه الآخر فقد أرخ فيه للمنطقة عموماً وهو أول من تخطى

*** السند التاريخي والعلمي والروحي جميعها

تمثل مـرتكزات خلافة صكتو.

الاسلامية فانه لن يكون حلقة خالصة من حلقات تلك السلسلة، ولو كانت الوزارة قد آلت الى الابن الاصغر الدكتور ثامبو جنيد[٧١] الشاعر الرقيق لكان اقرب الى سلسلة آبائه واجداده.

يمتاز كتاب ضبط الملتقطات بحكم كونه امتداداً للسابقين، يأتيه سجل اخبار الخلافة في عصورها المتأخرة ومع ذلك فإن تركيزه على الشيخ عثمان، والشيخ محمد بيلو، والامراء والوزراء المتحدرين من بيته لا تكاد تخطئه العين.

الخاتمة :

هدف هذا البحث الى التعريف بأهم اسهامات علماء خلافة صكتو في كتابة تاريخ منطقة السودان عامة، ومنطقة الخلافة بصفة خاصة. ومع ما في البحث من اختصار واجمال شديد في التعريف بأهم اعلام مؤرخي الخلافة وإسهاماتهم، يرى الباحث أن الصورة مناسبة لإلقاء الضوء على جانب من تاريخ الإسلام والمسلمين في المنطقة اسهم في كتابته بنوها. غير أن قناعة الباحث أن هذا الاستطلاع المجمل يحتاج قطعاً الى عمل تحليلي تفصيلي لهذه الإسهامات كل على حدة، حتى تكتمل صورتها وصورة العلماء الذين قدموها.

وبما أن صاحب هذه العجالة له إلمام مناسب بخلافة صكتو وقادتها وعلمائها، فانه يرجو من الله أن يجد من الوقت والإمكانات، والتوفيق ما يعينه على أن يقدم عملاً متكاملًا عن هؤلاء العلماء وإسهاماتهم في قادم أيامه.

اقرب البيوتات التي معرفة حقائق الخلافة وبقائهم اخبارها وآثارها، والوزير جنيد الذي عاش حتى اواخر ثمانينيات القرن الماضي يعتبر من أواخر العلماء الذين عاشوا على تقاليد الخلافة المرتبطة بالتراث العربي في المنطقة فقد كان رحمه الله شاعراً فحلاً محباً للغة العربية وآدابها، وله ديوان شعر كبير سجل فيه آماله وآلامه ومواجهه، اطلع عليه كاتب هذا البحث الذي حظي في منتصف الثمانينيات بقاء آخر وزراء الخلافة الذين حرصوا على حفظ تقاليدهم وتراثهم العربي الإسلامي، كان رجلاً ذا شخصية مهيبه ولسان عربي فصيح، وكفاء وقبلة لا يخطئها من يتحدث اليه. وكان مع ذلك رجلاً لبقاً أدبياً يحفظ كمّاً كبيراً من الشعر العربي، يقول في قصيدة له انشأها عند زيارته لخرطوم في الخمسينيات[٧٠].

يا مَنْ يُصْعِدُ أَنْفَاساً بِأَنْفَاسِ

شَوْقاً لْخَرْطُومِ ذَاتِ الْوَرْدِ وَالْأَسِ

صَبِراً قَلِيلاً فَاَنَا سَوْفَ تَحْمِلُنَا

رَعَادَةً فِي الْهَوَا مَلُومَةِ الرَّأْسِ

تُعْطِي الْخُفَّانَ وَتَنْهِي عَنْ تَعَامُلِنَا

بِهِ عَلَيْهَا وَهَذَا خَلْفٌ مَفْئِيسِ

يعتبر كتابه ضبط الملتقطات امتداداً لكتابات من سبقه من مؤرخي الخلافة، كما يعتبر في نفس الوقت امتداداً لتقاليد كتاب تاريخ الخلافة عند بيت الوزارة، ولعله كان آخر السلسلة الذهبية في هذا البيت، لأن ابنه الذي تولى الوزارة من بعده، التي اصبحت اسماً ورسماً فقط، بالرغم من انتمائه لاهل الثقافة العربية

*** الأسرة الحاكمة في صكتو اشتهر أفرادها بالعلم

الشرعي واللغة العربية ونشر روح التدين بين الناس.

(١٠) انظر في ذلك :

A.M. Kani: The life and Works of Abd al -
Qadir b. Mustafa ABU. Nigeria 1987 (رسالة)

P.168. (تكررة غير منشورة)

(١١) انظر على سبيل المثال تنبيه الاخوان ونجم الاخوان
للشيخ عثمان وضياء الحكام، وضياء السياسات
للشيخ: عبد الله وغير ذلك من مؤلفاتهم المنشورة.

(١٢) أشار Murry Last الى أن كتابه التاريخ لم يكن
الا جزءاً مساعداً في إقامة مجتمع العدل نقلا عن
AM. Kani المرجع السابق ص ١٦٩.

(١٣) أشار Murry last في استعراضه للمصادر
المتعلقة بكتابة التاريخ في صكتو حتى عام ١٨٦٤م
الا أن السبب الحقيقي وراء كتابة التاريخ هو تبرير
حركة الجهاد نقلا عن كاني: نفس المرجع والصفحة.

(١٤) يؤكد الشيخ عثمان في غير ما موضع في مؤلفاته
ان الاسلام مستفيض في بلاد السودان عند الزعمية
وليس عند الحكام الذين غلب عليهم الجهل ، انظر
بيان وجوب الهجرة مرجع سابق ص ٣.

(١٥) لعل اشهر اعتراض اعتنى به قادة الجهاد في
مؤلفاتهم ما ورد عليهم من مصطفى قوني البرناوي
حيث حرص الشيخ عثمان على الرد عليه علمياً حين
وجه اخاه عبد الله بقولي مهمة الرد عليه شعراً ..
انظر تزئين الورقات للشيخ عبد الله ص ٥٦ وانفاق
الميسور للشيخ محمد بيلو ص ٦٣.

(١٦) ذكر الشيخ محمد بيلو كيف أن أحد العلماء
التورودي الذين ينتمي اليهم قادة الجهاد قد اغتيل
في منطقة كوني اثر محاولته قيادة حرك إصلاح في
المنطقة .. انظر انفاق الميسور ص ٦٤.

(١٧) يشير مؤرخو الخلافة عادة الى المختار بن احمد
الكتني وهو معاصر للشيخ عثمان سابق له بأنه قاد
حركة الدعوة في منطقة غرب افريقيا ثم جاء الشيخ
عثمان وحقق ما بدأه هذا الداعية. انفاق الميسور
ص ٢٠٧.

(١٨) نذكر في ذلك عندهم الشيخ جبريل بن عمر
الطارقي استاذ الشيخ عثمان الذي قال فيه:

الهوامش :

(١) انظر : Murry Last The Sokoto Caliphate
London 1967.

وانظر أيضا مقدمة: M.Hiskett The Sword of
The Truth New York 1973.

(٢) انظر مثلاً : M. Hodken: The Fulani Em-
pire.

(٣) حتى Hiskett كان يعتقد في عنصرية الحركة التي
قادها الشيخ عثمان ويركز بصيغة خاصة على
العلاقات القبلية داخل الحركة: مقابلة خاصة للباحث
مع Hiskett في جامعة صكتو اغسطس ١٩٨٢م.

(٤) انظر : محمد بيلو الشيخ عثمان انفاق الميسور في
تاريخ بلاد التكرور القاهرة ١٩٦٤م.

(٥) اشتهر من النساء العالمات بالخلافة بنات الشيخ
عثمان منهن خديجة كبرى بناته التي ترجمت
مختصر خليل الى لغة الفلاني (فللدي) وبنته اسماء
الملقبه (بناته) لها شعرٌ رصين بالعربية.

انظر : Jean Boyd the contribution of Nana
Asmau to the jihad move ment of shehu
B.Fodi, The Politechnic of North London
july 1982p124.

(٦) انظر محمد بيلو المرجع السابق صفحة ٦٩.

(٧) فتحي حسن المصري: مقدمة بيان وجوب الهجرة على
العباد للشيخ عثمان بن فودي - دار جامعة الخرطوم
للنشر ١٩٧٧م ص ٢.

(٨) انظر : A.A. Guando : Abdullah b fodi as
Muslim jurist. unpublished Ph D thesis Uni-
versity of Durham 1976. P157.

(٩) قادة الخلافة الثلاثة عثمان، عبد الله، وبيلو شعراء
ويضاف اليهم نانا اسماء بنت الشيخ عثمان وعدد
كبير من رجال الجيل الثاني من الوزراء وقد انسحب
هذا التقليد على الاجيال اللاحقة ففدكان الدكتور
(فخرية) الوزير جنيد بصكتو، الذي عاش الى اواخر
القرن العشرين شاعراً فحلاً بالعربية وله ديوان
شعر، وابنه الدكتور ثامبو جنيد اطال الله عمره
شاعر رقيق بالعربية.

لو قيل في بحسن الظن ما قليلا

تمسوجة أنا من أمواج جبريلا

انظر كتاب شفاء الغليل فيما أشكل من كتاب شيخنا جبريل
الشيخ عثمان بن فودي تحقيق د. احمد محمد البدوي
مجلة المنتقى بباريس فبراير ١٩٨٦م وانظر ايضا اتفاق
الميسور ص ٥٦.

(١٩) الشيخ عبد الله يلمح في تزئين الورقات بذلك حيث
يذكر ان (تكن كوتو) ماء بالمنطقة وان عدد المسلمين
كان قليلا مع قلة المعتاد في مقابل الكفار بفرسانهم
وطبولهم وعنادهم. انظر تزئين الورقات مرجع سابق
ص ١٢.

(٢٠) انظر الشيخ عبد الله بن فودي ايداع النسخ مرجع
سابق ص ١.

(٢١) نفس المرجع والصفحة.

(٢٢) ارتبطت مدائح الشيخ عبد الله ومراثيه في تزئين
الورقات بالعلماء من عائلتهم المباشرة خاصة الذين
وردت أسمائهم في ايداع النسخ ضمن شيوخه أمثال
خاله محمد شيو الذي يقول فيه:

فيا المسلمين لي بك خالي

محمد ثمبو ، ذو علم وخالي

(٢٣) بالإضافة لكتابه ضياء السياسات الذي حققه
البروفيسور احمد محمد كافي طيب الله ثراه كتب
الشيخ عبدالله: ضياء الحكم، وضياء اولي الامر
والمهاجرين وضياءات اخرى كثيرة تزيد على الخمسة
عشر ضياء في شتى المجالات. انظر عمر احمد سعيد
الشيخ عبد الله، اسهاماته في خدمة الثقافة الاسلامية
رسالة دكتوراة غير منشورة جامعة افريقيا ٢٠٠١م.

(٢٤) اتفاق الميسور مرجع سابق.

(٢٥) تزئين الورقات مرجع سابق.

(٢٦) غداد (الغلفاط) بن ليم (روض الجنان في نكر بعض
منابك الشيخ عثمان) مخطوط.

(٢٧) عبد القادر بن مصطفى: قطائف الجنان، تحقيق
الدكتور احمد محمد كاني رسالة دكتوراة غير منشورة
جامعة احمد بيلو زاريا نايجيريا ١٩٨٧م.

(٢٨) الوزير جنيد بن محمد البحاري: ضبط اللقطات من

الاخبار المتفرقات مخطوط خاص بالباحث.

(٢٩) يشير Hiskett كثيراً إلى وجود خلاف كان قد نشب
بين علي جيد وعبد السلام وكلاهما من قادة الجهاد في
مراحل الأولى من غير الفلاني وبين بقية القادة من
الفلاني مقابلة خاصة مع هسكت سبقت الإشارة إليها
وانظر ايضا The sokoto caliphate مرجع سابق
ص ١١٦ ومحمد بيلو سرد الكلام في ما جرى بيننا
وبين عبد السلام مخطوط 23/1 : NHRS

(٣٠) الخلاف بين أهل كاتم برنو وقبائل الجهاد كان
معروفاً حيث تبادل الطرفان رسائل عديدة حول مسائل
فقهية مختلفة أوردها محمد بيلو في اتفاق الميسور.
انظر اتفاق الميسور مرجع سابق ص ١٦٠.

(٣١) انظر تزئين الورقات، وضياء السند، وكتاب النسب
كلها للشيخ عبد الله بن فودي.

(٣٢) الشيخ عثمان بن فودي أسانيد الفقير المتصرف
بالجهل والتقصير مخطوط غير مصنف جامعة افريقيا
العالية.

(٣٣) الحالة التي وصفها الإمام الغزالي في كتاب المنقذ من
الضلال بقوله: (واظهرت عزم الخروج الى مكة وانا ادبر
في نفسي سفر الشام) المنقذ تحقيق د. عبد الحليم
محمود دار الكتب ببنون ص ١٤٢.

(٣٤) الشيخ عبد الله بن فودي ضياء التأويل في معاني
التزييل قدم له ونشره القاضي ابو بكر قمي القاهرة
١٩٥٧م.

(٣٥) الشيخ عبد الله بن فودي ضياء الحكم مخطوط غير
مصنف المركز الاسلامي جامعة صكتو.

(٣٦) مرجع سابق.

(٣٧) انظر ضبط اللقطات للوزير جنيد وروض الجنان
لعداد بن ليم.

(٣٨) انظر عبد الله بن فودي ضياء السند مرجع سابق.

(٣٩) انظر عمر احمد سعيد الاسس الروحية لقيادة الشيخ
عثمان بن فودي في: الشيخ عثمان بن فودي. دار
جامعة افريقيا العالمية بالتعاون مع الايسسكو ١٩٩٧م
وانظر:

Murry Last A Note on the attitudes to the su-
per natural in the JHSN 1967.
per natural in the JHSN 1967.
sokoto jihad من

- (٤٠) نفس المرجع .
- (٤١) الشيخ عثمان في ذلك نجم الاخوان، وتنبية الاخوان، وارشاد الاخوان، ويتكرر ذلك كثيراً في قوله وهو يخاطب الجماعة يا اخواني .
- (٤٢) انظر فتحه حسن المصري المقدمة العربية لبيان وجوب الهجرة الشيخ عثمان بن فودي مرجع سابق .
- (٤٣) كل الحركات التي سبقت الإشارة إليها قد اعتمدت على مؤسسة الهجرة لأنها اصل في تاريخ الدعوة .
- (٤٤) المرجع السابق ص ١٢ .
- (٤٥) العنوان الكامل للكتاب هو: بيان وجوب الهجرة على العباد، وبيان وجوب نصب الامام، واقامة الجهاد . وقد ألفه الشيخ عثمان وحركة الجهاد في سنيها الاولى حيث فرغ من كتابته عام ١٨٠٦ . وكانت بداية الهجرة في فبراير ١٨٠٤ نفس للمرجع ص ٣ .
- (٤٦) انظر محمد بيلو، اتفاق الميسور، مرجع سابق .
- (٤٧) يستشهد مؤرخو خلافة صكتو كثيراً بأجوبة المغيلي على أسئلة اسكيا محمد التي تعرف عندهم بـ (أجوبة محرره على أسئلة مقررة) .
- (٤٨) من ذلك ما كتبه الامام السيوطي لامراء بلاد السودان مثل أمراء كانو وكاسينا، انظر آدم عبد الله اللوري الإسلام في نايجيريا ط ٢، ١٩٧١م ص ٤٤ .
- (٤٩) بيان وجوب الهجرة ، المرجع السابق ص ١٤٤ .
- (٥٠) اتفاق الميسور ، مرجع سابق .
- (٥١) انظر الشيخ عبد الله بن فودي ضياء السياسات تحقيق الدكتور احمد محمد كاني .
- (٥٢) انظر محمد بيلو : سرد الكلام ، مرجع سابق .
- (٥٣) لا يزال المجتمع في بعض هذه المناطق يحتفظ بالعديد من مظاهر الرق حيث توجد ممارسة ام الوالد فيه خارج نطاق الزوجات الاربع .
- (٥٤) وتشمل منطقة ما وراء نهر النيجر وردت في احدى الحملات التي قادها الشيخ عبد الله تحت اسم (بني كرياس) حيث كان الشيخ عبد الله مصاباً بسهم في رجله وكانت قوته تعبر البحر (نهر النيجر) الى الضفة الغربية وهو بالضفة الشرقية) انظر تزيين الـورقات .
- (٥٥) وفدت جماعات من هذه القبائل في القرن الخامس عشر الميلادي الى مناطق (كانو) و(كاسينا) أي قبل
- قيام الجهاد ببضعة قرون انظر حوليات مدينة كانو Kano Coronicle القرن الخامس عشر .
- (٥٦) لا يزال أمراء المناطق المسلمة في شمال وجنوب نايجيريا يتحدرون من أصول فلاتية .
- (٥٧) انظر عمر احمد سعيد تزيين الـورقات بين التاريخ والادب دراسات افريقية العدد الاول ١٩٨٤م .
- (٥٨) انظر د . عمر احمد سعيد عبد الله بن فودي شاعر الجهاد الاول في غرب افريقيا، ورقة مرشحة للنشر بدورية الدراسات الدعوية مركز الدعوة جامعة افريقيا العالمية .
- (٥٩) اتفاق الميسور ، مرجع سابق .
- (٦٠) بروفييسور عبد الله الطيب: محمد بيلو الشاعر في كتاب عثمان دان فودي ١٩٧٦م، مرجع سابق .
- (٦١) انظر غداد بن ليم روض الجنان، مرجع سابق .
- (٦٢) انظر عبد القادر بن مصطفى: اخبار هذه البلاد الحوسية والسودانية ، تحقيق د . حمد محمد كاني رسالة دكتوراة غير منشورة ، مرجع سابق .
- (٦٣) عبد القادر بن مصطفى قطائف الجنان مرجع سابق .
- (٦٤) احمد محمد كاني - عبد القادر بن مصطفى ، مرجع سابق .
- (٦٥) من مراجعه التمكني، وابن خلدون وابن الوردي .
- (٦٦) يهتم الشيخ محمد بيلو في اتفاق الميسور بالتعليق على الاخبار التي تظهر قدراً من المبالغة .
- (٦٧) انظر هامش رقم (٥١) أعلاه .
- (٦٨) (بابكر قدر ماري (شعراء الرثاء في خلافة صكتو) رسالة ماجستير غير منشورة جامعة زاريا نايجيريا ١٩٨٢م ص ١٨٦ .
- (٦٩) مرجع سابق .
- (٧٠) هذه الابيات مما يحفظه هذا الباحث من القصيدة الرائعة التي اطلع عليها من الديوان المخطوط في مكتبة الوزير بصكتو نايجيريا عام ١٩٨٢م .
- (٧١) نال الدكتور ثامبو دكتوراة اللغة العربية من جامعة الخرطوم وكان حتى أواخر الثمانينيات رئيساً لشعبة اللغة العربية بجامعة صكتو (جامعة عثمان دان فودي حالياً) .

تمت الطباعة في الرباط في شهر ربيع الثاني سنة ١٤٢٦ هـ

تمت الطباعة في الرباط في شهر ربيع الثاني سنة ١٤٢٦ هـ



تمت الطباعة في الرباط في شهر ربيع الثاني سنة ١٤٢٦ هـ

الدبلوماسية في التاريخ المغربي

في هذا الكتاب الذي هو من تأليف د. عبد الهادي التازي، نرى كيف كانت الدبلوماسية المغربية تتطور عبر التاريخ، من العصور القديمة إلى العصور الحديثة. الكتاب يغطي فترات طويلة من التاريخ المغربي، من العصور القديمة إلى العصور الحديثة، ويشرح كيف كانت الدبلوماسية المغربية تتطور عبر التاريخ، من العصور القديمة إلى العصور الحديثة. الكتاب يغطي فترات طويلة من التاريخ المغربي، من العصور القديمة إلى العصور الحديثة، ويشرح كيف كانت الدبلوماسية المغربية تتطور عبر التاريخ، من العصور القديمة إلى العصور الحديثة.

الطبعة الأولى: ١٩٩٥
٢١ تشرين الثاني ١٩٩٥
مطبعة كل فاس
٢٧٣ مطبعات
١٩٩٥ - ١٩٩٥
١٩٩٥ - ١٩٩٥

الحديث عن الدبلوماسية في التاريخ المغربي هو في حقيقة الأمر حديث عن التاريخ الدولي لبلاد الإسلام كلها لأن المغرب يعني الجناح الآخر للعالم الإسلامي من الخليج الى المحيط. يمثل هذا الجناح الغربي دعماً قوياً بما يكونه من تاريخ بارز في سبيل تركيز الإسلام والعروبة ليس في القارة الإفريقية وحدها ولكن في القارة الأوروبية بما تشمله من بلاد الأندلس التي نعرف جيداً عن دورها في نشر الحضارة الإنسانية في الديار الأوروبية.

أقول هذا وأكرره لأن بعض مؤرخينا - وتحت تأثير أن الشرق مهد الإسلام وملاذه - ربما يفكرون في الحديث عن هذا المغرب على أنه بلاد ثانوية بالنسبة للأحداث. مع أنه أي المغرب ظل الضمانة الكبرى للوجود العربي في الجهات الغربية بل وحتى في الجهات الشرقية، في بعض الظروف عندما تعرض البلد الحرام لهجوم القرامطة، على ما نقرأ في مصادر تاريخ المشرق والمغرب، وابن عباس في المشرق شاهد على ما نقول، وقبله ابن بطوطة شاهد لنا في المغرب.



إهداء

- عضو أكاديمية المملكة المغربية.
- أسهم بالتدريس في عدد من الجامعات داخل المغرب وخارجها.
- عمل سفيراً للمملكة المغربية في عدد من الدول.
- رئيس نادي الدبلوماسيين المغربية.
- رئيس نادي ابن بطوطة للتنمية وحوار الثقافات.
- عضو في مجموعة من مجامع اللغة العربية والمجامع العلمية - القاهرة - دمشق - بغداد - الأرجنتين.
- عضو المجلس الاستشاري الدولي لمؤسسة الفرقان للتراث الإسلامي - لندن.
- له أكثر من خمسين مؤلفاً .

كانت تمثل الإسلام في الجناح الشرقي . ويكفي أن نعرف أن المملكة المغربية ظلت الجهة الوحيدة التي لم تستطع الامبراطورية العثمانية كسر شوكتها بعد أكثر من ثلاثة قرون من تجدد المحاولات .

أريد أن أقول إن المغرب كان من حيث تاريخه الدبلوماسي، في نفس الحجم الذي كان لاستانبول، ولذلك فإن الرصيد المغربي كما قلنا كان ضخماً وكان جديراً أن تدرسه كما يجب الدرس لصالح اغناء تاريخنا وبحيثنا عن ذاتنا .

وحتى أقرب القارئ أكثر للرصيد المغربي في التاريخ الدبلوماسي رأيت أن استعرض أمام قرائنا الأعضاء بعض المظان التي تساعدا على الوقوف على حجم ذلك التاريخ .

ونذكر في صدرها كُتُب النوازل التي تزخر بأراء العلماء ورجال الفتوى حول قضية معينة من القضايا المتصلة بالتعامل الدولي، يعرضها ملك المغرب على جماعة العلماء الذين كانوا - في الواقع - يشككون نواب الأمة أو ما يسمى اليوم (البرلمان) . آراء أولئك العلماء كانت مرجعاً صادقاً للحديث عن الصلات الدبلوماسية والسياسية .

ما رأى العلماء مثلاً في طريقة استقبال الآخرين الذين يريدون علينا من جهات أخرى؟ ما رأى العلماء

ومن أجل كل هذا أردت الفكرة التي أتمسك بها دائماً من أن المغرب ظل حاضراً على الساحة الدولية، أي إنه ظل على صلة باستمرار، مع الديار المشرقية، وظل بحكم موقعه الجغرافي على علاقة بالعالم الغربي، أعنى ممالك أوروبا، من هنا كان رصيده في الوثائق الدبلوماسية رصيداً ثرياً غنياً .

يؤكد لنا ذلك بالنسبة للمشرق ما نقرأ مثلاً في صبح الأعشى للقلقشندي كما يؤكد لنا ذلك بالنسبة لممالك أوروبا ما نقف عليه في مختلف مكتبات العالم من وثائق ومعاهدات وخطابات تتصل بعلاقات هذا المغرب بأوروبا والجهات الأخرى في العالم .

ومن هنا يتبين أن رصيد المملكة المغربية فيما يتصل بالوثيقة الدبلوماسية رصيد جد قوي وأنه جدير بالاطلاع عليه ودراسته من لدن طلبتنا سواء أكانوا في المشرق أو المغرب، لاستخلاص العبرة منه باعتبار أنه تاريخ لا يعني فقط بلاد المغرب كما قد يتوهم بل إنه كذلك تاريخ يهم سائر المسلمين وسائر العرب أينما كانوا لأنه يحتوي على وثائق تعبر عن وجود حركة مستمرة دائبة النشاط .

تعبير عن تطور المغرب وسعيه دائماً لمواكبة الأمم التي تجاوره عمودياً وأفقياً بل وله فاعله معها تائراً وتأثيراً .

وكما دعوت بالأمس فإنني أدعو اليوم - عبر مجلة «المنهل» الفراء - من أجل العودة إلى دراسة تاريخ العلاقات الدبلوماسية بين العالم الإسلامي وبين الديار الأوروبية والآسيوية ولم لا الأمريكية ولو أنها حديثة النشأة .

- لا أرى أمامي ما يمكن أن يحول دون تحقيق هذا الأمل لا سيما ونحن نتوفر على رصيد دبلوماسي هائل لا يضاهيه إلا ما يوجد في وثائق استنبول التي كانت صلاتها ممتدة عبر العالم ولا سيما في أيام ازدهار الامبراطورية العثمانية بما كان يتبعها من إيلات وإمارات في المشرق ومعظم بلاد المغرب .

ولقد كانت الدولة المغربية هي التي تمثل الاسلام في الجناح الغربي في مقابلة الدولة العثمانية التي

ساعدتنا على سد الفراغات التي نشعر بها ونحن نقرا المصادر التقليدية.

ولابد أن لا ننسى الشعر في تدوين علاقتنا بالأمم الأخرى، وهل ننسى المتنبي وأبا تمام والصفدي وهم يرسمون خطوط سير الحكام آنذاك، لحماية ثغر أو ضرب خصم من الخصوم.

ونحن في المغرب هل ننسى ما قاله الشعراء في وقعة الزلاقة عام ٤٧٩ - ١٠٨٦م التي أمدت في عمر الإسلام بالأندلس عدة قرون.. وهكذا نقول في وقعة وادي المخازن عام ٩٨٦ - ١٥٧٨م.

وهل ننسى «الأمثال الشعبية» التي تعبر بدورها عن «الذاكرة» المغربية التي ينعم بها المواطن وهو يذكر أحداثاً واجهته مع البرتغال وإسبانيا وفرنسا.. ٩٠.

ثم «المنقوشات» سواء على (البرنز) أو على الخشب أو على الحجر من التي تسجل حدثاً دولياً شهدته الساحة، فقام أجدادنا بنقش تاريخه على طوق ثريا من الثريات، أو على إفريز من الأفاريز التي تزين منبراً من المنابر التي يقف الخطباء في أعلاها.

وهل ننسى «الشعارات» التي نقشها على عملاتنا وسبكتنا، وما تدل عليه تلك الشعارات من أحداث وما ترمي إليه من تنبيه القوم إلى ضرورة الحفاظ على هويتهم المتمثلة في اللغة والعقيدة.. العملة وحدها مصدر «من مصادر التاريخ الدولي، والأمة التي لا تمتلك عملة أمة فانية».

والرحلات وما أدراك ما الرحلات تعتبر مذكرات حية تسجل صلات الأمم بعضها ببعض سلباً وحرباً تأثراً وتأثيراً! الرحلات التي ترسم خطوط السير وتعين الحدود بين أمة وأخرى.. وتنقل إلينا صورة للأخرين كما تنقل للأخرين صورة عنا.

ذكرت كل هذا فقط للتنبيه على أهمية الاطلاع على

في طلب بعض الدول الأوروبية تزويدها ببعض المواد التي قد تساعدنا على محاربة أعدائنا؟ ما رأى العلماء في قوم يساعدون خصوم الإسلام على غزو ديارنا؟ وهكذا فإن «كتب النوازل» مصادر رائعة لأنها أولاً معاصرة ولأنها تساعدنا على معرفة مدى اجتهاد الفقهاء في التعرف على الأحداث المتجددة.

وقد كان من المصادر التي نمر عليها مر الكرام وقد لا نلتفت إليها: «كتب الفهارس» التي تحتوي على ترجمة بعض رجالاتنا، وكيف تصبح مثل هذه التأليف مصدراً للتاريخ الدولي؟ السبب بسيط لأن «كتب الفهارس» تحتوي أحياناً على ترجمة بعض الشخصيات التي حضرت حدثاً دولياً هاماً، فمن حقنا أن نعرف التفاصيل عن تلك الشخصية التي حضرت الحدث لا سيما إذا كانت تلك الشخصية تكون عنصراً في قلب حكم أو تغيير نظام.

ومن أغرب المصادر في التاريخ الدبلوماسي للمغرب «خبرج الوقف» التي تسمى في المغرب بالحوالات الحبسية لأنها تتحول كل سنة من سجل إلى سجل بقصد مراقبة سيرها وتحيينها.

هذه «الحجج» تراقب أموال الأوقاف المصروفة أساساً على المساجد والمشاريع الخيرية والإحسانية.. لكن صرف تلك الأموال قد يتغير إلى أشخاص آخرين أو مصالح أخرى لها صلة بتعاملنا مع دولة أخرى في ظروف عجز فيها بيت المال عن إسعافنا، واضطرونا إلى الأخذ من أموال الأوقاف.

لقد قصدت بضرب هذه الأمثلة الغربية كمصادر لمعرفة التاريخ الدولي للمغرب لأن هذا التاريخ لا يوجد فقط في المؤلفات التقليدية المعروفة التي قد تتناول هذا الموضوع أو ذاك ولكنه يوجد في مثل هذه المظان التي

*** الوثائق المغربية دونت كل مدخلات الحياة أنشد ووقائعها.

مؤرخ المدينة وواصل آثارها عمر بن شبة النميري ١٧٣ - ٢٦٢ هـ

(عمر بن شبة النميري) :

تحدثت المراجع القديمة عن ابن شبة حديثاً متشابهاً، وكأنه نقولُ تنوالياً من كتاب إلى كتاب فما في معجم الأدباء ووفيات الأعيان وتاريخ بغداد وتذكرة الحفاظ، وبغية الوعاة، لا يخرج عن سرد ميلاده سنة ١٧٣هـ بالبصرة ووفاته بسامراء سنة ٢٦٢هـ، وأنه كان راوية للأخبار وعالماً بالأثار، أديباً فقيهاً صدوقاً، وقد ترك من الكتب - والنقل عن ياقوت [١] - كتاب البصرة وكتاب أمراء المدينة، وكتاب أمراء مكة، وكتاب السلطان، وكتاب مقتل عثمان رضى الله عنه، وكتاب الكتاب، وكتاب الشعر والشعراء، وكتاب التاريخ، وكتاب النسب، وكتاب أخبار بني نمير، وكتاب أشعار الشراة، وكتاب ما يستعجب الناس فيه من القرآن، وكتاب الاستعانة بالشعر، وما جاء في اللغات، وكتاب النحو ومن كان يلحن من النحويين، وكتاب طبقات الشعراء وغيرها.

المطموسة، وإيضاح الكلمات المتراكمة، وضم ما تناثر من الكتاب فيما جاء بعده من كتب التراث، وهو جهد جاهد يعرفه المتقربون عن زخائر السلف، والكتاب في طبعه وإخراجه، وتبويبه مثل جيد للنشر العلمى الصحيح. وبمراجعة قائمة الكتب التي ألفها ابن شبة وذكرها مؤرخوه نجد أنه كتب في الشعر والأدب، وفي تاريخ المدن وتاريخ الرجال وتاريخ الفتن والحروب، وكتب في النحو واللغة والقراءات، فهو إذن عالم اتسع ذهنه لثقافة عصره، وساعده امتداد عمره على أن يلقي بدلوه في آبار كثيرة لترجع بالنفع الدافق الرقراق.

وعلى كثرة ما كتب اليوم من زملاء ابن شبة وتلاميذه، فإننا لا نجد من المعاصرين من خصه بدراسة مستقلة؛ لأن ضياع كتبه - ما عدا كتاباً واحداً - يجعل دراسته مصدر رفق متعب في تتبع أقواله المتناثرة في كتب التراث، غير أنى وقفت على بحثين

كما ذكرت المراجع أنه سمع عن أفاضل الفقهاء والمحدثين والرواة والأدباء مثل عبد الوهاب الثقفى، وابن عطاء، ومحمد بن سلام الجمحى، وإبراهيم بن المنذر، ويحيى القطان كما روى عنه ابن ماجه صاحب السنن، والبقوى المحدث الكبير وثعلب الامام النحوى، والبلاذرى والطبرى وأبو نعيم، ومحمد بن مخلد وغيرهم، وقد امتحن في مأساة خلق القرآن، ورُمي بالكفر، ولزم داره خائفاً يترقب.

وكل ما ذكر من مؤلفاته، لم يبق منها غير كتابه (أخبار المدينة النبوية) وقد طُبع بعناية إنسان فاضل كريم نشره على حسابه، وجعله وقفاً لله تعالى، هو السيد المدنى حبيب محمود أحمد كافاه الله أحسن المكافأة، كما قام بتحقيقه العالم الفاضل الاستاذ فهم محمد شلتوت قبذل جهداً جباراً في استنطاق الحروف



إضاءة

- عميد كلية اللغة العربية بالمنصورة سابقاً.
- عضو مجمع البحوث الإسلامية بالأزهر.
- رئيس تحرير مجلة الأزهر.
- له أربعون كتاباً في الأدب والتاريخ والنقد والبلاغة.
- يكتب في المجلات الأدبية والعلمية منذ خمسين عاماً.
- مقالاته في مجلة المنهل منذ أواخر القرن الهجري الفائت وحتى اليوم تمثل رصيداً أدبياً وتقنياً وعلمياً ضخماً.
- له ثلاثة أبواب ثابتة في المنهل ينشرها بالتناوب منها (رحلة في الذاكرة - رحلة في المكتبة) وآخر ثالث.

يكون الزبير قد كتب مؤلفه بعده! فالجزم بأسبقية الزبير موضع نظر، وقد ولد الزبير سنة ١٧٢هـ [٤] ولد ابن شبه ١٧٣هـ فهما متقاربان.

(موضوعات الكتاب) :

إذا كنا نجد في القصص الأدبية المعاصرة احتفالاً كبيراً بوصف الأمكنة التي كانت مسرح الحدث القصصى، ومبالغة كبرى في وصف الدقائق للمستويات والمنعرجات والمرتفعات لهذه الأماكن وما بها من شجر وطير وماء! فإن ابن شبه حين كتب مؤلفه عن مدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم) قد احتفل احتفالاً بالغاً بذكر الأماكن الشهيرة وغير الشهيرة بمنزل الوحي الكريم، فهو في الجزء الأول من كتابه يعتبر عالم آثار بالمعنى المتعارف اليوم، وإن كان مؤرخاً بالمعنى العام في عُرف معاصريه، فقد أسهب في الحديث عن المسجد النبوي، وحق له، فأي مكان أولى بالحديث في المدينة من مسجد رسول الله؟ ثم تحدث عن مقام جبريل عليه السلام، وعن المساجد التي أعقبت المسجد النبوي صغيرة كانت أو كبيرة، حتى مساجد الأسر ذات الحيز المحدود كمساجد بنى ساعدة وبنى وائل وبنى دينار، وبنى سالم، وبنى حذرة، وبنى حرام، وبنى زريق، ومالا

موجزين جداً، لفاضلين من المعاصرين خصاً ابن شبه بالحديث هما الدكتور جواد على في مقال بمجلة الرسالة سنة ١٩٥٠م، والأستاذ فهم محمد شلتوت في المقدمة التي صدر بها الكتاب! وقد أنصفه الدكتور جواد على حين قال عنه [٢].

«والصفة الغالبة على صاحبنا رواية الأخبار، لذلك نجد اسمه في أكثر كتب الأخبار القديمة، هذا البلاذري يأخذ منه، ويدون أقواله في مواضع متعددة، من كتابه (أنساب الأشراف) ويقول: حدثني عمر بن شبه، وقد كان معاصراً له وزميلاً؛ وهذا الطبري يأخذ عنه وينقل من كتبه، وقد كان في جملة الذين أخذوا إجازتهم منه، وقد ذكر اسمه في نحو من مائتي موضع من كتابه (تاريخ السير والملوك)، وقد نقل من كتبه الأخرى غير أنه لم يشر كعادته إليها، حيث يهمل أسماء الكتب مكتفياً بالسند».

(كتاب المدينة) :

تتبع الأستاذ فهم محمد شلتوت، من أفرادوا المدينة المنورة بالتأليف قبل عمر بن شبه، فذكر في مقدمته [٣] أن أول من ألف في تاريخ المدينة، هو محمد بن الحسن بن زباله، إلا أن كتابه لم يُعثر عليه بعد، ولولا تلك النقول التي أوردها السمهودى المتوفى سنة ١١٩هـ في كتابه (وقاء الوفا: بأخبار دار المصطفى) لظللنا نجهل ذلك الكتاب إلى وقتنا هذا، ويلى كتاب ابن زباله كتاب (أمراء المدينة) للمدائني على بن محمد، وهو مفقود لم نعثر عليه بعد، ثم كتاب (أخبار المدينة) للزبير بن بكار، المتوفى سنة ٢٥٦هـ، ولم نعثر عليه، ثم كتاب (تاريخ المدينة) لابن شبه».

ولى تعقيب على ما ذكره الأستاذ شلتوت؛ حيث قرر دون دليل سبق الزبير بالتأليف عن المدينة قبل مؤلف ابن شبه، وهو حكم لا يخلو من النظر، لأن ابن بكار توفي سنة ٢٥٦هـ وتوفى ابن شبه بعده بست سنوات عن تسعين عاماً! فمن الجائز أن يكون قد ألف كتابه في سن الأربعين أو الخمسين، وأن

الغزوات والسرايا والوفود مع إسهاب في وصف صفات رسول الله وما قاله عنه صحابته، وما مدح به من الشعر، وما روى عن فضل بني هاشم وغيرهم من قريش، أما القسم الثاني فخاص بأخبار عمر بن الخطاب رضي الله عنه، وهو مرجع أساسي لمن يكتب عن الفاروق إذ سبق ما كتبه الطبري ومن تلاه، حيث أفاض في نسب عمر ونشأته في الجاهلية والإسلام، وهجرته إلى المدينة، وعهد أبي بكر له بالخلافة، وأقوال الناس عنه، مبدعاً في كلامه عن هيبه وعمر وخشية الناس منه، وعن عقافه وزهده، وغلظ مطعمه، وأراه التشريعية وكراماته ومكاشفاته، وموقفه الحاسم في عام الرمادة، وتفقدته أمور رعيته، تحدث عن ذلك كله بما لا مزيد عنه، وجاء القسم الثالث خاصاً بعهد عثمان بن عفان رضي الله عنه فلم يغادر ابن شبة شيئاً من أمره بدماً وخاتمة، وقد وقع في خاطري أن الجزء المعنون بمقتل عثمان في فهرس مؤلفاته التي ذكرها ابن النديم وسواه هو ما كتبه عن الخليفة المظلم في أخبار المدينة، إذ ليس بعد حديثه بالأخبار عنه حديث يقال، فقد تكلم عن مولد عثمان وكنيته في الجاهلية والإسلام، واسلامه ومواقفه في عهد الرسول بمكة والمدينة، وما سن من المسائل التشريعية قياساً واجتهاداً وما دار في الفتنة العمياء التي انتهت باستشهاده، ثم أفاض في الحديث عن كتابة القرآن وجمعه وتواضع عثمان وموقفه من كبار الصحابة، ورأيه في الكف عن القتال، وفتنة الوافدين من مصر والكوفة، مما أصبح معلوماً لدارسي التاريخ اليوم.

أما الإمام علي بن أبي طالب كرم الله وجهه فلم يخصه بالحديث في كتاب المدينة المنورة لأنه انتقل بالحكم إلى الكوفة، ولابن شبة كتاب ضائع عن الكوفة فلا بد أن يكون سجلاً لتاريخ الإمام، وقد لاحظ محقق الكتاب أن ابن شبة لم يتحدث عن عهد أبي بكر بالمدينة، وقال [هـ] إن ذلك يرجع إلى افتراضين، أحدهما أن المؤلف ضمن كتابه تاريخ أبي بكر رضي الله عنه، ولكنه فقد من الكتاب في محنته حين ابتلي

أستطيع إحصاءه هنا لضيق المقام، ثم أفاض في الكلام عن قبور أهل البيت والصحابة من الأنصار والمهاجرين، فتحدث عن البقيع حديث العالم المتخصص وامتد الحديث عن هذه القبور إلى مدى أربعين صفحة أو تزيد، دون ما تفرق في أبواب شتى، كما أسهب في الحديث عن العقيق، ويثر رومة، والنقيع، وأبار بضاعة والسقيا والأعواف وأنس والبرود، وذرع وجاسوم والغرس والأغرس والبسيرة، والحفير، وإضم، وبواط وبرمه، ومدري ومهزوز، ومنذنب، أما المنازل المدنية فما أكثر ما أفاض في حديثها، إذ تكلم بإسهاب ممتد عن دور بني أسد، وبني زهرة، وعبد بن قصي، وبني تميم، وبني مخزوم، وبني عدى بن كعب وبني جمح، وبني سهم، وبني عامر بن لؤي، وبني محارب بن فهر، وبني غفار، وبني أسلم، وبني كعب بن عمرو، وغيرهم، فإذا أردت أن تسرد أسماء ساكني هذه الدور فقد كلفت نفسك شططا، هذا غير ما ذكره عن أسواق المدينة في الجاهلية والإسلام، وأحجار الزينة والآجام والجبال، لقد كان المؤرخ القديم أثريا بفهمه الجامع للمسرح التاريخي مكاناً وزماناً وأشخاصاً، وللأماكن حباً يصل إلى الشغاف، ولم يكن مجنون ليلي حين قال:

أمر على الديار ديار ليلي

أقبل ذا الجدار وذا الجدارا

وما حب الديار شغلن قلبي

ولكن حب من سكن الديارا

كما لم يكذب الأعرابي الذي جعل يقبض حفنة التراب من دار سليمي ويلصقها بجلده فوق أحشائه ثم يعلن ذلك في فرحة حين يقول:

والصق أحشائي ببسرد ترابه

وإن كان مخلوطاً بسم الأسود

(تقسيم الكتاب) :

فإذا تركنا الأماكن إلى الشخصيات، فإننا نجد كتاب (أخبار المدينة المنورة) مقسماً إلى ثلاثة أقسام، قسم يتحدث عن المدينة في عهد رسول الله فيلم بشئون

ويعرف موضعه قوة وضعفاً، ولكنه يترك الترجيح للقارئ؛ ولو شئت أن أضرب أمثلة لما جاء من هذا التضارب في روايات الكتاب المختلفة لأضحت في حديث طويل، وذلك لا ينقص شيئاً من نفاسة هذا الأثر العلمي الكبير.

لقد كتب محمد بن الحسن بن زباله، أقدم مؤلف عن المدينة، وجاء السهمودي المتوفى سنة ٩١١هـ فنقل عنه الكثير في كتابه (وفاء الوفا بنخبار دار المصطفى) وقام المستشرق الغربي الأستاذ (فستفيلد) بنقل كل ما نقله السهمودي عن ابن زباله في سفر خاص، وقد رأيت أن السهمودي نقل عن ابن شبه كثيراً، ولولا أن كتابه قد طبع لاحتجنا إلى عمل مماثل، والسهمودي في نقله الكثير عن سابقه مشكور، لأنه يشارك في حفظ تراث هذه الضياع، ولم يبق منه غير القليل، ومجال المقارنة بين مؤرخي المدينة منذ عهد ابن زباله إلى الآن متسع لمن يرصد هذا التدوين رصد الناقد الدقيق، فقد يكشف عن أغاليل كثيرة تحتاج إلى تصويب، وأي عمل بشري يخلو من الخطأ منذ عُرف التأليف؟

لقد كان ابن شبه متعدد الاتجاهات العلمية فهل تسمح الأيام بنشر مؤلفاته - أو بعضها - التي تحدثت عن الشعر والأدب والفقه والحديث والقراءات؟ كما سمحت بنشر كتابه عن مدينة رسول الله؟ هذا سؤال قد يجيب عنه الزمن القريب أو البعيد!

الهوامش:

- (١) معجم الألباء ج ١٦ ص ٦١.
- (٢) مجلة الرسالة - العدد الممتاز ٨٦١، ١/٣/١٩٥٠م.
- (٣) تاريخ المدينة المنورة (أخبار المدينة النبوية) ج ١، ص ١٧٥ الطبعة الثانية.
- (٤) في وفيات الأعيان أن الزبير مات سنة ٢٥٦ عن أربع وثمانين سنة، فيكون ميلاده ١٧٢هـ والعهد على ابن خلكان.
- (٥) مقدمة الكتاب ص (ن).

بالقول في مسألة خلق القرآن على غير ما يريد المعتزلة، فحبس ومزقت كتبه، والثاني أنه أهمل تاريخ أبي بكر لأن عصره كان قصيراً قضاءه مشتغلاً بحروب الردة مما صرفه عن الاهتمام بالحياة العمرانية بالمدينة، وغير العمرانية من أمور الدنيا.

قال المحقق: والله أعلم أي الفرضين هو الصواب، والذي أراه أن الفرض الأول هو الصائب، ولا مكان للفرض الثاني بحال، لأن قصر المدة التي قضاهما الصديق في الخلافة لا يمنع تسجيل أخطر فترة في تاريخ الإسلام حين انتقضت العرب خارج المدينة ومكة على الإسلام، وسارعت بالارتداد، وتخوف المسلمون العاقبة، وأذعن الفاروق للهوء لولا حمية الصديق وأمره بتسيير الجيوش في شتى أنحاء الجزيرة لاستئصال الفتنة، هذه المدة قصيرة في حساب الأيام والشهور، ولكنها طويلة مديدة في تقدير ما انتهت إليه من النتائج الحاسمة، ولن يغفل ابن شبه أمرها في كتاب يتحدث عن تاريخ المدينة، وهي مركز القيادة الأوحى، الذي جهز الكتاب ورسم الخطة، واختار القادة، وحدد المسير، والكتاب بواقعه المطبوع يدل على نقص كبير، فقد فقدت مقدمته التي بدأ بها ابن شبه، كما فقدت صفحات من نهايته، حيث جاءت الأوراق الأخيرة مبتورة، تدل على ما وراعا من صفحات لم يُقدر لها الخلود، وقد اعترف المحقق بوجود خرم متعدد في أجزاء الكتاب، والخرم المتسع الممتد هو ما ذكره ابن شبه عن عهد الصديق.

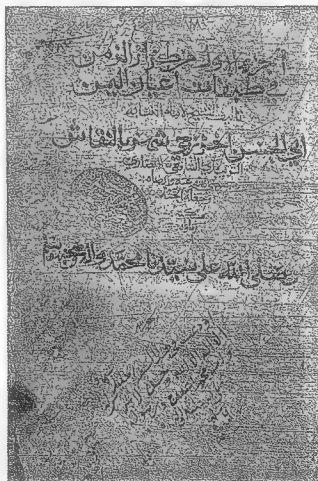
وقد يقال إن في كتاب أخبار المدينة لابن شبه، أقوالاً متضاربة، جمعها المؤلف دون أن يهتم ببيانها ما تحمله من التضارب، وهذا حق، ولكن طريقة التأليف التاريخي في عهد ابن شبه كانت تهتم بالسند، وتجمع كل ما يقال، تاركة للقارئ أن يثبت ما يشاء وينفي ما يشاء وفق ما يميل إليه عقله من الترجيح، هكذا كان الواقدي والبلانزي والطبري وابن بكار والمسعودي، وكل من هؤلاء الكبار ومن نحا نحوهم من الكاتنين كان يلمس التضارب،

المؤرخ الخزرجي الزبيدي وكتابه طراز أعلام الزمن ٧٣٢ هـ - ٨١٢ هـ

تعد كتب السير والتراجم أوعية معلوماتية تحوي في ثناياها السير والأحداث السياسية ومظاهر الحياة الاجتماعية، والنشاط العمراني، وفن التراجم في أصله نتاج فكري إسلامي خالص النشأة فما من أمة عنيت برجالها وتدوين سيرهم كما صنع المسلمون، ولذا كان لهم اليد الطولي في هذا الفن، وإلى ذلك يشير المؤرخ غب بقوله: «إن نبوغ العرب الحقيقي في علم التاريخ يتجلى في كتابة السير أكثر من تجليه في رواية الأخبار».

ولما كان النصيب الأوفر من العناية بتدوين السير قد تمحور حول حواضر الإسلام الرئيسة كالجزاز ودمشق وبغداد والقاهرة حيث مراكز الخلافة والدولة؛ نهض مؤرخو الأقاليم القصية بتدوين سير رجالاتهم، وتواريخهم المحلية، ومن ذلك إقليم اليمن، الذي شهد خلال عصر الدولة الرسولية السنية (٦٢٦ - ٨٥٨ هـ/ ١٢٣٠ - ١٤٥٤ م) ازدهار عهده الحضارية، خاصة ما يتصل بالحياة الفكرية، فانتشرت المدارس في المدن والقرى، وغدت مدن اليمن مقصد الرحلة لكبار علماء العصر مثل الحافظ ابن حجر والفيروز أبادي، والمؤرخ الفاسي، كما نشطت حركة التأليف في فروع المعرفة النظرية والتطبيقية [١].

وقد حظيت الكتابة التاريخية بعناية السلاطين والعلماء فبرز عدد من المؤرخين الذين شكلوا معالم المدرسة التاريخية اليمنية في العهد الرسولي وكان من أبرزهم، وأكثرهم آثاراً تأليفية: المؤرخ الخزرجي، ولعل من الطريف الإشارة إلى أن أول مقال علمي يُعرِّف



ورقة العنوان لنسخة دار الكتب المصرية (م)



إضاءة

- دكتوراة التاريخ الوسيط من جامعة الملك عبد العزيز - جدة ١٤٢٦هـ.
- عضو جمعية التاريخ والآثار بدول مجلس التعاون .
- له عدد من الدراسات والمقالات والبحوث.

من أبرز شيوخه في الحديث واللغة إمام اللغة في عصره الفيروز آبادي.

صلته بسلاطين الرسوليين :

امتنن الخزرجي منذ نشأته مهنة النقش وزخرفة المباني، وهي الصنعة التي ورثها عن أبيه؛ ولذا عرف بابن النقاش، ولقد مكنت هذه الصنعة مؤرخنا إلى جانب اشتغاله بالعلم الاتصال برجال الدولة من خلال تولي عمارة وزخرفة عدد من المنشآت المعمارية في زبيد وتعن، ومن ذلك مسجد الأمير بهادر، ومدرسة السلطان الأفضل العباس بتعن، فتولي أمر عمارة مدرسة السلطان إلى جانب نبوغه العلمي فتح الباب لعلاقات ربطت بين الخزرجي وسلاطين الدولة الرسولية، وتوثقت هذه العلاقة في عهد السلطان الأشرف الثاني إسماعيل بن الأفضل (٧٧٨ - ٨٠٣هـ / ١٤٠٠ - ١٤٢٣م) حيث شكلت الاهتمامات الثقافية حجر الزاوية في هذه العلاقة، إذ اشتهر عن السلطان الأشرف إسماعيل شغفه بالتاريخ والأنساب، الأمر الذي جعله يذني الخزرجي منه ويقربه، ويسند إليه عددا من المهام منها: انتدابه للحج نيابة عن والدته، وتولي أمر التدريس في جامع الملاح، وجعله من خواص مجلسه، ويبدو أن هذه العلاقة وما لحقها من مكرمات لمؤرخنا الخزرجي من مسامحة في خراج أرضه ونخله، وعطاء، قد اتح

بالخزرجي ومؤلفاته التاريخية كان قد صدر في مجلة المنهل الفراء بقلم العلامة حمد الجاسر، وذلك سنة ١٣٦٥هـ. وفي هذا كبير دلالة على العمق المعرفي والسبر العلمي الرصين والأصالة والجدة لخط المنهل الفكري خلال مسيرتها العلمية الرائدة[*].

(١) - التعريف بالمؤرخ الخزرجي:

هو أبو الحسن علي بن الحسن بن أبي بكر بن الحسن بن علي بن وهاس الخزرجي، الزبيدي، اليمني، ويلقب بأبي الحسن، ويكنى بموفق الدين، ويابن وهاس، وابن النقاش[٢]. ولد بمدينة زبيد سنة (٧٢٢هـ / ١٣٣١م)، ونشأ بها، وأخذ على عدد من علمائها حتى برع في الفقه والقراءات والأدب والتاريخ، والغريب في الأمر أنه رغم شهرة الخزرجي وأثارة التأليف إلا أنه لم يترجم لنفسه في كتبه، كما لم ترد له ترجمة مبسوسة عند غيره من المؤرخين اليمنيين من معاصريه سوى ما أورد له البرهني صاحب طبقات صلحاء اليمن من ترجمة مختصرة، بينما عني بترجمته آخرون من خارج اليمن أمثال الحافظ ابن حجر في المجمع المؤسس، وإنباء الفهر، وكذا ما جاء عند السخاوي في الضوء، ومهما يكن من أمر فإن ترجمة الخزرجي ومفاصل نشأته الأولى، وطلبه العلم ونبوغه فيه وجلوسه للتدريس، وتلقي الطلاب عنه أمكن الوقوف عليه من خلال كتابه المشهور في التراجم - طراز أعلام الزمن - حيث درج الخزرجي على ذكر علاقته بالترجمين سواء السلاطين أو الشيوخ أو الطلاب والمقام لا يتسع لبسط كل ذلك إنما تجدر الإشارة إلى أن الحافظ ابن حجر عدّه من شيوخه إذ يقول: «لقيته بزبيد»، وقال في موضع آخر: وسمعت من فوائده[٣] وكان

للخزرجي عيش السعة: مما مكنه من التفرغ والانصراف للتأليف [٤].

مؤلفات الخزرجي:

خلف الخزرجي إرثاً تأليفياً تميز بالكثرة والتنوع مقارنة بسابقيه ومعاصريه من المؤرخين اليمنيين، ويمكن حصر مؤلفاته في الآتي:

١ - العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية: وهو كتاب في تاريخ الدولة الرسولية منذ قيامها حتى وفاة السلطان الأشرف الثاني اسماعيل سنة (٨٠٣هـ/ ١٤٢٣م)، جمع فيه المؤلف بين الترتيب الموضوعي والحولي والوفيات، إذ يعنون الباب باسم السلطان ثم



ورقة العنوان لنسخة طشقند، الجزء الثاني من كتاب العقد الفاخر الحسن، وتظهر عبارة أنه: ملخص مما كتبه الخزرجي

يسرد الأحداث في عهده مرتبة حوياً، ويختتم كل سنة بذكر تراجم وفياتها. وقد طبع هذا الكتاب في جزأين بتصحيح لنصوصه دون تحقيق علمي، كما ترجم إلى الإنجليزية، وهو الكتاب الوحيد المطبوع بين مؤلفات الخزرجي.

٢ - العسجد المسبوك والجوهر المحكوك في أخبار الخلفاء والملوك: وهو كتاب في التاريخ العام لمصر والشام، وألحق به تاريخ ملوك اليمن - صنعاء وعدن وزيد - وقد نشر الجزء الخاص بتاريخ اليمن مخطوطاً عن طريق وزارة الإعلام والثقافة بالجمهورية اليمنية؛ كما نشر جزء من القسم الأول المتعلق بتاريخ العباسيين بتحقيق شاكراً محمود عبد المنعم، ونسبه للسلطان الأشرف اسماعيل، وصدر عن دار البيان، ببغداد سنة (١٢٩٥هـ/ ١٩٧٥م).

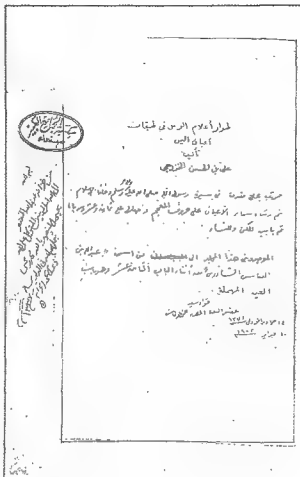
٣ - الكفاية والإعلام فيمن ولي اليمن في الإسلام، وهو كتاب يظهر من عنوانه أنه معني بتاريخ اليمن، ولقد وقفت على إحدى نسخه المخطوطة، فوجدته لا يعدو كونه الجزء المتعلق بتاريخ اليمن وملوك صنعاء وعدن وزيد من كتاب العسجد المسبوك الأنف الذكر، مع اختلاف في بعض الألفاظ، وقد حقق الأستاذ/ قاسم جواد خلف، هذا الكتاب تحت هذا المسمى في رسالة علمية بكلية التربية بجامعة بغداد، سنة (١٩٩٥م).

٤ - المحصول في انتساب بني رسول، وهو كتاب في الأنساب، وهو مفقود.

٥ - مرآة الزمن في تاريخ زبيد وعدن: وهو كتاب يعني بتاريخ مدينتي زبيد وعدن، وهو مفقود.

٦ - طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن، وهو كتاب في التراجم، مرتب وفق حروف الهجاء، وهو ما سنبسط الحديث عنه لاحقاً.

٧ - ديوان شعر - وهو مفقود، وإن كان الخزرجي قد ضمن كتبه عدداً من قصائده الشعرية في المديح والثناء والمناسبات.



ورقة العنوان لنسخة الجامع الكبير (الأصل)

بلده فجمع لها تاريخاً على السنين، وأخر على
الأسماء يعني طراز أعلام اليمن في طبقات أعيان
اليمن - هكذا - وسماه أيضاً : العقد الفاخر الحسن
في طبقات أكابر أهل اليمن [١٠] - وتناقل المحدثون
ممن عتوا بالبليوجرافيا هذين الاسمين على أنهما
لكتاب واحد [١١]، ومما زاد هذا الأمر رسوخاً ورود
مخطوطات للكتاب تحمل في طرتها عنوان الطراز
تارة، وأخرى عنوان العقد .

وهنا يبرز استشكل هل للكتاب عنوانان: أم أن هناك كتابين، وكل كتاب عنوانه المستقل به. ولحل هذا الإشكال كان لابد من الوقوف على نسخ الكتاب الخطية المتيسرة للجزء الأول، وقد أمكن ذلك بتوفيق الله... وهي كالآتي:

٨ - القصيدة الدامغة وتعرف بـ (الدوحة اليعربية والنفحة الخزرجية).

وفاة الخزرجي :

امتد العمر بالخزرجي حتى ناهز الثمانين عاماً،
وتوفي سنة (٨١٢هـ/١٤٠٩م)، ولقد نعته ابن حجر
يقوله: «الشيخ المؤرخ» [٥]، وفي موضع آخر ذكره
يقوله: «مؤرخ اليمن» [٦] ووصفه بعض الحديثين:
«مؤرخ الدولة الرسولية» [٧].

(٢) - كتاب طراز أعلام الزمن
في طبقات أعيان اليمن:

وهو من أهم مؤلفات الضرجي، موضوعه التراجم، رتبته وفق الترتيب الهجائي، تميز بناء التراجم فيه بالبسط والاستقصاء، ووفرة المادة التاريخية، ويقع في ثلاثة مجلدات، تتناول أعلام اليمن من سلاطين وأمرء وقادة وأعيان وفقهاء وأدباء من القرن الأول الهجري حتى أوائل القرن التاسع.

عنوان الكتاب :

اشتهر عند المؤرخين قدامى ومحدثين أن للخزرجي كتاب في التراجم وهو «مرايا أعلام الزمن»، وأنه يعرف باسم آخر هو «العقد الفاخر الحسن في طبقات أكابر اليمن»، واستفاضت شهرة الكتاب بهذين الاسمين عندهم.

فالحافظ ابن حجر وصف موضوع الكتاب ولم يسمه فقال: «وجمع أعيان بلده على الحروف» [٨]، وذكر البريهي الكتاب بقوله: «له ترتيب فقهاء اليمن اختصار الجندي، أجاد فيه وزاد جماعة من العصرين وغيرهم، ورتبه على الصروف، وجاء في ثلاثة مجلدات» [٩].

أما أول من صرح باسم الكتاب فهو السخاوي،
 إذ فسر ما أبيهما شيخه الحافظ فقال: «اعتنى بأخبار

ومن خلال استقراء ما جاء على طرة النسخ نجد أن الاستشكال مازال قائماً، فنسختان سمت الكتاب الطراز، والثالثة سمته المقد. الأمر الذي تطلب القيام بمقابلة نسخ المخطوط، وقد اتضح الآتي:

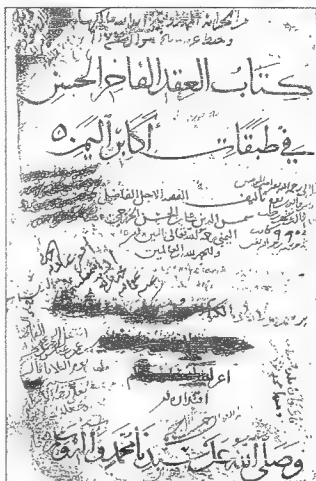
١ - أن الخزرجي نص في مقدمة الكتاب وفي جميع النسخ، عند حديثه عن منهجه وقواعد الكتاب بقوله: «وسميته: طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن» [١٢].

٢ - وجود تطابق إلى حد كبير في نص المتن بين نسختي دار الكتب والجامع، بينما تميزت نسخة المتحف المعنونة بالعقد الفاخر، بفروق وسقط عن سابقتها تصل إلى عشرة أسطر أحياناً.

٣ - جاءت التراجم في نسختي دار الكتب والجامع مبسطة موقورة، بينما جاءت ذات التراجم في نسخة المتحف مختصرة، وعادة ما يكون الاختصار في وسط متن الترجمة، بينما نجد التطابق في جميع النسخ عادة في مقدمة الترجمة وخاتمتها.

٤ - ورود عبارات في متن نسختي دار الكتب والجامع، وهي ساقطة أو محذوفة في نسخة المتحف، وقد جاءت هذه العبارات في مصادر نقلت عن الخزرجي وكتابه الطراز، ومن ذلك ما ذكره بامخرمة في كتابه قلادة النحر نقلاً عن الخزرجي في ترجمة الملك توران شاه. بينما لم ترد هذه العبارات والنقول في نسخة المتحف.

٥ - يجد المطالع لنسخة المتحف مقارنة بنسختي دار الكتب والجامع أن هناك اختصاراً في نص المتن، وقد يكون مغلاً في بعض الأحيان، ومن ذلك ما جاء في ترجمة الحسن بن علي بن يعيش فقد وردت الترجمة في نسختي الجامع ودار الكتب تامة إذ ترجم فيها المؤلف للحسن وابنه، بينما نجد أنه اقتصر في نسخة المتحف على ترجمة الحسن إلا أنه لم يغير عبارة الخاتمة التي تفيد أن الحديث كان عن شخصين فجاءت «ولم أتحدث لأحد منهم تاريخاً» وذلك رغم أنه ترجم لعلم بمفرده.



ورقة العنوان لنسخة المتحف البريطاني (ب)

- نسخة دار الكتب المصرية من الخزانة التيمورية تحت رقم ٧٨٢ - تاريخ، وهي من أول الكتاب إلى منتصف باب الحاء وجاء في طرتها عنوان الكتاب: الجزء الأول من طراز الزمن في طبقات أعيان اليمن. - نسخة مكتبة الجامع الكبير بصنعاء ذات الرقم (٤٩ - تراجم)، وهي من أول الكتاب إلى منتصف باب العين، وتشمل الجزأين الأول والثاني من الكتاب، وجاء عنوان الكتاب في طرة المخطوط بعنوان «طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن». - نسخة المتحف البريطاني، ذات الرقم (٦١٧ - تاريخ) وهي من أول الكتاب إلى نهاية باب الحاء، وجاء العنوان على طرتها «كتاب العقد الفاخر الحسن في طبقات أكابر اليمن».

وتجدر الإشارة إلى أن الكتاب في طور التحقيق والإخراج، فقد تم تحقيق قطعة منه في رسالة علمية بقسم التاريخ بجامعة الملك عبد العزيز بجدة، وانتهى فيه محققه إلى نهاية باب الحاء، وهناك رسالة علمية أخرى مسجلة بجامعة الملك خالد بأبها، لإتمام قطعة أخرى تبدأ من باب الحاء إلى نهاية باب الظاء، وفي جامعة صنعاء تم تسجيل بقية الكتاب. ولا شك أن خروج مثل هذا السفر التاريخي من عالم المخطوط إلى المطبوع سيسد فراغاً كبيراً تعانيه المكتبة التاريخية اليمنية في علم الرجال.

الهوامش:

(١) انظر: عبد الله الحبشي، حكام اليمن المؤلفون المجتهدون، ١١٠، ١١٥، ١٢٣، ١٤٩، ١٥٦.

(*) المنهل: المقال بعنوان: (الخزرجي المؤرخ) بقلم الاستاذ الباحثة حمد الجاسر. العدد الصادر في شهر جمادى الأولى ١٣٦٥هـ/ أبريل ١٩٤٦م ص ٢٠٨ - ٢١٢.

(٢) البرهني، صلحاء اليمن، ٢٩٠: ابن حجر، المجمع المؤسس، ١٨١/٣، الذيل على الدرر، ٢٠٣، السخاوي، الضوء ٢١٠/٥.

(٣) المجمع المؤسس، ١٨٢/١، الذيل على الدرر ٢٠٣.

(٤) عبد الله العبادي، الحياة العلمية في زبيد ٣٦٩.

(٥) المجمع المؤسس ١٨١/٣.

(٦) الذيل على الدرر ٢٠٣.

(٧) الحبشي: حياة الأئمة اليمنيين ١٢٧.

(٨) الذيل على الدرر ٢٠٣.

(٩) صلحاء اليمن ٢٩١.

(١٠) الضوء ٢١٠/٥.

(١١) أمين فؤاد سيد، مصادر تاريخ اليمن ١٦٤؛ الحبشي، مصادر الفكر ٤٦٦؛ كحالة معجم المؤلفين ٤١٨/٢؛ الزركلي، الأعلام ٢٧٤/٤.

(١٢) طراز أعلام الزمن، نسخة الجامع ٣/ب؛ نسخة دار الكتب ٨؛ نسخة المتحف ١/ب.

(١٣) نسخة مصورة عن مركز الملك فيصل بالرياض، تحت رقم ٢٢٧٢/ ميكروفيلم ٢٥/ب.

نخلص مما سبق عرضه من شواهد إلى الآتي:

أولاً: أن اسم الكتاب بتصريح المؤلف هو:

طراز أعلام الزمن في طبقات أعيان اليمن.

ثانياً: أن نسخة المتحف البريطاني ما هي إلا

نسخة مختصرة من الكتاب الأصلي.

ثالثاً: أن الكتاب المختصر ربما كان اسمه

«العقد الفاخر الحسن في طبقات أكابر اليمن»، وقد

يؤكد هذا الأمر ما جاء في طرة نسخة خطية للكتاب

محفوظة في طشقند وهي الجزء الثاني والثالث من

الكتاب، وهي مختصرة، جاء فيها ما نصه «الجزء

الثاني من العقد الفاخر الحسن في طبقات أكابر

اليمن» ملخص مما جمع الفقيه الأجل الفاضل موفق

الدين علي بن الحسن الخزرجي» [١٣].

رابعاً: أن نسخة طشقند تعتبر مكملة ومتممة

لنسخة المتحف للكتاب المختصر حيث تنتهي نسخة

المتحف عند باب الحاء بينما تبدأ نسخة طشقند من

باب الحاء إلى نهاية الكتاب.

وعليه فبهذه الشواهد والنصوص يكشف وللمرة

الأولى عن أن هناك مختصراً لأصل الكتاب، وأن

الكتاب المبسوط الموقر هو طراز أعلام الزمن، وأن

ملخصه هو العقد الفاخر الحسن، وأن ما اشتهر أن

للكتاب اسمان، كلام قد جانبه الصواب.

أهمية الكتاب وتهيجه:

يعد كتاب طراز أعلام الزمن من أمهات كتب

التراجم اليمنية في العصر الوسيط حيث ضم بين

دفتيه مادة غنية تشعق بالأوضاع السياسية

والاجتماعية والاقتصادية والثقافية في اليمن، وذلك

من خلال الاستقصاء الذي نهجه المؤلف للمترجم

لهم. ويتكون الكتاب من ثلاثين باباً، مرتباً وفق

الترتيب الهجائي، وخص البابان الأخيرين بالكثي،

وتراجم النساء اليمنيات.

٣

الذهبي

مؤرخا

٦٧٣هـ - ٧٤٨هـ

حث الله عز وجل عباده على أخذ العظة والعبرة مما حصل من الأحداث للأمام السابقة، وحث أتباع النبي (صلى الله عليه وسلم) خاصة وبقيّة الخلق عامة على السير في الأرض والتفكير في عاقبة السابقين فقال تعالى: ﴿لقد كان في قصصهم عبرة لأولى الألباب ما كان حديثا يفترى ولكن تصديق الذي بين يديه وتفصيل كل شيء وهدى ورحمة لقوم يؤمنون﴾ [١].

بأن تعرف وتسجل وتدوّن لتنتقل لغيرهم ولتقارن مع تجارب وأخبار الأمم الأخرى.

ولما ظهرت الدولة الإسلامية غيرت مسيرة الحياة الإنسانية من الناحية الدينية والسياسية والتاريخية فكانت هذه الدولة المسلمة وأخبارها مفاجأة لغيرها من الدول المجاورة من روم وفرنس وغيرهم، وحظيت أخبارها بالوصف والتحليل والتعليل ممن اهتم بتدوين مراحل تاريخها العظيمة من علمائها المسلمين [٤].

عند التأمّل في جهود العلماء المسلمين نجد في مقدمة هؤلاء المؤرخين الأفاضل شمس الدين محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي الذي تناول جوانب من حياته وجهوده في علم التاريخ وبعض مؤلفاته وذلك من خلال العناصر التالية:

١- الولادة والنسب والأسرة:

ولد مؤرخ الإسلام الحافظ شمس الدين أبو عبد

وقال تبارك وتعالى: {أولم يسيروا في الأرض فينظروا كيف كان عاقبة الذين من قبلهم} (٢)، وقد اهتم طائفة من العلماء المسلمين بالتاريخ فاعتنوا بأخبار من سبقهم من الأمم ودوّنوا أحداث عصرهم ولم تغفهم في الغالب شاذة ولا فاذة إلا وأشاروا إليها [٣].

وزادت عنايتهم بعلم التاريخ لارتباطه بدينهم الحنيف، فمن خلال اهتمامهم بتدوين التاريخ كانوا في حقيقة الأمر يسجلون مراحل انتشار الدين الإسلامي الحنيف ويسطرون مواقف الدعوة إلى الله والجهاد في سبيل الله والصبر والتضحية التي قدمها الرسول المصطفى (صلى الله عليه وسلم) بمؤازرة من الصحابة الأخيار من مهاجرين وأنصار.

وبعثة خاتم الأنبياء شعر المسلمون أن الإسلام غير مسيرة الإنسانية من الناحية الدينية، وهذا التحول يستحق التسجيل والتدوين لفهم نقائمه ومجريات أحداثه وأخباره، فكانت تجارب الأمة الإسلامية جديرة

شيوخ القراء في دمشق، وأصبح على معرفة جيدة بالقراءات وأصولها ومسائلها وهو لما يزل فتى لم يتعد العشرين من عمره وتميز الذهبي في علم القراءات وبرع فيها براءة جعلت شيخه شمس الدين محمد بن عبد العزيز الدماطي، يتنازل له عن حلقته للإقراء بالجامع الأموي في أواخر سنة ٦٩٢هـ [٨].

ب - علم الحديث :

أما علم الحديث فقد اهتم الذهبي بسماع الحديث واعتنى به عناية فائقة وانطلق في هذا العلم حتى طغى على كل تفكيره واستغرق كل حياته بعد ذلك فسمع ما لا يحصى كثرة من الكتب والأجزاء ولقي الشيوخ والشيوخ، وأصيب بالشره في سماع الحديث وقراءته ورافق ذلك طيلة حياته [٩].

٢ - مراحل طلب العلم ورحلاته العلمية :

كان الذهبي يتطلع إلى طلب العلم من العلماء خارج بلده دمشق وذلك لإدراكه للأهمية البالغة لتحصيل علو الإسناد وقدم السماع ولقاء الحفاظ والمذاكرة لهم والاستفادة منهم، وكان رحمه الله يتحين القرض لذلك إلا أن والده لم يشجعه على الرحلة بل كان يمنعه من السفر في بعض الأحيان وقد أشار إلى تلك الرغبة وموقف والده أثناء ترجمته لبعض علماء القراءات والحديث.

ولعل الذهبي كان وحيد أبيه أو كان هو البارز بين أبنائه بحيث كان يخاف عليه هذا الضوف كله، فضلاً عن صغر سنه في هذه المرحلة من حياته [١٠].

الله محمد بن أحمد بن عثمان بن قايماز بن عبد الله الذهبي في شهر ربيع الآخر سنة ٦٧٢هـ . . وكان من أسرة تركمانية الأصل سكنت مدينة ميفارقين من أشهر مدن ديار بكر [٥].

عرف محمد بأبن الذهبي نسبة إلى صنعة أبيه وعمله في الذهب المدقوق . . وقد عاش مرحلة الطفولة في أكتاف عائلة متدينة عرفت بطلب العلم والأخذ عن العلماء فحظي أبناءها بنصيب وافر من العلوم المختلفة، وتولى تأديب وتعليم هذا الغلام علاء الدين علي بن محمد الطليبي، وكان من أحسن الناس خطاً وأخبرهم بتعليم الصبيان، وبقي يتلقى التوجيه والتعليم لديه مدة أربعة أعوام تقريباً [٦]، ورافق هذا التوجيه متابعة متواصلة لمحمد بن الذهبي من جده عثمان الذي كان يحاول تعويد حفيده على النطق الصحيح وتقييم اللسان.

وبعد هذه المرحلة اتجه الذهبي إلى شيخه مسعود بن عبد الله الصالحى فأخذ عنه جميع القرآن وقرأ عليه قريباً من أربعين ختمة، ثم انتقل محمد بن الذهبي إلى مجالس الشيوخ فبدأ يسمع كلام بعضهم أثناء وصولهم إلى دمشق وأقامتهم بها وهذا فيه دلالة على حبه للعلم والعلماء منذ الصغر [٧].

وزاد حرص الذهبي واعتناؤه بطلب العلم فحينما بلغ الثانية عشرة من عمره توجهت عنايته إلى ناحيتين رئيسيتين هما :

أ - علم القراءات :

حيث اهتم الذهبي رحمه الله بقراءة القرآن الكريم والعناية بدراسة علم القراءات وأخذ عن

عبد الله المعروف بابن الظاهري [١٣]، ت ٦٩٦هـ
وأحمد بن إسحاق الأبرقوهي [١٤]، ت ٧٠١هـ،
والقاضي محمد بن علي المعروف بابن دقيق العيد [١٥]
ت ٧٠٢هـ، وعبد المؤمن بن خلف الدمياطي [١٦] ت
٧٠٥هـ وغيرهم.

وفي أثناء وجود الذهبي بالبلاد المصرية ارتحل إلى
الاسكندرية وسمع من الشيخ يوسف بن الحسن
القاسبي الاسكندراني ت ٧١١هـ، وقرأ على الشيخ
صدر الدين عبد الرحمن بن عبد الطليم المعروف
بسحنون ت ٦٩٥هـ [١٧].

وحرص الذهبي أثناء إقامته بالاسكندرية على
الأخذ من أسند أهلها في القراءات يحيى بن أحمد بن
الصواف الاسكندراني ت ٧٠٥هـ، وأخذ عن جملة من
علمائها المتميزين مثل علي بن أحمد الواسطي
الاسكندراني ت ٧٠٤هـ وكان شيخ دار الحديث
النبهية بالاسكندرية ولقد كانت هذه الرحلة قصيرة
زمنياً ولذلك كان الذهبي رحمه الله يجهد نفسه في
قراءة أكبر كمية ممكنة على شيوخ وعلماء تلك البلاد
وإلى ذلك يشير بقوله عن نفسه أنه قرأ جميع سيرة
ابن هشام على الأبرقوهي في ستة أيام فقط.

ج- رحلته إلى بلاد الحرمين الشريفين :

توجه الذهبي إلى الديار المقدسة في سنة ٦٩٨هـ
قاصدا للحج ورافقه في هذه الرحلة جماعة من
أصحابه وشيوخه، من أمثال العالم المسند محمد بن
عبد المحسن المعروف بابن الخراط الحنبلي ت ٧٢٨هـ،
وعن هذه الرحلة يذكر الذهبي أنه سمع منه أثناء
الطريق إلى مكة وسمع أثناء تنقله لأداء شعائر الحج

ولم تطل ممانعة والد الذهبي له من السفر فقد
سمح له بالرحلة حينما بلغ العشرين من عمره وأذن له
برحلات قصيرة لا يقيم في كل منها أكثر من أربعة
أشهر، وحلف لوالده أنه لا يتجاوز هذه المدة فتقيد بها
خوفا من عقوق الوالد من جهة ولأنه كان يرافق بعض
طلبة العلم ممن يعتمد على صحبتهم له في تلك
الرحلة [١٨].

وتشير المصادر إلى رحلات الذهبي رحمه الله
عرضا ولا تقدم عنها معلومات كثيرة ولكن كانت أهم
رحلاته العلمية إلى كل من:

أ- رحلته إلى البلاد الشامية:

فقد توجه في أول رحلة علمية له إلى بعلبك في سنة
٦٩٣هـ وأخذ عن علماء القراءات من أمثال الموفق
النصيبني ت ٦٩٥هـ وأكثر في الأخذ من العالم المحدث
تاج الدين أبي محمد البعلبكي، وتوجه مرة ثانية إلى
بعلبك في سنة ٧٠٧هـ وتنقل في رحلاته العلمية في
مدن عديدة من البلاد الشامية يأخذ عن العلماء الثقات
فسمع من الشيوخ في حمص وحماة وطرابلس ونابلس
والقدس وغيرها [١٩].

ب- رحلته إلى البلاد المصرية :

كانت رحلة الذهبي إلى البلاد المصرية من أبرز
رحلاته العلمية المبكرة ويحددها بعض الباحثين بأنها
كانت بعد سنة ٦٩٥هـ وأنهى هذه الرحلة وعاد إلى
دمشق في أوائل سنة ٦٩٦هـ وحرص محمد الذهبي
رحمه الله أثناء طلبه للعلم بمصر على الأخذ من جماعة
كبيرة من علماء الحديث من أمثال أحمد بن محمد بن

٦٩٥هـ)، ودرس على شيخ اللغة العربية وإمام أهل الأدب بمصر في عصره الشيخ محمد بن إبراهيم بن النحاس [٢٢] ت ٦٩٨هـ. وسمع من غيرهما لعدد كبير من علماء الشعر واللغة والأدب.

وتوجهت عنايته الرئيسية في السماع لعلماء الحديث فسمع مئات الكتب والأجزاء الحديثية طيلة حياته في طلب العلم وعنى بالعلوم الدينية عموماً والعلوم المساعدة لها كالنحو واللغة والأدب والشعر واطلع على بعض الكتب الفلسفية [٢٣].

٤- الذهبي ورفاقه في طلب العلم :

تجدر الإشارة هنا وأنا أتحدث عن الذهبي رحمه الله أن أشير إلى أهم العلماء الذين اتصل بهم صلة وثيقة وكانوا ثلاثة من شيوخ ذلك العصر: وهم ((جمال الدين أبو الحجاج يوسف بن عبد الرحمن المزني الشافعي [٢٤] ت ٧٤٢هـ، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية الحراني [٢٥] ت ٧٢٨هـ، علم الدين أبو محمد القاسم بن محمد البرزالي [٢٦] ت ٧٣٩هـ)).

فقد ترافق الذهبي مع هؤلاء العلماء طيلة حياتهم وكان أصغرهم سناً، بينما كان أبو الحجاج المزني أكبرهم، وكان بعضهم يقرأ على بعض، فهم شيوخ وأقران في الوقت نفسه [٢٧] - رحمهم الله جميعاً -

ونسجل هنا أن التكوين الفكري العام للامام الذهبي قد ارتبط ارتباطاً شديداً بالحديث والمحدثين، وقد أثر ذلك في منهجه التاريخي تأثيراً واضحاً حينما ربطه بالحديث النبوي الشريف وعلومه، فاهتم الذهبي رحمه الله اهتماماً كبيراً بالتراجم حتى صارت أساس كتبه ومحور تفكيره، ثم أثر تكوينه

من العلماء في كل من مكة المكرمة وعرة ومني ثم سمع بالمدينة المنورة من مجموعة من الشيوخ [١٨].

٣- مناصبه العلمية :

بعد هذا الجهد المتواصل في طلب العلم دون كلل أو ملل بدأت مرحلة جديدة من حياة الإمام الذهبي وفيها تولى الخطابة بأحد جوامع (كفر بطنا) بغوطة دمشق وذلك في سنة ٧٠٣هـ. وتولى بعد ذلك بسنوات التدريس بدار الحديث بقرية أم الصالح [١٩] (واقفها الصالح إسماعيل الملك سيف الدين أبي بكر العادل) وكانت هذه الدار من كبريات دور الحديث بدمشق آنذاك، وتولى أيضاً التدريس بغيرها من دور الحديث ومنها:

((دار الحديث الظاهرية (الظاهر بيبرس) [٢٠]، دار الحديث النفيسية، وتولى مشيخة الحديث بدار الحديث والقراءات التنكزية، ودار الحديث الفاضلية بدمشق)).

وهكذا تولى الذهبي التدريس والمشايخة في كبريات دور الحديث بدمشق في أيامه، وما ذلك إلا دليلاً على ما وصل إليه من علم واسع ومعرفة بهذا العلم الشريف وعند وفاته كان يتولى مشيخة الحديث في خمس مدارس، فضلاً عن نشاطه في التعليم والتأليف الذي بدأه بعد عودته من رحلاته العلمية [٢١].

وبعد هذه الرحلات العلمية واصل الذهبي رحمه الله جهوده في الدراسة والسماع لا يشغله عنهما شاغل، وكانت دراسته وسماعاته متنوعة لم تقتصر على علم بعينه، فعني بدراسة النحو على شيخه موفق الدين محمد بن أبي لعلام النصيبي البعلبكي (ت

الفكري هذا في نظره إلى الأحداث التاريخية وأسس انتقائها ونوعية اهتماماته[٢٨].

٥- الذهبي وعلم التاريخ :

اجتهد الذهبي في اختصاره لكثير من الكتب العلمية خاصة في العلوم التي أتقنها وبرع فيها ومنها على سبيل المثال لا الحصر اختصر بعض الكتب في علم الحديث مثل: (السنن الكبرى) للبيهقي ت ٤٥٨هـ، (تلخيص العلل المتناهية في الأحاديث الواهية) لابن الجوزي ت ٥٩٧هـ، و(المستدرک على الصحيحين) للنيسابوري ت ٤٠٥هـ.

ومما اختصر الذهبي من كتب الرجال والتراجم (أسد الغابة في معرفة الصحابة) لابن الأثير الجزري ت ٦٣٠هـ، و(معجم شيوخ الأئمة النبيل) لابن عساكر ت ٥٧١هـ، و(الكني) للحاكم ت ٣٧٨هـ حيث اختصره ونظمه وأعاد ترتيبه[٢٩].

ونظراً للصلة الوثيقة بين علم الرجال والحديث النبوي الشريف فقد ظهرت شهرة الذهبي فكانت الغاية من العناية بالرجال تأتي لضبط الرواة أولاً، وهذا مفهوم ساد عند المحدثين المؤرخين لا سيما في ذلك العصر، وقد ترك الذهبي في هذا العلم عدداً ضخماً من الآثار بدأها باختصار أمهات الكتب المؤلفة في التاريخ مثل (تاريخ بغداد) للخطيب البغدادي ت ٤٦٢هـ، و(تاريخ دمشق) لابن عساكر ت ٥٧١هـ، و(تاريخ مصر) لابن يونس ت ٣٤٧هـ، و(تاريخ نيسابور) للحاكم النيسابوري ت ٤٠٥هـ، و(تاريخ خوارزم) لابن أرسلان الخوارزمي ت ٥٦٨هـ.

وإضافة إلى تلك الكتب اختصر الذهبي بعض

المؤلفات العلمية في الوفيات؛ ومنها: (التكملة لوفيات النقلة)، لابن المنذري ت ٦٥٦هـ، ومن كتب الأنساب: كتاب (الأنساب) للسمعاني ت ٥٦٢هـ، وقد كانت هذه المختصرات العلمية المتنوعة هي المادة الرئيسة التي كونت شخصية الذهبي العلمية، وزادت من معرفته بالعصور السابقة[٣٠].

وبدأ الذهبي يعد إنجازاً لهذه المختصرات العلمية بتدوين تراجم المعاصرين في زمنه؛ حيث يعد الذهبي من أحسن الذين كتبوا فيهم، وقد أدرك أهمية هذا الأمر فكان كتابه (المعجم المختص بالمحدثين) خير دليل على ذلك؛ لأن هذا هو التاريخ الأكثر أهمية، فهو الذي يعطى المؤرخ أهميته ومكانته بين المؤرخين في عصره ويميزه عنهم.

وأرى والله أعلم أن الذهبي رحمه الله لم يرد الاكتفاء بالروايات والأخذ عن الآخرين بل اعتمد على خبرته ومعرفته الشخصية فهو بهذا العمل دَوَّن الأخبار وأحوال رجال عصره من العلماء خاصة بعد استفادته من مناهج السابقين له في هذا العلم ممن اختصر كتبهم وكانت خطوة بعد ذلك لإنجاز كتب عظيمة في مجال التاريخ الإسلامي كتبها الذهبي بنفسه وبطريقة فريدة مميزة.

إن معرفة الذهبي الواسعة بعلم الرجال أنتجت مؤلفات علمية كثيرة، جمع في هذه الكتب بين التاريخ وعلم الرجال وظهرت براعة الذهبي في علم التاريخ من خلال اختصاره لعدد من المؤلفات التاريخية مثل: (تاريخ أبي شامة) ت ٦٦٥هـ، و(تاريخ أبي الفداء) ت ٧٣٢هـ، واستفاد من معظم التواريخ المشهورة في عصره ودرسها؛ مثل: (سيرة ابن إسحاق) ت ١٥١هـ،

تعبيره لما لذلك من أهمية في وضع الكلمة المناسبة أو العبارة في موضعها الملائم لا سيما في تحبير التراجم، فضلا عن أسلوبه السلس المتمتع لمن أدمن قراءة مثل هذه الكتب، بالإضافة الى ذلك كتابته لتلك المؤلفات بخط متقن، وقد وصل إلينا الكثير من كتبه وكتب غيره مكتوبا بخطه الذي امتاز بالدقة والإتقان [٢٣].

٦- أهم مصنفات الذهبي :

ترك الحافظ الذهبي رحمه الله مؤلفات عديدة قاربت مائتين وأربعة عشر عنواناً، شملت علوم القراءات والحديث ورجاله ومصطلح الحديث وأدابه، وعلوم العقيدة والفقه وأصوله والتفسير، والزهد والرقائق وغيرها .

وفيما يلي أشير إلى أهم مصنفاته في التاريخ والسير والتراجم:

أ - (أخبار السد) وفيه تناول الذهبي أخبار السد الذي بناه ذو القرنين وورد ذكره في القرآن الكريم في قوله تعالى: {قالوا ياذا القرنين إن يأجوج ومأجوج مفسدون في الأرض فهل نجعل لك خرجا على أن تجعل بيننا وبينهم سدا} [٢٤].

ب - (أخبار قضاة دمشق).

ج - (أسماء من عاش ثمانين سنة بعد شيخ أو بعد تاريخ سماع) وقد ألفه الذهبي سنة ٧١٧هـ.

د - (الإشارة الى وفيات الأعيان والمنتقى من تاريخ الإسلام) وفي هذا الكتاب تناول الحافظ الذهبي وفيات المشهورين من السنة الأولى للهجرة حتى سنة ٧٠٠هـ واعتمد فيه على تاريخ الإسلام.

(وتاريخ الطبري) ت ٢١٠هـ، و(تاريخ ابن الأثير) ت ٦٢٠هـ، و(تاريخ ابن الجوزي) ت ٥٩٧هـ، ويتضح من نطاق مؤلفات الذهبي أنه كان مؤرخاً جوالاً ذهنية، استطاع استيعاب عصور التاريخ الإسلامي حتى عصره الذي كتب فيه مؤلفاته، وهي فترة زمنية تزيد على السبعة قرون، فألف في كل هذه العصور بعد أن درسها دراسة عميقة قامت على دعامين رئيسين: هما:

- الرواية الشفوية .

- الكتب العلمية.

وهذا أمر لم يأت لكثير من العلماء الذين سبقوه أو عاصروه [٢١].

ونجد في مؤلفات الذهبي التاريخية إشارة إلى الأحوال السياسية والثقافية والاجتماعية والاقتصادية، ومع اختصاره للعبارة إلا أنها تدل على سعة أفقه التاريخي وقدرته الفائقة على تصوير حقبة كاملة من الزمن، وعلى امتداد العالم الإسلامي المترامي الأطراف بعبارة وجيزة، وهذا أمر لا يتأتى إلا لمن استوعب العصر ودرسه دراسة عميقة ينتج عنها مثل هذا التصور والفهم العام [٢٢].

ونطالع عند قراءة كتب الذهبي أمثلة عديدة تدل على قوته في البحث والاستدلال ومناقشة آراء غيره بأسلوب علمي يعتمد على الدليل والإقناع وسار على هذا المنهج في الكتب التي اختصرها أو ردّها فيها على غيره من العلماء سواء في كتب الحديث أو الفقه أو العقائد أو علم الرجال أو التاريخ، وقد كتب تلك المؤلفات بلغة جيدة قياساً بالعصر الذي عاش فيه؛ فهو باعتباره محدثاً كبيراً وناقداً ماهراً، دقيق في

للكتاب قسمه بموجبها الى وحدات زمنية مدة كل وحدة منها عشر سنوات، أطلق عليها لفظ الطبقة [٢٨].

وقد اتبع الذهبي رحمه الله منهجا تنظيميا يخفف فيه كثيرا من عدد الذين لم يستطع التثبت من تواريخ وفياتهم ويزيل كثيرا من الإرباك الذي يتأتى من كثرة المذكورين في آخر الطبقة وذلك بمثل عبارة (ولم تضبط وفاته وإنما حدث في هذه السنة) أو عبارة (وحدث في هذا العام ولعله مات فيه..) أو عبارة (.. توفي في حدود هذه السنة..) أو عبارة (.. وكان حيا في هذه السنة..).

واستعمل هذه العبارات أيضا عند إشارته لبعض الحوادث التاريخية التي لم يستطع التثبت من تواريخ حدوثها.

ويلاحظ على الذهبي في هذا الكتاب قلة المادة التاريخية التي قدمها في الحوادث قياساً بالمادة الضخمة التي احتوت عليها التراجم، وهذا المنهج هو المعتمد عند المؤرخين المحدثين، الاهتمام بالتراجم على حساب المادة التاريخية وذلك منذ القرن السادس الهجري [٢٩].

ولما كان الذهبي ملتزماً في تاريخه بذكر الحوادث بالتنظيم على السنين فإنه كان يقطع الخبر ليكمل في سنة أخرى بعدها وهي الطريقة التي اتبعها معظم مؤلفي الكتب التاريخية المرتبة على السنين فإذا ما أراد القارئ أن يطلع على حادثة معينة استمرت لعدد من السنين فإن عليه أن يقرأ جميع حوادث السنين ويعر بأخبار وحوادث لا علاقة لها بموضوعه فضلا عما تسببه هذه الطريقة من إرباك في تتبع الخبر التاريخي.

هـ - (الإعلام بوفيات الأعلام) وهذا مختصر لكتابه الإشارة السابق أو لعله ذيل له حيث كان الذهبي يزيد في كتابه كلما تقدمت السنون وقد أشار في أول الكتاب لتواريخ بعض الغزوات والفتوح المشهورة مثل بدر، وأحد، والخندق، وتبوك، واليمامة، واليرموك، والقادسية... وغيرها [٣٥].

و - (الأمصار نوات الآثار) وفي هذا المصنف أورد الذهبي أشهر الأمصار ومن نسب إليها من العلماء أو عاش فيها مع بيان لأخبار تلك الأمصار على مدى العصور، ويبدأ بالمدينة المنورة ثم مكة المكرمة ثم بيت المقدس، ودمشق ومصر والإسكندرية وبغداد وحمص والكوفة وغيرها.

ز - (أهل المائة فصاعداً) وتناول الذهبي في هذا الكتاب من عاش أكثر من مائة سنة.

ح - (البيان عن اسم ابن فلان) ويبدو أن موضوع الكتاب في الرجال المشهورين بابن فلان حيث أورد الذهبي ذلك وبين أسماهم الصريحة [٣٦].

ط - (تذكرة الحفاظ) وأشار الذهبي في هذا الكتاب إلى ما يقارب (١١٧٦) ترجمة رتبها على الطبقات فجعله في إحدى وعشرين طبقة ابتداءً فيه بالصحابة وهم الطبقة الأولى وانتهى به إلى زمانه، ولم يقصد الذهبي استيعاب جميع الحفاظ فقال عن ذلك في ختام حديثه عن الطبقة السابعة - «وهم عدد كثير اقتضرت منهم على الأعلام... وأحال القارئ إلى مؤلفاته الأخرى لمن رغب في التفصيل» [٣٧].

ي - (تاريخ الإسلام) وتناول الذهبي في كتابه الحوادث التاريخية والتراجم من السنة الأولى للهجرة حتى سنة ٧٠٠هـ، ووضع الحافظ الذهبي خطة عامة

م - (العبر في خبر من غير) ويعرف هذا الكتاب بالتاريخ الأوسط، وقد لخصه الذهبي من كتابه (تاريخ الإسلام) في سنة ٧٥١هـ، ومع ذلك توجد فيه أحياناً من الحوادث والوفيات ما ليس مذكوراً في تاريخ الإسلام، ولعل الحافظ الذهبي استدرک بعض الاستدراکات على (تاريخ الإسلام)، وقد حظي هذا الكتاب بمكانة بارزة بين مؤلفات الذهبي واختصره واستفاد منه كل من ابن العماد ت ١٠٨٩هـ، وابن قاضي شعبة الأسدي ت ٨٥١هـ، وذيل عليه تلميذ الذهبي أبو المحاسن محمد بن علي الدمشقي ت ٧٦٥هـ، وذيل عليه أيضاً أبو الفضل عبد الرحيم بن الحسين العراقي ت ٨٠٦هـ [٤٢].

ن - (ميزان الاعتدال في نقد الرجال) وهذا الكتاب من أحسن كتب الذهبي وأجلها وأجمعها وأكثرها استيعاباً في النقد، قال عنه مؤلفه: «فهذا كتاب جليل مبسوط في إيضاح نقلة العلم النبوي وحملة الآثار، ألفته بعد المغني، وطولت العبارة، وفيه أسماء عدة من الرواة زائدأ على من في المغني». ونظرا لأهمية هذا الكتاب في علم الجرح والتعديل فقد تناوله جملة من الحفاظ والعلماء المهتمين بنقد الرجال استدراكاً وتعقيباً وتلخيصاً [٤٣].

٧ - سير وتراجم مفردة :

أفرد الحافظ الذهبي سيراً خاصة لمجموعة كبيرة من الأعيان من كبار الصحابة والتابعين والعلماء وغيرهم، وقد أشار الذهبي إلى ذلك في أثناء حديثه عنهم، وأشارت المصادر التاريخية إلى بعض هذه المصنفات إما في مجلدات كبيرة مستقلة أو أجزاء

ويلاحظ اهتمام الذهبي في هذا الكتاب بالأمر المتعلق بمصالح المسلمين الدينية فاعتنى مثلاً بذكر مواسم الحج وما يجري للحجاج في المواسم، واعتنى بمصالحهم الدنيوية وما يصيب الأمة من أوبئة ومجاعات وفيضانات وعواصف مدمرة، وارتفاع الأسعار، واهتم بالعلم ونشره، فقد اعتنى بذكر إنشاء دور العلم مثل المدارس ودور الحديث وخزائن الكتب وتعيين المدرسين وعزلهم مما يدل على شدة اهتمامه بها وعنايته بذكرها .

ك - (دول الإسلام) ويسمى في بعض الأحيان (التاريخ الصغير)، وقد اعتمد فيه على كتابه (تاريخ الإسلام) وصل فيه إلى سنة ٧٠٠هـ، ثم ذيل عليه إلى سنة ٧٤٠هـ، ومن ذيل على (دول الإسلام) الحافظ شمس الدين محمد بن عبد الرحمن السخاوي ت ٩٠٢هـ، ابتداء من سنة ٧٤١هـ ووصل به إلى سنة ٧٩٥هـ، وسماه (وجيز الكلام في ذيل دول الإسلام) [٤٠].

ل - (سير أعلام النبلاء) وقد رتبته الذهبي رحمه الله على الطبقات فجعله من بداية الإسلام حتى سنة ٧٠٠هـ، كتبه في ثلاثة عشر مجلداً ضخماً ثم ذيل عليه بالمجلد الرابع عشر يتناول الأحداث من سنة ٧٠٠هـ إلى سنة ٧٤٠هـ.

وقد أفرد المجلدين الأول والثاني للسيرة النبوية الشريفة والخلفاء الراشدين، وبدأ المجلد الثالث بالعبادة المبشرين بالجنة ثم كبار الصحابة فالتابعين، وهذا الكتاب ليس مجرد اختصار لتاريخ الإسلام، فقد ضمنه الذهبي كثيراً من الروايات الجديدة التي لم يوردها في (تاريخ الإسلام) وتوسع في بعض التراجم دون إضافة تراجم جديدة إليه [٤١].

القاسم البرزالي ت ٧٢٩هـ وأضاف إلى محتويات هذا الكتاب أشياء مما توفر لديه من معلومات.

- واختصر أيضاً كتاب (تاريخ مصر) لعبد الرحمن

بن أحمد الصديقي ت ٣٤٧هـ.

- واختصر كتاب (الروضتين في تاريخ الدولتين)

لعبد الرحمن الدمشقي المعروف بابي شامة ت ٦٦٥هـ،

واختصر كتاب (وفيات الأعيان) لأحمد بن محمد بن

خلكان ت ٦٨٠هـ [٤٥].

وعلى هذا النهج سار الحافظ الذهبي رحمه الله

طيلة حياته في جهوده العلمية المباركة في التأليف

والكتابة، فوقته لا يخلو من تصنيف كتب علمية جديدة

أو ينتقى أو ينتخب أو يختصر أو يذيل بأسلوب مميز

وفريد لمؤلفات العلماء السابقين، فاتفق وبرع رحمه الله

في جهوده العلمية لخدمة العلوم الإسلامية باختلاف

فنونها وتنوع أساليب البحث والتدوين من علم لآخر.

الهوامش :

(١) آية ١١١ سورة يوسف.

(٢) آية ٩ سورة الروم.

(٣) محمد صالح السلمي منهج كتابة التاريخ الإسلامي ط

١٤٠٦هـ، دار طيبة للنشر والتوزيع الرياض -

السعودية.

(٤) شاكر مصطفى التاريخ العربي والمؤرخون، ط ١،

١٩٧٩م، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان ص ٥٩ -

٦٠.

(٥) ديار بكر بلاد كبيرة واسعة تنسب إلى بكر بن وائل.

ياقوت الحموي، معجم البلدان ج ٢ ص ٤٩٤، طبعة

عام ١٣٩٣هـ، دار إحياء التراث العربي بيروت.

(٦) بشار عواد معروف الذهبي ومنهجه في كتابه تاريخ

الإسلام، ط ١، ١٩٨٦م، مطبعة عيسى البابي القاهرة،

ص ٧٨، ٧٩، ٨٠، ٨١.

صغيرة خاصة بكل واحد منهم؛ ومنها على سبيل
المثال:

(هالة البدر في عدد أهل بدر)، (أخبار أم المؤمنين

عائشة رضي الله عنها)، (التبيان في مناقب عثمان

رضي الله عنه)، (توقيف أهل التوفيق على مناقب

الصديق)، (نعم السمر في سيرة عمر رضي الله عنه)،

(فتح المطالب في مناقب علي بن أبي طالب رضي الله

عنه)، (سيرة عمر بن عبد العزيز)، (سيرة عبد الله بن

المبارك)، (سيرة سعيد بن المسيب)، (مناقب مالك بن

أنس)، (مناقب البخاري)، (مناقب أبي حنيفة)، (مناقب

أحمد بن حنبل)، (مناقب الشافعي) [٤٤].

٨. مختصرات ومنتخبات :

اختصر الحافظ الذهبي رحمه الله وانتقى وانتخب

عديداً كبيراً من المؤلفات العلمية، شملت العديد من

العلوم الإسلامية مثل علم العقيدة، وعلم الحديث، والفقه

وأصول الفقه، والحديث ومصطلح الحديث ورجال

الحديث النبوي الشريف، وفي اللغة والنحو والأنساب،

والزهد والرقائق، والسيرة النبوية والتاريخ.

ومنها على سبيل المثال في علم السيرة والتاريخ

والتراجم ما يلي:

- صنف الذهبي كتابه (بلبل الروض) اختصاراً

لكتاب (الروض الأنف) لعبد الرحمن بن عبد الله

السهيلي ت ٥٨١هـ.

- وصنف كتابه (تجريد أسماء الصحابة) اختصاراً

لكتاب (أسد الغابة في معرفة الصحابة) لابن الأثير

الجزري ت ٦٣٠هـ.

- وهذب الحافظ الذهبي كتاب التاريخ لعلم الدين

- (٢٣) بشار عواد، المرجع السابق ص ٩٨.
- (٢٤) جمال الدين يوسف بن عبد الرحمن المزي ت ٧٤٤هـ، الحافظ محدث الديار الشامية في عصره، موهب في اللغة ثم في الحديث ومعرفة رجاله له مؤلفات في الحديث منها: تهذيب الكمال في أسماء الرجال، الزركلي، الأعلام ج ٨ ص ٢٣٦.
- (٢٥) أحمد بن عبد الحليم ابن تيمية ت ٧٢٨هـ، شيخ الإسلام ولد بمران أفتى ودرس وهو دون العشرين، برع في التفسير والأصول وغيرها، خير الدين الزركلي، الأعلام ج ١ ص ١٤٤.
- (٢٦) القاسم بن محمد البيروني ت ٧٣٩هـ، علم الدين، محدث ومؤرخ أصله من أشبيلية ولد بدمشق، صنف في الحديث والتاريخ، كان فاضلاً في علمه وأخلاقه، خير الدين الزركلي، الأعلام ج ٥ ص ١٨٢.
- (٢٧) بشار عواد، المرجع السابق ص ٩٩.
- (٢٨) المرجع السابق ص ١٠٥، ومحمد إبراهيم الشيباني المرجع السابق ص ٢٤.
- (٢٩) ٣٠، ٣١، ٣٢، ٣٣ المرجع السابق ص ١١٢ - ١١٥، ١٢٠، ١٢١، ١٢٢، ١٣١، ١٣٢.
- (٣٤) آية ٩٤ سورة الكهف.
- (٣٥) بشار عواد، المرجع السابق ص ١٥٦ - ١٥٧.
- (٣٦) المرجع السابق ص ١٥٨.
- (٣٧) المرجع السابق ص ١٦٢.
- (٣٨) يتعمد مفهوم الطبقة عند الحافظ الذهبي في جميع كتبه بالقبلى بين المشايخ والتعاصر بين مجموعة من الناس، بشار عواد ص ٢٨٢.
- (٣٩) بشار عواد المرجع السابق ص ٢٧٩ / ٢٩٧ / ٣٠٣.
- (٤٠) المرجع السابق ص ٣٠٩ / ٣٤١ / ١٦٦، وانظر كتاب التاريخ والمؤرخين العرب، عبد العزيز سالم ص ٩١/٩٠.
- (٤١) ٤٢، ٤٣، ٤٤، ٤٥ المرجع السابق ص ١٧٦ / ١٧٧، ١٨٥ / ١٨٦، ١٩٣ / ١٩٩، ٢٠٥، ٢١٥ / ٢٢٥، ٢٥٠.
- (٧، ٨، ٩، ١٠، ١١، ١٢) المرجع السابق ص ٨٢، ٨٤، ٨٦، ٨٧، ٨٨، ٨٨.
- (١٣) أحمد بن محمد بن الظاهري ت ٩٩٦هـ، أبو العباس، من حفاظ الحديث ولد ونشأ في حلب، وكان ثقة، كتب عن قرابة ٧٠٠ شيخ، وله مؤلفات، خير الدين الزركلي، الأعلام ج ١ ص ٢٢١.
- (١٤) أحمد بن إسحاق الأبرقوهي ت ٧٠١هـ، شهاب الدين أبو المعالي، عالم بالحديث والقراءات، من أهل أصبهان، عاش في مصر وتوفي بمكة، كان مسند وقته، خير الدين الزركلي، الأعلام ج ١ ص ٩٦.
- (١٥) محمد بن علي بن نفيق العيد ت ٧٠٢هـ، أبو الفتح، من أكابر العلماء بالأصول ولي القضاء بالديار المصرية حتى وفاته، له تصانيف كثيرة في الفقه والأصول، خير الدين الزركلي، الأعلام ج ٦ ص ٢٨٣.
- (١٦) عبد المؤمن بن خلف الدمياطي ت ٧٠٥هـ شرف الدين، من أكابر الشافعية، حافظ للحديث له عدة مؤلفات، خير الدين الزركلي، الأعلام ج ٤ ص ١٦٩.
- (١٧) بشار عواد، المرجع السابق ص ٩٠، وانظر للفاقة: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة ج ٣ ص ٤٢٧.
- (١٨) المرجع السابق ص ٩٤ / ٩٥.
- (١٩) عرفت دار الحديث بهذا الاسم إشارة إلى واقفها السلطان المملوكي الصالح إسماعيل بن السلطان الملك العادل سيف الدين أبي بكر.
- (٢٠) عرفت هذه الدار بهذا الاسم إشارة إلى السلطان الظاهر بيبرس.
- (٢١) بشار عواد معروف، المرجع السابق ص ١٠٦ - ١٠٩.
- (٢٢) محمد بن إبراهيم بن النحاس ت ٦٩٨هـ، بهاء الدين الطلبي شيخ العربية بالديار المصرية، ولد في حلب وسكن القاهرة، خير الدين الزركلي، الأعلام ج ٥ ص ٢٩٧.

المؤرخون وتدوين عهد أسرة قلاوون المملوكية البحرية في مصر والشام

دراسة بليوغرافية (٦٧٨-٨٧٤هـ)

تحاول هذه الدراسة أن تقدم رؤية تاريخية بليوغرافية عن عهد أسرة قلاوون التي حكمت مصر والشام للفترة بين (٦٧٨ - ٨٧٤هـ / ١٢٧٩ - ١٤٨٢م)، وقد ذكرت العديد من المصادر الأولية أحداث وتطورات هذه الأسرة الحاكمة وسلطانها سيف الدين قلاوون (٦٧٨ - ٦٨٩هـ) مؤسس الأسرة (الوالد)، والأشرف خليل بن قلاوون (٦٨٩ - ٦٩٣هـ) الذي انتهت على يديه مخاطر الحروب الصليبية بعد أن قام بتحرير عكا من أيدي الصليبيين، ثم الناصر محمد بن قلاوون أشهر حكام الأسرة القلاوونية والدولة المملوكية في مصر والشام عامة حيث حكم ثلاث فترات من التاريخ المملوكي هي: [١].

١- (٦٩٣ - ٦٩٤هـ / ١٢٩٣ - ١٢٩٤م).

٢- (٦٩٨ - ٧٠٢هـ / ١٢٩٩ - ١٣٠٢م).

٣- (٧١٠ - ٧٤١هـ / ١٣٠٩ - ١٣٤١م).

إن ما كتبه المؤرخون من أحداث مصر والشام في عهد الممالك من الأسرة القلاوونية امتد بين المصادر الأولية العربية والإسلامية ثم المصادر الإنجليزية الحديثة والمعاصرة التي كتبت في الغرب وعالجت باستفاضة تاريخ هذه الأسرة، وعلى الرغم مما يعترضها من نقوصات وأخطاء بعض الأحيان، إلا أنها تعد مهمة وضرورية للباحث العلمي والأكاديمي لا يمكن تجاهلها من أجل الموازنة بين المصادر الأولية والرؤى التحليلية الحديثة [٢].

أولاً: المصادر العربية الأولية (الأصلية):

فيما يتعلق بتاريخ أسرة قلاوون نستطيع أن نجد نخبة من المؤرخين العرب في القرون (السابع - التاسع الهجرية) - (الثالث

قلاوون بعنوان «الشريف الأيام والشهور في سيرة الملك المنصور»، ويبدو من خلالها أن ابن عبد الظاهر قد نال ثقة واحترام القصر السلطاني المملوكي، وذلك بعمله «سكرتيراً شخصياً» إذا جاز التعبير للسلطان قلاوون، حيث منحته هذه الوظيفة القدرة على جمع المعلومات التاريخية وأرشفتها وتدوينها بعد ذلك.

وعلى الرغم من تشكيك البعض بأن يكون هذا العمل من صنع ابن عبد الظاهر وهذا ما أورده الكاتب بيدرسون أركيوس في مقاله عن «ابن عبد الظاهر» في الموسوعة الإسلامية، حيث إن السيرة عن قلاوون بدأت في عام (٦٨٠هـ / ١٢٨١م)، وفقدت النسختان السابقتان من حكمه وهذا ما فسره بعضهم من أن ابن عبد الظاهر قد كتب كتابه خلال السنتين تلك، ورغم ذلك فإن هذا الكتاب يُعد مصدراً أساساً لتاريخ الأسرة القلاوونية لا يمكن الاستغناء عنه بتاتا [٦].

ب- بيبرس المنصوري (ت ٧٥٢هـ / ١٣٥٢م) :

يُعد بيبرس المنصوري أحد المؤرخين المعاصرين لحكم أسرة قلاوون، وكان أحد مماليك السلطان سيف الدين قلاوون نفسه، وشارك في عدة حملات في عهدي بيبرس وقلاوون، وفي ظل الانتصارات التي تحققت في ساحات المواجهة ضد الصليبيين في عامي (٦٦٤/٦٦٣هـ) في ظل اعتداءاتهم ضد السوريين وأهل قيساريا عام (٦٦٦هـ) ثم عام (٦٧٣هـ).

ونظراً للإنجازات المهمة التي حققها بيبرس، فقد عيَّنه قلاوون بمنصب (نائب السلطان) في منطقة

عشر - الخامس عشر)، قدموا معلومات تاريخية قيمة عن الأحداث والتطورات الداخلية والعلاقات والسياسات الخارجية لهذه الأسرة الحاكمة.

وسوف نقسم هذه المصادر العربية الأولية (الأصلية) إلى عدة أقسام، هي المصادر المعاصرة لحكم أسرة قلاوون، والمصادر المتعلقة بالقرن الرابع عشر، والمصادر المتعلقة بالقرن الخامس عشر، والمصادر المتأخرة [٣].

(١) المؤرخون المعاصرون لأسرة قلاوون :

أ - ابن عبد الظاهر (ت ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م) :

هو القاضي محي الدين بن عبد الظاهر ولد (٦٢٠هـ / ١٢٢٣م) وهو من بين المؤرخين المعاصرين لفترة حكم المماليك في مصر والشام (٦٤٨ - ٩٢٣هـ)، وقد كتب سيرة تاريخية عن الأسرة القلاوونية بشكل خاص [٤].

واسمه الكامل القاضي أبو الفضل عبد الله بن رشاد الدين عبد الظاهر بن نشوان بن عبد الظاهر المصري، وبدأ حياته كاتباً في ديوان الإنشاء في وقت مبكر من عهد السلطان المملوكي الثاني سيف الدين قطز (٦٥٧ - ٦٥٨هـ)، وكان ابن عبد الظاهر مشهوراً ومحبوياً من لدن الظاهر بيبرس (٦٥٨ - ٦٧٦هـ) الذي خلف قطز في حكم الدولة المملوكية في القاهرة، وشاعت شعبية ابن عبد الظاهر ضمن إطار (رجال العلم) أثناء حكم سيف الدين قلاوون (مؤسس الأسرة) وابنه من بعده الأشرف خليل بن قلاوون [٥].

وقد وضع ابن عبد الظاهر سيرة تاريخية عن

مما عزز عملية تطور الكتابة التاريخية فضلاً عن جهود المؤرخين والمتقنين الآخرين في هذا العهد [١١].

ومن أبرز مؤرخي هذه الفترة :

١- ابن الصقال (ت ٨٥٢هـ) :

هو فضل الله بن الصقال، وهو مؤرخ عاش في دمشق في القرن الثامن الهجري، وعُرف بسيرته من خلال المعجم المعروف بـ (تالي كتاب وفيات الأعيان) وهو استمرار لكتاب ابن خلكان (وفيات الأعيان في أنباء أبناء الزمان) [١٢].

ب- اليونيني (ت ٧٢٦هـ) :

اسمه قتيب الدين موسى محمد بن أحمد بن قتيب الدين اليونيني البعلبكي الهنيالي، وهو مؤرخ وعلم من أهل الشام، وقد ولد في عام (٦٤٠هـ)، وتولى القضاء في بعلبك وسجل كتابه (ذيل مرآة الزمان) كأحد الأعمال الرئيسية، وهو ملخص في العمل الأصلي الذي وضعه سبط ابن الجوزي (ت ٦٥٤هـ) وعنوانه (مرآة الزمان) [١٣]. ورغم أن اليونيني لم يبرز كشخص أو مستشار يعمل في عهد أسرة قلاوون، ولكنه شارك في العمليات العسكرية بين المماليك والمغول والصليبيين وسجل ذلك في كتابه المذكور [١٤].

ج- شافي بن علي :

وهو صاحب كتاب (الفضل الماثور في سيرة الملك المنصور) وكان حفيد ابن عبد الظاهر، ويُعد كتابه مكملًا لكتب ظهرت في عهد قلاوون وبيبرس والأشرف خليل [١٥].

الكرك عام (٦٨٥هـ) بعد أن عمل فيها مدة خمس سنوات، وكان قد عُيِّن من لدن الأشرف خليل بن قلاوون بمنصب (دوادر) [١٧].

واستمر ببيبرس المنصوري (أميراً) له مكانته في أثناء حكم الملك الناصر محمد بن قلاوون، حيث عينه (مستشاراً) في عام (٦٩٣هـ) ثم أصبح (نائب السلطان) في الديار المصرية في عام (٧١١هـ) [١٨]. وقد كتب ببيبرس المنصوري عدداً من الأعمال التاريخية، وأبرزها ما يخص التاريخ الإسلامي منذ ظهور الإسلام وحتى عام (٧٢٤هـ) وسار فيه على قاعدة المؤرخ الكبير ابن الأثير الدمشقي، وناقش في الجزء الثاني منه - الذي حمل عنوان (زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة) - تاريخ المماليك البحرية عامة، ومنها سيرة قلاوون حيث قدم معلومات مهمة وقيمة عن هذا الرجل وكتب انطباعاته الشخصية عنه أيضاً [١٩].

وقد اهتم المنصوري على العكس من ابن عبد الظاهر على حملات السلاطين العسكرية التي شهدتها هذه الفترة، في حين تناول ابن عبد الظاهر المجالات التي تخص العلاقات الدبلوماسية والقضايا الرسمية، وهذا بسبب اختلاف الوظائف التي تقلدها الرجلان، فقد كان واجب ابن عبد الظاهر العمل كمستشار، بينما المنصوري كان الملوك الشخصي للسلطان قلاوون وكان مرافقاً له في حملاته العسكرية [٢٠].

(٢) المؤرخون من القرن الثامن الهجري :

سجل مؤرخو القرن الرابع عشر الميلادي معلومات مستفيضة عن أسرة قلاوون وكان هؤلاء المؤرخون عادة مصريين أو شاميين حيث لقيت الحياة الفكرية التشجيع في عهد السلطان الناصر محمد بن قلاوون

د - أبو الفدا (ت ٧٢٣هـ) :

وهو عماد الدين بن علي الذي ولد في عام (٦٧٢هـ) في الشام، وهو سليل الأسرة الأيوبية والملوكية، وشارك في حملتين رئيسيتين ضد الصليبيين في عهد حكم قلاوون في المرقب وحلب وغيرها [١٦].

وفي أثناء حكم الناصر قلاوون، عُيِّن أبو الفدا حاكماً على حماه في عام (٧١٠هـ) حيث أناط به السلطان مسؤولية حكم حماه وظل في هذا المنصب حتى ألغاه الناصر نفسه بعد عهد أبو الفدا. وقد سجل الأخير لمساته الذكية في تدوين نشاطات الجيش، وأحداث حكم قلاوون وأسرت من بعده في كتابه المعروف (المختصر في أخبار البشر) مما منحه التمييز في التحليل النكي والمتابعة اليومية [١٧].

هـ - ابن الدوادري (مجهول تاريخ وفاته) :

تمثل المعلومات عن حياة سيف الدين أبو بكر بن عبد الله الدوادري قليلة وكان أحد الأمراء في بيت الملك الناصر أثناء حكمه، وكتب كتابه (كنز الدرر وجامع الغرر) وسجل فيه معلومات مهمة تتعلق بفترة حكم قلاوون، وكان واضحاً أن ابن الدوادري قد تأثر بأعمال ابن شداد واليونيوني وابن عبد الظاهر [١٨].

و - الذهبي (ت ٧٤٨هـ أو ٧٥٣هـ) :

هو شمس الدين أبو عبد الله محمد بن أحمد الذهبي، وقد ولد في عام (٧٦٣هـ) في دمشق، وكان واحداً من أشهر علماء الشام في هذا القرن، وقد التحق في دراسة العلوم الدينية إلى جانب علماء آخرين أمثال ابن تيمية [١٩].

وقدم الذهبي معلومات عن أسيرة قلاوون في كتابه الشهير (دول الإسلام) وكتابه الآخر (العبر في خبر من غبر)، حيث قدم أفكاراً عامة عن أسيرة قلاوون، وأصبح عمله موثقاً به ومكملاً لكتابه الأول (تاريخ الإسلام) الذي يعد الكتاب الموسوعي الشامل عن عهد الإسلام منذ فترة الرسول محمد (صلى الله عليه وسلم) وحتى عام (٧٧٠هـ)، وكان الذهبي أيضاً من أكبر العلماء في مجال الحديث فضلاً عن التاريخ الإسلامي [٢٠].

ز - الكتبي (ت ٧٦٤هـ) :

هو أبو عبد الله بن شاكر الدمشقي الكتبي ولد في عام (٦٨٦هـ)، ثم رحل إلى دمشق ولا توجد معلومات كثيرة عن بداياته المبكرة، وكان فقير الحال ورغم ذلك انصب جهده على الكتابة التاريخية ووضع كتابه المعروف (فوات الوفيات) وهو استكمال لكتاب (وفيات الأعيان) الذي وضعه ابن خلكان وقد أورد الكتبي معلومات مهمة عن أسيرة قلاوون ضمن التسلسل المعجمي الألفبائي في الكتاب [٢١].

ح - ابن كثير (ت ٧٧٤هـ) :

هو اسماعيل بن عمر بن كثير، واحد من أشهر المؤلفين المسلمين في الشام في عهد الدولة المملوكية البحرية، وضع كتابه الشهير (البداية والنهاية) وغطى به تاريخ الإسلام من البداية حتى عام (٧٦٧هـ)، وأورد فيه تاريخ أسيرة قلاوون في الجزء الثالث عشر من عمله هذا، وكان ابن كثير في دمشق معلماً ثم نزل إلى رتبة محاضر، واستقى معلوماته من

الذهبي، وبرع أيضاً في المجالات الدينية كال تفسير
والحديث مما زاد من تكوينه كمؤرخ [٢٢].

ط - ابن الفرات (ت ٨٠٧هـ) :

هو ناصر الدين محمد بن عبد الرحمن علي
الناصرى، ولد في عام (٧٣٥هـ) ، وهو من أشهر
المؤرخين في العهد المملوكي، وأفضل ما يعرف به كتابه
(تاريخ ابن الفرات) وقدم فيه معلومات مهمة عن تاريخ
أسرة قلاوون في الجزأين (السابع والثامن) من كتابه
هذا. وبرزت قيمة هذا الكتاب لكونه يتناول بشكل
خاص دراسة الأسرتين الأيوبية والمملوكية من خلال
الإطلاع على مؤرخين آخرين أمثال ابن واصل وابن
شداد وابن عبد الظاهر، ويبدو أن ابن الفرات قد رسم
الصورة عن أسرة قلاوون من خلال كتاب ابن عبد
الظاهر، ولذلك فإن الانطباع المبكر يظهر أنه من
المحتمل أن تكون الأجزاء الأولى من عمل ابن عبد
الظاهر لا تختلف كثيراً عن هذا العمل.

ومنذ أن بدأ بوضوح أن ابن الفرات اقتبس
بشكل واسع من كتاب (التشريف) الذي بقيت فيه مادة
في أجزاء منشورة بعد ذلك، ولكن ظهر هناك رأي من
بعض المؤرخين أن ابن الفرات في كتابته عن أول
سنتين من حكم قلاوون (٧٦٨ - ٦٧٩هـ) وأحداث جزء
من عام (٦٨٠هـ) قد نقلها من ابن عبد الظاهر. وربما
أن المعلومات والأخبار في الأجزاء الأخرى قد أعيدت
صياغتها [٢٣].

ي - ابن خلدون (ت ٨٠٨هـ) :

هو من أشهر المؤرخين ويعود في أصوله إلى

منطقة شمال افريقيا، واسمه ولي الدين أبو زيد عبد
الرحمن بن محمد ابن خلدون، وقد ولد في تونس في
عام (٧٣٢هـ) وتعلم والتحق بعد ذلك في الإدارة
الحلية، وفي أواخر حياته كان قد هاجر إلى القاهرة
لأنه كان هناك اضطراب سياسي في شمال افريقيا،
وعُيّن في القاهرة القاضى الأول للممالك وظل حتى
نهاية حياته إلى أن توفي في رمضان عام (٨٠٨هـ).

وقد سافر وتنقل ابن خلدون كثيراً، ولاحظ
وراقب وحضر الكثير من المجالس الأدبية والفكرية،
وعاش حياة الشعوب المختلفة وعبر عن ذلك في كتاباته
تعبيراً دقيقاً مما جعله متميزاً فيها، فضلاً عن كونه
مؤرخاً قد وضع كتابيه الشهيرين «المقدمة» و«العبر
وبيوان المبتدأ والخبر» [٢٤].

وعمل ابن خلدون في حقل التاريخ بشكل مميز
وذلك لأنه كان الأفضل في تحليلاته وميدان عمله،
وطريقة صنعه للأعمال التي ميزته عن الآخرين وتبعاً
لذلك كان له أحداث مهمة. ووضع ذلك من خلال
ملاحظاته القصيرة التي أوضح فيها خلفية وعلاقة ذلك
مع التاريخ المبكر، وعلى سبيل المثال عن علاقة قلاوون
والنوبة، كان ابن خلدون قد وضع نقاط الالتقاء التي
كانت قد ظهرت بين بيبرس وأهل النوبة في المرحلة
المبكرة، وهذه (التقنية) في صنع الكتابة ترقى إلى عمل
المؤرخين المحدثين على خلاف غالبية المؤرخين في عهده
وزمنه، ورغم ذلك فإن معلوماته في الواقع عن أسرة
قلاوون وحكمهم عامة قليلة مقارنة بمؤرخين
آخرين [٢٥].

ك - القلقشندي (ت ٨٢١هـ) :

هو شهاب الدين أبو العباس أحمد بن علي بن أحمد الشافعي (٧٥٥ - ٨٢١هـ) وضع كتابه الشهير «صبح الأعشى في معرفة الإنشاء» وهو من أهم الإنجازات في كتب التاريخ، حيث الأحداث السياسية والإدارة والطبوغرافيا والحضارة ومختلف الدول، وقدم المؤلف معلومات من الطراز الأول على فهم الإدارة والطبقة في الأسرة المملوكية [٢٦].

وكتاب القلقشندي حول السلطنة المملوكية يُعد ذا قيمة لأنه التحق شخصياً في السلطنة كسكرتير للمستشارية من (٧٩١ - ٨٢١هـ). ومن جهة أخرى فقد كتب أكثر عن شؤون ذلك القرن بعامة، وعن حكم أسرة قلاوون بخاصة، وربما تغيرت بعض الجوانب التي ناقشها في الإدارة المملوكية في أثناء هذه الفترة المتداخلة [٢٧].

ل - أبو الفضائل (ت ٧٥٩هـ) :

هو المفضل بن أبي الفضائل قبلي الأصل، ووضع كتابه «النهج السديد والدر الفريد» أو «تاريخ ابن العميد» ويشمل تاريخ الممالك البحرية (٦٥٨ - ٧٤١هـ) ويعتمد على عدد من معاصريه ومؤلفاتهم كالنويري والجزري وغيرهم [٢٨].

م - ابن فضل الله العمري :

هو أحمد بن يحيى بن فضل الله العمري فقد كتب موسوعة تاريخية وجغرافية في كتابه «مسالك الأبصار في ممالك الأمصار» وفيه أخبار عن حياة

البدو والجغرافيا والمجتمع والعادات والتقاليد والتراجم المختلفة، وأصدر الدكتور فؤاد سزكين (٢٧ جزءاً) من هذا الكتاب عن معهد تاريخ العلوم العربية في فرانكفورت بألمانيا كصورة مصورة، وكان العمري ينحدر من أسرة عملت في دواوين الإنشاء في عهد سلاطين المماليك، فكان اطلاعاً ومعرفة واسعة بالوثائق الديوانية، وله كتاب في مصطلحات ورسوم ومكتابات يُعرف بـ «التعريف بالمصطلح الشريف» [٢٩].

(٣) المؤرخون من القرن التاسع الهجري :

ظهر العديد من المؤرخين خلال القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي من بينهم ابن دقماق (ت ٨٠٩هـ) صاحب كتاب «نزهة الأنام في تاريخ الإسلام» ويقع في (١٢) مجلداً من السيرة النبوية إلى عام (٧٧٩هـ)، والعيني (ت ٨٥٥هـ) وهو مصري كتب في التاريخ العام وتاريخ المماليك خاصة، وله كتاب «التاريخ الكبير» في (٢٠) مجلداً و«عقد الجمان» أما شهاب أبو بكر بن أحمد بن محمد بن قاضي (ت ٨٥١هـ) وهو شامي الأصل عاش في مصر، وكتب في التراجم وكان مدرساً في مدارس دمشق، وله كتاب «طبقات الشافعية» و«تاريخ ابن قاضي» وظهر هناك عدد من المؤرخين في هذا القرن كالبقاعي والصيرفي والبصروي وابن عبد الهادي وابن طوق والنعمي والحمصني والصالح وغيرهم [٣٠].

(أ) المقرئ :

بردي بن عبد الله الظاهري الجومني، ولد في القاهرة بحي القلعة، وتقلد عدة وظائف رفيعة في الدولة الملوكية حتى وفاة برقوق نهاية القرن التاسع الهجري [٢٤].

وكتب ابن تغري بردي عدة كتب أهمها كتابه الشهير «النجوم الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة» وهو يتحدث عن مصر الإسلامية من الفتح الإسلامي إلى الثلث الأخير من القرن التاسع الهجري، وأورد فيه بالتفصيل أحداث الدولة الملوكية وعهد الأسرة القلاوونية [٢٥].

(ج) السخاوي :

أبو الخير محمد بن عبد الرحمن بن محمد السخاوي نسبة إلى سخا المصرية في كفر الشيخ بمصر، ونشأ في القاهرة وعاش فقيراً وحضر مجالس العلم والعلماء، وتلمذ على يدي ابن حجر العسقلاني، وعاصر الدولة الملوكية في مصر والشام، وأورد في كتابه «التبر المسبوك في ذيل السلوك» كتبه ومؤلفاته ورسائله ومقالاته تحدث فيها عن النصف الثاني من القرن التاسع الهجري، وهو كتاب تكملة لكتاب المقرئ في السلوك لمعرفة دول الملوك، وكتب أيضاً «ذيل تاريخ دول الإسلام» ولكن أشهر كتب السخاوي «الإعلان بالتوبيخ لمن ذم التاريخ» وهو دراسة مطولة بالجرح والتعديل عند المؤرخين، وفيه صفحات عن التاريخ وفصله بين العلوم اللازمة للعاملين في السلطة والولايات ومصائر الدول. وكتب السخاوي عن أسرة

هو أحمد بن علي المقرئ، ولد في القاهرة في (الجمالية) وأصل أسرته من بعلبك في لبنان في حارة (المقارزة) وأكمل دراسته وتحصيله تحت إشراف جده (ابن الصايغ الحنفي) وانتقل لدراسة الفقه دراسة معمقة على مذهب الشافعية، والتحق بالخدمة الحكومية موظفاً في ديوان الإنشاء بالقلعة، وظل كاتباً ثم أصبح نائباً من نواب الحكم وقاضياً عند قاضي القضاة ثم إماماً لجامع الحاكم بأمر الله ومدرساً لعلم الحديث بالمدسة المؤيدية [٢٦].

ونقل المقرئ في عدة مناصب وظيفية في الأوقاف والحديث والسياسة، إلى أن عاد من دمشق إلى القاهرة ليتفرغ للدراسة وخاصة بعلم التاريخ وكتب كتابه الشهير «المواظ والاعتبار بذكر الخط والآثار» ووضع فيه خطط القاهرة ومصر رغم أن السخاوي اتهمه بأنه نقل الكتاب من الأوحدي المؤرخ الذي سبقه [٢٧].

كتب المقرئ في كتابه عن جغرافية وتاريخ مصر والقاهرة والمدن والآثار المصرية القديمة والوسطية، ونقل أحوال القاهرة وطرق المعيشة والحياة العامة والمرافق في القاهرة ثم كتب المقرئ كتاب «السلوك لمعرفة دول الملوك» وهو أساس تاريخ الدولتين الأيوبيه والملوكية، وظل هذا الكتاب وثيقة مهمة نقل منها واستند إليها المؤرخون والباحثون المعاصرون والمحدثون [٢٨].

(ب) أبو المحاسن ابن تغري بردي :

هو أبو المحاسن جمال الدين يوسف بن تغري

صورة واضحة غطت حياة سلاطينها، وقد استخدم هذه المعلومات المؤرخون المتأخرون مثل ابن الفرات والمقريزي وقدموا مادة تاريخية جيدة عن أسرة قلاوون، ولكنها في واقع الحال مستقاة عن ابن عبد الظاهر وبيبرس المنصوري سواء بصورة مباشرة أو غير مباشرة من مصادر أخرى اعتمدا عليها [٣٩].

ثانياً : الكتابات الحديثة عن أسرة قلاوون :

كتب عن أسرة قلاوون أكثر من دارس وباحت حديث، منذ القرن السابع عشر الميلادي، وكان من أوائل الباحثين الذين اهتموا بأسرة قلاوون Gustar Weil في كتابه المعنون «تاريخ الخلافة الإسلامية» [٤٠].

(Geschichte des Abbasiddenchaly Fast in Egyptian) ويختص بالخلافة من (١٢٢ - ٩٢٢هـ) ناقش Weil حياة السلطان قلاوون في الجزء الرابع من هذا الكتاب، وكتب عن أسرة قلاوون عامة، واعتمد المؤلف على المقريزي وكان أول باحث يكتب باللغة الأوروبية (الفرنسية) بشكل برز فيه على أقرانه حيث تتبع حكم قلاوون وأسرته بدقة [٤١].

وكتب أيضاً الباحث Sir William Muir (The Mame-) السير وليم موير في كتابه الشهير (The Mame-) Luke or Slave Dynasty of Egypt وفيه

حديث عن أسرة قلاوون مع الاعتماد على المصادر التاريخية العربية والإسلامية التي ذكرها موير في مقدمة كتابه، فقدم معلومات تاريخية في شكل

قلاوون والعهد المملوكي بشيء من التفصيل مع الأحداث والعلماء والأدباء والمؤلفين [٣٦].

(د) ابن اياس :

هو محمد بن أحمد بن اياس المصري الحنفي، ولد في القاهرة من أسرة مملوكية وجده من أمراء الدولة المملوكية الأولى، وعمل قريباً من بعض السلاطين المماليك في القرن التاسع الهجري وارتبط معهم بالقرابة والصداقة والمصاهرة، ووصفه المستشرق مرجليوث بأنه مؤرخ البلاط المملوكي وكتب مؤلفه عن تاريخ مصر المشهور «ببدائع الزهور في وقائع الدهور»، رغم أن هذا الوصف فيه مبالغة رغم قربه من السلاطين والأمراء المماليك [٣٧].

وكتب «بدائع الزهور في وقائع الدهور» وفيه الكثير من وقائع التاريخ، وهو شامل عن تاريخ مصر عالج به تاريخ المماليك حتى عهد السلطان قايتباي رغم أنه مختصر، ومر على التاريخ الأيوبي بتفصيل أكثر، وعرج على تاريخ أسرة قلاوون وشؤون البلاط الملكي والسلطان وأخبار القلعة، ويُعد كتاب بدائع الزهور مصدراً مهماً ووحيداً عالج القرن العاشر الهجري أيضاً، ونقل فيه تاريخ مصر منذ أقدم العصور إلى أوائل العهد العثماني، وجعله من أبرز مؤرخي هذا القرن في مصر الإسلامية [٣٨].

وهكذا فإن المصادر العربية والإسلامية الأصلية التي تتعلق بأسرة قلاوون تتميز بكون معاصرة ابن عبد الظاهر وبيبرس المنصوري للأسرة، وتقديهما

east from the Eleven Century to 1517)

وناقش فيه حكم قلاوون والسلاطين من بعده وقدم
تفصيلات عن أشكال مختلفة تتعلق بقلاوون خاصة
واهتماماته بالموقف من الصليبيين في الشرق الأدنى.
وهكذا فإن هوات وضع تحليلات عن الخلفية التاريخية
لعلاقات قلاوون مع الصليبيين رغم أنه تناول الأسرة
الملوكية في مختلف جوانبها . . ومن الدراسات
الحديثة عن قلاوون التي قدمت معلومات عن هذا
السلطان الملوكي في دائرة المعارف الإسلامية في
الطبعة الثانية وفيها معلومات تمثل حلقة وصل بين
المصادر العربية فضلا عن مواد أخرى من الأعمال
الثانوية المبكرة [٤٥]، وقام حسنين ربيع بوضع
معالجات لها في مقالة بأسلوب تصنيفي وقدم
ببليوغرافية جيدة عن الأسرة القلاوونية [٤٦].

الهوامش:

- (١) ابن عبد الظاهر، تشريف الإمام والعشور في سيرة
الملك المنصور (القاهرة ١٩٦١م)، سيورد باسم
تشريف المقدمة، ص ٩، الروض الظاهر في سيرة الملك
الظاهر، الرياض (١٣٩٦هـ) سيورد، الروض، ص ٩.
- (٢) دائرة المعارف الإسلامية (الطبعة الإنكليزية)، ط ٢،
لين ١٩٦٠م، سيورد E/2 (مادة ابن عبد الظاهر)،
ج ٣، ص ٦٧٩ - ٦٨٠.
- (٣) تشريف، ص ٩.
- (٤) مادة «بيبرس المنصور»، ج ١، ص ١١٢٧ (E/2).
- (٥) المصدر نفسه، ص ١١٢٨، ابن الفرات، تاريخ ابن
الفرات، ج ٩ بيروت ١٩٦٦م، سيورد بتاريخ، ج ٨،
ص ٣٦: المقيزي، كتاب السلوك في معرفة دول الملوك،

وجهاً نظر مختصرة، وملحقاً بالأحداث والتطورات
السياسية [٤٢].

وضع Stanley Lane Pool ستانلي لين بول
كتاباً بعنوان (History of Egypt in the Middle
Ages) ونشر بعد كتاب ميور، وعمل بول أكثر تنظيماً
مقارنة مع كتاب ميور، وقدم مواد في ترتيب ونسق
تاريخي في المعلومات فضلاً عن إنجازات قلاوون في
البناء وال عمران، وتطرق إلى إنجازاته الأخرى ومنها
الضريح الضخم لقلاوون نفسه [٤٣].

وتبعتها كتابات أخرى من باحثين غربيين ممن
وضعوا لمسات أخرى على تاريخ الأسرة الملوكية منها
كتاب Robert Irwin روبرت إرون وعنوانه :

(The Middle East in the Middle Ages:
The Earlu Mamluk Sultant, 1250 - 1382)
وكتب فيه عن قلاوون وسلاطين أسرة المماليك البحرية،
ونوقشت أعمال وإنجازات قلاوون في عدة أجزاء من
الكتاب، ووضع فيها تمهيدا تحدث فيه عن تنويع
قلاوون ووصوله للحكم ثم أبنائه من بعده . . والشيء
المهم في هذا الكتاب هو مناقشة إرون لتجنيد المماليك،
وانتماءاتهم تحت راية هذه الجماعة أو تلك داخل القصر
الملوكي السلطاني، وتطرق أيضاً إلى علاقات الأسرة
القلاوونية مع الصليبيين والقوى المسيحية الأخرى،
واعتمد المؤلف على مصادر صليبية معاصرة
مختصة [٤٤].

أما P. M. Holt هوات فقد وضع كتاباً بعنوان :
(The Age of the Grusades: The Near)

- ج ٢، بيروت، دوت، سيورد، بالسوك، ج ١، ص ١٣١.
- (٦) السوك، ج ٢، ص ١٠٢.
- S.F. Sadeque, Babars of Wgypt, P. 64., D. P. Little, An Introduction of Mamluk Historiographu, Montreal, 1971.
- (٧) بيجرس المنصوري، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، المكتبة البريطانية (سيورد) الزبدة رقم Add 33325
- (٨) المعلومات هذه عن قلاوون وبيبرس يمكن مراجعتها في ٤١٦ - ٨٨٨ المصدر نفسه.
- (٩) رضا كحالة، معجم المؤلفين، بيروت، ١٩٥٧م، ج ١، ص ٧٦.
- (١٠) ابن الصقال، تالي كتاب وفيات الأعيان، دمشق، ١٩٧٤م، سيورد (تالي) ص ١٢٩ - ١٣١.
- (١١) ابن كثير، البداية والنهاية، ج ١٤، بيروت، ١٩٦٦م، سيورد (تالي)، ص ١٤، ص ١٢٦؛ ابن العماد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، القاهرة، ١٣٥١هـ/ سيورد (شذرات)، ج ٦، ص ٧٢: أنظر: ابن حجر العسقلاني، الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة، حيدر آباد، ١٣٨٤هـ، ج ٤، ص ٢٨٢.
- (١٢) تاريخ قلاوون، راجع اليونيني، نيل، ج ٤، ص ٣٣٢.
- (١٣) Litt, op. cit., P.57.
- (١٤) تاريخ، ج ٧، ص ٢٤١، ٨٦، ٢٠.
- (١٥) المصدر نفسه، ج ٧، ص ٢٤٢، ج ٨، ص ٨٠.
- (١٦) ابن حجر، المصدر السابق، ج ٧، ص ١٨٥ - ١٨٦.
- (١٧) شذرات، فوات، ج ١، ص ٢٨؛ السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، القاهرة ١٩٦٤، ج ٢، ص ٨٤.
- (١٨) شذرات، ج ٦، ص ١٩٨؛ Litte, op. cit., P.42
- (١٩) أبو الفدا، كتاب المختصر في أخبار البشر، ج ٤، ١٨٦٩م، سيورد المختصر، ج ٤، ص ١٣ - ٢٥.
- (٢٠) ابن الدوادري، كنز الدرر وجامع الغرر، ج ٩، القاهرة ١٩٧١م، سيورد (كنز)، ج ٨، ص ٣٣١ - ٣٠٣.
- (٢١) المصدر نفسه، ج ٨، ص ٤١، ١٥٤، ١٧٧.
- (٢٢) مادة دابن الدوادري، ج ٢، ص ٧٤٤.
- (٢٣) شذرات، ج ٢، ص ١٥٣ - ١٥٤.
- (٢٤) السبكي، المصدر السابق، ج ٥، ص ٢١٦ - ٢١٩.
- (٢٥) الذهبي، كتاب دول الإسلام، سيورد (دول)، ج ٢، ص ١٣٨ - ١٤٦.
- (٢٦) ابن خلدون، كتاب العبر، ج ٧، سيورد (العبر)، ج ٥، ص ٣١٨ - ٣٦١.
- (٢٧) شذرات، ج ٧، ص ١٥٥.
- (٢٨) شذرات، ج ٦، ص ٢٠٢.
- (٢٩) مادة (الكتبي) ص ٧٥٠ - ٧٥١.
- (٣٠) فوات، ج ٢، ص ١٤٠.
- (٣١) شذرات، ج ٦، ص ٣٠٢.
- (٣٢) فوات، ج ٢، ص ٢٦٩ - ٢٧٠.
- (٣٣) البداية، ج ١٣، ص ٢٨٨ - ٣١٧.
- (٣٤) فوات، ج ٦، ص ٢٦٩.
- E. A. Short, Some Unpublished Sourees for the Bahri Period, in: Scripta Historaly Mitana, Vol. LX, 1961,P.14.
- (٣٦) تاريخ، ج ٧، ص ١٥٢ - ١٨٧.
- (٣٧) بيبرس، ص ١٥.
- (٣٨) السخاوي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٨٦.
- (٣٩) شذرات، ج ٧، ص ٧٢، السخاوي، المصدر نفسه، ج ٤، ص ١٤٥.
- (٤٠) فوات، ج ٧، ص ٧٦.
- (٤١) تاريخ قلاوون، نبيان، ج ٥، ص ٣٩٤ - ٤٠٣.
- (٤٢) المصدر نفسه، ج ٥، ص ٤٠٠.
- (٤٣) المصدر نفسه، ص ١٨٤.
- (٤٤) (القلقشندي) ج ٤، ص ٥٠٩ - ٥١٠.
- (٤٥) صبيح، ج ١٤.
- (٤٦) (القلقشندي)، ج ٤، ص ٥٠٩.

الأستاذ الأديب الصحفي النابه، العالم المحقق
المدقق، الأثرى المؤرخ، اللغوي المجمعى الأستاذ عبد
القدوس بن القاسم بن محمد بن محمد الانصاري
الخرزجي.

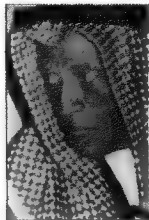
ولد في المدينة المنورة على ساكنها أفضل
الصلاة وأزكى التسليم، وكان مولده في عام
١٣٢٤هـ..

توفي والداه ولم يتجاوز السادسة من عمره، كفله
عمه وشيخه العلامة الشيخ محمد الطيب الانصاري
عالم المدينة المنورة.. ووالد الأستاذ الدكتور/ عبد
الرحمن محمد الطيب الانصاري.

تلقي علومه الدينية واللغوية والتربوية على يد
شيخه وأستاذه العلامة الشيخ محمد الطيب
الانصاري في المسجد النبوي الشريف، حيث كان
بداية خطوه نحو المجد.. وأنعم بها من بدايه ٠٠ بل
انها بداية الخير والفال الحسن في جوار الرسول
الاعظم سيد ولد آدم أجمعين، عليه وعلى آله
وصحابته وانصاره أفضل الصلاة وأزكى التسليم.
بدأ الدراسة وعمره لم يتجاوز الخمس سنين،
وفيها حفظ القرآن الكريم، وأعقبه بحفظ المتون في
علوم التفسير والفقه والحديث واللغة.

التحق بمدرسة العلوم الشرعية في المدينة
المنورة، وقد أنشأها فضيلة السيد احمد الفيض
أبادي، في عام ١٣٤١هـ، وتخرج فيها في عام
١٣٤٦هـ بتفوق وامتيان.

في غرة شهر رمضان ١٣٤٦هـ، عام تخرجه عُيِّن
موظفا في إمارة المدينة المنورة برغبة شخصية من
وكيل الامارة ٠٠ وفي ذات الوقت رغب إليه السيد
احمد الفيض أبادي مؤسس وصاحب (مدرسة العلوم
الشرعية) أن يكون استاذاً للأدب العربي فيها ٠٠
وأنفذ رغبة أستاذه بالتوافق مع عمله في الامارة.
ظل يتقلب في وظائف الامارة حتى عام



الانصاري

١٣٢٤ - ١٤٠٣هـ

الأنصاري .. مؤرخاً مدخل لقراءة التاريخ والآثار .. في أعماله



السماني كمال الدين
(السودان)

- كان عضوا عاملا في عدد من المجامع اللغوية والعلمية في عالمنا العربي.
- له أكثر من عشرين مؤلفاً مطبوعاً .. ومجموعة من الكتب مخطوطة، نأمل ان ترى النور لأنها ستسد فراغاً في المكتبة العربية.
هذه الأسطر، أردت أن تكون مدخلا مبسطاً (للقراءة التاريخ والآثار عند الانصاري) من خلال المقالات التي كتبها الأستاذ عبد القدوس الانصاري في مجلته المنهل .. ولما كانت مقالاته ودراساته في مجال التاريخ والآثار المنشورة في مجلته المنهل تمثل (عقداً فريداً) في بابها، فلا أقل من أن أتخيز نماذج يسيرة منها لاطاء القارئ فكرة سريعة عن بعض مضامينها، مع التركيز المبسط أيضاً - على أسلوب التناول والطرح عند الأستاذ عبد القدوس الانصاري - عليه رحمة الله تعالى - وبحسب القارئ للأصاري ان يصحب موسوعيته أثناء قراءته.

*** التاريخ والآثار عند الأنصاري :

التاريخ والآثار والبلدان والرحلات، تمثل في مجموعها الميدان الفسيح لأعمال الأستاذ عبد القدوس الانصاري، فقد أنتج الانصاري في هذا الميدان (عشرة كتب مطبوعة) هي: (آثار المدينة المنورة - طريق الهجرة النبوية - بين التاريخ والآثار - موسوعة تاريخ مدينة جدة - مع ابن جبير في رحلته - تاريخ العين العزيزية - التاريخ المفصل للكعبة المشرفة - رحلتنا الثانية الى منطقة الباحة - تاريخ بنى سليم) .. هذا اضافة الى مئات المقالات والدراسات في هذا المجال وهي منشورة في مجلته المنهل .. ولا

١٣٥٩هـ، حيث نقل بعد ذلك الى مكة المكرمة في وظيفة رئاسة تحرير الجريدة الرسمية (ام القرى) وتم ذلك بإرادة ملكية - برقية - صدرت من الملك عبد العزيز الى امانة المدينة المنورة.

في عام ١٣٦١هـ، عمل في ديوان سمو الامير فيصل بن عبد العزيز في جده، وظل فيه حتى عام ١٣٨٦هـ. حيث تفرغ بعد ذلك تفرغاً كاملاً لمجلته المنهل التي سبق أن أسسها في عام ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٧م .. وظل يصدرها باستمرار رغم كل تلك المشاغل والوظائف والمهام، ورغم كل تلك التنقلات .. من المدينة المنورة الى مكة المكرمة، الى جده، كان ينقلها معه حيث كان.

استمر في اصدار مجلته المنهل حتى تاريخ وفاته في ١٤٠٣/٦/٢٣هـ رحمه الله وأحسن اليه .. ومن بعده تولى رئاسة تحريرها ابنه الوحيد الأستاذ نبيه بن عبد القدوس الانصاري، واستمر معها حتى تاريخ وفاته في ١٤٢٤/٢/١٣هـ رحمه الله واحسن إليه، ثم تسلم راية الجهاد والمجاهدة العلمية من بعده ابنه (زهير بن نبيه الانصاري) أطال الله في عمره، وبارك له في جهده وجهاده.

(راجع مجلة المنهل عدد الجمادان ١٤٢٦هـ) ص ١٤ - ١٩ من مقال بعنوان (الانصاري .. الرائد العماق) .. لكاتب هذه السطور.

- الشيخ عبد القدوس الانصاري، مشواره العلمي والأدبي والثقافي والفكري، والآثري والتاريخي والاجتماعي والصحفي واللغوي مشواره هذا كان أضعاف سني عمره.

- في مجلته المنهل كتب المئات من الدراسات والبحوث والمقالات في كل ما تقدم، وتتسم كتاباته بموسوعية معرفية متفردة ومتميزة.

- شارك في العديد من الندوات والمحاضرات واللقاءات العلمية والأدبية والفكرية، في داخل المملكة وخارجها.

ويمكن تلخيصها في الآتي :

- تمحيص التاريخ وكشف مخبآت الحضارات الغابرة، وتبيان وجه رقيها وإنحطاطها .
- تصور البلاد ضمن اطار حلقات التاريخ المتوالية المكتشفة بصورة علمية .
- تقييد الآثار في تنمية مصادر الثروة المادية والاقتصادية .

- المكتشفات الأثرية - لا شك - تضيف جديداً للمهندس المعماري وللفنان المبدع، وللإقتصادي وللعالَم والمؤرخ . كلُّ في مجاله، يأخذ من الأثر المكتشف ما يثير فيه روح الإبداع والاضافة والتجديد .
- الآثار المكتشفة تنمى الحركة السياحية في جانبها (التعريفي) بحضارة البلاد (والاقتصادي) ايضاً .

لهذا كله يرى الانصاري ضرورة تنظيم (اطلس عام) للمملكة، وهذا ما سبق به القول في عام ١٣٥٦هـ في مقاله لعدد المحرم . واكد هذا القول في مقاله المنشور في عدد ربيع الأول ١٣٥٨هـ .

هذا ما جاء في هذا المقال بعامة، وللإفادة أثبت هنا ما كتبه الانصاري إذ يقول: ويعد علم الآثار في طليعة العلوم الحديثة الجلية المنافع، لتمحيص التاريخ وكشف مخبآت الحضارات الغابرة وتبيان وجه رقيها وإنحطاطها وتطوير البلاد ضمن اطار حلقات التاريخ المتوالية . وهو علاوة على ذلك أحد مصادر الثروة المادية والاقتصادية الهامة ولهذا شد ما عنيت الأمم الناهضة في أرجاء المعمورة بالبحث عن الآثار في بلادها فتمحصلت من ذلك على نتائج قيمة جسيمة بالإشادة والتقدير، فقبل كل شيء استطاعت بفضل الله تعالى ثم بواسطة هذا العلم أن تثير صفحات تاريخها بصفة علمية لم

يغيب عنا مشاركاته الفاعلة في المؤتمرات والندوات الخاصة بتدوين تاريخ الجزيرة العربية .
الأثر عند الأستاذ الانصاري هو (التاريخ المشاهد المحسوس، التاريخ المعاش حقيقة عبر الحقب، لهذا فإن الآثار هي (شاهد الصدق) أن صح هذا التعبير، لوقائع الماضين، لذا، فأهميتها عند الانصاري لا تقل عن أهمية (شاهد أثبات ماثل أمامنا الآن) .

يقول الانصاري :

(ودراسة الآثار القديمة من شأنها أن تلقى الأضواء الكاشفة على الطرق السوية لتقدم الأمم، وتجنب العثرات والعقبات التي وقع فيها أسلافهم الأولون) . . (من أجل ذلك ارشد القرآن الكريم الى ضرورة النظر والتأمل في آثار الأمم الماضية والاعتبار بما حدث لهم وعليهم وأسباب حدوث ذلك لهم وعليهم، من خير وشر، وويلات ونكبات، وعقاب وعذاب)، المنهل: ص ١٣٤٤ / عدد شوال ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م .

والكتابة عن الآثار عند الانصاري ، تمتاز بغزارة المعلومات والكلمة المختارة، والوصف الدقيق، بل في كثير من الأحيان نجد مقالاته ودراساته في هذا الجانب تمثل مقطوعات أدبية رائعة، وهذا جانب لا يمكن اغفاله لمن يدرس رحلات الانصاري بخاصة، أو وصفه لمنطقة أو أثر أو بقعة من الأرض .
وسوف نستبين ذلك في بعض النماذج التي نشبتها في هذه القراءة .

* البحوث الأثرية وتجديد قراءة التاريخ :

في شهر جمادى الأولى ١٣٦٠هـ / مايو ١٩٤١م كتب الانصاري مقالا بعنوان (مزاياء البحوث الأثرية وتأليف لجنة للمباحث العلمية) ركز في هذا المقال على الجوانب الإيجابية المتوخاة من البحوث الأثرية .

المشار إليها خير قيام، مستقدمة الكتب القيمة القديمة والحديثة التي تبحث في تاريخ هذه البلاد وتبهر بمجمل أحوالها في العصور الغابرة، وتقوم هذه اللجنة برحلات علمية مزودة بالوسائل العلمية المساعدة على تنظيم البحوث العلمية والاستفادة من ورائها، وتقوم فيما تقوم به بتنظيم (اطلس عام) للمملكة، ثم تخرج للناس نتائج بحوثها جمعاء في مجلة دورية تنشر تباعاً تلك النتائج، انه لو تم ذلك لكان فيه ربح عظيم لقضية العلم والتاريخ عندنا وربط حلقاتهما الماضية بطقتهما الحاضرة هنا ربطا يستفيد منه المتعلمون والمثقفون والوافدون». ص: ١٠١ - ١٠٢
عدد جمادى الأولى ١٣٦٠هـ.

وفي عدد ربيع الثاني للعام ١٣٨٤هـ، يكتب الانصاري مقالاً بعنوان (لحات عن الآثار في المملكة العربية السعودية) ص: ٢١٥ - ٢١٨. وبعد حديث مطول عن آثار المملكة، وضرورة العمل على التنقيب عنها وإظهارها لما فيها (من روعة وعظمة وجمال) ص: ٢١٥ يؤكد أن الآثار تحمل جانبين هامين هما (التوجيه والتنبيه).

«فأما التوجيه، فتوجيه الانظار الى أن لدينا من الفنون كميات هائلة، وطاقات زاهرة جديرة بالدراسة والبحث والتنقيب، بعضها لا يزال مستقراً في أعماق الأرض ينتظر المنقبين والباحثين، وبعضها ظاهر في نقوش غريبة حفلت بها الجبال والصخور والدور والمعابد، وبعضها في أبنية شاهقة تدلنا على مدى تقدم الحضارة العربية البائدة التي سبق لها أن تركزت في هذه البلاد، وبعضها ماثل في أجساد عمالقة ضخام يعجب المرء من

يسبق لها نظير، بما تنطق به الآثار المكتشفة سواء منها ما كان مطموراً في طبقات الأرض، أو ما كان منقوشاً على الصوانط والصخور، أو ما كان مجموعاً ومحفوظاً في الدور.

وهكذا صحح العالم الحديث على ضوء علم الآثار الحديث كثيراً من النظريات والمسائل التاريخية التي كان يحيط بها سجب من غياهب الغموض، وسرعان ما انحلت بهذا التمهيم الجلى وسائل الترقية والتحسين على كثير من المرافق العمرانية والاقتصادية بكيفية باهرة وعناية حافلة. فان مشاهدة الرجل المعماري أو الاقتصادي للآثار العمرانية أو الاقتصادية الرائعة المكتشفة يحفز همته الى مضاهاته باتخاذها نموذجاً حسناً، ويحفز نشاطه الى الإرباء عليه بالنظر لما تجسد من نظريات وتحسينات، وهذا بعكس ما اذا قرأ البحوث الضافية المجردة حول هذا الأثر من غير مشاهدة له فإن ذهنه يتبلبل إزاء اضطراب الروايات واختلافها ويخرج بأصمالات النتائج وأوهاما.

وهذه البلاد - اثبت التاريخ وأيدت التجارب - انها مملوءة بالآثار على اختلاف أنواعها، ففي أرجائها من النقوش الأثرية ما لا تخفى أهميته وفي باطن أراضيها من الآثار العمرانية ما لو اكتشف لقلب كثيراً من النظريات العلمية السائدة عنها، وفي أنحائها النقائس المظمورة والتحف المجهولة، وكل هذا يكون مصدر ثروة علمية ومادية وأدبية غزيرة لو اكتشف ونسق ونظم وكتب عنه المؤلفات الضافية، فحينذا إنن أن تؤلف لهذا الغرض العلمى النبيل لجنة تسمى (الجنة المباحث العلمية) تقوم بالمهمة

سخاماتهم، ومنا تصديق الآثار ما روي عن

الاخباره ص ٢١٥ / نفس العدد.

عبد القدوس الأنصاري لاهتمامه المتزايد بالآثار والتاريخ، أشار في بعض كتاباته الى ضرورة انشاء جمعية للتاريخ والآثار .. وعندما قامت الجمعية بهذا المسمى، سعد بها واحتفى بها، ونشر نظام هذه الجمعية في مجلته المنهل في عدد شهر شوال ١٣٨٨هـ / ١٩٦٨م. كما كتب تحليلاً لنظام جمعية التاريخ والآثار بعنوان «على هامش نظام جمعية التاريخ والآثار» ركز فيه على نقاط لها أهميتها الملحة بالنسبة لدارس الآثار، منها:

- القيمة الحقيقية أن يكون الدارس للآثار من أهل الدار، ومرتبطة بمجدها ومآثرها.

- القراءة للآثار المستكشف ستكون صادقة وأمينه ما دام مستكشف وقارئ الأثر هو صاحبه.

- القراءة الصحيحة للآثار تفيدنا قراءة جديدة للتاريخ المكتوب، تصحيحاً وتصويباً أو إضافة، أو تعديلاً.

- زيادة الوعي بالآثار تعنى الارتقاء في سلم فهم جديد واع مدرك لدوره المنوط به.

اهتمام الأنصاري بالآثار والتاريخ كان مبكراً جداً، يرجع الى أيام الصبا والشباب، ومع الأيام والنجاح المتكرر المتلاحق في ملاحظاته ومدونات، تنامت وازدادت عنده رغبة الاستكشاف والرحلات، ودراسة ما يرى فيه جديداً، يفيد ويزيد.

** كتاب (آثار المدينة المنورة)

أنموذجاً .. لقراءة التاريخ من خلال الآثار ..

وكتاب (آثار المدينة المنورة) كان أول عمل تاريخي، وتحقيق أثري للأستاذ الأنصاري، وقد طبع الكتاب في عام ١٣٥٣هـ وكان قد بدأ العمل فيه قبل ثماني سنوات من تاريخ طباعته، أي في عام ١٣٤٥هـ.

وهو كتاب له قيمته العلمية، ويعد من أهم المراجع في بابهِ وقد رجع إليه الدكتور محمد حسين هيكل في كتابه (منزل الوحي) .. بل غدا من المصادر المهمة في بابهِ.

وكتاب (آثار المدينة المنورة) لعله كان رد فعل مباشر لما كان يقوم به المستشرق الانجليزي المستر (عبد الله فيليبي) .. إذ استفز الأنصاري - وهو الشاب الطموح - ان يجيء هذا المستشرق ليبحث وينقب في تاريخ وآثار المدينة المنورة، ثم يصبح ما يكتب هو مرجعنا الاساسي في تاريخنا وآثارنا، بعد أن ينفث السم في الدسم - كما يقولون -

ويحسن بنا أن ندع الأنصاري يحكى لنا بنفسه تلك الواقعة إذ يقول:

«في ذلك الصيف القائن كان قد حضر الى المدينة من نجد المستر عبد الله فيليبي المستشرق الانكليزي المسلماني وكانت عنايته بالآثار بالغة وكانت الآثار هجيراء وهوائيه إذ ذاك .. وكانت له فيها مؤلفات كتبها ونشرها بلغة الانكليزية، وكان يحسن اللغة العربية العامية وكان لسانه الكن، ولا يقيم بعض حروف اللغة العربية كالعين والحاء الا بتكلف شديد ظاهر .. وكان كثير التجوال في ضواحي المدينة وجبالها وأوديتها وحرارها التاريخية والآثرية لا يعوقه حر شديد ولا برد قارس .. وكان في كل ليلة يحضر الى مجلس الأمير عبد العزيز بن ابراهيم فيحدث بما رأى وما عمل، أثناء تجولاته الآثرية في شمال المدينة.

وكان يتحدث بكل أو بجل ما علمه أو رآه أو استكشف يتحدث بذلك الى معالي الأمير عبدالعزيز بن ابراهيم، بصوته الجهوري الأجش وكان الأمير يصغى اليه بقلبه ويسمعه لأنه كان ممن يحب العلم - يلتقطه من أي لسان أو انسان



نظري.
وقد كان
باكورة تلك
البحوث
المطردة
عدة سنين
بالمدينة
المنورة
كتاب (آثار
المدينة

المنورة) وما بعده من كتب وما كان أثناء ذلك
وبعده من مقالات منشورة في الصحف
والمجلات وبخاصة مجلة «المنهل» أول مجلة
تبنت علم الآثار في المملكة العربية السعودية،
المنهل: ص ٨٢١ / نفس العدد السابق.

** نماذج من جهود الأنصاري في الآثار :

الأنصاري يرى أن تاريخ الجزيرة العربية لا يزال
يلفه الغموض، ويحتاج لعمل جماعي مدروس من قبل
المختصين لتجليته، وفك رموزه، وتبيان غوامضه.

** جولة في جبل عار :

في رواسته المعنونة (جولة في جبل عار)
المنشورة في المنهل عدد المحرم ١٣٥٦هـ .
تناول هذا الموضوع لأهميته: ويرى (٠٠) أن
تؤلف -بعثات أثرية- من أساتذة المدارس
الحجازية حكومية وأهلية، وينضم إليها فريق
من الأدباء المتنازين والكتاب المحققين، وتتجول
هذه البعثات في كل الأماكن المظنون أن بها
آثاراً تاريخية هامة . . مسترشدة بمؤلفات
المؤرخين الذين كتبوا في تقويم البلدان،
وتعريف المواقع التاريخية . . ويكون لهذه

ويناقشه في بعض الأمور وربما وجه السؤال
الي أثناء نقاشه له عن أسماء لبعض الأماكن
والمواقع الأثرية بالمدينة، فأجيبه بما لدي
المنهل: ص ٨٢٠ / عدد ذو القعدة ونو الحجة
١٣٩٩هـ / أكتوبر نوفمبر ١٩٧٩م .
ويقول :

«وفي ذات ليلة سمعت قلبى يقول لمعالى الأمير
.. انني اليوم اكملت ترتيب بصوثى في
التاريخ الأثرى لهذه المدينة . . وسأرحل عما
قريب الى لندن لأطبع مؤلفى عما حققته من
الآثار الإسلامية في الجاهلية وفي عصر
الرسالة وما بعده في المدينة، وكان الأمير
يصغى بكل يقظه وانتباه الى حديث عن آثار
المدينة الكامنة في جبالها ورمالها وأوبيتها . .
ويبدو لي بعض إعجاب مزوج باستنكار في
نظراته اليه وهو يتحدث وكنت كذلك أصغى
الى حديثه ببالغ القیظة والشعور المرفهين .

والقد كان الدم يغور بين جوانحي . . آنذاك . .
حسرة وأسى على ما أسمع وأرى . . وتقول
لى نفسى في عتب جارح: كيف تتوانون في
استكشاف آثار هذه البلاد المقدسة وتتركون
مثل هذا الانكليزى المسلمانى يستكشفها بين
ظهرانكم وأنتم صامتون وينشر عنها بلغته
الانكليزية في بلاد الانكليز وتنتشر مؤلفاته في
العالم وتضطرون آخر الأمر أن تلتمسوا
ترجمتها الى اللغة العربية، لتدركوا
موضوعاتها؟ كيف يصح هذا منكم؟

لقد كان عتبا حساسا أو بالأحرى كان تأنيب
ضمير شديد الواقع . . وفعلًا كان له تأثيره
المباشر، فقد قررت في نفسى أن أبدأ من
يومئذ بمحاولات تهدف الى استكشاف آثار
المدينة المنورة من سبيلين: سبيل علمى وسبيل

الحاضرة بقيض زاهر، وبطاقة هائلة من
الاشراق والحيوية، نتيجة وعى الجيل الحاضر
والاجيال التالية للأسس والقواعد التي بنيت
عليها صروح حضاراتهم، ص ١٣٤٤/ نفس
العدد.

رابعا : ملاحظة الأنصاري التي دعا فيها الى أن
يكون ضمن اللجنة العلمية المؤلفة لقراءة الآثار تلك، أن
يكون فيها مجموعة من كبار الأدباء والمثقفين.. وهذه
ملاحظة غاية في الدقة، ذلك لأن قراءة الأثر لا تقف
عند المختصين به فحسب، بل الأدباء والمثقفون أيضاً
لهم قراعتهم في هذا الأثر.. وقد تتمخض قراعتهم هذه
عن رسم لوحة (بالكلمة) مثبوتة أو مشعورة، تضيف
لهذا كله بعداً جديداً.

ويؤكد ما ذهب إليه ما يفعله الأنصاري نفسه، إذ
يصف لنا الأثر الذي بين يديه وكأنه بين أعيننا الآن، بل
إن الأنصاري في كثير من اوصافه الأدبية تلك، يشوقنا
لرؤية موصوفه.. ولنضرب مثلاً لما نقول بهذا الوصف
الدقيق الرائع لشجرة (الغُلثى) التي رآها ضمن
مجموعة اشجار في جبل عار.

يقول الأنصاري : «وما استرعى أنظارنا في
عار شجيرة بالغة في الجمال اللونى والشكلى
معاً، لها ساق قويم كعمود المرمر النقى البياض،
وتقوم فوق هذه الساق كتلة من الزهر أثمدية
اللون متجمعة من زهرات بهذا اللون».

وقد راعى منظر هذه الشجيرة الغربية لأول وهلة
إذ كدت أخال أنها قطعة من الديباج الأحمر
شدت فوق هذه الساق بوضع هندسى محكم
جذاب، أو أنها كمة (طاقية) شديدة الاحمرار،
ضارب احمرارها الى السواد، وضعت فوق
رأس هذه الشجيرة لتحميها من وهج الشمس
وتأثير تيار أشعتها القوي» ص ١٠/ نفسه.

البعثات نظام دقيق في التنبؤ والتصوير..
وتخرج من ذلك اسفاراً تاريخية جلية، بصفة
مدرسية سهلة الاسلوب واضحة التركيب..
وبصفة علمية جامعة شائقة.. مما ألف بالكيفية
المدرسية يقرر في مدارس الحجاز ليطلع النشء
الحديث من تاريخ بلاده الذهبي ما جهله من
تقدمه، وما ألف بالصفة العلمية يستتير به
الباحثون وطلاب العلم في المعمورة، ص ص ٨ - ٩.

وهذا النص نفيده منه مجموعة من الملاحظات، هي
من الاهمية بمكان:

أولاً : ضرورة دراسة الآثار دراسة دقيقة
متخصصة من قبل علماء الآثار، ذلك لأنهم أعلم من
غيرهم بكيفية قراءة الأثر قراءة فنية مهنية، وفك
رموزه.

ثانياً : من هذه الدراسات المتخصصة في الأثر،
تستخرج ملخصات مبسطة ميسرة في صياغتها ليفيد
منها طلاب المدارس في هذه البلاد، بغرض الوقوف
على ماضى وسالف حياة سابقينهم، وفي هذا العبرة
والعظة بمعرفة سنن الماضين.. وهذا بدوره يسد ثغرة
مهمة في تلقين تاريخ هذه البلاد لابنائها، بدلا من
تلقينهم تاريخ الآخرين مما لا يمت لهم بصلة.

ثالثاً : الاحتفاظ بالأثر نفسه في متاحف مفتوحة
يفيد منها الجميع.. وتأكيدا لهذه الملاحظة فقد سعد
الأنصاري كل السعادة عندما أنشأ الاستاذ عبد الله
خوجه (متحف مكة المكرمة) وزار ذلك المتحف وأعجب
بمحتوياته وكتب عنه استطلاعاً مصوراً مطولاً في عدد
شوال للعام ١٣٨٩هـ / ١٩٦٩م، وجاء في مقدمته لهذا
الاستطلاع:

«فكرة إنشاء المتاحف التاريخية لحضارات الأمم
السالفة من أهم الفكر لتزويد الحضارة

في جواته تلك يحدثنا عن جبل عار أولا، ويعرفنا به «هو سلسلة هضبات متصل بعضها برقاب البعض، تبعد عن المدينة جنوباً بنحو ١٩ ساعة يسير القوافل الحجازية، وينحو ساعتين ونصف ساعة يسير السيارات في الوقت الحاضر... وهذه السلسلة من الهضبات يخترقها الطريق الذي يوصل بين مكة والمدينة، وتظن قبيلة الرحلة الحربية في هذه المنطقة الآن، ويحدثنا التاريخ بأنها كانت من منازل قبيلة مزينة» ص ٢/ نفسه.

هذا ما قاله الانصاري عن الطبيعة والبيئة وقاطنيتها... أما عن الآثار التي وجدها في جبل عار فيقول: انها (صخور أثرية بديعة، منقورة بالمسار على طريقة العرب الأولين، وهي بالخط الكوفي القديم) ص ٤/ نفسه.

ويقول: (وعجبت من ضخامة حروفه وانتظام تركيبه، وخلوده واحتماله لموادي الأيام وتقلبات الاجواء وقسوة الحر والبرد) ص ٤/ نفسه... وهذه الخطوط متشبكة مهمة من التتقيط... وهذه الخطوط المنحوتة في الصخر كتبت بتاريخ (خمس وثمانين وخمسائة) حسب النص الوارد فيها، ص ٥/ نفسه.

وبعد قراءته للآثار المخطوط، يستنتج الانصاري أمرين مهمين:

الأول: اشتهار هذا المهراس في تلك العصور بسبب عمران هذا الجبل بالقطان والرواد المتزهرين.
الثاني: غاية الناس بهذه الصخرات العظيمة النساء المصقولة بنقش اسمائهم ودعواتهم لأنفسهم وصلواتهم على النبي (صلى الله عليه وسلم) عليها... ومن هذا يفهم انها متأخرة في انظارهم، إذ ترى كثيرا من المسلمين الى يوم الناس هذا يكتبون

ويضيف (وشجرة الغلثى هذه شبيهة الشكل بالصبار المعروف، فيما عدا زهرها الموصوف، فهذا الزهر اثمدي اللون مكون من عدة زهرات مخمسة الاوضاع في وسط كل واحدة منها نوار صغير ناصع البياض، يبدو لشدة بياضه وسواد ما حواليه ذا بريق وسطوع كالنجم اللامع في السماء في ليلة ظلماء، ويحكى في هيئته وصفه عيون العناكب وهي بريقه اللامس الابيض. وقد لاحظنا تجمع الزباب على هذه العيون خاصة ففهمنا بطريقة الاستنتاج ان طعامها حلوى. لأن الزباب لا يتجمع عادة إلا على ما كان من هذا القبيل» ص ص ١١ - ١٢/ نفسه.

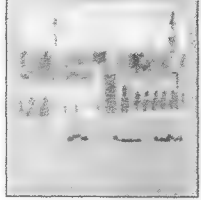
وقد علم الانصاري بعد سؤاله الاعراب عن هذه الشجيرة فأخبروه بأنها شجيرة سامة، القليل من سمها يكفي لقتل الضاري من السباع، ص ١١/ نفسه.

ومن هذا النص ندرك أهمية وجود أديب بارع في مثل هذه الوفود.

ومن هذا النص أيضا نعلم أن الأنصاري لا يقصر ملاحظاته وقراءاته واستنتاجاته على الأثر الذي جاء من أجله، بل نجده يلاحظ ويستقرئ كل البيئة المحيطة به، وبيئة المنطقة بكاملها... وهذه سمة مضطردة عند الانصاري، نلاحظها في الكثير من رحلاته، الباحث فيها عن الآثار وغيرها.

ومن جواته هذه التي بين أيدينا، بالإضافة الى وقوفه عند شجيرة الغلثى، نجده يحدثنا عن الرخام الموجود في جبل عار، ويحدثنا عن شجر البلسم، ويحدثنا عن الاعشاب البرية الزاهية الالوان، العطرة الرائحة، المتجمعة حول مساقط الامطار في منحدرات هذا الجبل.

المنيرة



نحواً مما ذكر على
جدر المساجد
الماثورة والأماكن
المقدسة)
ص ٦/ نفسه.

الأنصاري
نجدته دائماً يبحث
عن أثر هنا وأثر
هناك، ويركب
الصعب، ويقطع
المفاوز، يعتلى
الجبال والتلال،

ويهبط الأودية، بغية العثور على أثر متوقع، قرأ عنه، أو
سمع به، وكثيراً ما يعرض حياته للخطر في سبيل هذا
الكشف والبحث والتنقيب.

هناك في (تيماء) مثلاً نجدته يعثر على قطعة أثرية
مستديرة الشكل يرجع تاريخها إلى ما قبل الميلاد، وقد
تحدث عن هذا الكشف في عدد المنهل لشهر ذي الحجة
١٣٨٢هـ ص ٧٤٠.

* الجبل المتوهج * وعناء البحث :

ويجدر بنا هنا أن نسجل طرقاً من معاناة
الأنصاري في البحث عن الآثار والتنقيب عنها، إنه كان
شاباً مغامراً، يسوقه من ورائه طموح علمي لا يفتر .
في عدد ربيع الثاني ١٣٨٤هـ ص ص ٢١٥ -
٢١٧، تحدث الأستاذ الأنصاري عن (الجبل المتوهج)
وهذا المقال يمثل واحداً من المتاعب والمخاطر التي
واجهها في الكثير من رحلاته بحثاً عن المجهول.

- يقول في هذا المقال :

وإنني لا أنزل أنكر ذلك الجبل المتوهج الذي
كنت نهبت إليه منقداً على غير سابق معرفة به

ممتطياً حماراً ومعلقاً عليه خرجاً به بعض الزاد
اتبلغ به، وركوة صغيرة فيها شيء من ماء أبل به
ظمائي احتياطاً، وهراوة صغيرة، وكان الوقت
قيظاً محرقاً، والسوموم لافحاً، لقد نحوت صوب
جنوب المدينة المنورة متتبِعاً طريق الحصة:
الطريق النبوي إلى المدينة المنورة في هجرته
[صلى الله عليه وسلم] إليها من مكة المكرمة مع
صاحبه الصديق رضى الله عنه، وعلى ذلك تركت
مسجد قباء وقرية قباء خلفي، وتوغلت في
الجنوب، ولقد مررت على هضبات بكن وجبال
سود وحمير، ومضيت حتى كان جبل عير ورائي
واستمررت زهاء أربع ساعات في سير متواصل
على أرض موحشة لا أنيس فيها ولا طير ولا
شجر... ثم التعم أمامي جبل صغير، فقلت ما
هذا؟ وحشيت السير صوبه باهتمام، فلما دنوت
منه بدا لي أنه جبل أسود رصعته يد القدرة
الالهية بهذه الحجارة البراقة الالاسية.

ولقد نزلت وربطت الحمير وتقدمت نحو قمة
الجبل، وراعى عند سفحه حيوان أخضر يتقدم
نحوي في هجوم خاطف، فتناولت حجراً ورميته
به بشدة، فما كان منه إلا أن وثب وثبة عالية،
وما كاد حجري يلامس الأرض حتى تناوله بفمه
وعضه عضاً قوياً، ومن ثم اتبعت الحجر بحجر
آخر، فكان منه مثل ما كان سابقاً، وهنا تركت
له الميدان، إذ خشيت أن يكون ساماً وتوجهت
إلى ناحية أخرى من الجبل، وتمشيت على سطح
الجبل المتوهج، وكانت الساعة نحو الثامنة نهاراً
بالتوقيت العربي، وراعى منظر هذه القباب
اللاطئة التي تمتلئ بها نروة الجبل من حجارة
سود وحمير غير مشدبة فببت هكذا بدون ملاحظة
ولكنها مع ذلك متماسكة إلى أبعد حدود
التماسك بلدي بقائها هكذا طيلة خوالي القرون.

مجلته المنزل وهو بعنوان (شذرات منسقة عن مدينة جدة عبر التاريخ قديماً وحديثاً) المنشور في العدد الصادر في شهر جمادى الآخرة ١٤٠٠هـ، مايو ١٩٨٠م في الصفحات ٣٥٨ - ٣٦٤.

في هذا المقال المطول تحدث الأنصاري عن تاريخ تأسيس مدينة جدة، ومؤسسيها، وعمرانها، وسورها ومينائها، ومن تحدث عنها من المؤرخين . ثم يحدثنا عن جهوده الشخصية في استجلاء آثار الميناء القديم لمدينة جدة.

عن بناء مدينة جدة وتأسيسها يقول الأنصاري:

«... ولقد بنيت جدة من قبل ألفي عام، وكان لتعميرها الأول أيضاً طابع خاص بها، فإن المؤرخين العرب ذكروا أن أول من قام بتعميرها رجال من فارس، هوجمت بلادهم المماثلة لوضع جدة من ناحية كونها على ساحل البحر، فنزحوا عنها، وقدموا الى المكان الذي أصبحت تحتله جدة فيما بعد فبنوها به، وكان هؤلاء الرجال من أهل سيرا، ولما اتموا بنائها وكان حولهم قبائل من الاعراب خافوا من مهاجمتهم اياها، فبنوا عليها سوراً ليس ككل الاسوار المعهود بناؤها على المدن التي كانت عرضة للاعتداء عليها قديماً . لم يقيموا عليها سوراً من جدار حجري أو من طوب أو من لبن ... بل لقد أقاموا سورها الأول «خندقاً» مائياً محيطاً بجوانبها وعمقوا حفرة ثم جروا اليه بواسطة مجرى خاص من مياه البحر الأحمر المتدفقة، وامتلأ الخندق بمياه البحر، برز ذلك السور الغريب الكيان للعيان في بلاد العرب لأول مرة على ما يبدو لي» ص ٣٥٩.

نفس العدد.

ويذكر الأنصاري، أن لجدة مينائين بحريين

وقد أجهدت نفسه في أن أخرج بيدي بعضها لتفتح لي نافذة أطل منها على ما وراءها... وبعد جهد شاق تمكنت من ذلك، فاطللت على داخل القبة، فإذا هياكل ثلاثة أو أربعة لعمالقة طوال ضخام معدة في داخل القبة وتحتها بطحاء ناعمة صفراء جافة... كانت الهياكل العظمية هذه بيضاء معدودة بجانب بعضها، الرؤوس عند الرؤوس، والاقدام عند الاقدام، وكانت سليمة الأجزاء شبه مترابطة، وإن فُتيت منها العروق واضمحلت العصب والحم، ونهبت الى قبة أخرى مماثلة فكان الأمر على نفس الحال، والى ثالثة ورابعة، وعندها اندركت بطبيعة الحال أن هذه جبانة عتيقة في مطوى الزمن البعيد لمدينة عمالقة تجاور هذه المقبرة في مكان ما من هذه المنطقة، لا محالة، وكنت مشتاقاً الى اكتشاف المدينة المجهولة، ص ص ٢١٥ - ٢١٦/ نفسه.

هذه الكلمة التي اجترأناها من مقال طويل، إضافة الى قيمتها العلمية، فهي قطعة أدبية، أجاد فيها الأنصاري وصف المكان والأشياء، بل وصف حالته النفسية أيضاً وهو في جوف صحراء موحشة... ورغم كل هذه المتاعب يواصل مشواره العلمي الاستكشافي، انه العزم والتصميم وقوة الارادة.

※ التحقيق التاريخي في الاماكن والبلدان :

في جانبي تحقيق التاريخ، وتحقيق الآثار، نجد للأستاذ عبد القدوس الأنصاري باعاً طويلاً... وكتابات في مجالي التاريخ والآثار عديدة ومتنوعة، إذ تضم البلدان والاماكن وتشمل جهوده الشخصية في الآثار والحفريات، وهذه هوايته منذ يقاعته. وفي هذا المجال نطالع مقاله الافتتاحي في

الكبير باحثاً عن ذلك الميناء الجميل الهادي -
الذي وصفه الرحالة - وبينما كنت أتجول هنا
وهناك وقفت مصادفة على بناء ميناء عتيق مرتفع
عن سطح البحر، يكاد يغمر البحر الزاخر
جوانبه لولا تماسكه وارتفاع قده، واستحكام
قواعده وجدرانه مما حماه من الذوبان تحت
سياط أمواج البحر الكبير ليل نهار» ص ٣٦٢،
العدد نفسه.

لقد قلت في نفسي لعل هذا هو ميناء ابصر
الموصوف: وتابعت التحقيق الواقعي فوجدت قطع
خشب ضخمة به مسمرأ فيها مسامير ضخمة
ومثبتا بها حلقات من حديد كبيرة وأسيان
ضخمة من حديد صديء قديم.

وتابعت التحقيق قديماً أيضاً حتى بدا لي تماماً
أن هذا هو ميناء أبصر القديم المنشود، ومن ثم
صورته ونشرت الصورة وشرحتها والتحقيق عنها
في كتابي (مع ابن جبير في رحلته)، ص ٣٦٢،
نفسه.

*** نماذج من دراساته في التاريخ :
«أضواء على تاريخ هذه البلاد» :

مقال مفصل للتاريخ القديم لمنطقة الجزيرة العربية
بعمامة، والمنطقة الممتدة بين (نجد والحجاز) بخاصة مع
امتدادهما - - نشر المقال في عدد شعبان ١٣٧١هـ/
أبريل ومايو ١٩٥٢م - ويمكن أن نسجل اضاءات لهذا
المقال في التالي:

- المنطقة الممتدة التي توصل بين نجد والحجاز هي
المنطقة التي نشأت منها الحضارة فيما قبل التاريخ.
- جزيرة العرب هي المهد الأول للساميين عموماً،
ولأن الساميين بناء الحضارة، فهي اذن مهد الحضارة
العالمية.

ويسوق بعض الأسباب ليؤكد بها قوله هذا، منها:

«أحدهما يقوم في منطقة البحر الأحمر بساحله الأبعد
عنها في الغرب الشمالي عنها، والآخر يقوم بساحله
الملاصق للمدينة الاقرب إليها من ذلك» ص ٣٦٠ -
ويذكر ان «الميناء الأبعد عن جدة هو ميناء أبصر» ص
٣٦٠ نفس العدد.

الانصاري لم يكتف بمجرد الدراسة التاريخية
لميناء أبصر، بل عمل على الحفر والتنقيب بنفسه في
المنطقة المذكورة ليقف على حقائق اضافية ولتحقق
بنفسه أيضاً من صحة المعلومات التاريخية، وقد قام
ببعض الحفريات، نتج عنها انه وجد «في بعضها بعض
زجاج اسلامي عتيق» ص ٣٦١، نفس العدد.

ويقول الانصاري «ثم كانت المفاجأة الكبرى لي
عندما حفرت بعض قطعة الأرض التي افضل
جلالة الملك الشهيد فيصل بن عبد العزيز عليه
الرحمة والرضوان بمنحها لي على ساحل الخليج
الجنوبي منه، بعمق يصل نحو أربعة امتار،
فوجدت بأن سوراً من الحجر الأسود الدبش
يقوم من اعماق هذه البقعة الجرداء الى سطح
الأرض وارتفاعه نحو ثلاثة امتار من تحت
سطحها الحاضر.

وعندئذ أيقنت نتيجة لهذا الكشف انه كان يقوم
على أرض أبصر عمران قديم طمرته سيوله
ورياحه وابتلعت جنادله وتعاونت مياهه للمح
وسباخه المتراكمة على كيانه فاصبح كتلة
صخرية متصلبة متماسكة كأنما صب عليه
الرصاص المذاب صباً فاصبح نتيجة كل تلك
العوامل تكتلا حجرياً هائلا مكذا» ص ٣٦١ -
٣٦٢.

«ولقد تابعت ملياً بحوثي العملية رجاء أن أعثر
على أشياء أثرية ثمينة في اماكن أبصر القريبة
من سطح الأرض» - وذات يوم نهبت الى البحر

- ان الجزيرة العربية عرف فيها التعدين والزراعة والصناعة والتجارة وسائر مقومات الحضارة.

يقول الأنصاري في هذا :

«إذا رجعنا الى أقوالهم - أي المؤرخين - ومشاهداتهم وجدنا أن هذه المنطقة هي أحفل المناطق العربية بالمناجم الذهبية وغيرها . فما أكثر المناجم التي يصفونها بأنها في أرض كعب بن كلاب وغطفان وعبس وذيبيان وسليم، وهي تقع اواسط المملكة تأخذ باطراف من الحجاز وباطراف من نجد في الشرق، وفي الشرق الجنوبي، وفي الشرق الشمالي معاً» ص ٢٢٦، نفسه .

- وثاني هذه الأسباب، أن هذه المنطقة كانت تجري فيها الانهار الفياضة، وكانت ارضها مروجاً خضرا - أهلة بالسكان .
- كانت للعرب إذ ذاك ممالك ودول ودساتير منظمة .

يقول الأنصاري في هذا :

«كما انه بهذه المنطقة الممتدة كانت تجري الانهار الفياضة التي قال عن احدها (هيريوتس) ٤٨٤ - ٤٢٥ ق.م انه نهر يسمى (كورس) وانه من الانهار العظيمة وانه كان يصب في بحر «اريتريا» . اي البحر الأحمر . . كما أن من هذه الأنهار نهر (L. A. R) الذي اشاد بطليموس (القرن الثاني الميلادي) بأنه ينبع من نجران ويسير في الشرق الشمالي حتى يصب في الخليج العربي، ويظن بعض الباحثين انه الذي كان يجري في وادي الدواسر وتلك كانت هذه الصحارى التي نشاهد اليوم ونشاهدنا

قبلنا الاجيال المعروفة فيما بعد التاريخ - كانت مروجاً خضرا، أهلة بالسكان وقد كان للعرب سكانها إذ ذاك علم واسع بتنظيم امور الري، وتدل الآثار التي عثر عليها الباحثون في الصخور وتحت الأرض على حضارة لهم زاهية في هذه الصحراء الجرداء من قبل حدوث الجفاف بها . . وكان للعرب إذ ذاك ممالك ودول قائمة على دساتير منظمة . . وقد عرف لديها الخط قبل أي قبيل أو أمة . . وناهيك بمنية الصفويين والفينيقيين ومن جاء بعدهم من العرب القدامى الذين انتشروا في اواسط الجزيرة وشرقها وغربها وشمالها وجنوبها، ص ٢٢٦ / نفسه .

ويقول: (وقد ظلت أخاديد الأنهار العظيمة بالجزيرة شواهد نواطق على تلك الحضارة الذاهبة، وناهيك بوادي الصخر، ووادي السرحان ووادي الرمة، ووادي الدواسر، وغيرها من الأنهار التي جفت وبقيت مجاريها أخاديد لسيول الامطار) ص ٢٢٧ .

«ثم يعم الجفاف هذه المنطقة بأسرها، وتخرب السدود العظيمة التي اقامها الاسلاف للاستفادة ازراعاتهم وصناعاتهم من السيول والانهار على النحو الذي يجري بعد ذلك في العالم» ص ٢٢٩ .

ويقول: (. . وقد عمت البداة أراضيها بعد ذلك بفعل اشتداد الجفاف، وضعف الحكومات، وتزعّم المشايخ، وانتشار اعمال السلب والنهب) ص ٢٢٧ .

ونتيجة لهذا الجفاف «الذي خيم على هذه البلاد بعد العصر الناضر، بدأت موجات الهجرات منها، فنزح الفينيقيون عنها بعدما عمروها وثمروها» ص ٢٢٧ .

يرفض هذا الرأي، بل يأخذ بما أكده القرآن الكريم بأنها «بيوت».

ويؤكد الانصاري في بحثه هذا أن تلك النحات في الجبال كانت بيوتاً وليست قبوراً،

ويرد على القائلين بأنها قبور لصفورها، يرد عليهم بقوله: «ان ضيق البيوت لا يدل دائماً على عدم صلاح البيوت للسكنى، وما نحن أولاء نرى في البلاد المكتظة بالسكان كيف أن أشخاصاً عديدين يسكنون غرفة واحدة، كل على قدر نومه وجسمه. وإذا ثبت علمياً أنها قبور من قارة النقوش التي عليها فالحق أحق أن يتبع، وهذا رهن باكتشاف جميعها» ص ٦٠/نفسه.

ويرى الانصاري أن القول بأنها قبور (نظرية واردة ووافدة من المستشرقين) ص ٦٠/نفسه. ويقول:

«ونحن علينا أن نأخذ معلومات المستشرقين بحذر خاصة فيما يتصل بديننا ولغتنا وأثارنا وبلادنا. وذلك من جهتين لا من جهة واحدة. اولهما: ان افهامهم بعض الاحيان ملتوية تغلب عليها طبيعة بيئاتهم، تشذ وتند عن الصواب الواضح الى الخطأ الفاضح.

وثانيتهما: الغرض الدفين طبعياً وتقليدياً بين جوانصهم، وواجب علينا اليوم وقد نهضنا من اغماقتنا الا نتكل على مجهوداتهم العلمية وحدهم، بل نسعى بانفسنا لكشف مخبات حضارتنا علمياً وعملياً وفكرياً وقولياً»، ص ٦٠/نفسه.

ينهب الانصاري الى أن «اصل ديار ثمود تقع في جنوب المملكة وانها كانت تعيش وتساكن عاداً... وأن حرباً بينهما هائلة نشبت أفتت فيها ثمود عاداً، واستوات على زمام الزعامة منها عنوة، ثم هاجرت الى الشمال من المملكة، حيث

وينهب الانصاري الى أن منطقة الحجاز تجد اعمارها على ثلاث مراحل متفاوتة - بهجرة سيناء ابراهيم - عليه السلام - اليها، حيث ترك زوجه هاجر وابنه اسماعيل، في مكة المكرمة، وشأت المشيئة أن تنبع الماء من تحت اقدامهم، ولهذا بدأت المنطقة تعمّر ثانية وجاءت اليها (جرهم) ومن بعدهم) راجع ص ٢٢٨، نفسه.

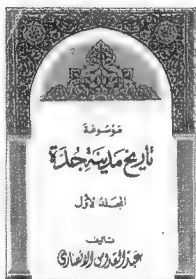
«الحجر» أو مدائن صالح

وهذا هو عنوان المقال المنشور في عدد رمضان ١٣٨٤هـ ص ٦٠٣ - ٦١٠. هذا مقال مطول ٠٠ بل هو دراسة عن مدائن صالح، استقرأ فيها الانصاري المصادر القديمة والمراجع الحديثة التي تحدثت عنها، من عرب ومستشرقين. وفي قراءته هذه يسجل رأيه الشخصي بدقة ووضوح، ويسند رأيه بما يبدو له من حقائق أوصله بحته الدقيق اليها.

هذا المقال، أو هذه الدراسة ان اردنا الدقة، جاءت تحت مجموعة من العناوين الأساسية وهي: الحجر في القرآن الكريم - الحجر في اللغة - الحجر في كتب البلدانيات - الحجر في البحوث الاقتصادية الحديثة - الحجر في الشعر الجاهلي - جبال الحجر - الخط الثمودي - اسماء الاشخاص الثموديين - اسماء الالهة الثمودية - الشهور الثمودية - حضارة ثمود.

هذه الدراسة جاءت في سبع صفحات متتاليات ٠٠ في بداية هذا المقال - البحث - أثبت الانصاري الآية الكريمة: (واذكروا إذ جعلكم خلفاء من بعد عاد ويؤاكم في الأرض * تحتون من سبيلها قصورا وتحتون الجبال بيوتاً).

أثار الانصاري رأي المستشرقين ورأى من تبع المستشرقين في ما ذهبوا اليه، بأن النحات الثمودية في الجبال ليست بيوتاً، بل هي قبور ٠٠ والانصاري



عند القرى والمدن
ويحدث عن
مسمياتها
وتاريخها، حسب
مقتضيات
الحديث .. وقد
يذكر أحداث
وقائع تاريخية
ارتبطت بهذه
المنطقة أو تلك .

عند (كراع

الغميم)، وهو على مسافة ربع ساعة من مدينة جدة في اتجاه المدينة المنورة، يقف الانصارى قليلا ليحدد لنا طرقاً من المعالم الجغرافية لهذه المنطقة .. هذه المنطقة - وحتى الجبال الشرقية، تعد من مناطق ساحل بحر (القلزم) - والانصارى يستخدم هذه التسمية التاريخية بدل (البحر الاحمر) التي يعدها من الغزو العقلي- الجبال جرداء دكناء، والارض يعمها أخدود سبخي (يعقه ويشقه هذا البحر في أيام مده وفيضانه من كل سنة) ص ٤٦١ نفس المقال.

وهذه المنطقة (كراع الغميم) - المغراق السبخي - كما يصفها، وقف عندها الانصاري لأنها المكان (الذي وقعت فيه تلك الحادثة الحاسمة) .. ويشير بهذا الى الهجرة النبوية المباركة، والى سراقه بن مالك الذي ساخت قوائم فرسه في تلك الأرض السبخة .

هنا يقف الانصاري ليحدثنا عن طرف من هذه الهجرة المباركة: ويصل الى محطة (ذهبان) (وهي المحطة الأولى بين جدة والمدينة المنورة في أيام سير القوافل من الجمالة) ص ٤٦٢ / نفسه .

اختارت لاقامة دولتها الصناعية والزراعية الحديثة منطقة مدائن صالح، وبالحال غضب الرب لما استهانت بأوامره وطغت وبغت على نبيه» ص ٦٠٨ / نفسه .

في هذا البحث يرجح الانصارى أن تكون عاد وشمود، قبيلتين عربيتين، حيث يقول

«ومن يدري أن تكون قبيلتنا عاد وشمود بتنى

عرب» ص ٦٠٨ .

ويسند رأيه هذا بمجموعة من الحثيات العلمية منها:

- وحدة الخطين الشمودي والمسند .. وهذا الاخير هو خط اهل اليمن وجنوب الجزيرة العربية .
- واسماء الاشخاص الثموديين لا تخرج غالباً من الأسماء العربية المألوفة في الجاهلية القريبة من صدر الاسلام .

- اسماء الآلهة عند الثموديين (الله - ملك - مالك) تتفق مع اسماء الله جل وعلا وصفاته في العربية .
- اسماء الشهور، لغتها عربية صافية عند تحليلها .

واضافة لما سبق نعلم أن :

- نحانت الثموديين في الجبال كانت بيوتاً ولم تكن قبوراً .. وكانوا يلجأون اليها في فصل الشتاء لدفنها ومنعتها عن الاعداء .
- في السهول المنبسطة شادوا القصور الضخمة، واقاموا حضارة عظيمة عرفت الصناعة والزراعة .

*** في ربوع المدينة المنورة :

مقال منشور في عدد المنهل لشهر جمادى الآخرة ١٣٨٥هـ .. هذا المقال أو هذه الرحلة ان اردنا الدقة، يمكن أن نعدّها نموذجاً لطريقة الانصاري في كتابة الرحلات، هذه الرحلة قام بها الانصارى من (جدة) الى (المدينة المنورة) .. يقف

وهكذا يبقى الحسّ الاصلاحي الوطني في أعماق الانصاري... لا يغانره حتى وهو في أسفاره ورحلاته... ويصل الى (مستورة)... ويقول عنها دوهى محطة قديمة معروفة بعد رابغ رأساً... وللتاريخ وحده نذكر أن هذه المحطة أو القرية المعروفة اليوم بمستوره هي تقع الى الغرب بنحو ثلاث أو أربع كيلوات عن المحطة أو القرية القديمة مستورة، فقد كانت تحويلة طريق الاسفلت الذاهب الى المدينة المنورة اقتضت هذا التحول، ويخال بعض الناس مستورة القديمة هي (الأبواء) وليس الأمر كذلك، ص ٤٦٣/ نفسه.

وهكذا الانصاري في أسفاره ورحلاته، يقف عند الاماكن، يذكر الاسماء والمسميات، يورد ظلالها إن وجد، ويحدد الاماكن، ويصحح ما يرى ضرورة تصحيحها منها. ومستورة اليوم قرية ذات مبان اسمنتية، وأكثر هذه المباني (مقاه) وأما القرية فتقع الى الشرق عنها، ص ٤٦٤... وفي قرية (بدر) تستدعي ذاكرته موقعة (بدر) الشهيرة الفاصلة بين الحق والباطل.

✻ تحقيق امكنة في الحجاز وتهامة :

الاستاذ عبد القدوس الانصاري، قام بالعديد من الأسفار والرحلات العلمية والاستكشافية في انحاء المملكة العربية، تجول في الكثير من حواضرها وبياباتها، مدننها وقراها... وسجل أسفاره تلك جميعها في مجلته المنهل، ودون بعضها في الكثير من كتبه... وقام الانصاري ايضاً بالعديد من الرحلات والاسفار في عدد من الدول العربية، وكتب عنها في مجلته المنهل... وعندما يتحدث الانصاري عن مشاهداته في رحلاته تلك، نجده يقبل الحديث في كل أوجهه.

ولا يفوته محاولة التعريف بهذا المسمى (ذهبان) فيقول: وقد يكون ذهبان هذا بدياً أقام له كوخاً في هذه المحطة فعرفت به... وقد يكون امير هذه المنطقة بقي الاسم عليها، كما بقي اسم (الشيخ) على محطة (أبار الشيخ) واسم (ابن حصاني) على محطة (أبار ابن حصاني) واسم (عباس) الخديوي، خديوي مصر لما حج سنة ١٢٢٧هـ على (بئر عباس) بقرب محطة المسيجيد، ص ٤٦٢/ نفسه.

ويمر الانصاري في رحلته بـ (القضية) و(تول)، ثم (رابغ) ويقف عند هذه الاخيرة، ويعلمنا بأنها (البناء السعودي الجميل، الذي كان الى عهد قريب عبارة عن مجموعة أكواخ وعشش وبور محطة، فإذا به الآن ينهض من عثاره) ص ٤٦٣/ نفسه.

ويطيل الحديث عن العمران والنهوض العلمي والاقتصادي والاجتماعي الذي بلغته رابغ... (وكان الفتح العمراني العظيم بالنسبة لرابغ يتمثل في اشادة هذا الجسر الجبار على مجرى سيله الجبار، فكلمه وقبده ومنع انتشار عنفوانه، وعاق صداه لجموع السالكين، وسهل له طريق الالتقاء ببحر القزم لينوب فيه بدون مقابل)... ولعل كلمة (بدون مقابل) هذه، هي عبارة أسف بالغ وتحسر من الانصاري على ضياع هذا الماء العذب في البحر، وكان الأجدى والأفضل الاستفادة منه.

من اجل هذا يقول: (ولو أراد الله ووضع لهذا السيل الطامى «سد» في مكان ناء عن العمران، يختار له اختياراً هندسياً موقفاً لكان لآلاف الاطنان من مائه العذب فوائد جليلة للري والزراعة الوطنية في هذه الصحارى المترامية شمال رابغ وجنوبها) ص ٤٦٣/ نفسه.

هذه الدراسات.

يقول الانصاري :

«الشفاء لغة الطرف، وسميت هذه المنطقة شفاً، لوقوعها على طرف جبال السراة معا على تهامة وتشرف على تهامة، وتقع الشفا جنوب الطائف بنحو (١٨) كيلومترا ويحدها: غربا تهامة، شرقا: السراة، شمالا: الطائف، جنوبا: الحوالة، وتتكون من عدة مناطق جبلية تنبسط المزارع في سهولها وأوديتها، وفي سفوحها غابات من أشجار العرعر والشت والعتم والريف والنيم والشتين. ويصدرها البدو الى الطائف وغيره لتكون أخشاب السقوف، ويستخرجون منها الدباغ والتشمة وعقاقير يستعملونها في التطبيق».

ومن جبالها المشهورة: قرنيت، غفار، مرو، وكا، نعيمه. وأعلى قمة فيها قمة قرنيت ترتفع عن سطح البحر بنحو ٢٣٠٠ متر.

هذه القرى جميعا متشابهة في كل شيء، وتقع في سطوح الجبال التي تكون في نفس الوقت أودية بالنسبة لسلسلة الجبال المحيطة بها من كل جانب».

** المقال التاريخي الوصفي :

هذا النوع من المقالات عند الاستاذ عبد القدوس الأنصاري، يعتبر مدرسة قائمة بذاتها. في هذا النموذج من المقالات، يسجل الأنصاري الواقعة التاريخية في صياغة أدبية وصفية رائعة، تجتمع فيها الإفادة والمتعة. المعلومة والإبداع. ولا شك أن امتلاك الأنصاري لخاصية اللغة، جعله أكثر براعة في استخدامها.

وفي إطار تناولنا لمقالاته في التاريخ والآثار نقف

- يضع الرحلة بين يديك في وصف أدبي جذاب وشائق. يجعلك تعيش أحداثها في كل تفاصيلها.

- يصف البلدة والانسان والحيوان والبيئة كما هي أمامه، لحظة رؤيته لها، وصفاً دقيقاً.

- يقف عند الاسماء والمسميات، ويشرح معاني اسمائها، ان توصل به البحث الى شيء من ذلك.

- يوصف الاماكن توصيفاً جغرافياً، يحدد فيه موقعها، ومسافاتها، وما يجاورها.

- يستقرى التاريخ ويستنطقه، ويبرز شواهد ووقائع فيما يتعلق بموضوعه الذي هو فيه.

- يتحدث عن القبائل والبطون والافخاذ لأهل هذه البلدة أو تلك. مكان دراسته ويحثه. ويحدثك عن ماضيهم وحاضرهم ما أمكنه ذلك.

- يتحدث عن بيئة المنطقة - مكان بحثه ودراسته - بيئتها الطبيعية. من شجر ومدر وحجر، خصبها وحلها، زراعتها ومنتجاتها، وحيواناتها.

اثن، لنأخذ أنموذجاً نضيفه لما سبق من نماذج.

** تحقيق أمكنة في الحجاز وتهامة :

هذا هو عنوان الدراسة القيمة التي نشرها في مجلته المنهل في عددها الصادر لشهر رجب ١٣٧٩ هـ. وهذا التحقيق، هو في واقع الأمر دراسة ميدانية، أو رحلة من مجموع رحلات الأنصاري، مدعومة بما سجلته كتب التاريخ ومدوناته.

ومن الاماكن التي أوردها في تحقيقه هذا: «قرى جبال الشفا بالطائف - قرى وادي فاطمة - قرى وادي ساية - القرى التابعة لمكة المكرمة - قرى مر الظهران - الوديان الكبيرة التابعة لمكة المكرمة - قرى الليث - وديان الليث - جبال الليث - قرى القنفذة - جبال القنفذة - جبال ينبع - وديان ينبع».

وأثبت هنا ما قاله الأنصاري عن (قرى جبال الشفا بالطائف) كأنموذج لأسلوب الأنصاري في

الحديدي زرافات ووحدانا .. ومن الشام نهبت
أسر عديدة الى بلاد الاناضول والى ما وراء
ذلك .. وبدأ تشتت كبير وهائل يحيط بسكان
البلد الطيب .. وشنت الاطعمة شحا كبيرا
عندما أمر فخري باشا بقصر الارزاق على
العسكريين .. وجرمان من تبقى من المدنيين
منها كليا .. فكان الناس يلتقطون معيشتهم من
طريق الشراء الخفى المرعب من بعض جواله
العسكر، لتعينهم «أى مخصصهم من الخبز»
وهو قرصان صغيران محشوان بالبخالة والتراب
وشئ يسمى بالكرسنة .. يشترونه منهم بالثمن
البالغ والحذر بأثمان عالية .. وإذا كشف
اليوايس العسكرى الجوال، أمر شراء بعض
الاهالى من بعض العسكر لهذا الخبز الوامى
الذى لا يشبع ولا يسمن من جوع فالويل أولا
ينصب على العسكرى المخالف للأوامر، وعلى
الوطنى المسكين الذى اشترى هذا الخبز منه
ثانئاً، المنزل: ص ص ٥٤٣ - ٥٤٤، عدد جمادى
الآخرة رجب ١٣٩٨هـ.

ونمضى مع الاستاذ الانصارى ليحكى لنا طرفاً
من تلك الرحلة الشاقة القاسية من (المدينة المنورة الى
مكة المكرمة).

«ولقد مضينا في طريقنا قدماً، يسعنا في بطون
أقدامنا شوك السعدان وهو من أشد أنواع
الاشواك وقعا والمنا وقسوة .. لأن له خمسة
رقوس حادة .. وكنت حافى القدمين في سن
التاسعة هزيلا ضامرا من قلة الغذاء .. أغلب
الاعوام الثلاثة الماضية .. فلما أصابني بعض
شوك السعدان المنتشر في تلك الطريق المهجورة
الواقعة بين حدود العثمانيين والهاشميين .. ألمنى
جداً وقعه فوقعت على ركبتي، ونشب في ركبتي،
فوقعت على كفى، ونشب في كفى فوقعت على

هنا عند مقاله المعنون (ذكريات غير منسية) المنشور
في عددي (جمادى الآخرة ورجب ١٣٩٨هـ وعدد شوال
١٣٩٨هـ) .. وهو مقال في حلقتين .. هذا المقال ،
ذكريات احتفظت بها ذاكرة الأنصارى وهو صبى في
التاسعة من عمره .. وهو في التاسعة من عمره
حوصرت المدينة المنورة حصاراً مريعاً قاسياً بسبب
الحرب العالمية الأولى .. حتى بلغ الجوع بأهلها مبلغاً
اضطر أهلها بالنزوح والهرب للدول المجاورة .. وقد
خرج الصبى الأنصارى مع استاذة الشيخ محمد
الطيب الأنصارى الى مكة المكرمة ويقوا فيها ست
سنوات متتاليات (١٣٣٢ - ١٣٣٩هـ).

الأنصارى وهو في هذه السن المبكرة استوعب تلك
التجربة المريرة، بل ظلت محفورة في ذاكرته، بل
استوعب معالم المكان والزمان والأشخاص ..

ونأخذ هنا بعض نماذج للوصف عند الأنصارى:
يصف ما كانت عليه المدينة المنورة وأهلها ايام
الحرب العالمية الأولى، فيقول:

«كانت المدينة المنورة قبيل نشوب الحرب العالمية
الأولى مزدهرة في العمران والمجتمع والاقتصاد،
مزدهمة بالسكان .. كالرمان المحشوة كما
يقولون في الأمثال، وكان المشاة فى سوق سوقية
المعروفة بسوق الحدة أيضا لاتحداها يعشون
بالتدافع بالنناكب من شدة الازحام .. وقل مثل
ذلك في كل الحارات والشوارع .. وما أن بدت
نذر الحرب العامة الأولى تلوح في آفاق العالم
حتى بدأ الانكماش في المدينة .. ثم اشتعلت
الحرب في الحجاز عامة وفي المدينة خاصة بثورة
الملك حسين فنالها حصار الحرب .. فهجر
فخري باشا واسمه الكامل: «عمر فخر الدين
باشا» حاكم المدينة العسكرى ابان الحرب العامة
الأولى، هجر الناس الى الشام من طريق الخط

مرفقى .. ومن ثم صحت متألماً مستقيماً ..

وسرعان ما أقبل عليّ تلميذ الشيخ الأثير الياس رحمه الله .. وحملنى علي يديه ونفض ما علق بى من شوك السعدان .. ثم أخذ عمامته .. وقطع منها ما لقه على قدمي، ومن ثم استطعت المشى بدون ألم .. فان شوك السعدان بعدئذ لم يستطع النفوذ من اللقافة الى قدمي مطلقاً ..

وقبل الفجر وكان القمر متلألئاً في الأفاق .. كان بدراً كاملاً .. رأى الموكب أو المشاة أن يأخذوا قسط راحة قبل أن يسافروا الى المجهول المخوف .. وتحت أشجار السلم المجاورة الى الغرب من الجليجلة توقف الموكب .. وأخذ كل منهم بعض راحة .. في استرخاء عجيب .. وانكر أنى كنت أنظر الى القمر الساطع وأنظر من خلال ضوئه، الوادئ المنتشر به السلم الذي كنا به .. وانكر أن افكاراً غريبة مفزعة طرقت ذهني الصغير .. من أين؟ وإلى أين؟ وما هو المصير؟ وأين الماء؟ وأذن مؤذن منا للفجر ونهض الموكب بعد الصلاة يقصدون الناحية الغربية ولا يعرفون ماذا يقصدون .. وطلعت الشمس حارة قوية الشعاع، ملتهبة ولح (الياس) أشباحاً من بعيد سرعان ما اختفت تحت صخور هنالك، فصاح: انى أرى أشخاصاً مختبئين تحت الصخور تلك .. فقلّ مصدقوه .. فالأرض موحشة ولا غريب بها .. ثم رأى الناس طيوراً سوداء صغيرة .. فقال (الياس): ان الطيور هي طيور الماء لا تكون الا حيث يوجد الماء .. وبينما نحن سائرون على وهن ورهق ومله .. وقد قربنا من الصخور التي أشار اليها الصارخ فاذا برجلين من البادية مرتين ثيابا

بيضاء يقفان ويبرزان من وراء الصخور .. وفي أيديهما بنقيتاهما .. وقد سمعناهما وهما يصيحان قائلين: سلمتم .. سلمتم .. وقد استقبلا الموكب بترحاب كبير، وكان الأمل النفسى يلوح على جبينهما من هذا المنظر المزجج الكرب .. وقادانا الى منعطف قريب منا فإذا ببيوت شعر سود، وأناس ونعم وحركة نشطة .. وأقبل علينا القوم مرحبين وأنزلونا ببيوت شعر أخذوا لنا .. وصرخنا كلنا بهم: نرجوكم الماء .. الماء .. اننا ظامئون الى أقصى درجات غليان الظمأ .. فطمئونا .. وسرعان ما واقفنا بالقرب الكبار، يقطر منها قطرات خلناها قطرات الماء البارد، وأمرنا كلا منا أن يفتح كفيه بعد ضمهما الى بعض .. ففعلنا وصبوا عليها ما في القرب .. فاذا هو سمن بارد من السمن البري الذي لم نره ولم نسمع به منذ ثلاثة أعوام .. فشربنا وشربنا حتى ارتويتنا من هذا السمن الذي ظننا لأول مرة أنه ماء بارد، ثم عرفنا فيما بعد أنه سمن حري يري عبق أصيل ..

وبعد الفراغ من الشرب .. التهيت أحشائنا .. وطلبت بصفة أشد الماء البارد، ولكن القوم لسبب صحى خفى علينا حينئذ أجمعوا أمرهم وأصروا على أن لا يستجيبوا لرغباتنا مهما يكن الحاجنا عليهم شديداً ..

ومكثنا هكذا وسالت البطون .. وظللنا طيلة نهارنا هكذا .. في كرب شديد .. حتى اذا غابت الشمس وبدأت النجوم تتلامع في الأفاق .. سمعنا حركة مقبلة تتمثل في عشرة أشخاص أشداء يحمل كل خمسة منهم جفنة ذات حلقات مفعمة بالأرز المطهو، وذباح الضأن .. تقوح منها رائحة زكية قبل وصولهم

البقرة... ولم تكن ساعات اليد ذات وجود، كانت الساعات المستعملة حينئذ ساعات الجيب التي تتدلى بسلاسل فضية أو بقطان أبيض مبروم جميل، وكانت محافظ الكتب التي يحملها الطلاب مفتوحة ولم تكن من هذا النوع المطلق المستعمل الآن، وكان اللباس السائد بين الرجال والشباب يومئذ هو الجبة والعمامة، الجبة الحجازية المفصلة على جسم لايسها، وكانوا يعتمرون العمامة الحجازية المزخرفة الملفوفة بشاش أبيض نقي شفاف، لفاً محكماً تبدو لأول وهلة لفاتها كقطعة متحدة الأجزاء.

وكان لساجيد الصلاة الملونة الخفيفة مكانة لدى الناس فكثيراً ما تراها ملقاة على كواهلهم وبخاصة إذا أرادوا القدوم إلى المسجد الحرام للصلاة أو للجلوس أو للمذاكرة أو للدراسة... ولهم كل الحق في ذلك فإنها كانت تقيهم من صيهود الحرور الذي ينبعث من الأرض وبخاصة حصباء الحرم المكى المكشوفة للشمس.

وكانت العادة المتبعة لدى أغلب الناس حلق شعور رؤوسهم بالموسى والمبالغة في ذلك إلى حد بلو جلدة الرأس أحياناً.

وكان من الألعاب السائدة يومئذ بين الأطفال الناشئين اللعب بالطائرات الورقية الملونة الشفيفة الورق، تصنع بمكة لدى أناس تخصصوا بذلك يبيعونها على الأطفال والمراهقين بأثمان معتدلة، ويربطها هؤلاء بخيوط قوية طويلة المدى ثم يطلقونها من أعالي بعض جبال مكة إلى الفضاء كجبل عقيم أو جبل أبي قبيس وفي المصافي... فتحملها الريح المواتية إلى مسافة بعيدة في الفضاء... وربما شعبوا هذه الخيوط بفترات الزجاج، ويسمون بها حينئذ «المقرزة» ويجعلونها تتلاحم في غارات جوية مصطنعة،

الينا... ثم جاء بعدهم مثلهم... ونصبوا الجفان أمام كل جمع... فكلنا تلك الليلة أذ أكل طعمناه، وجاعوا بالقرب الكبيرة المائي بالمياه الباردة... وملأوا الزبادى البيض الدهونة الملونة الكبير بذلك الماء وصرنا نشرب ونشرب ونأكل ونأكل حتى لم نستيق مكاناً في بطوننا لأكل أو شرب... ولم نرتج تلك الليلة لهذا الانقلاب المفاجيء في نظام معيشتنا... وقد صدمت بطوننا بالسمن واللحم فأسهلت... وأسهلت... وعند الصباح حمد القوم السرى... فقد أتونا بمواعين مملوءة باللبن الرائب البارد... فشربنا هنيئاً، وأتونا بقطور لذيذ من اللحم المشوي على الطريقة العربية اللذيذة... واستقر الحال وعاد الينا النشاط... ومكثنا في ضيافتهم الكريمة ثلاثة أيام، المنهل: ص ص ٥٤٦ - ٥٤٧ / نفسه.

بهذه الصيغة الأدبية المميزة يحكى لنا الأنصاري بدايات تلك الرحلة... انه يدونها في أدق تفاصيلها... وهذا وصف لأهل مكة المكرمة أختزنه الأنصاري خلال السنوات الستة التي قضاها في مكة المكرمة حتى عام ١٣٣٩هـ حيث غادرها في رحلة الإياب إلى المدينة المنورة.

يقول الأنصاري :

«كان الشباب يومئذ غالباً يضع فوق رؤوسه، الكوفية الجاوية المنشأة الشديدة البياض، وربما وضعوا على عواتقهم غترا خفيفة مطوية منشأة ومكوية... وكانوا يحتنون الاحذية المكية الصنع المزخرفة المكشوفة ولم تكن الفنايل يومذاك منتشرة... كان الشعار الذي يلبسه السكان في مكة والمدينة تحت الثياب هو القمصان القصيرة البيض السماة بالصديري... وهى من قماش

فطرت فرحاً الى المنزل ووجت الشيخ قد عاد
من المسجد الحرام بعد صلاة العصر فبشرته
بالخير فسر ذلك سروراً بالغاً وقال إذا لايد
لنا من التهيق للعودة الى المدينة المنورة، وفي
أصيل اليوم التالي حضرت الجمال وأحضر
لنا الزاد والنقود ونهضنا من البيت وذهب
الشيخ الى المسجد الحرام وطاف موبعاً وعاد
الينا وقمنا نمشى بجانب جمال القافلة ..
وكان السيد على كتيى ممسكا بيدينا أنا
ومحمد عبد الله .

وهنا أسجل بعض الملاحظات :

- ان الصبى (الانصاري) كان دقيق الملاحظة
كثير الاستيعاب لما يجرى حوله . ومن دقة ملاحظته
انه - أثناء اللعب واللهو - استطاع أن يلتقط هذا
البيت :

يا سيدى جانا الخير ... ان المدينة سلّمت
وفهم طبيعة الحال ان الكرب قد زال عن المدينة
المنورة .. وهذا يستوجب الرجوع فوراً الى المدينة
المنورة .. وقد تناغم معه شيخه في ذلك عندما اخبره
الانصاري بسماعه لهذا البيت .

- وصفه الدقيق لـ (رجال العقيلات) وطبولهم
وأناشيدهم -

※ تحقيق الاسماء :

أسلفنا القول أن الانصاري في مقالاته وبحوثه
يقف عند الاسماء والاشياء .. ويدرسها دراسة
المحقق الباحث .. هذا اسم (مكة) المكرمة، يقف
عنده ويحققه ولا يتعداه إلا بعد فحص دقيق له من
كل متعلقاته: يقول في هذا الاسم (مكة) :

«ذكر المؤرخ بطلميوس (القرن الثاني بعد
الميلاد) مكة، باسم (ماكوريا) ويرى اصحاب
(تاريخ العرب - مطول) ان هذا الاسم مشتق

فيقطع بعضها خيوط بعض ويسقط هذا
البعض في الأرض .. تماماً كفعل الطائرات
الحقيقية في المعارك الحقيقية، ولا غرو فقد
كان الناس في تلك الأيام يشاهدون الطائرات
الحربية وهى تحوم في الأجواء .. فقلد
الأطفال والناشئة هذا الصنيع بحكم طبيعة
البشر في محاكاة الصغير للكبير .

وانكر أنى مارست هذه الهواية مدة مديدة
بمكة حتى أتقنتها وبرعت فيها، وكم مرة بخت
بطائرتى في معركة حامية مع طائرة أخرى،
فأنازلها في الجو وأقطع ما يقلها من الخيوط
التي كانت تمثل شرايين الحياة لهذه الطائرات
الورقية المكية اللطيفة يومذاك»، المنهل: ص ص
٥٥١ - ٥٥٢ (عدد جمادى الآخرة ورجب
١٣٩٨ هـ).

بعد سنوات ستة قضوها في مكة المكرمة،
انقشع الشر عن المدينة المنورة، وزال عنها الكرب،
وانفك الحصار، وبدأ الحديث عن الرجعة الى المدينة
المنورة .

وهذا الانصاري يحكى ذكرياته، إذ يقول:

«وفي أصيل ذات يوم قائط بمكة خرجت من
المنزل متفلسحاً الى ناحية سوق الليل، وبينما
أنا سائر في اتجاه قصر الحكم إذ سمعت
طبولاً تفرح، وأناشيد تنشد، ثم رأيت جيشاً
من رجال العقيلات ممتطياً دلائل مهريّة مزينة
رواحلها وهم يقفون بطولهم الصغيرة بأناملهم
وينقرونها على نغمات نشيد ينشدونه من شعر
(الحمينى) اللحن، المعروف الآن بالنبطى
والشعبى، وقد علق يمينى منه حتى اليوم بيت
واحد هو:

يا سيدى جانا الخير ... أن المدينة سلّمت

«واسم الكعبة متداول كثيراً في الأحاديث النبوية، وفي كلام العرب المنثور، وفي المراجع اللغوية والتاريخية، والأدبية، وفي السيرة النبوية، وغير ذلك، ويدهى أن المعنى بهذا الاسم هو نفس (البيت الحرام) بمكة، وتقول المراجع اللغوية المعتمدة: أن اسم الكعبة مشتق من مادة التكعيب في اللغة العربية وهو التبريع، أو مع الارتفاع، قالوا: ومنه الكعب، سمي بهذا الاسم لتنونه وخروجه من جانبي القدم.

*** رحلة الصيف :

صيف ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م، قام بها الأستاذ عبد القدوس الانصاري بصحبة أثيره وصديقه الأستاذ هاشم دفتر دار، في هذه الرحلة ذهب الى سوريا، والاردن، ولبنان، والقدس... زار فيها المسجد الأقصى وصلى فيه، ومسجد الصخرة ومدينة بيت لحم والخليل. الرحلة طويلة لكننا نأخذ منها مقاطع نقف عندها قليلاً... جمال الوصف الأدبي، لا شك يجعل الاماكن والمواقع والبيئة من انسان ونبات وحيوان، يجعلها كلها بين يديك.

هذا (جبل الشيخ الذي يربض في قلب لبنان، غارق الى نفته في الثلج والبرد)، المنهل: عدد جمادى الآخرة ١٣٨٤هـ، ص ٣٨٧.

الانصاري وهو في جو الفرح والمرح والاستجمام والراحة، لا ينسى أن يصحح خطأ لغوياً، أو يعلق على معلومة... يمر بقرية أنزعرات... وينشد قول امرئ القيس:

من أنزعرات وأهلها

يثيرب اننى دارها نظر عال

فقدغير هذا الاسم (أنزعرات) الى (درا) الآن... ويعلق الانصاري على ذلك بقوله: «إن اسمها العربي الفصيح الجميل الخالد حرفه تيار العامة

من الاسم السبتي (مكوربا) ومعناه مقدس أو حرم، وقالوا: (أنه يستفاد من هذا الاصل أن مكة كانت في أول عهدها مقاماً لبنيان ابن فهي مركز للعبادة يرجع عهده الى ما يسبق محمداً عليه السلام بازمان متطاولة).

وهذا الذي قالوه نوشقين... فاما تأويل الاسم فلأنى أرى أن المؤلفين وأهمون، وانهم تتبعوا حرفية آراء المستشرقين في التأويل، فاصابوا في الجملة وأخطأوا في التفصيل... ذلك انى أرى أن بطليموس قد عرف بلهجته الاعجمية الاسم العربى الذى هو على ما ارى (مكة الرب)... اى بلد الله... وقد تحول في الترجمة الى (ماكوربا)... وجاء المستشرقون فتاولوا الاسم بلأته من اللفظ السبتي (مكوربا) اى حرم ومقدس... والاسم السبتي لايد أنه (مكة الرب) أو (مكة ام رب) بقلب لام التعريف الى (ام) على لغة اليمن، وقد سمع بطليموس هذا الاسم من تجار العرب فنقله الى لفته محرراً كما ورد في سفر تاريخه، وأضفى عليه المستشرقون المعنى المطلوب، وإن ماتهم حقيقة التأويل والتفسير المنطقيين للصيغة، لأنها نقلت اليهم محررة مشوهة.

واما الشق الثانى فهو ما يختص بمقام مكة الدينى، وما قالوه يطابق ما جاء به الاسلام وصرح به القرآن المجيد الذى لا يتأني الباطل من بين يديه ولا من خلفه فمكة بلد الله وإذن أول بيت وضع للناس لأذى بيكة مباركاً وهدى للعالمين فيه آيات بينات مقام ابراهيم)... صدق الله العظيم ص ص ٣٢٨ - ٣٢٩، من مقال اضواء على تاريخ هذه البلاد - شعبان ١٣٧١هـ.

ويبحث عن اسم (الكعبة) في المصادر العربية ويحققه - ويقول في هذا:

✽ استنباط تاريخ مكة المكرمة من فتاوى علمائها :

في عدد الحرم من مجلته المنهل لعام ١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م مج ٢٥ ص ٩ - ١٨ ، كتب الأنصاري مقالا مطولا بهذا العنوان . . . والحقة بمجموعة من المقالات في نفس الاتجاه ، وكلها محاولة منه لاستقراء تاريخ مكة المكرمة (الثقافي والاقتصادي والاجتماعي والعمراني وغيره من خلال نصوص الفتاوى الفقهية التي كان يصدرها علماء مكة المكرمة في القرن الثالث الهجري .

والمقالات بهذا التصور - تعد من غير شك - سبقا علمياً في باب . . . فقد كان يأتي بالسؤال كاملاً ، ثم باجابه المفتي كاملة ، ثم يستخرج المنطوق التاريخي من بين سؤال السائل واجابة الفقيه القائم بالفتوى .

وعن تجربته هذه يقول الأنصاري : «وكانت

التجربة الاولى التي قمت بها في هذا الشأن

مائلة في كتابين في الفتاوى الفقهية . . ألف

أولهما أو جمع عنه - الشيخ محمد طاهر سنبل

المكي المتوفى سنة ١٢١٨ هجرية بمكة

المشرفة . . وثانيهما الشيخ عبد الحفيظ بن

بروش العجيمي المكي المتوفى بمكة سنة

١٢٤٦ هـ . فكلهما اذن من ابناء مكة ومن

ابناء القرن الثالث عشر الهجري . . وكان كلا

الرجلين من نوابغ ذلك العصر . . في الفقه

الحنفي . . كما يشهد به تراجمهما

المستفيضة في مختلف الاسفار المعاصرة لهما

والتي الفت بعد عصرهما . . تقديراً لمكانتهما

العلمية المرموقة» ، المنهل : ص ٩ - ١٠ /

عدد الحرم ١٣٨٤هـ .

ونسوق هنا نماذج تؤكد اسلوب الأنصاري في هذا النوع من الاستنباط .

العربية المستتركة فمسخه الى (دعاً) . وهكذا كتب اسمها في اللوح المنسوب على مدخلها . . أسوة بعدن الشام ، لقد شوهه الاتراك أو العرب المولودين هذا الاسم الجميل هكذا ، وبقي تشويهه دارجاً على الألسنة والاقلام ، وما كان أجمل ان يعاد الى (انزعات) اسمها العربي القمين بها ، ريطاً لحقات الماضي البعيد بالحاضر» ، المنهل : ص ٢٨٧ ، عدد جمادى الآخرة ١٣٨٤هـ .

وتقف عند وصفه للصخرة ، في مسجد الصخرة : حيث يقول : «وتأملت كيانهما فإذا بها صخرة كبيرة مجوفة مقببة تقيباً غير عال .

وهي صخرة من الحجر الابيض الذي يوجد

بكثرة في هذه المنطقة . . والصخرة على شكل

خيمة صغيرة لاطنة بعض الشيء» ، وثابتة من

اطرافها من اليمين واليسار والخلف على

قواعد منها نفسها راسخة في الأرض رسوخاً

طبعياً . . ولها فتحة كبيرة في الناحية الجنوبية

منها وقد دخلنا جوفها فأرونا اماكن عبادة

الانبياء . . والصخرة المقببة سطح غير مستو ،

قال لنا الشيخ هاشم دفتر دار انه كان عليه

صلى النبي محمد [صلى الله عليه وسلم] ليلة

الاسراء» ومن الممكن حقا أن يصلى على هذا

السطح لوجود اماكن فيه صالحة للصلاة .

وقبة الصخرة تتلألا عالية بما نقش عليها من

الآيات القرآنية الحكمة بأروع خط عربي ، وبما

زخرت به من الذهب الوهاج الخالص فهي

تتلألا تلاكف الشمس في رائعة النهار . . انها

في الأرض (شمس) ثانية شامخة تظهر

شموخ الاسلام وتتحدى اعداءه في كل زمان

ومكان» ، المنهل : ص ٣٩١ - ٣٩٢ ، من

مقال : رحلة الصيف / عدد جمادى الآخرة

١٣٨٤هـ / ١٩٦٤م .

- النص الفقهي :

كان عملة فضية معروفة وضع سعرها أربعون ديوانيا .

ثانيا : وبعد ذلك اختفى القرش الفضي المذكور من الاسواق ويبقى القرش المعنوي حالا محله .

ثالثا : ان سعر الريال بالقرش كان عرضة للتغير زيادة ونقصا في ذلك العهد .

رابعا : ان وحدة العملة لديهم كانت القرش ذا القيمة المعنوية البالغة أربعين ديوانيا .

خامسا : قد يرتفع سعر الريال بالقرش فيحصل الى خمسة قروش ونصف القرش ثم يصعد الى احد عشر قرشا وقد يصعد الى احد عشر قرشا ونصف القرش كما ذكرته فتاوى العجمي . . . وقد ينخفض حتى يبلغ السعر اربعة قروش ونصف القرش . . . وهذا كله يدلنا على اضطراب ميزان التجارة وعدم تنظيم شؤونها . . . كل يعمل ما يريد في الهبوط بالريال أو الصعود .

(في كتاب الشيخ عبد الحفيظ العجمي) :

- النص الفقهي: سئل عن رجل قايض رجلا آخر، ويدفع له ساعة واستعوض - استعاض - بدلها طنجة سلاح على انها صاغ - اى سليمة - وثمانية ريال - ريات - فبعد مضي ليلة وجد الطنجة خريانة (خربة) معيوبة (معيبة) . . . فهل ترد على صاحبها؟ أم تقوم صحيحة ومعيبة (معيبة) وينقص من قيمتها؟ أم كيف الحكم؟ أفتونا .

- اجاب : نعم ترد على صاحبها اذا ثبت أن العيب قديم، ولم يحدث عند المشتري ما يمنع الرد وحلف على ذلك، وعرضها على البيع قبل العلم بالعيب لا يمنع الرد والله أعلم، المنزل: ص ٢٢٢ / نفسه .

(سؤال فيما اذا اشترى شخص شيئا معنا بقروش معلومة أو استأجر كذلك، وأراد أن يدفع الثمن أو الاجرة من الريالات مثلا، وكانت حين العقد كل ريال بأربعة قروش ونصف، ويوم الدفع بخمسة قروش . . . فهل يعتبر وقت العقد أو وقت الدفع؟ .

(جوابه : ان كان الثمن أو كانت الاجرة معجلة فالمعتبر وقت حلول الاجل، لأن القرش في الأصل عبارة عن قطعة من الفضة مضروبة، ثم صار في العرف يطلق على كل أربعين ديوانيا، لا على جزء معين من الريال أو غيره . . . فإذا اشترى بعشرة قروش مثلا فهي عبارة عن اربعمئة ديوانى لكن جرى العرف ايضا بانها تسمى القروش ويكون الدفع من اى معاملة تكون رائجة في ذلك الوقت . . . وهذا العرف معتبر . . . فان كان الثمن معجلا ولم يدفعه اليه الا بعد تغير سعر الريال، فالواجب له اربعمئة ديوانى وقت العقد، لأن الثمن حال، وهو ريالان وقرش، وان كان مؤجلا فله اربعمئة ديوانى ايضا . . . وهى عند حلول الاجل عبارة عن ريالين فيدفعها اليه، ففي الحقيقة ان الثمن لم يتغير حتى يوجب جهالة منه . . . وانما زاد سعره أو نقص، فالواجب دفعه مطلقا ولا ينظر الى زيادة سعره أو نقصه، والحال ما ذكر . . . وحيث كان العرف جاريا بما ذكر يعمل به فان تغير العرف عمل بما يتعارفونه فيهم، لأن الامر مبنى على العادة والعرف والحال ما ذكره، المنزل: ص ٢٤٦ و ٢٤٧ / نفسه .

- المفهوم التاريخي المستخرج مما ذكر حسب

استقراء الانصاري:

أولا : ان القرش - قبل القرن الثالث عشر الهجرى

محكومة بالاجانب «الهولنديين» ولا يجوز
ترحيل أمثال اولئك الى بلاد تحكمها دولة غير
اسلامية» المنهل: ص ١٤ - ١٥ / عدد المحرم
١٣٨٤هـ.

والقال مطول ومستفيض في معلوماته . حيث
تحدث فيه الانصارى عن بعض التاريخ العلمى
والوظيفى لهذين العالمين الجليلين . . كما تحدث عن
الكتابيين من حيث الدقة في المعلومة الفقهية ، والتمايز
القائم بين العالمين . . ولن اراد الاستزادة فعليه
الرجوع الى المقال ، فإنه ممتع ومشبع علمياً ، على
طريقة الانصارى .

خاتمة :

.. أكرر ما أسلفت من قول بأن هذا المقال ليس
دراسة أو تحليل أكاديمياً للمقال التاريخي والاثري
عند الاستاذ عبد القدوس الانصارى ، وانما هو
مدخل أو رؤوس أقلام تمهد لدراسة المقال التاريخى
والاثري عند الانصارى فيما كتب في مجلته المنهل . .
وما كتب الانصارى في مجلته المنهل في (الاجتماع -
السياسة - النهضة والتنمية - التراجم والسير
والشخصيات - الأدب - اللغة - الرحلات - الكتب -
التاريخ والآثار) كل باب من هذه الابواب يحتاج
لدارس متخصص في مجاله ليكتب عنه .

** في هذا المقال عرضت نماذج قليلة مما كتب
الانصارى في (التاريخ والآثار) ، علماً بأن ما كتب
الانصارى في هذا الباب (التاريخ والآثار) في مجلته
المنهل فقط يحتاج لمؤلف كامل . . وهذا عمل أرجو ان
يقوم به اصحاب التخصص .

المفهوم التاريخى المستنبط من ذلك :
أولاً : كانت الساعة الزمنية الميكانيكية مستعملة
لدى اهل مكة في القرن الهجري الثالث عشر .
ثانياً : والطبئجة كذلك وهى (المسدس الضخم
«القديم» كانت موجودة ومستعملة لديهم اذ ذاك).

٢ - النص الفقهى :

(سئل في رجل من «الجاوى» تزوج بامرأة من
اهالى مكة ، ثم طلقها وله منها بنت بلغت من
العمر ستة (ست) سنين (سنوات) . فهل له
نزعها من عند امها ويسافر بها الى الجاوى أم
لا؟ وكيف الحكم؟ .
(اجاب : ليس له ذلك) ، المنهل: ص ١٠٥
نفسه .

٣ - المفهوم التاريخى الذى استخرجه الانصارى :

أولاً : كان معتاداً منذ القرن الثالث عشر
الهجرى ، وربما قبله أيضاً ، أن يتزوج حجاج
«جاوى» الوافدون الى مكة من أهلها .
ثانياً : وبعضهم اذا رزق أولاداً من ازواجهم
المكيات وطلقوهن حاولوا نزعهم منهن واخذهم
الى بلادهم الثانية .

ثالثاً : وقد حصل نزاع في ذلك بين بعضهم
وبينهم أو بينهم وبين أهلهم من مكة فأتى
الامر الى أخذ «فتوى» شرعية من مفتى
مكة . . وقد أجاب بما يتفق مع الشرع وهو في
مصلحة أهل مكة من عدم جواز النزاع والسفر
بأولاد الامهات المكيات الى بلاد جاوى
الثانية . . وربما كان سبب صدور هذه الفتوى
بهذا الشكل ان بلاد جاوى اذ ذاك كانت

قراءة فيما جاء في مدونات الرحالة المسلمين عن الحجاز في العصرين الأيوبي والمملوكي

(٥٧٩-٧٤٩هـ /

١١٨٣-١٣٤٩م)

على الرغم من اهتمام بعض مصادر التاريخ الإسلامي العام التي تناولت العصر الإسلامي الوسيط، بالكتابة عن الحجاز في العصرين الأيوبي والمملوكي، وبالرغم من ظهور بعض المؤرخين المحليين في مكة المكرمة والمدينة المنورة في العصر المملوكي الثاني الذين اهتموا بتدوين تاريخ مدينتيهما، فهناك فجوات كثيرة في تاريخ الحجاز لا تغطيها هذه المصادر، وخاصة فيما يتعلق بالتاريخ الديني والاقتصادي والاجتماعي. ومن هنا تأتي الأهمية البالغة لنوع آخر من المصادر حظيت به الحجاز، وهذا النوع هو ما يعرف بكتب الرحلات، التي هي في الواقع مذكرات لشهود عيان قدموا الى الأراضي المقدسة لأداء الحج، وبنوا مشاهداتهم أثناء إقامتهم بها أو بعد مغادرتهم لها. فهي سجل شبيه وثائقي انفرد به تاريخ الحجاز.

ويمكن أن نعتبر الرحالة الفارسي ناصر خسرو أول الرحالة المسلمين الذين زاروا الحجاز في العصر الإسلامي الوسيط، فقد كانت رحلة حجه التي دون مشاهداته خلالها في النصف الأول من القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر الميلادي [١]، على أن المسرح السياسي، وربما الاقتصادي والاجتماعي الذي شهده ناصر خسرو في الحجاز حوالي منتصف القرن الخامس الهجري قد تغير بدرجة كبيرة في العصرين الأيوبي والمملوكي، فقد كان الحجاز عندما حل به ناصر خسرو يخضع للنفوذ الفاطمي في مصر، في حين أن الحجاز الذي نبحت عنه في أوراق الرحالة هو حجاز يدين بالتبعية للنفوذ الأيوبي ثم المملوكي، لذا فلن نرجع لأوراق ناصر خسرو.



إضاءة

- المؤلف: دكتوراه جامعة كيريدج بانجلترا سنة ١٩٦٩م.
- التخصص: تاريخ اسلامي وسيط.
- الدرجة العلمية: استاذ.
- الابحاث المنشورة: (المحمل - الامالة والتجديد في الحضارة العربية - مكة في عهد الشريف قتادة الحسني - نشأة الخلافة - المؤرخ تقي الدين الفاسي - كسوة الكعبة في العصر المملوكي - اوروبيين في الحرمين).

تاريخ مفصل عن العصرين الأيوبي والمملوكي، بل إن الهدف الأساسي هو متابعة ما جاء في مدونات هؤلاء الرحالة عن الحجاز خلال هذين العصرين، وإلقاء الضوء على الأمور الهامة التي استرعت انتباههم، واستخلاص المجهول من تاريخنا الاقتصادي والديني والاجتماعي الذي غالباً ما تعرض للإهمال في كتب التاريخ وعلى مر العصور، لقد حظي الحجاز خلال العصرين الأيوبي والمملوكي بعدد من الرحلات المدونة كان من أهمها وأشهرها خمس رحلات، اختص العصر الأيوبي بواحدة منها وهي الأهم والأوسع بالنسبة لتاريخ الحجاز، وهي رحلة ابن جبير سنة (٥٧٩هـ/ ١١٨٢م) بينما اختص العصر المملوكي بأربع رحلات جاءت كالتالي:

- رحلة ابن رشيد (سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م).
- رحلة العبدري (سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م).
- رحلة التيجيبي (سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٧م).
- رحلة ابن بطوطة (سنة ٧٢٥ - ٧٤٩هـ/ ١٣٢٤ - ١٣٤٩م).

كذلك فقد شهدت أرض الحجاز العديد من الرحالة الذين قدموا لأداء الحج في فترات لاحقة بعد زوال العهد المملوكي، وتركوا مدونات قيمة عن مشاهداتهم خلال وجودهم في الأراضي المقدسة. وهؤلاء بدورهم لن يكونوا موضع اهتمامنا. والسبب في هذا التقيد هو حرصنا على أن نخضع الدراسة لرحالة هم شهود عيان على مجريات الأحداث في الحجاز في فترة تعتبر من أهم الفترات في تاريخ العالم الإسلامي.

ومع ذلك فلن يمنع هذا الالتزام من الاستعانة في توضيح أو تفصيل بعض ما ورد في هذه الرحلات أو بعض ما لم يرد فيها عن تلك الفترة موضوع الدراسة بمصادر تاريخية لتكتمل الصورة وتتضح معالم العصر... هذه الاستعانة تستمد أهميتها بل حتميتها من حقيقة يجب التنويه عنها، وهي أننا فيما يختص بالعصر الأيوبي لا نملك سوى مدونة رحالة واحد، هو ابن جبير، وبطبيعة الحال فلم يبق ابن جبير في الحجاز طوال العصر الأيوبي، بل اقتصر مشاهداته على الفترة التي قضاها في الحجاز خلال بضعة أشهر من عام ٥٧٩هـ/ ١١٨٢م وهو ما يلقي على الباحث مسؤولية العودة إلى المصادر التاريخية للتدقيق فيما نقله ابن جبير، وإلقاء نظرة شاملة لأحداث العصر الذي شهد ابن جبير بعض فصوله. كذلك فيما يختص بالعصر المملوكي فليدنا مدونات لأربعة من الرحالة، قدموا إلى الحجاز في رحلات حج تراوحت ما بين سنة ٦٨٤هـ/ ١٢٨٥م وسنة ٧٤٩هـ/ ١٣٤٩م أي خلال أكثر من نصف قرن من عصر دولة المماليك الأولى (البحرية) مما يجعلنا في نفس الوضع الخاص بالعصر الأيوبي. على أن علينا أن نذكر أننا لسنا بصدد كتابة

وستنقسم البحث إلى مقدمة وفصلين وخاتمة :

وسيتناول الفصل الأول قراءة ما جاء في مدونة ابن جبير (٥٧٩هـ / ١١٨٣م) عن الحجاز في العصر الأيوبي بدء بوصوله ميناء الاسكندرية، وانتهاء بمغادرته المدينة المنورة في طريق العودة إلى موطنه الأندلس.

أما الفصل الثاني فسيشمل قراءة ما جاء في مدونات أربعة من الرحالة عن الحجاز في العصر المملوكي، وهم :

- ابن رشيد (٦٨٤هـ / ١٢٨٩م).
- العبدري (٦٨٩هـ / ١٢٩٠م).
- التجيني (٦٩٦هـ / ١٢٩٧م).
- ابن بطوطة (٧٢٥هـ / ٧٤٩هـ - ١٣٢٤ - ١٣٤٩م).

وسنعمل في الخاتمة أهم النتائج التي انتهت إليها الباحث.

الفصل الأول:

قراءة فيما دونه ابن جبير عن الحجاز في العصر الأيوبي

(٥٧٩هـ / ١١٨٣م)

يعتبر محمد بن أحمد بن جبير الكتاني الأندلسي (٥٢٨ - ٦٠٧هـ / ١١٢٤ - ١٢١٠م) من أهم الرحالة الرواد الذين دونوا مشاهداتهم عن الحجاز في العصر الإسلامي الوسيط، كما يعد من أبقهم وأوثقهم وأوسعهم استقصاء ونقلا لما شاهده في الحجاز خلال إقامته الطويلة في مكة المكرمة التي امتدت لأكثر من ثمانية أشهر. بل إنه في الواقع يعتبر المصدر الأساسي لكثير من التفاصيل، وخصوصا فيما يتعلق بوصف الحرمين الشريفين، التي جاءت في مبيونات

القدس، بل هؤلاء الرحالة عن كتب جواذب من الحياة السياسية والاقتصادية والاجتماعية في مدينتي الحجاز المقدستين، ولفت انتباههم الأحوال الاقتصادية لمدينة جدة ووصفوا طرق الحج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة وجميعها تمر في معظم مساراتها بأراض حجازية، واسترعى انتباههم بعض العادات والتقاليد ذات الصلة، بمناسبة دينية واجتماعية، ولم يغفلوا عن تسجيل لقاءاتهم بعلماء الحرمين وفقهائهم. من مجاورين وأهالي، فقادونا عن أعلام تخلوا كتب التراجم من أسماء كثير منهم. هذا بالإضافة إلى وصف الجواذب العمرانية التي كان عليها الحرمان الشريفان أثناء وجودهم فيهما. وحرص كل منهم على تدوينها بأدق تفاصيلها.

وهذا الوصف إلى جانب أهميته في بيان التطور العمراني للحرمين يعتبر وثيقة تاريخية لبناء الكعبة المشرفة، فقد تهدم البناء الذي شاهده ابن جبير في أعوام لاحقه في العصر العثماني، وأعيد بناء الكعبة المشرفة في عهد السلطان مراد الرابع سنة (١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م) وهو البناء الذي لا يزال قائما حتى اليوم.

وبطبيعة الحال قلن يتسع المجال هنا أن ننقل ما جاء في المدونات المشار إليها من وصف للحرمين الشريفين، فقد نشرت جميع هذه المدونات، وبإمكان القارئ الرجوع إليها والاطلاع على تفاصيلها، وسنركز جل اهتمامنا في هذا البحث على متابعة الجواذب السياسية والاقتصادية والدينية والاجتماعية التي جذبت انتباه الرحالة المذكورين، وكان بعضها مثارا لـ استغرابهم أو إعجابهم والبعض الآخر مثار استنكارهم ونقدهم.

الرحالة الذين أتوا بعده في رحلة حج إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة.

غادر ابن جبير مدينة غرناطة بالأندلس يوم الخميس الثامن من شهر شوال سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م متجها نحو جبل طارق حيث عبر المضيق إلى مدينة سبتة، ومنها استقل مركبا إلى مدينة الاسكندرية التي وصلها في نهاية شهر ذي القعدة سنة ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م [٢].

ولن نتوقف هنا عند حديث ابن جبير، بعد أن حط مركبه في ميناء الاسكندرية، عن سوء معاملة رجال الميناء أو عن المكس أو الضرائب التي كانت تؤخذ من الحجاج سواء عند نزولهم في ميناء الاسكندرية أو في الموانئ الحجازية، فليس هنا موضع الحديث عنها.

وما يهمني هنا هو ما شاهده ابن جبير في شوارع الاسكندرية من مشهد ينقل لنا صورة للأوضاع السياسية في المشرق الاسلامي في ظل الاحتلال الصليبي لبلاد الشام.

يقول ابن جبير «ما حللنا الاسكندرية في الشهر المؤرخ (نور الحجة سنة ٥٧٨هـ) عاينا مجتمعا من الناس عظيمي برزوا لمعاينة أسرى من الروم، أدخلوا البلد راكبين على الجمال ووجوههم الى أنفاسها، وحولهم الطيول والأبواق، فساتنا عن قصتهم فآخبرنا بأنهم تنطقون له الأكباد إشفافا وجزعا، وذلك أن جملة من نصارى الشام اجتمعوا وأنشأوا مراكب في اقرب المواضع التي لهم من بحر القلزم [٣] ثم حملوا أنقاضها على جمال العرب المجاورين لهم بكراء اتفقوا معهم عليه، فلما حصلوا لساحل البحر سمروا مراكبهم، وأكملوا إنشائها وتآلفها ودفعوها في البحر وركبوها قاطعين بالحجاج وانتهاوا الى بحر

النعم [٤]، فأحرقوا فيه نحو ستة عشر مركبا، وانتهاوا الى عذاب [٥] فأخذوا فيها مركبا كان يأتي بالحجاج من جده، وأخذوا في البر قافلة كبيرة تأتي من قوص الى عذاب وقتلوا الجميع، وأخذوا أيضا مركبين كانا مقلبين بتجار من اليمن، وأحرقوا أطعمة كثيرة على ذلك الساحل، كانت معدة لميرة مكة المكرمة والمدينة المنورة [٦]، ومن أعظمها حادثة تسبب السماع شناعة وبشاعة، وذلك أنهم كانوا عازمين على دخول مدينة الرسول (صلى الله عليه وسلم) وإخراجه من الضريح المقدس [٧]، ولم يكن بينهم وبين المدينة المنورة أكثر من مسيرة يوم، فدفع الله عاديتهم بمراكب عبرت من مصر والاسكندرية دخل فيها الحاحب المعروف بلولو مع اتجاد من المغاربة البحرين [٨]، فلحقوا العدو وهو قد قارب النجاة بنفسه فأخذوا عن آخرهم، وقتلوا وأسروا، وفرق من الأسرى على البلاد ليقتلوا بها، ووجه منهم إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة [٩].

وهكذا وصل ابن جبير الى مصر في طريقه الى مكة المكرمة، والعالم الاسلامي في المشرق يمر مرحلة من اخطر المراحل في تاريخه، نتيجة للاحتلال الصليبي الجاثم على صدره.

ويالرغم من بعد الحجاز عن ساحة المعركة، إلا أنه لم يك يمتنى من الخطر الناجم من ذلك الاحتلال، فيبعد أن احتل الصليبيون بيت المقدس وأسسنوا مملكتهم الصليبية هناك اندفعوا برعاثة بلديون الأول ملك مملكة بيت المقدس في حركة توسعية باتجاه شرق وجنوب البحر الميت، فأسسنوا عددا من القلاع كان من أهمها: قلعة الشويك وأبله والكرنك [١٠]، وبذلك استطاع الصليبيون السيطرة على طرق الحج والتجارة بين كل من مصر وبلاد

ينوه بحجم التجارة المتداولة في ذلك الوقت «ورمنا في هذا الطريق (من عيذاب الى قوص) إحصاء القوافل الواردة والصادرة، فما تمكن لنا ولا سيما القوافل العيذاوية المتحملة بسلع الهند الواصلة إلى اليمن، ثم من اليمن إلى عيذاب، وأكثر ما شهدنا من ذلك أحمال الفلفل، فقد خيل لكثرة انه يوازي القربا قيمه» [١٤].

ويصف ابن جبير حجم المعاناة والمشاق التي يصادفها الحاج في سفره عبر طريق عيذاب والاضطراب الفادحة الناجمة عن السفر في مراكب عيذاب إلى جده «فالجلاب التي يصرفونها في هذا البحر الفرعوني ملفقة الإنشاء، لا يستعمل فيها مسمار البتة إنما هي مخيطة بامراس من القنبار، وهو قشر موز النارجيل... ومن أعجب أمر هذه الجلاب أن شرعها منسوجة من خوص شجر المقل، فمجموعها متناسب في اختلال البنية ووهنها» [١٥]، أما أهل عيذاب فلمهم في الحجاج «أحكام الطواغيت وذلك أنهم يشحنون بهم الجلاب حتى يجلس بعضهم على بعض، وتعود بهم كأنها أبقاص الدجاج... ويقولون علينا بالألواح، وعلى الحجاج بالأرواح، هذا مثل متعارف بينهم» [١٦].

وقد أدرك ابن جبير سبب سلوك الحجاج المصريين في ذلك العهد طريق عيذاب، بدلا من طريق الحج المصري البري المالكوف، الذي يسير عبر سيناء ويتجه جنوبا بمحاذاة البحر الأحمر مارا بعقبة أيلة فالوجه فينبع، ثم إلى بدر فخليص، فحسفان، فوادي مر الظهران، وينتهي بمكة المكرمة.

يقول ابن جبير «أواح الله الحجاج منها (من عيذاب) بعمارة السبيل القاصدة إلى بيته الحرام، وهي السبيل التي من مصر على عقبة أيلة إلى المدينة المقدسة، وهي مسافة قريبة، يكون البحر منها يمينا،

الشام وبين الحجاز والأراضي المقدسة فيه. وكانت حركة رينولد (ارناط) [١١] الغادرة التي شاهد ابن جبير طرفا من أحداثها، قصد بها السيطرة على البحر الأحمر والقضاء على حركة التجارة بين موانئ الحجاز ومصر والشام إلى جانب تدمير المقدسات الإسلامية.

ولم تغب أهداف الصليبيين هذه عن بال صلاح الدين فقد حاول بدوره قفل البحر الأحمر من الشمال حريبا وتجاريا في وجه القوى النصرانية إلى جانب قفل مدخله الجنوبي بالاستيلاء على اليمن والسيطرة على مضيق باب المندب وميناء عدن.

هذا... وقد جرت أحداث الحملة في نفس العام الذي وصل فيه ابن جبير إلى الاسكندرية وقبل وصوله بزمان قصير حيث شهد عرض الأسرى في الاسكندرية في الوقت الذي تم فيه نحر اثنين من أسرى الحملة في منى في حج عام ٥٧٨هـ/ ١١٨٢م [١٢].

وقبل أن نتابع ابن جبير في وصفه للأحوال السياسية نزاقفه في رحلته من القاهرة عبر الصعيد إلى ميناء عيذاب على الشاطئ الغربي للبحر الأحمر، فقد سجل ملاحظات هامة وبقية تتعلق بحركة التجارة عبر ذلك الطريق... فمدينة قوص التي تقع على الطريق إلى عيذاب «حقيلة الأسواق، متسعة المرافق كثيرة الخلق لكثرة الصادر والوارد من الحجاج، والتجار اليمنيين والهنديين، وتجار أرض الحبشة» [١٣].

ويطبيعة الحال، فهو يشير هنا إلى تجارة الهند والشرق بصفة عامة التي كانت راجحة في ذلك الوقت بين موانئ الهند والشرق من ناحية، وموانئ البحر الأحمر ومصر والشام من ناحية أخرى حيث تنقل البضائع وبخاصة التوابل عن طريق تجار المدن الإيطالية إلى الغرب الأوروبي، ولا يفوت ابن جبير أن

على أنها كانت مدينة، واثّر سورها المحدث بها باق
إلى اليوم» [١٨] . ولا يغفل ابن جبّير عن الإشارة إلى
صهاريج الماء المنتشرة داخل جده وخارجها وتواترت
الإشارة إليها دون معرفة فترة تأسيسها .

يقول ابن جبّير «ويخارج هذا البلد مصانع قديمة
تدل على قدم اختطاطها ويذكر أنها كانت من مدن
الفرس وبها جباب منقورة من الحجر الصلد يتصل
بعضها ببعض، تقوّت الإحصاء كثرة، هي داخل البلد
وخارجها، حتى إنهم يزعمون أن التي خارج البلد
ثلاثمائة وستون جباً، ومثل ذلك داخل البلد، عاينا
نحن جملة كثيرة لا يأخذها الإحصاء» [١٩] . ويردد
ابن جبّير المقولة المتواترة أيضاً عن بناء الفرس
لمدينة جده، وتطلق دائماً دون الإشارة إلى زمن
محدد، ويبدو أن ذلك التأسيس قد تم في فترة
الاحتلال الفارسي لليمن .

أما أهل جده فأكثرهم «علويون وحسينيون
وحسينيون وجعفريون» [٢٠] وهم، في نظر ابن جبّير،
«من شظف العيش بحال يتصدع لها الجماد إشفاقاً،
ويستخدمون أنفسهم في كل مهنة من المهن، من
إكراء جمال إن كان لهم أو بيع لبن أو ماء أو غير
ذلك من تمر يلتقطونه أو حطب يحتطبونه، وربما
تناول ذلك نساؤهم الشريفات بأنفسهن» [٢١] . ومع
التسليم بدقة ابن جبّير التي سبقت الإشارة إليها،
إلا أن الباحث يتساءل: هل كان ابن جبّير في وضع
يؤهله للحكم على الأوضاع العامة بجدة أثناء إقامته
القصيرة بها؟ فأهل جده الذين يصرح بأن أكثرهم
من الأشراف لم يكونوا كذلك بل كانوا خليطاً من
أجناس مختلفة [٢٢] وربما أن الأمر قد اختلط عليه
بين ميناعين، حيث إن ينبع هي التي كانت في ذلك
الوقت موطن كثير من الأشراف وليست جده .

وجبل الطور المعظم يساراً، لكن للإفرنج بمقرية منها
حصن مندوب يمنع الناس من سلوكه» [١٧] .

ويبدو أن ابن جبّير يشير إلى القلاع الصليبية
التي اشترنا إليها في أيله والكرك وغيرهما، والحقيقة
فقد دأب رينولد (ارنات) منذ ولايته على قلعة الكرك
(١١٧٦هـ / ١١٧٦م) على قطع الطريق على قوافل
الحج والتجارة بين مكة المكرمة والمدينة المنورة من
جهة ومصر وبلاد الشام من جهة أخرى حتى أصبح
رينولد العدو الشخصي للسلطان صلاح الدين لدرجة
أنه أقسم أن يقتله بيده حينما يتمكن منه وقد وقى
السلطان بوعده في حطين .

لقد ظل الطريق البري للحاج المصري معطلا
طوال العصر الأيوبي حتى عهد السلطان الظاهر
بيبرس الذي نظم قافلة الحج المصري وسيرها في
سنة ٦٦١هـ / ١٢٦٢م عبر ذلك الطريق الذي أصبح
طريق الحج المصري الرسمي حتى نهاية العصر
الملوكي .

بعد قضاء ثمانية أيام في عرض البحر من
عذيب إلى جده رست مركب ابن جبّير في عشي يوم
الأحد ثاني ربيع الآخر سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣م في
مرسى بآبجر، وهو كما يذكر ابن جبّير على بعض
يوم من جده، ولم يتمكن مركبهم من دخول ميناء
جده حتى ظهر يوم الثلاثاء الرابع من الشهر .

قضى ابن جبّير أسبوعاً كاملاً بجده سجل
خلال إقامته فيها ملاحظات شملت جوانب اقتصادية
وعمرانية وأثرية، فوصف جده بأنها «قرية على
ساحل البحر» . أكثر بيوتها الأخصاص، وفيها
فنادق مبنية بالحجارة والطين، وفي أعلاها بيوت من
الأخصاص كالغرف، ولها سطوح يستراح فيها
بالليل من أذى الحر ويهذه القرية آثار قديمة، تدل

لقد ظهر ضيق ابن جبير وانزعاجه من سوء معاملة السلطة في الحجاز للحجاج منذ أن حط رحاله بجده، فعبر عن ذلك بقوله «ولو لا ما تلافى الله به المسلمين في هذه الجهات بصلاح الدين لكانوا من الظلم في أمر لا ينادى وليده، ولا يلين شديد، فانه رفع ضرائب المكوس من الحاج، وجعل عوض ذلك مالا وطعاما يأمر بتوصيلها إلى مكث أمير مكة..» واتفق لنا من ذلك أن وصلنا جده فامسكتنا بها خلال ما خطب مكث الأمير المذكور فورد أمره بأن يضمن للحاج بعضهم بعضا، ويدخلوا إلى حرم الله، فان ورد المال والطعام اللذان يرسمه من قبل صلاح الدين، وإلا فهو لا يترك ماله قبل الحاج، هذا لفظه، كأن حرم الله ميراث بيده، محلل له اكترأوه من الحاج» [٢٦]، ومع هذه الشكوى والسخط الشديد نرى ابن جبير ينزل أثناء إقامته بجده بدار واليا «وكان نزولنا فيها بدار القائد علي، وهو صاحب جده من قبل أمير مكة» [٢٧] ولكنه لا يفصح عن علاقته بهذا القائد الوالي الذي استضافه بمنزله.

على أي حال، علينا أن لا ننسى ونحن ننظر إلى أحوال جده في الوقت الذي حل بها ابن جبير، اضطراب الأحوال وخطورة الطرق المؤدية إلى الحجاز نتيجة للصراع الدائر بين المسلمين والصلبيين بالإضافة إلى اضطراب الأحوال في الحجاز نفسها التي كانت تعتمد اعتماداً كبيراً في حياتها على ما يأتيها من منح وإعانات، من العراق ومصر والشام، وما يرد إليها من حجاج هذه الأقطار، الذين تضاعف أعدادهم في هذه الفترة لظروف الحرب، وأخطار الطريق وإذا أضفنا إلى ذلك سوء وقساية إدارة أسرة الهواشم التي ينتمي إليها أمير مكة مكث بن عيسى الذي وصفه ابن جبير بقوله «وهذا الرجل مكث من ذرية الحسن بن علي، ولكنه ممن يعمل غير صالح،

أما أحوالها الاقتصادية فلا شك أنها تأثرت بأوضاع المشرق الإسلامي المنهارة في ذلك الوقت نتيجة للاحتلال الصليبي، ولكن مع ذلك سنلاحظ ونحن نتابع ابن جبير في رحلته حديث عن انتعاش قوي للحركة التجارية في مكة، وبطبيعة الحال يتبع ذلك انتعاش لبوابتها جده.

كما أن الإدريسي المتوفي سنة ١١٦٥ هـ/ ١١٦٥ أي قبل مجيء ابن جبير إلى جده بثمانية عشر عاما يصفها بأنها «مدينة كبيرة عامرة، تجاراتها كثيرة، وأهلها مياسير ذوو أموال واسعة وأحوال حسنة، ومرايح ظاهرة ولها موسم قبل وقت الحجيج مشهود البركة، تنفق فيه البضائع المجلوبة، والأمتعة المنتجة والخائز النفيسة، وليس بعد مكة مدينة من مدائن الحجاز أكثر من أهلها مالا ولا أحسن منهم حالا» [٢٢] فهل تسرع ابن جبير ولم يصدق في معلوماته عند كتابته عن جده؟ أم كان للحالة النفسية التي مر بها وسوء المعاملة التي لقيها بجده دور في نظرتة المتشائمة لهذه المدينة أو القرية حسب رأيه.

إن مما يقوي هذا الظن ما كتبه في هذا السياق عن أهل المنطقة تقريبا «وأكثر أهل هذه الجهات الحجازية وسواها فرق وشيع لا دين لهم، قد تفرقوا على مذاهب شتى، وهم يعتقدون في الحاج مالا يعتقد في أهل الزمة، فقد صيروهم من أعظم غلاتهم التي يستغلونها، ينتهبونها إنتهابا، ويسبون لاستجلاب ما بأيديهم استجلابا، فالحاج معهم لا يزال في غرامة إلى أن ييسر الله رجوعه إلى وطنه» [٢٤]. بل إنه يذهب إلى أبعد من ذلك بقوله «فمن يعتقد من فقهاء أهل الأندلس إسقاط هذه الفريضة عنهم فاعتقاده صحيح لهذا السبب، وبما يصنع بالحاج، مما لا يرتضيه الله عن رجل» [٢٥].

بعد مرور أسبوع قضاه ابن جبير بجده مرغماً
ريثما يخاطب واليها الأمير مكثر بشأن السماح له
بالمسير إلى مكة المكرمة «واتفق لنا من ذلك أن
وصلنا جده فامسكنا بها خلال ما خوطب
مكثر» [٢٢] وكانت المخاطبة، بطبيعة الحال، بشأن
المكس، أن لابن جبير بالتوجه إلى مكة المكرمة التي
وصلها في الثاني عشر من ربيع الثاني ليقضي بها
ثمانية أشهر حتى يحل موعد حج سنة ٥٧٩هـ /
١١٨٢م، ويؤدي مناسكه.
أقام ابن جبير بمكة المكرمة في حجرة بمنزل
مطل على الحرم الشريف، وبحس الباحث
المستكشف لم يترك شاردة ولا واردة بمكة المكرمة
إلا وتحرى عنها، ويحث عن أصولها، وبدون ملاحظاته
عنها، فوصف طبوغرافية مكة المكرمة على أنها «بلدة
قد وضعها الله بين جبال محدقة بها، وهي بطن واد
مقدس كبيرة مستطيلة، تسع من الضلائق ما لا
يحصى إلا الله عز وجل، ولها ثلاثة أبواب... وسور
مكة، إنما كان من جهة المعلا، وهو مدخل إلى البلد،
ومن جهة المسفلة، وهو مدخل أيضا إليه، ومن جهة
باب العمرة، وسائر الجوانب هناك لا يحتاج معها
إلى سور، وسورها اليوم متهدم إلا آثاره الباقية
وأبوابه القائمة» [٢٣]، «وبإزاء الحرم الشريف ديار
كثيرة لها أبواب يخرج منها إليه... كدار زبيدة، ودار
القاضي، ودار تعرف بالعجلة وسواها من الديار،
وحول الحرم أيضا ديار كثيرة تطيق به لها مناظر
وسطوح يخرج منها إلى سطح الحرم، قبيبت أهلها
فيه، ويبدون ما هم في أعلى شرفاته» [٢٤]؛
وبمكة المكرمة حمامان أحدهما ينسب للفقير
المانشي، أحد الأشياخ بالحرم، والثاني وهو الأكبر
ينسب إلى جمال الدين وزير الموصل [٢٥].

فليس من أهل سلفه الكريم» [٢٨] إذا أخذنا جميع
ذلك بعين الاعتبار يمكن أن ندرك أسباب انهيار جده
إن كان قد حدث كما تحدث عنه ابن جبير.
لقد ظهر فساد الأسرة الحاكمة بمكة المكرمة منذ
عهد مؤسسها أبو هاشم محمد بن جعفر (٤٥٥ -
٤٨٧هـ / ١٠٦٣ - ١٠٩٤م) الذي كان من وجهة نظر
ابن تغري بردي «ظالما جبارا فاتكا سفاكا للدماء
مسرفا... مطونا تارة مع الخلفاء العباسيين، وتارة
مع المصريين، وكان يقتل الحجاج ويأخذ
أموالهم» [٢٩]، ولم يكن مكثر بأحسن حالا من سلفه،
بل يبدو أن الأحوال قد ساءت في عهده لدرجة أدت
إلى انهيار حكم الأسرة، وهروب مكثر من مكة
المكرمة أمام زعيم حسني آخر هو الشريف قتادة
الذي قدم من ينبع ودخل مكة المكرمة سنة ٥٩٧هـ /
١٢٠١م [٣٠] ليستولى عليها ويؤسس أسرة حاكمة
ظلت تحكم مكة المكرمة وما حولها حتى بداية القرن
العشرين.
استنكر ابن جبير، كما سبق أن رأينا، ما كان
يؤخذ بجده من الحجاج من ضرائب أو مكوس وندد
بأنذيتها، وأشار إلى أنها فرضت منذ عهد
الفاطميين، وفي ظل عهد أسرة مكثر، وأشاد
بالسلطان صلاح الدين الأيوبي، الذي ألغى هذا
المكس وعوض أمير مكة بدلا عنه مالا وغلالا تحمل
إليه في كل عام. وكان مقدار الضريبة التي يدفعها
الحاج حسب ما ذكر ابن جبير - سبعة دنانير
ونصف مصرية، أما مقدار التعويض الذي خصصه
صلاح الدين لأمير مكة المكرمة مقابل إلغاء الضريبة
أو المكس فقد بلغ ألفي دينار بالإضافة إلى ألفي
إردب من القمح تدفع سنويا عدا إقطاعات يصعب
مصر وباليمن [٣١].

الشريف، ففي القبة العباسية أو قبة الشراپ، الواقعة بالقرب من زمزم توجد «خزانة تحتوي على تابوت مبسوط متسع، وفيه مصحف أحد الخلفاء الأربعة أصحاب رسول الله (صلى الله عليه وسلم) بخط زيد بن ثابت، منتسخ سنة ثمان عشرة من وفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وينقص منه ورقات كثيرة، وهو بين دفتي عود مجلد بمعاليق من صفر كبير الورقات، واسعها، عايناه» [٣٨]، ومعلوم أن أحد الخلفاء الأربعة الذي يشير إليه ابن جبير هو الخليفة الثالث عثمان بن عفان.

وعند باب إبراهيم أحد أبواب الحرم الشريف في زاوية كبيرة فيها دار المكتاسي الفقيه الذي كان إمام المالكية في الحرم، غرفة هي خزانة الكتب الموقوفة على المالكية [٣٩] وبالقرب من دار الندوة، مصاطب تحت قسي حنايا يجلس فيها النساخون والمقرؤون وبعض أهل صنعة الخياطة، والحرم الشريف محدد بحلقات المدرسين وأهل العلم [٤٠].

وبالحرم الشريف أربعة أئمة سنية وإمام خامس لفرقة الزيدية، والأسرة الحاكمة من الأشراف على مذهبهم، وهم يزيديون في الأذان بحي على خير العمل [٤١].

وعلى أي حال، فقد استنكر ابن جبير الأسلوب المتبع في إمامة الصلوات بالمسجد الحرام، حيث كان هناك إمام لكل مذهب من المذاهب يصلي بجماعته الذين ينتمون إلى مذهبه، ولا يُصلى وراء إمام واحد، فالشافعي يؤم جماعته ممن هم على مذهبه، والإمام الحنفي كذلك والمالكي كذلك، والحنبلي أيضاً، كل يصلي منفرداً بجماعته متعاقبين الواحد تلو الآخر، في جميع الفروض، ما عدا صلاة المغرب، حيث يصلون جميعاً منفردين أيضاً، ولكن في وقت واحد فتتداخل

لقد كان المسجد الحرام والكعبة المشرفة أول المشاهد التي استرعت انتباه ابن جبير بعد أن حل بمكة المكرمة، فقدم لنا عنهما تقريراً مفصلاً، وصف فيه الكعبة المشرفة والمسجد الحرام وصفاً دقيقاً وشاملاً، تناول الجوانب المعمارية للكعبة المشرفة والمسجد الحرام بأبوابه ومآذنه، وجميع ما بداخله من منشآت ومرافق، وما يشتمل عليه من آثار وكتب، ولم يغفل عن تدوين بعض الممارسات البدعية التي شاهدها بالحرم الشريف، معلناً تنديده بها واستنكارها.

فالكعبة التي وصفها ابن جبير هي التي تهدم بناؤها في العصر العثماني بسبب السيل وأعيد بناؤها سنة ١٠٤٠هـ / ١٦٣٠م في عهد السلطان مراد الرابع، وكانت حين رآها ابن جبير عبارة عن «مبنى بالحجارة الكبار الصم السم، قد رص بعضها على بعض بالعقد الوثيق، إلصاقاً لا تحل الأيام، ولا تقصمه الأزمان، ومن العجيب أن قطعة انصدت من الركن اليماني فسمرت بمسامير فضة، وأعيدت كتحسن ما كانت، والمسامير فيها ظاهرة» [٣٦] وكسوة الكعبة المشرفة التي شاهدها كانت «من الحرير الأخضر، وهي أربعة وثلاثون شقة، في الصفح الذي بين الركن اليماني والشامي منها تسع، وفي الصفح الذي يقابله بين الركن الأسود والعراقي تسع أيضاً، وفي الصفح بين العراقي والشامي ثمان، وفي الصفح بين اليماني والأسود ثمان أيضاً، قد وُصِّلَتْ كلها فجاعات كلها ستراً واحداً، يعم الأربعة جوانب» [٣٧].

أما المسجد الحرام الذي أسهب ابن جبير في وصفه، مما جعله مرجعاً لكثير من الرحالة والمؤرخين الذين أتوا بعده، وكتبوا عن مكة، فلن يتسع المجال هنا لنقل ما دون عنه وسنكتفي بمتابعة بعض المظاهر التي أثارت انتباه ابن جبير عند تدوينه لمشاهداته في الحرم

واهتمامه بإصلاح أحوال الحرمين الشريفين، مما يستدل منه على امتداد النفوذ الأيوبي للحجاز، يذكر حكومة مكة المكرمة والنفوذ الأيوبي الذي امتد إليها عرضاً في مشاهداته اليومية المدونة.

ففي ليلة الثلاثاء الثاني من رمضان «طاف الأمير مكثر بالبيت مودعا، وخرج للقاء الأمير سيف الإسلام طغتكين بن أيوب أخى صلاح الدين وقد تقدم الخبر لوروده من مصر منذ مدة، ثم تواترت إلى أن صح وصوله إلى ينبوع وأنه عرج إلى المدينة المنورة لزيارة الرسول [صلى الله عليه وسلم]، وتقدمت أثقاله إلى الصفراء... والمتحدث به في وجهته قصد اليمن، لاختلاف وقع فيها، وفتنة حدثت بين أمرائها، ولكن وقع في نفوس المكين منه إيجاس خيفة، واستشعار خشية، فخرج هذا الأمير متلقيا ومسلما، وفي الحقيقة مستسلما» [٤٥].

إذا... فقد عرف ابن جبير طبيعة العلاقة بين القيادة الأيوبية وأمراء مكة، ويبدو أنه قد اخذ يتحرى أكثر عن طبيعة هذه العلاقة حين يقول «وفي هذا التاريخ (جمادى الأولى سنة ٥٧٩هـ) علمنا بأن كتابه (كتاب صلاح الدين) وصل إلى الأمير مكثر، وأهم فصوله التوصية بالحجاج، والتأكيد في مسرتهم وتانيسهم، ورفع أيدي الاعتداء عنهم، والإيعاز في ذلك إلى الخدام والأتباع والأوزاع» [٤٦].

والواقع، فقد ظهر حرص صلاح الدين على مد النفوذ الأيوبي إلى الحجاز منذ وقت مبكر من قيام دولته، حين أرسل أخاه المعظم تورانشاه في سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٤م للاستيلاء على اليمن... وقد عرج تورانشاه في طريقه على مكة المكرمة ودخلها، وفرض الدعاء فيها لأخيه صلاح الدين من على منبر الحرم الشريف [٤٧] معلنا بذلك دخولها في حوزة النفوذ

أصواتهم مما يسبب إرباكا للمصلتين، وتكرار أخطائهم [٤٢].

ويمضي ابن جبير في استنكار بعض الممارسات التي شاهدها بالحرم الشريف، ولا يقف عند حد الاستنكار بل يحاول، بحاسة الباحث عن الحقيقة، إثبات بطلانها. ففي ليلة النصف من شعبان شاهد ابن جبير ازدهاما شديداً على بئر زمزم، فاستوضح الأمر، فعلم أن المكين «يزعمون بل يقطعون قطعاً جهلياً لا قطعاً عقلياً» [٤٣] أن ماء زمزم يفيض ليلة النصف من شعبان، ولذلك يركوا إلى قبة زمزم وكان ذلك الازدهام الذي لم يعهد مثله، كل يزيد أن يتوضأ أو يغتسل بالماء الفائض لنيل البركة، ويقف ابن جبير موقف الرافض المستنكر لهذه البدعة الباحث عن الحقيقة.

«وكان من الاتفاق أن اعتنينا بهذا الأمر لغلبة الاستفاضة التي سمعناها في ذلك واستمرارها مع سؤال الأزمنة عند أهل مكة المكرمة، فتوجه منا ليلة الجمعة من أدلى دلوه في البئر المباركة إلى أن ضرب في صفح الماء، وانتهى الحبل إلى حافة التتور، وعقد فيه عقدة يصح عندنا القياس به في ذلك فلما كان في صبيحتها، وتنادى الناس بالزيادة الظاهرة، خلص احداً في ذلك الزحام على صعوبة، ومعه من استصحب الدلو وأدلاه، فوجد القياس على حاله، ولم يزد، بل كان من العجب أن أعاد القياس ليلة السبت، فثأفاه قد نقص يسيراً لكثرة ما امتاح الناس منه ذلك اليوم» [٤٤].

ولا يقف ابن جبير طويلاً في ملاحظاته على الأوضاع السياسية في الحجاز وحكومة مكة المكرمة، ففيما عدا عباراته القاسية التي وصف بها أمير مكة مكثر، وفيما عدا إشاداته بصلاح الدين الأيوبي

النفيسة، كالجواهر والياقوت، وسائر الأحجار، ومن أنواع الطيب كالمسك والكافور والعنبر والعود، والعقاقير الهندية، إلى غير ذلك من جلب الهند والحبشة، إلى الأمتعة العراقية واليمنية إلى غير ذلك من السلع الخراسانية والبضائع المغربية، إلى ما لا يتحصر ولا ينضب، ما لو فرق على البلاد كلها لأقام لها الأسواق النافقة، ولعم جميعها بالمنفعة التجارية، كل ذلك في ثمانية أيام بعد الموسم، حاشا ما يطرأ بها مع طول الأيام من اليمن وسواها، فما على الأرض من سلعة من السلع، ولا ذخيرة من الذخائر إلا وهي موجودة فيها مدة الموسم» [٤٩].

ويلاحظ هنا أمران الأول: هو أن معظم السلع التي تحدث عنها ابن جبير هي منتجات أجنبية وبعبارة أدق هي سلع هندية وشرق آسيوية، وبلغ يمنية، وربما أيضا سلع من الساحل الأفريقي للبحر الأحمر، وهذه السلع ظلت طوال العصر الإسلامي الوسيط تنتقل بين موانئ البحر الأحمر ومن بينها جدة، وقد أشار ابن جبير لها عند حديثه عن عذاب.

أما الأمر الثاني: هو أنه إذا كانت هذه البضائع قد وجدت بتلك الضخامة التي شاهدها ابن جبير، فما الذي أدى إلى إضعاف الحالة الاقتصادية في جدة - حسب ما رأى ابن جبير - وجميع هذه البضائع من المفترض أن تصب في جدة قبل أن تأخذ طريقها إلى أسواق مكة المكرمة؟

أما عن المواد الغذائية والتموينية، فلم يكد ابن جبير يصدق ما رآه من كثرتها وجودتها «وأما الأرزاق والفواكه، وسائر الطيبات فكنا نظن أن الأندلس اختصت من ذلك بحظ له المزية على سائر حظوظ البلاد حتى حلتنا بهذه البلاد المباركة، فآلفيناها تخص بالنعيم والفواكه كالتين والعنب والزمان». والقضاء

الأيوبي على أن حرص صلاح الدين على ضم الحجاز إلى سيادته، لم يأخذ أي شكل من أشكال الاحتلال، بل كان الغرض منه إسباغ الشرعية على زعامته للعالم الإسلامي في ظل الخلافة العباسية القائمة. ويبدو أن ابن جبير قد أدرك هذا الواقع حيث كتب «وفي ضحوة يوم الخميس بعده (بعد خروج مكثر للاقااة طغتكين) كنا أيضا بالحجر المكرم، فإذا بأصوات طبول ودياب وبوقات قد قرعت الأذان، وارتجت لها تواحي الحرم الشريف، فبينما نحن نتطلع لاستعلام خبرها، طلع علينا الأمير مكثر وحاشيته الأقربون حوله، وهو راقل في حلة ذهب، كأنها الجمر المتقد، يسحب أذيالها وعلى رأسه عمامة شرب رقيق سحابي اللون. وهي مصفحة بالذهب، وتحت الحلة خلعتان من الديبقي المرسوم البديع الصنعة، خلعهما عليه الأمير سيف الإسلام فوصل بها فرحان جذلان. قطاف بالبيت المكرم شكرياً لله على ما وهبه من كرامة هذا الأمير، بعد أن كان أوجس في نفسه خيفة منه» [٤٨].

لقد ضمن طغتكين خضوع مكثر وقبوله بالسيادة الاسمية للسلطان صلاح الدين على مكة المكرمة وهذا ما كان مطلوباً من أمراء الحجاز في هذا العصر: الاعتراف بالسيادة الاسمية على الحرمين لحاكم أو لآخر ممن يتطلعون إلى زعامة العالم الإسلامي لإضفاء الشرعية على زعامتهم.

لقد استرعت الأحوال الاقتصادية المنتعشة في مكة والنشاط التجاري المصاحب لموسم الحج انتباه ابن جبير فتون ملاحظات عنها في غاية الأهمية، فمكة المكرمة التي شاهدها هي «أكثر البلاد نعماً وفواكه ومنافع ومرافق ومتاجر، ولو لم يكن لها من المتاجر إلى أوان الموسم، ففيه مجتمع أهل المشرق والمغرب، فيباع فيها في يوم واحد، فضلاً عما يتبعه من الذخائر

استنكارها والتتديد بها «وفي أيام الموسم كلها عاد المسجد الحرام، تزهره الله وشرفه سوقاً عظيمة يباغ فيه من الدقيق الى العقيق، ومن البر الى الدر، الى غير ذلك من السلع. فكان بيع الدقيق بدار الندوة الى جهة باب بني شيبه، ومعظم السوق في البلاد الأخذ من الغرب الى الشمال، وفي البلاد الأخذ من الشمال الى الشرق، وفي ذلك من النهي الشرعي ما هو معلوم» [٥٥].

ولا يغفل ابن جبير عن تسجيل بعض المناسبات الدينية والاجتماعية التي شاهدها بمكة المكرمة، فالمكيون يحتفلون بدخول كل شهر من أشهر السنة الهجرية «ولأهل هذه الجهات المشرقية كلها سيرة حسنة عند مستهل كل شهر من شهور العام يتصافحون ويهنئ بعضهم بعضاً، ويتقافرون، ويدعو بعضهم لبعض، كفعلهم في الأعياد، هكذا دائماً» [٥٦].

والأشهر الحرم لها مكانة خاصة، واحتفال بدخولها، فعند ثبوت رؤية هلال شهر رجب تضرب الطبول والدبابد والبوقات إشعاراً بأنها ليلة الموسم [٥٧]. وفي أول هذا الشهر ومنتصفه والسابع والعشرين منه يخرج المكيون في جماعات الى التمتع لأداء العمرة.

ويصف ابن جبير خروجهم في صبيحة يوم الخميس الأول من رجب سنة ٥٧٩هـ، فيقول «قلما كانت صبيحة ليلة الخميس خرج الى العمرة في احتفال لم يسمع بمثله، انحشد له أهل مكة المكرمة عن بكرة أبيهم، فخرجوا على مراتبهم قبيلة قبيلة، وحارة حارة شاكين في الأسلحة فرساناً ورجالة، فاجتمع منهم عدد لا يحصى كثيرة.. فكانوا يخرجون على ترتيب عجيب، فالفرسان منهم

والخيار إلى جميع البقول كلها.. إلى غير ذلك من الرياحين العبققة والمشمومات العطرة.. وبها غسل أطيب من المائتي المضروب به المثل.. وأنواع اللبن.. وكل ما يصنع منها من السمن» [٥٥].

وقد عرف ابن جبير مصادر إنتاج المواد الغذائية فهي «تجلب إليها (إلى مكة المكرمة) من الطائف.. ومن قرى حولها (حول مكة المكرمة) .. ومن بطن مر.. ومن نخلة» [٥٦]، وأعجب ابن جبير بلحوم الضان المكبة «وأما لحوم ضانها فهناك العجب العجيب، فقد وقع القطع من كل من تطوف على الافاق، وضرب نواحي الأقطار، انها أطيب لحم في الدنيا» [٥٧]، كذلك فقد أعجبه الحلوى المعروضة في أسواق مكة المكرمة «وأما الحلوى فيصنع منها أنواع غريبة من العسل والسكر المعقود على صفات شتى.. وفي الأشهر الثلاثة، رجب وشعبان ورمضان يتصل منها اسمطة بين الصفا والمروة، ولم يشاهد احد أكمل منظر منها لا بمصر ولا سواها» [٥٨].

أما سوق مكة الرئيسي فيقع بين الصفا والمروة وهو «سوق حفيلة بجميع الفواكه وغيرها من الحبوب، وسائر المبيعات الطعامية، والساعون لا يكادون يخلصون من كثرة الزحام، وحوانيت الباعة يميناً وشمالاً، وما للبلدة سوق منتظمة سواها، إلا البزازين والطارئين، فهم عند باب بني شيبه تحت السوق المذكورة، ويمقرية تكاد تتصل بها» [٥٩].

ويجب أن لا ننهم من كلام ابن جبير في حديثه عن أسواق مكة المكرمة، ندرة هذه الأسواق، ولكنها في حقيقة الأمر، الرغبة في التمركز حول الحرم، وهو بمثابة المنطقة المركزية بالنسبة للمدينة المنورة، وقد قادت هذه الرغبة المكيين إلى عرض بضائعهم داخل الحرم نفسه، مما دفع ابن جبير الى

مكانة خاصة من بين أشهر السنة عند المكين، وإن الحرم الشريف هو مركز الفعاليات الدينية والثقافية المرتبطة بهذا الشهر ففي كل وتر من الليالي العشر الأواخر يختم فيها القرآن، ويكون الخاتم في العادة احد صبيان أهل مكة المكرمة، وقد شهد ابن جبير ليالي هذا الختم وفعاليته، ففي ليلة الثالث والعشرين من الشهر، على سبيل المثال، «كان المختتم فيها احد أبناء المكين ذوي اليسار، غلاما لم يبلغ سنه الخمس عشرة سنة، فاحتفل أبوه لهذه الليلة احتفالا بديعا، وذلك أنه أعد له ثريا مصنوعة من الشمع مفضنة، قد انتظمت أنواع الفواكه الرطبة واليابسة وأعد إليها شمعا كثيرا، ووضع في وسط الحرم مما يلي باب بني شيبه شبه المحراب المربع، وربطت في أعلاه عيدان نزلت منها قناديل، وأسرجت في أعلاه مصابيح ومشاعيل... وأوقدت الثريا المفضنة ذات الفواكه...»

وحضر الإمام الطفل فصلى التراويح وختم، وقد انحشد أهل المسجد الحرام إليه رجالا ونساء... ثم برز من محرابه رافلا في افخر ثيابه بهيبة إمامية وسكينة غلامية مكحل العينين، مخضوب اليدين إلى الزندين... ثم وذكر أن المعنيين من ذلك الجمع كالكافضي وسواه خصوا بطعام حافل وحلو على عادتهم في مثل هذا المجتمع [٥٨].

والمؤذن الزمزمي هو من يتولى التسحير في رمضان. وقد نصب في أعلى المنارة الواقعة في الركن الشرقي من الحرم الشريف خشبة طويلة في رأسها عود كالإذراع، وفي طرفيه بكرتان صغيرتان، يرفع عليهما قنديلان من الزجاج كبيران، لا يزالان يقدان مدة التسحير فإذا حل وقت الإمساك ومن ثم أذان الفجر انزل المؤذن القنديلين من أعلى الخشبة، فمن لم

يخرجون بخيلهم، ويلعبون بالأسلحة عليها، والرجال يتواشون ويتناقشون بالأسلحة في أيديهم حرايا وسيوفا وحجفا، وهم يظهرون التطاعن بعضهم لبعض، والتضارب بالسيف والدافعة بالحجف... إلى أن خرج الأمير يزحف بين قواده، وأبناءؤه أمامه، وقد قاربوا سن الشباب، والرايات تخفق أمامه، والطبول والدياباب بين يديه... وقد امتلأت الجبال والطرق والثنيات بالنظارة من جميع المجاورين، فلما انتهى إلى الميقات وقضى غرضه، أخذ في الرجوع، وقد ترتب العسكران بين يديه على لعبهم ومرحهم، والرجالة على الصفة المذكورة من التجاول، وقد ركب جملة من أعراب البوادي نجبا صهبا، لم ير أجمل منظرا منها، وركابها يسابقون الخيل بين يدي الأمير رافعين أصواتهم بالدعاء له والثناء عليه إلى أن وصل المسجد الحرام» [٥٨].

ويضي ابن جبير في وصف خروج المكين للعمرة في هذه المناسبة التي شارك فيها بنفسه، فيعطى صورة حية مليئة بالحركة للاحتفال الذي تشهده مكة في هذه المناسبة، والذي لم يسمع أو يشهد له مثيلا، فالهوادج التي سالت بها اباطح مكة وشعابها، والإبل التي زينت تحتها يائواك التزيين وأشعرت بقلائد رائقة المنظر من الحرير وغيره، والأستار التي فاضت على الهوادج التي تحمل النساء وتسحب أنيالهها على الأرض، والنيران التي اشعلت بحافستي الطريق، والشمع المتقد بين أيدي الإبل التي تحمل الهوادج، كل ذلك جعل ابن جبير يعاين، على حد قوله «ليلة هي اغرب ليالي الدنيا، فمن لم يعاين ذلك لم يعاين عجايب حشوية ولا عجبا يذكره مرأى الحشر يوم القيامة» [٥٩].

وغنى عن القول أن شهر رمضان استحوذ على

شاهد من مخالفات صريحة في تحري هلال شهر ذي الحجة: «وكان للناس في ارتقابه (هلال ذي الحجة) أمر عجيب، وشأن من البهتان غريب، ونطق من الزور كاد يعارضه من الجماة فضلاً عن غيره ردة وتكذيب». حرصاً منهم على أن تكون الوقفة بعرفات يوم الجمعة، وكان الحج لا يرتبط إلا بهذا اليوم بعينه، فاختلقوا شهادات زور: [٦٣].

بعد أن قضى ابن جبير مناسك حجه غادر مكة في الثاني والعشرين من ذي الحجة سنة ٧٩٧هـ متجهاً إلى المدينة المنورة.

أقام ابن جبير بالمدينة المنورة خمس ليال، ومع قصر المدة فيبدو أن ابن جبير قد أخذ يجوب أنحاء المدينة وأطرافها ليتمكن من تسجيل وصف لمعالمها وأثارها والحرَم النبوي الشريف «فلمدينة أربعة أبواب، وهي تحت سورين، على كل سور باب يقابله آخر، الواحد منها كله حديد، ويعرف باسمه باب الحديد، ويليه باب الشريعة، ثم باب القبلة، وهو مغلق، ثم باب البقيع، وقيل وصولاك سور المدينة من جهة الغرب بمقدار غلوه تلقى الخندق الشهير ذكره، وبينه وبين المدينة المنورة عن يمين الطريق العين المنسوبة للنبي [صلى الله عليه وسلم]». وماء هذه العين يعم أهل الأرض، فضلاً عن أهل المدينة المنورة، فهي لتطهير الناس واستقائهم، وغسل أثوابهم» [٦٤]. «ويطيف بالحرَم كله شارع مبلط بالجر المتحوت المفروش» [٦٥].

ولم يظن ابن جبير في وصفه للمسجد النبوي كما كان الحال بالنسبة للمسجد الحرام، وربما كان السبب قصر المدة التي أقامها بالمدينة المنورة، على أن ملاحظاته عن المسجد النبوي، ووصفه للطابع المعماري الذي كان عليه في عصره، تأتي في غاية

يسمع الأذان نظر إلى القنديلين، فإذا لم يبصرهما علم بانقطاع الوقت وحلول الفجر» [٦٦].

ويشارك ابن جبير في صلاة العيد بالحرَم الشريف حسب عادة المكيين، لأن السنة جرت بصلاة العيد فيه، ولا يغفل عن تسجيل تلك المناسبة، فيعد أن قضى الناس صلاة الفجر في اليوم الأول من شوال، لبسوا أثواب عيدهم، وأخذوا أماكنهم ثانية بالحرَم، وفتح الشيبويين باب الكعبة المشرفة «وأقام زعيمهم جالسا في العتبة المقدسة، وسائر الشيبويين داخل الكعبة إلى أن أحسوا بوصول الأمير أكثر فنزلوا إليه وتلقوه». فانتهى إلى البيت الحرام، وطاف حوله سبعاً والمؤذن الزمزمي فوق سطح القبة على العادة رافعا صوته بالثناء عليه والدعاء له. فلما أكمل الأمير السبع عمد إلى مصطبة قبة زمزم مما يقابل الركن الأسود فقعدها، وينوه عن يمينه ويساره وحاشيته وقفا على رأسه. وحضر الأمير من خاصته شعراء أربعة فانشدوه واحدا اثر واحد، إلى أن فرغوا من إنشادهم، وفي أثناء ذلك تمكن وقت الصلاة، وكان ضحى من النهار فاقبل القاضي الخطيب. وهو لايس ثياباً سوداء. وقام الناس للصلاة، فلما قضوها رقى المنبر فخطب خطبة بليغة. إلى أن فرغ من خطبته، واقبل الناس بعضهم على بعض بالمصافحة والتسليم والتغافر والدعاء. وبادروا إلى البيت الحرام فدخلوا بسلام منحنين عليه فوجاً فوجاً. وأخذ الناس عند انتشارهم في زيارة الجبانة بالمعلاة» [٦٧].

وبعد مرور ثمانية أشهر تقريباً قضاهما ابن جبير في ربوع مكة بين عبادة وسياحة وبحث حل وقت الحج. ومع حلوله استثيرت حاسة الباحث الناقد عند ابن جبير مرة أخرى فلا يسكت عن التنديد بما

أحد المصاحف الأربعة التي وجه بها عثمان بن عفان إلى البلاد» [١٨] أما الكتب التي شغف ابن جبير بها فقد شاهد «بإزاء المقصورة إلى جهة الشرق خزانتان كبيرتان محتويتان على كتب ومصاحف موقوفة على المسجد المبارك» [١٩].

وفي الجهة الشرقية من المسجد شاهد ابن جبير «بيتاً مصنوعاً من عود، وهو موضع مبيت بعض السادة الحارسين للمسجد المبارك» [٢٠] وقد أبدى ابن جبير إعجابه بسدنة المسجد، الذين عرفوا فيما بعد بالأغوات، فهم «فتيان احابيش وصقالب، ظراف الهيئات نظاف الملابس والشارات» [٢١].

ويضج ابن جبير بالشكوى في ختام إقامته بالمدينة المنورة، فقيل رحيله من المدينة بيوم حضر صلاة الجمعة بالمسجد النبوي الشريف، فشاهد في هذه المناسبة ما أثار استنكاره وسخطه، «وفي يوم الجمعة المذكور، وهو السابع من محرم، شاهدنا من أمور البدعة امرأً ينادى له الإسلام بالله يا للمسلمين» [٢٢] وما شاهد ابن جبير هو: إن الإمام بعد أن فرغ من الخطبة الأولى جلس جلسة طويلة، فيما قام أتباعه يخترقون الصفوف ليجتمعوا له ما تجود به نفوس الحاضرين «فمنهم من طرح الثوب النفيس، ومنهم من يخرج الشقة الغالية من الحرير... ومنهم من يخلع عمامته... ومنهم من يتجرد من برده... ومنهم من يدفع القراضة من الذهب، ومنهم من يمد يده بالدينار والدينارين... ومن النساء من تطرح خلخالها، وتخرج خاتمها فتلقيه... والخطيب في أثناء هذا الحال كلها جالس على المنبر يلحظ هؤلاء... بلحظات يكررها الطمع، وتعيدها الرغبة والاستزادة، إلى أن كاد الوقت ينقضي، والصلاة تقوت، وقد ضج من له دين وضحة من الناس، وأعلن بالصياح... فاجتمع له من ذلك السحت المؤلف كوم عظيم أمامه، فلما أرضاه قام،

الأهمية لتفرض المسجد النبوي للحريق في أوقات لاحقة.

على أي حال لن نقف طويلاً عند وصفه للمسجد النبوي بل سنتابع ملاحظاته على ما شاهد داخل المسجد النبوي، مما استرعى انتباهه، وشك في صحة بعضه واستنكر البعض الآخر فمن بين ما شاهد داخل المسجد النبوي «في جهة جوف الصحن، قبة كبيرة محدثة جديدة تعرف بقبة الزيت، وهي مخزن لجميع آلات المسجد المبارك، وما يحتاج إليه فيه، وبإزائها في الصحن خمس عشرة نخلة، وعلى رأس المحراب الذي في جدار القبلة، داخل المقصورة حجر مربع أصفر، قدر شبر في شبر، ظاهر البريق والبصيص، يقال انه كان مرآة كسرى، والله اعلم بذلك، وفي أعلاه داخل المحراب مسمار مثبت في جداره، فيه شبه حق صغير، لا يعرف من أي شيء هو، ويزعم أيضاً انه كأس كسرى، والله اعلم بحقيقة ذلك» [٢٣].

وبطبيعة الحال فابن جبير يشك في جميع ما نقل له عن هذه الآثار أو المخلفات ونسبتها إلى كسرى، وهو يغبر عن شكه بعبارة: «والله اعلم» أما الخمس عشرة نخلة التي شاهد ابن جبير في الصحن فقد ذكر مؤرخ المدينة المنورة ابن فرحون أنها كانت موجودة في القرن السابع الهجري على عهد شيخ خدام الحرم النبوي العزيزي، عزيز الدولة، وكان منه شيء غرس قبل العزيزي ومات أكثره» [٢٤] وهو ما يدل على وجوده في القرن السادس الهجري ومشاهدة ابن جبير له.

ومرة ثانية، وكما سبق أن شاهد في الحرم المكي الشريف، يشاهد ابن جبير في المسجد النبوي مصحفاً آخر ينسب للخليفة الثالث عثمان بن عفان، فبين مصلى الإمام، وبين الروضة والقبور الشريف «محمل كبير مدهور، عليه مصحف كبير، في غشاء مقفل عليه، هو

استؤنفت الرحلات المجازية المدونة في العصر المملوكي، فقد زار الحجاز في هذا العصر أربعة من الرحالة، قدموا في فترات متفاوتة، خلال أكثر من نصف قرن (٦٨٤ - ٧٤٩هـ / ١٢٨٥ - ١٣٤٩م) لآداء الحج، وبنوا مشاهداتهم في الأراضي الحجازية أثناء وجودهم بها أو بعد مغادرتهم لها.

قدم هؤلاء الرحالة من المغرب الأقصى، وأخذ كل منهم طريقاً إلى الحجاز في مسار يتفق أو يختلف مع من سبقه أو جاء بعده للقيام بنفس القصد، وهو الحج وزيارة المسجد النبوي الشريف. وستابع في هذا الفصل قراءة ما جاء في أوراق هؤلاء الرحالة عن الحجاز في العصر المملوكي حسب الترتيب الزمني لرحلاتهم لآداء الحج.

رحلة ابن رشيد (سنة ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م) :

يعتبر ابن رشيد، محمد بن عمر بن محمد الفهري أول رحالة قدم من المغرب في رحلة حج مدونة، كما يعد أول رحالة مغربي دون مشاهداته عن الحجاز في العصر المملوكي.

انضم ابن رشيد إلى قافلة الحج الشامي التي غادرت دمشق في الحادي عشر من شوال سنة ٦٨٤هـ / ١٢٨٥م [٧٥] في طريقها إلى المدينة المنورة. ويقرر ابن رشيد حجم قافلة الركب الشامي التي انضم إليها بستين ألف راحلة دون الخيل والبغال والحمير [٧٦] وكانت بصرى أولى محطاتها حيث يتجهز الناس بها لاستقبال الصحرَاء. ويصف ابن رشيد محطات الركب الشامي التي تنزل بها القافلة للراحة والنوم والطعام ويشير إلى بعض العادات التي يمارسها الحجاج أثناء سيرهم ومقامهم في الطريق إلى مكة المكرمة ففي تبوك

وأكمل الخطبة، وصلى بالناس، وانصرف أهل التحصيل باكين على الدين يأسين من صلاح الدنيا [٧٣]. وقد أشار ابن فرحون إلى هذا الإمام الذي حضر ابن جبير معه الجمعة بأنه كان من الشيعة الإمامية، الذين كانوا يتولون القضاء والإمامة في المدينة المنورة في ذلك الوقت [٧٤].

لقد عاهد ابن جبير نفسه عند وصوله إلى جده، بعدم العودة إلى وطنه عن طريق عيذاب، لذا نجده قد انضم من مكة المكرمة إلى قافلة الحج العراقي في طريق عودتها الذي يسير من مكة إلى المدينة المنورة، ومن ثم يتجه شمالاً إلى فيد، فالكوفة، فيغداد، ومن هناك أخذ ابن جبير طريقه إلى الموصل، فحلب، فدمشق، ثم إلى عكا حيث استقل مركباً أعاده إلى موطنه.

وكما سبق أن وصف ابن جبير الطريق من مصر إلى جده عبر عيذاب، فقد دون وصفاً دقيقاً ومفصلاً لطريق الحج العراقي (درب زبيدة) بماناه، ومحطاته ومرافقه ومنشأته، ولم يغفل عن وصف القافلة ونظامها وأسلوب سيرها ووقوفها خلال الطريق، وما احتوت عليه من إمكانات ومرافق.

لم يحظ الحجاز بعد مدونة ابن جبير برحلة مدونة طوال العصر الأيوبي. وبعد مرور قرن كامل استؤنفت الرحلات المدونة، وكان ذلك في العصر المملوكي، وهو ما سنقرأه في الفصل التالي:

الفصل الثاني

قراءة فيما دونه عدد من الرحالة

عن الحجاز في العصر المملوكي

بعد انقطاع دام قرابة قرن، منذ أن قام ابن جبير برحلته المدونة إلى الحجاز في العصر الأيوبي،

قضى ابن رشيد ثلاثة أيام بالمدينة المنورة وغادرها فجر اليوم الرابع في السادس والعشرين من ذي القعدة متجها إلى مكة المكرمة، ويبدو أن ابن رشيد قد شغل وقته بالمدينة المنورة إلى جانب العبادة بلقاءات العلماء والفقهاء ومناظرتهم والأخذ عنهم، ولم يتوفر له الوقت لتدوين مشاهداته بالمدينة المنورة فقد عقد في مدونته فصلا في حوالي خمسين صفحة عن من لقيه بمدينة النبي (صلى الله عليه وسلم) من العلماء والرواة [٨٧].

عند وصول القافلة إلى مشارف مكة المكرمة يصف ابن رشيد مشهدا في غاية الأهمية «فتلقانا أهل مكة المكرمة وأطفالها متعلقين بالناس، ليعلموهم الناسك، ويهدوهم المسالك، وقد درب صبيانهم على ذلك، وحفظوا من الادعية والأذكار ما يحسن هناك» [٨٢] ومعاينة ابن رشيد لهذا المشهد يثبت لنا احتراف المكيين لمهنة الطواف منذ أوائل العصر المملوكي، وليس أواخره، كما كان يعتقد البعض [٨٣] بل إن رواج هذه المهنة في هذا العصر يدل دلالة واضحة على قدم نشأتها، وهو الأمر الطبيعي والأرجح، حيث إن المكيين اعتمدوا طوال حياتهم منذ عصر ما قبل الإسلام وحتى أوائل العصر الحديث في معيشتهم على الحج والتجارة وتكرس جل نشاطهم حول الحرم وخدمته وخدمة أغراضه وقاصديه.

ويسجل ابن رشيد مشاهدته لأمر مكة المكرمة في الموقف بعرقات، فعندما غربت شمس يوم التاسع من ذي الحجة وأخذ الناس في الإفاضة «جاء أمير مكة الشريف أبو تمي محمد بن أبي سعيد الجسن في جيشه، ووقف ما بين موقف النبي (صلى الله عليه وسلم) ومصلى الإمام، وفي ذلك الوقت أفضنا وتركتناه» [٨٤] وأمير مكة هذا الذي شاهده ابن رشيد

وحين دنت القافلة منها بأميال خمسة أو ستة «عبأ الناس الجيش وتزينوا بالأسلحة، ورتبت الرجال والفرسان، وخلفهم الرواحل... ويذكر الناس أنهم يعينون الجيش عند دخولها عادة لهم يزمون فيها الاقتداء، لأنه (صلى الله عليه وسلم) دخلها كذلك» [٧٧].

وتتشط حاسة الباحث عن التاريخ والآثار عند ابن رشيد فتخلب لبه آثار مدائن صالح التي وصلتها القافلة آخر الليل، فيشاهد في الصباح «من عجائب صنع الله ما يقف فيه الطرف، ويحار فيه الوصف، من الدور المنحوتة في الجبال المحكمة الصنعة، البديعة الإتقان، الفارمة النقش وأكثرها لم يتغير كآنها قريبة العهد بالصنعة، وبعض تلك المساكن تداخل بها نفوذ مياه الأمطار لأحجارها فتشقق بعضها... وأثناء هذه الأرض الحجورة جبال صغار فيجيبون إلى تلك الجبال الصغار فيمسحون وجه الجبل بالنجارة ويحكمون تسويتها بالنحت ويقنحون فيه أبوابا، وينقشون جوانبها وأعاليلها بأبداع الصنعة، ثم يتسعون في نقر الجبل قبالة الباب، وعن يمينه ويساره ويصنعون فيه... وشاهدنا بعض هذه البيوت مملوءا عظاما، وظاهر أحوالهم أن خلقهم كانت كخلقنا» [٧٨].

وفي العلا يودع حجاج الركب الشامي الفائض من ازوادهم لتخفيف الحمل عن رواجلهم، والاستفادة مما ترك في رحلة العودة [٧٩]، وبالقرب من المدينة المنورة يستقبل الحجاج ببعض الباعة «وقد صنعوا عصيا في أطرافها أوعية صغاراً، فيجعلون فيها شيئا من التمر، ويناولونه أهل القباب المستره من بين ستورها، فيعطي كل أحد ما تيسر له من الرغد، ويدفعون إلى الركبان والمشيان أيضا من ذلك على حكم التحفة والهدية، فيحسن كل على قدر وجده» [٨٠].

يجب أن يزجر عنها فاعلها ويردع» [٨٧].
والحقيقة، لم تكن هذه الظاهرة من قبيل البدعة، وإنما الذي يبدو أن من كان يقوم بها هم أمراء ركب الحاج القادمين من مختلف العواصم الإسلامية الكبرى. فقد كان لكل منهم موقع ينزل به مع أتباعه بعرفات، وأضيئت الشموع بكثرة في محلة كل ركب للاستدلال عليها، وكذلك من قبيل الشهرة والدعاية والمباهاة. أما الجبل الذي يشير إليه فهو جبل عرفات أو جبل الرحمة.

كما شغل ابن رشيد نفسه، أثناء إقامته بمكة المكرمة التي استغرقت بضعة أيام بقاء العلماء والفقهاء من أهل مكة المكرمة والمجاورين، مما جعل رحلته تغص بأسماء أعلام اخذ عنهم واستفاد من حضور حلقاتهم ومناظراتهم [٨٨]. ولعل انصراف ابن رشيد أثناء إقامته بمكة المكرمة والمدينة المنورة إلى هذا النوع من النشاط، إلى جانب استغراقه في أداء واجبات الحج والزيارة مع قصر وقت الإقامة ما حال دون الإفاضة في متابعة الأحداث التي كانت تدور حوله ووصف المشاهد التي كانت تمر أمام ناظره.

على أن انصراف ابن رشيد إلى اهتماماته العلمية والثقافية لم تقف حائلاً دون تنديده ببعض التصرفات البدعية التي شهدا أثناء حجه، فقد ترك الجمع بعرفات «وصاروا يصلون بإمام يتم لهم» [٨٩] وذلك مخالف للسنة. أما في الحرم المكي الشريف فقد ابتدعوا بدعة عظيمة داخل الكعبة المشرفة [٩٠]، وسيأتي تفصيلها عند قراءتنا لرحلة التحيبي.

ومن الأمور البدعية التي شاهدها ابن رشيد في الحرم المكي، طواف النساء ليلاً بالشمع في أيديهن سافرات عن وجوههن «غايماً من ذلك ما يحسن،

بعرفات هو أبو نمي محمد بن أبي سعد الحسن من أسرة قتادة، وكان قد خلف أباه في الحكم سنة ٦٥٢هـ / ١٢٥٤م وكانت أسرة قتادة قد انتزعت إمارة مكة المكرمة، كما سبق أن أشرنا، من أسرة مكث بن عيسى التي عرفت بالهواشم، واستقلت بإمارتها في ظل النفوذ الأيوبي حتى نهاية الأيوبيين على أيدي المماليك. وحينما اعتلى السلطان الظاهر بيبرس عرش السلطنة المملوكية (٦٥٨هـ / ١٢٦٠م) أجرى اتصالات بأمير مكة المكرمة أبي نمي، وانتزع منه اعترافاً بالسيادة المملوكية على الحجاز [٨٥]، وقد استمر أبو نمي على إمارته لمكة في ظل النفوذ المملوكي حتى وفاته سنة (٧٠١هـ / ١٣٠١م) [٨٦]. وشهد عهده قدوم ثلاثة من رجالنا الذين نطالع مدوناتهم.

ويستكر ابن رشيد ما يجري في ليلة التاسع من ذي الحجة بعرفات من مظاهر احتفالية فيقول «ورأينا في تلك الليلة عجا فيما ابتدعته العامة من الاستعداد والاحتفال، يؤد الشع بطول تلك الليلة، بالجبل القائم في وسط عرفات المعروف عند العرب القدماء بألال، وهو جبل مرتفع، في أعلاه مسجد، تنصب به رايات أمراء الركب، وقد صنع له درج بالبناء من أمامه ومن خلفه، فيرتقى إليه على الطريق، وينزل من أخرى، وربما التقى فريق مع فريق، فيغص الجبل بالصاعدين والنازلين، وهو يتأجج ناراً، ويتفج كالبحر زخاراً، والطريق إليه بالشموع في سبط عرفات، كالسطور المذهبات، تتصل به من كل الجهات، وانت اذا نظرت إليه على بعد من المخيمات، تراه كشعلة واحدة، وما يطول من الشمع كأنه السن متعاضده، فترى عجا صلباً عاد ذهباً أو صار لهيباً. هذه الجالة من قبيل البدع التي

مما أثر في أسلوب تنويع الرحلة فغصت بالنقد اللاذع المبالغ فيه لما شاهده سواء في مصر أو الحجاز .

على أن مما يحمده للعبدري وصفه الدقيق لطريق الحج من القاهرة إلى مكة المكرمة عبر أراضي الحجاز بصحبة قافلة الحج المصري، فبرية ما بين الحجاز ومصر هي «مسيرة أربعين يوما . . وليس في البراري أطول منها ولا أقصر . . وفيها قوم من العرب صعاليك، ينتقلون فيها من موضع إلى موضع ما لهم قوت إلا ما يمتارون من بعيد، فهم الدهر كله في جهد، وفرط شظف، وقلما يظهرون للركب لخبث أفعالهم، وعدم ما يعاملون به، وإنما يتطرفون الركب، ويطالعونه من كل مرقب، فإذا رأوا متخلفا عنه لغفلة أو نوم أو انقطاع عجز انقضوا عليه، فمزقوا أشلاءه، ولو لم يجدوا عليه إلا خرقة واحدة، لم يتركوها له» [٩٤].

هذه الحالة من انعدام الأمن في طريق الحج التي أجاد العبدري وصفها، كانت قد أصبحت منذ القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي، حينما ضعفت الخلافة العباسية ودب فيها الانهيار من الغل المزمنة التي عانى منها الحجيج لمئات السنين ، على الرغم من المحاولات الدائبة من قبل السلطات الإسلامية في العراق، ومصر والشام للقضاء عليها، مرة باستعمال القوة وأخرى بتقديم المنح والهدايا والإتاوات لزعماء القبائل الضاربة على طرق الحج لإفساح الطريق لحجاج بيت الله الحرام المرور دون التعرض للنهب أو القتل .

وقد نوه العبدري بدور السلطنة المملوكية في محاولاتها معالجة هذا الخطر بقوله «ولولا صاحب مصر، وما ألهمه الله من الاعتناء بالركب، وإخراج الحصة معه بأثير على أكمل ما يكون من الاستعداد

وغيرنا منه المستطاع بإطفائها في أيديهن» [٩١].

بعد قضاء أسبوع تقريبا بمكة المكرمة وثناء الحج انضم ابن رشيد إلى قافلة الحج المصري في طريق عودتها إلى القاهرة، حيث غادرت القافلة مكة المكرمة في الخامس عشر من ذي الحجة متجهة إلى المدينة المنورة، ومن ثم إلى ينبع حيث يتجه الطريق شمالا بمحاذاة البحر الأحمر مارا بالوجه، فعقبة أيلة، فسيناء فالقاهرة .

رحلة العبدري (١٢٩٠هـ / ١٢٩٠م) :

بعد مرور خمس سنوات على رحلة ابن رشيد زار الحجاز مغربي ثان هو : أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي العبدري، ودون رحلته التي بدأها في الخامس والعشرين من ذي القعدة سنة ٦٨٨هـ من مسقط رأسه حاحه متجها برا إلى الاسكندرية ثم إلى القاهرة لينضم إلى قافلة الحج المصري في طريقها برا عبر سيناء إلى عقبة أيلة، ومن ثم جنوبا بمحاذاة البحر الأحمر إلى ينبع فبدر فخليص ففسفان فمكة المكرمة التي وصلها في اليوم السابع من ذي الحجة سنة (١٢٩٠هـ / ١٢٩٠م) [٩٢].

لقد ظهر الضيق والتبرم وعدم الرضا على العبدري منذ أن حط رحاله بالقاهرة فوصفها بأنها «جربن لحثالة العباد، ووعاء لنفاية البلاد، ومستقر لكل من يستخفى في الأرض بالفساد، من أصناف أهل الشقاق والنفاق والعناد والإلحاد . . فهي سوق ينصب بها الشيطان رأيته، ويجري إليها غايته ويرى فيها لتابعه وهم - أهلها - آيته، أطبقوا على سوء الأخلاق، وتوافسقوا على رفض الوفاق، وتراضعوا لبيان اللوم» [٩٣].

ولازم العبدري هذا الإحساس طوال رحلته تقريبا،

الروضة ممثلة بالروث وعابنت منظراً شنيعاً
فكلمتهم، فقابلوني بالجفا، فانصرفت» [١٠٠].

ومكة المكرمة بلد «أرضه جديبة، كلها حجر، لا
ماء ولا شجر، وفي أصحابها بعض جفا»، وقلة
ارتباط للشرع، وهم في الغالب يؤذون الحجاج،
ويحيفون على المجاورين بها» [١٠١].

ويمضي العبدري في نقده المبالغ فيه لما شاهده،
هذه المرة، في الحرم المكي الشريف، فالطائفون حول
الكعبة المشرفة يتقاتلون على الركن «فترى الرجال
يتساقطون على النساء، والنساء يتساقطن على
الرجال.. وقلما يتمكن احدهم من الركن فيفارقه
حتى يثخن ضرباً.. فبعضهم في التزام الحجر
وقطع الوقت به لثماً ولحسا، وبعضهم في صب
العفونات عليه، وباقيهم يتقاتلون على الدنو منه،
ويشاهد هناك من المناكر ما لا تحصره
عبارة» [١٠٢].

أما في قبة زمزم فقد شاهد الناس «يتقاتلون
على الماء، ويأخذ احدهم الدلو فيصبه على نفسه
بثيابه، حتى لوثوا الموضع» [١٠٣] وبلغ السخط عند
العبدري مداه فيتمنى «لو أتاح الله لهم محتسبا
ينزيقهم النكال» [١٠٤] فقد اسقطوا في نظره،
بجھلهم حرمة المسجد الحرام «حتى إن منهم من لم
ييال باليصق وقتل القمل فيه، وإلقاء الوسخ في
داخله» [١٠٥].

كما شاهد في مسجد الخيف بمنى «من قلة
تحفظهم، وكثرة تهاونهم، ما يتغير له قلب كل
مؤمن» [١٠٦] فقد شاهد «في داخله العذرة، وأنواعا
من الكناسات والأقذار، ورؤوساً مطروحة وجزارة
انتن بها المسجد، وهم يوقدون فيه النار، حتى
اسودت حيطانه، فصار كالطبخة» [١٠٧].

والتأهب، ما سلك احد تلك البرية لطولها وخلائها إلا
من القطاع» [٩٥].

ويستطرد العبدري في وصف طريق الحج
المصري فيتحدث عن أسلوب سير القافلة في
الصحراء حتى تصل إلى مكة المكرمة فهم «يرحلون
في نصف الليل، أو قبله بيسير، وربما رحلوا في
الثالث الأخير من الليل، والمشاعل ترد الليل نهارا،
فيسيرون حتى يصبح، ويصلون، ثم يستديعون السير
حتى ترتفع الشمس، فينزلون إلى الظهر، ويصلون ثم
يرحلون، وربما رحلوا قبل الصلاة، ثم ينزلون آخر
النهار عند الغروب، إلى نصف الليل، هكذا إلى مكة
المكرمة وإلى مصر» [٩٦].

ويعود العبدري إلى أسلوبه الناظم الناقد، فأكثر
سكان أهل بدر، في نظره، ضعفاء رافضة وكذلك
أكثر سكان أهل المدينة المنورة [٩٧]، ويبدو أن
العبدري يتحدث عن سكان المدينة المنورة من الشيعة
الإمامية، وهم قلة قليلة بالنسبة لعدد سكان المدينة
المنورة، أما أهل ينبع فهم «في خدمة صاحب مصر،
وهو يميزهم بالزرع، ويمدهم بالتحف، ليجدهم
الحجاج ركنا، ويأمن المنقطع لديهم، ولا يعترض في
ماله» [٩٨] وخليص قلعة منيعة على شرف مرتفع،
ولها نخل كثير وماء جار، وصاحبها من الشرفاء
مستبد بها» [٩٩].

وتحط القافلة رجالها على أرض مكة المكرمة
فتستأثر عند العبدري حاسة النقد اللاذع، فقد شاهد
في موضع نزول الركب «قوماً انخلوا دوابهم في
مقبرة جديدة مبيضة وحسنوها داخل الروضة على
المقابر، وودتوا لها هناك أوتادا، وبيتوها بها، فمررت
عليهم حين أصبح وأنا داخل إلى مكة المكرمة، فرأيت

بن أبي سَعْد الحسن، وتساعد هذا الصدام وأفضى إلى قتال شارك فيه أمراء من الركب الشامي، وانتهى الأمر برحيل الركب في حالة من العجلة والانزعاج والخوف، فغادر العبدري معهم وعدل عن المجاورة «لم يكن إلا الإجحاف معهم خوفاً على النفوس، وعلى بعض نفقة كانت معنا» [١١١].

وقد أَرخ الفاسي لهذه الحادثة التي شاهدها العبدري بقوله «في سنة تسع وثمانين وستمئة على ما قال ابن الفركاح، كانت فيها فتنة بين الحجاج وأهل مكة المكرمة، وتقاتلوا في الحرم، وكان الأصل في ذلك أجناد من المصريين بسبب فرس، فانتهى الأمر إلى أن أشهرت السيوف بالحرم الشريف نحواً من عشرة آلاف سيف، ونهبت جماعة من الحجاج وجماعة الحجازيين، وقتل من الفريقين جمع كثير قيل فوق أربعين نفساً، وجرح خلق كثير، ولو أراد الأمير أبو نمي أخذ الجميع أخذهم، ولكنه تلبث» [١١٢].

شاهد العبدري الفتنة التي نشبت بين الركب المصري وأمير مكة، ولم يعرف أسبابها فاكفى بالقول إنها حدثت «بأسباب سيرتها المقادير» [١١٣] والحقيقة فعلى الرغم مما ذهب إليه الفاسي نقلاً عن ابن الفركاح في إرجاع السبب إلى النزاع حول فرس، فإن حجم الفتنة وما جرى فيها من قتال أفضى إلى عدد كبير من القتلى والجرحى إلى جانب انتهاك الحرم، وهذا يشير إلى أسباب أكثر خطورة [١١٤].

لقد سعى سلاطين الماليك، كما سبق أن ذكرنا، منذ عهد السلطان بيجرس إلى مد نفوذهم على الحرمين، وتجع السلطان بيجرس في الحصول على اعتراف من أبي نمي بالسيادة الاسمية للسلطنة المملوكية، ولكن السلطان المنصور قلاوون، الذي يشير العبدري، وهو في طريقه إلى الحرمين الشريفين،

ويتساءل الباحث : هل كان العبدري محققاً وأميناً في جميع ما نقله عن مشاهداته في الحجاز، لقد سبق العبدري بأربع سنوات رحالة مغربي تحدثنا عنه، وهو ابن رشيد، وجاء بعده خلال أقل من نصف قرن ثلاثة من الرحالة، لم يذهب احدهم إلى ما ذهب إليه العبدري من وصف للأوضاع في أرض الحرمين. بل إنه في الوقت الذي يتحدث فيه بعض هؤلاء الرحالة عن لقاءاتهم في الحرمين الشريفين بعلماء أجلاء سمعوا منهم واخذوا عنهم، يصرح العبدري بالقول «ولم أر بالمدينة المنورة، مع شدة البحث والحاح الطلب، وكثرة السؤال، من هو بالعلم موصوف، ولا من هو بفن من فنونه معروف... وقد لقيت إمام حرمها الشريف، وخطيب المنبر العالي المنيف، فوجدت سماء شرقه من شياطين الجهل لم تحرس، وتربة قلبه لم تزرع بحبة من المعارف ولم تغرس» [١٠٨].

أما عن مكة المكرمة، فعلى الرغم من اعترافه بانشغاله بأمور الحج خلال إقامته القصيرة عن البحث عن العلماء إلا أنه يصممها بالقول «وبالجملة فقد ضعف العلم بتلك البلاد لضعف العيش بها» [١٠٩].

على أي حال، فقد وصف العبدري مكة المكرمة وصفا يدل على أنها شهدت اتساعاً عمرانياً خلال القرن المنصرم بعد رحلة ابن جبير، فمكة المكرمة «بلدة كبيرة متصلة البنيان في بطن واد بين جبال محيطة بها... وبينائها أخذ في الاستطالة مع الوادي» [١١٠]. ويصرح العبدري بأنه كان عازماً على المجاورة بمكة المكرمة بعد انقضاء الحج، وأنه اكتفى زاراً، وصرف بعض من كان معه إلى الغرب، ويبدو أنه يعني بهذا البعض خدماً كانوا في معيته ولكن العبدري ما لبث أن تراجع عن عزمه لصدام وقع بين أمراء الركب المصري وصاحب مكة، وهو الشريف أبو نمي محمد

الصدام الذي شاهده العبدري من نتائج هذا التوتر، وربما كان السبب أيضا تدخل أمير الحاج المصري في أمور داخلية بمكة، مما أثار حفيظة أبي نمي وأدى بالتالي إلى وقوع الفتنة، على أي حال فقد أصبح هذا التدخل السمة الغالبة في العلاقة بين أمراء مكة المكرمة، وسلطين الماليك خلفاء قلاوون، مما كان سببا في خلق حالة من الفوضى والاضطراب في مواسم الحج، وتحويل ارض البلد الحرام إلى ساحة قتال في سنوات عدة.

بهذه الحادثة المشؤومة التي شاهدها العبدري اختتم إقامته بمكة المكرمة حيث غادرها بصحبة قافلة الحج المصري، ولم يعد إلى القاهرة، بل فصل عن القافلة عند أيلة متجها إلى بيت المقدس.

رحلة التجيبي (١٦٩٦هـ / ١٢٩٧م) :

بعد حوالي سبع سنوات من مغادرة العبدري مكة المكرمة، زار الحجاز رحالة مغربي ثالث، هو القاسم بن يوسف بن علي السبتي التجيبي [١١٨]، الذي غادر القاهرة إلى عيذاب في التاسع عشر من جمادى الأولى سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٧م ويبدو أن التجيبي اضطر إلى السفر إلى الحجاز عن طريق عيذاب لأن قافلة الحج المصري لم يكن موعد مغادرتها، فقد كان موعد سفر القافلة عبر الطريق البري في كل عام في النصف الثاني من شهر شوال، وربما أراد التجيبي بسفره المبكر قضاء أكبر وقت ممكن بالحرمين الشريفين.

وقد عانى التجيبي في السفر عبر طريق عيذاب اشد مما عاناه سلفه ابن جبير قبل قرن، ومع انه أسهب في وصفه، فلم يصف جديدا يذكر لما سبق أن وصفه به ابن جبير، بل يبدو أن التجيبي قد نقل

بوصول خبر وفاته [١١٥]، كان قد تمكن من أن يحصل على أكثر مما سعى إليه بيبرس، فقد اخضع أباً نمي سنة ٦٨١هـ / ١٢٨٢م لحلف يمين بالولاء والطاعة والخضوع له ولأسرته من بعده.

وقد أورد ابن فهد نص اليمين على النحو التالي «أخلصت بقيني، وأصفيت طويتي، وسأويت بين باطني وظاهري في طاعة مولانا السلطان الملك المنصور، وولده السلطان الملك الصالح وطاعة أولادهما، ووارثي ملكهما، لا أضمر لهم سوءا ولا غدرا في نفسي، ولا مالا ولا سلطنة، وإني عدو لمن عاداهم، صديق لمن صادقهم، حرب على من حاربهم، سلم لمن سالمهم، وإني لا يخرجني عن طاعتهم طاعة احد غيرهما، ولا ألتفت في ذلك إلى جهة غير جهتهما، ولا أفعل أمرا مخالفا، لما استقر من هذا الامر، ولا أشرك في تحكيمهما علي ولا على مكة المشرفة وحرمها، وموقف حلها زيدا ولا عمرا... وإني، والله استمر بتفرد الخطبة والسكة بالاسم الشريف المنصوري، وأفعل في الخدمة فعل المخلص الولي، وإني، والله امتثل مراسيمه امتثال النائب للمستنيب، وأكون لداعي أمره أول سامع مجيب. وإني التزم بشروط هذه اليمين من أولها إلى آخرها، لا أنقصها» [١١٦].

ويبدو أن أباً نمي لم يلتزم بما جاء في هذا اليمين، فأبدى ميلا نحو سلاطين اليمن من بني رسول، المنافسين للماليك على النفوذ في الحجاز، مما دفع قلاوون إلى إغراء أمير المدينة المنورة بغزو مكة المكرمة سنة ٦٨٧هـ / ١٢٨٨م [١١٧] وانتزاع السلطة من أبي نمي، وعندما فشل أمير المدينة في انجاز مهمته، على الرغم من مد السلطان له بعسكر مملوكي، توترت العلاقات بين الجانبين، وكان هذا

اضطر التجيبي للبقاء أربعة أيام، والسفر إلى مكة المكرمة في اليوم الخامس.

وفي مكة المكرمة التي حط التجيبي رحالة بها في رمضان سنة ٦٩٦هـ / ١٢٩٧م سكن بدار مطلة على الحرم ملاصقة لباب الصفا، ثم ما لبث أن انتقل منها إلى دار بنجياد تعرف بدار القائد محمد بن الحسن مولى الشريف أبي نمي [١٢٤]، مما يشير الانتباه، خاصة لو تذكرنا أن ابن جبير قد استضافه نائب الشريف بجده، إن علاقة ما لا تلبث أن تنشأ بين الرحالة ورجال السلطة في مكة المكرمة، وربما يعود السبب إلى أن أخبار هؤلاء الرحالة، وتدوينهم لمشاهداتهم سرعان ما تصل إلى أمير مكة، مما يدفعه إلى استرضائهم ومدارعتهم وتقديم الخدمات لهم.

وصف التجيبي مكة المكرمة وحرمها وبعض المواقع الأثرية بها، ولم يتجاوز كثيرا في وصفه عن سبقه من الرحالة، خصوصا ابن جبير. وأظهر التجيبي اهتماما كبيرا بالحديث عن الأوضاع السياسية بمكة المكرمة، فالسلطان المملوكي الذي حضر التجيبي الدعاء له من على منبر الحرم المكي الشريف هو «السلطان الأجل حسام الدين والدنيا أبو الفتح لاجين المنصوري، ملك البرين والبحرين، خادم الحرمين الشريفين نجم الدين» [١٢٥].

وأخير مكة المكرمة هو السيد الشريف أبو نمي الذي يدعى له بعد الدعاء لسلطان مصر بما نصه «اللهم ارض عن السيد الشريف الحبيب النسيب ذي الرئاستين مالك الحرمين الشريفين، من جده الرسول وأمه البتول، وأبيه سيف الله المسلول أبي نمي بن أبي سعيد بن علي بن قنادة» [١٢٦].

وقد شاهد التجيبي الشريف أبا نمي ووصفه بأنه «شيخ خفيف العارضين، شديد السمرة، ضخم

كثيراً مما نونه ابن جبير عن طريق عيذاب أو حتى عن جده ومكة المكرمة.

فقد ورد ما ذكر ابن جبير عن فقر أهل جده «فإنهم من أشد الناس فقرا، ومن أكثرهم على الجوع ضبرا» [١١٩] وفي نفس الوقت نقل ما جاء في الروض المعطار عن جده بقوله «وزعموا أنه كان في بعض دورها قباب سامية محكمة البناء، وكانوا يجعلونها علما على من بلغ كسبه مائة ألف دينار، وكان أهلها موصوفين بالغنى وكثرة المال» [١٢٠] ولا حاجة لنقل ما كتبه عن بناء الفرس لها وصهاريجها، ومساجدها الأثرية فكل ذلك إعادة لما سبق أن شاهده ابن جبير وتحدث عنه.

وما يهمننا هو إشارة التجيبي إلى المكس أو الضريبة التي كانت تؤخذ من الحجاج في هذا العهد فقد ذكر أنه كان يقيم بجده «عامل من قبل السيد الشريف الأمير نجم الدين أبي نمي الحسنى ملك مكة يقبض له مكوسها، وضرائبها التي تؤخذ من الحجاج» [١٢١].

أما مقدار الضريبة ونوعها فقد أشار إليه التجيبي بقوله «أخذ منا من غرائر الطعام نحو ربع كل غراره، وألزم أيضا من كان له متاع أن يؤدي ضريبة أخرى على المتاع، ولهم أيضا ضريبة أخرى على الجمال التي يكثرها الحجاج لركوبهم وجمال متاعهم وأزوادهم، ورفع جميع ذلك للشريف أبي نمي المذكور» [١٢٢] ويصرح التجيبي أنه قد نقل إليه أن جل ميزانية أمير مكة من عائدات جده [١٢٣] وهذا ما يفسر حرص السلطات على إبقاء الحجاج بجده أطول مدة ممكنة للخضوع لإجراءات التفتيش، ودفع الضرائب أو المكوس، فكان بقاء ابن جبير بجده أسبوعا في حين

بالقبة اليهودية داخل الحرم المكي يقدم التجيبي تفاصيل أعم وأشمل مما جاء في مدونة ابن جبير، ويؤكد مشاهدته لهذا المصحف «ودخلنا هذه القبة في يوم الجمعة الثاني عشر لشوال من سنة ست وتسعين وستمئة، وعابنا بها المصحف العتيق المبارك المذكور» [١٢١]، كما يؤكد نسبه إلى الخليفة عثمان بن عفان «اخبرني بهذه النسبة الشريفة من يعتد به من المكين والقادمين عليهم، وكل من بمكة المكرمة الآن من الفضلاء والعلماء والعباد أو جلهم يقولون: إنهم أدركوأ آبائهم وأجدادهم، ونقل آبائهم وأجدادهم عن آبائهم وأجدادهم كذلك على مر السنين انه مصحف عثمان بن عفان» [١٢٢]، ويصفه بقوله «وتصفحنا منه مواضع جملة، وقد أصابه بلل السيل العظيم الذي كان طراً على الحرم الشريف بعد التسعين وستمئة، اذهب به جملة من مرسوم الخط، وفيه أوراق قد جبرت بخط محدث، وجميعه عري عن الضبط وفيه أحرف يسيرة معجمة بالنقط، ورأينا في أول السور عدد آي السورة بالخط القديم، ورأيت على ظهره بخط محدث وهي: كتب عام ثمانية عشر لوفاة رسول الله (صلى الله عليه وسلم)، وخط هذا المصحف الشريف يشبه الخط الذي يدعى الآن عندنا بالكوفي، وكل قائمة من أوراقه جلد كبش صحيح، قد سويت أطرافه، وبقي بكماله» [١٢٣].

كما يؤكد ما جاء في ابن جبير: «إن المكين» إذا أصابهم القحط أخرجوه من القبة المذكورة، وحلوا باب الكعبة المشرفة، ووضعوه في أسكفته المباركة، وينقلون المقام الشريف من موضعه أيضاً فيجعلونه في الاسكفة المذكورة، وينشرون عليه المصحف المبارك، ويدعون الله تعالى ويتوسلون إليه بالمصحف المبارك والمقام، فيسقون» [١٢٤].

الجسم، معتدل القامة، حسن الصورة، شديد الهيبة، بهي النظر وهو قوي النفس مقدام شجاع» [١٢٧]، وقال عنه أيضاً بأن «العربان يحبونه حباً شديداً، ويعظمونه تعظيماً كثيراً، لما جمع من الخصال الحميدة، من الكرم والحلم والشجاعة حتى صاروا يقسمون به وبرأسه ولا يكادون يحشون إذا أقسموا به» [١٢٨].

وينوه التجيبي بحالة الأمن التي كانت سائدة بمكة المكرمة أثناء اقامته التي امتدت إلى أكثر من ثلاثة أشهر، ويشير إلى الظلم الذي كان يقع في الغالب على المجاورين بمكة، في السنين السابقة فيقول «ومن لطف الله بنا أنا ألفينا المجاورين بالحرم الشريف ممن قدم عهده فيه وطال مقامه به يتحدثون على وجه التعجب عن كف يد الشريف أبي نمي عن اخذ أموال الحجاج والمجاورين، ومن ظهرت له نعمة وعافية، وإن الناس قد صاروا يأمنون على دمائهم وأموالهم» [١٢٩]، وكذلك رأيتهم نحن بها آمنين، ومن كانت لديه دنيا أظهرها، بعد أن كانوا قبل ذلك لا يلبسون ثوباً حسناً فيما بلغنا، ولا ياكلون إداماً إلا يوماً في أيام خوفاً منه، لما يظهرون من التقشف» [١٣٠].

ولم يفت التجيبي الإشارة إلى دعاء أحد خطباء الحرم الشريف لسلطان اليمن المؤيد داوود بن المظفر يوسف وإعطاء نبذة عن قيام الدولة الرسولية حتى انتقل السلطة إلى المؤيد، ونوه باهتمام سلاطين الدولة الرسولية برعاية الحرمين الشريفين وأهلها.

وصف التجيبي مكة المكرمة، ووصف الحرم الشريف وبعض المواقع الأثرية، ولم يتجاوز في وصفه كثيراً ما جاء في مدونة ابن جبير. وفي حديثه عن مصحف عثمان بن عفان رضي الله عنه الموجود

ويتحدث التجيبي بالحديث عن مشاهدته لظاهرة ربما كان يعتقد بأنها من مستجدات العصر الحديث فقد «وصل في جملة المصريين جماعة من القراء المعروفين بحسن الصوت وطيب النغمة وكانوا يجتمعون في كل ليلة بإزاء باب بني شيبه من الحرم الشريف، فيقرؤون جزءاً من الكتاب العزيز متراسلين بالتلحين على عادة القراء في هذه البلاد المشرقية.. وكان لأولئك القراء المذكورين واحد كان مقدمهم، وكان من أحسن الناس صوتاً بالقرآن العظيم، وكان إذا ذهب جزء من الليل قصد المدرسة المنصورية» [١٣٥] وصعد على سطحها المشرف على الحرم، وتلا هناك جزءاً من الكتاب العزيز، رافعا بذلك صوته العجيب. بحيث يسمعه كل من في المسجد، ويصفى إليه ويستطيعه، وكان ينضاف الى حسن صوته وطيب نغماته وجودتها شرف الموضع وحسنه وبهاؤه، خصوصاً في الليالي القمرية التي يغشى فيها ضياء القمر جميع الحرم الشريف» [١٣٦].

كما يشاهد عادة لازالت باقية حتى عهد قريب، ففي طول شهر رمضان «يسبل أهل اليسار ومن يبتغي الأجر الماء بالحرم الشريف، فتراهم يضعون بالمسجد الحرام قبيل المغرب قليلاً بيضاء يسمونها الدوارق فيملئونها من ماء زمزم المباركة، ومن غيرها من الآبار، ويبردون ذلك، ويجمرون تلك الأواني بالعود الهندي، وتعم هذه الدوارق سائر جهات الحرم الشريف ويضعون حولها كيزاناً بيضاء يسمونها الغراريق، فإذا أذن المغرب بادر الصائمون لشرب الماء من تلك الكيزان، سواء في ذلك غنيهم وفقيرهم، والشرب منها لجميع الناس مباح.. وسمعت من ينادي على الدوارق المذكورة: الماء للسبيل، سبيل فلان ابن فلان، ويسمى الذي سبله» [١٣٧].

ويقدم التجيبي تفاصيل أوسع مما جاء عنها في مدونة ابن رشيد، ويحذر من الوقوع في حبال مبتدعيها. يقول: «ومما يجب التحذير منه أن الشيبين المذكورين، قد أخذوا بداخل البيت الشريف أمرين باطلين، أحدهما كوة في الجدار الغربي من البيت الشريف مقابلة للباب مرتفعة عن سطح البيت بنحو ستة أذرع يسمونها، العروة الوثقى، ويوقعون في قلوب العامة أن من نالها بيده فقد استمسك بالعروة الوثقى، وقد أعدوا داخل البيت الشريف كرسيين من الخشب المعروف بالساج، وهو يشبه الأبنوس، فينصبونه تحت الكوة المذكورة، ويمكنون من الصعود عليه من دفع إليهم شيئاً حتى يمس بيده الكوة المذكورة، ورأت من الناس من يركب على ظهر آخر حتى يدركه بيده.. ولقد دعاني بعض من كان صحبتنا في القافلة من عوام الناس الذين لا علم عندهم لأركب على عنقه برعمه حتى أمسها بيدي، فزجرته عن ذلك، وقلت له: هذه بدعة وضلالة، فانتهي عن ذلك.

والأمر الثاني الذي ابتدعوه أيضاً، مسمار فضة قريب من وسط البيت في لوح من رخام من ألواح سطح البيت الشريف، سموه: سرة الدنيا وحملوا

وينتهي حديثه بالإشارة إلى المبيت في منى
والانتقال قبل فجر التاسع من ذي الحجة إلى
عرفات.

رحلة ابن بطوطة :

(٧٢٦-٧٤٩هـ / ١٣٢٦-١٣٤٩م)

في اليوم الثاني من شهر رجب سنة خمس
وعشرين وسبعمئة غادر محمد بن عبد الله بن محمد
اللواتي، المعروف بابن بطوطة، مسقط رأسه مدينة
طنجة في طريقه إلى مكة المكرمة لأداء فريضة
الحج. وكانت رحلة حجه هذه فاتحة لعدد من
الرحلات طاف فيها ثلاث قارات خلال تسع وعشرين
سنة، وأدى خلالها الحج ست مرات بين سنة ٧٢٦هـ
وسنة ٧٤٩هـ وجاور فيها ثلاث سنوات بمكة ليستقر
أخيرا في ختام رحلاته سنة أربع وخمسين وسبعمئة
هجري (١٣٥٣م) في مدينة فاس، ويملي خلاصة ما
شاهده وسمع به خلال تطوافه لكاتبه ابن جزي.

سافر ابن بطوطة من مدينة طنجة عبر الطريق
البري متجها إلى مصر، ووصل إلى الاسكندرية في
أول يوم من جمادى الأولى سنة ست وعشرين
وسبعمئة، ومنها اتجه إلى القاهرة، وكما حدث مع
سلفه التجيبي فقد وصل القاهرة في وقت لم يكن فيه
موعد مغادرة قافلة الحج المصري الرسمية، مما دفعه
إلى محاولة السفر عبر طريق عيذاب. ونظرا لتعذر
سفره من عيذاب لاضطراب الأحوال فيها عاد
أرجاه إلى القاهرة، ومن ثم سافر إلى دمشق التي
وصلها في التاسع من رمضان سنة ست وعشرين
وسبعمئة، حيث انضم إلى قافلة الحج الشامي التي
غادرت دمشق في اليوم الأول من شوال من نفس
العام.

العام على أن يكشف أحدهم عن سرته وينبطح بها
على ذلك المسمار، حتى يكون واضعا سرته على سرّة
الدنيا بزعمهم، وينتجعون بذلك أموال الناس،
ويجلسون أحدهم بإزاء هذا المسمار، فيضع يده
عليه، ولا ينحيه إلا أن يدفع إليه شيئا، والعامّة
تردح على أشباه هذا، وتقتحم عليه».

وقد أكد مؤرخو العصر المملوكي وجود هذه
البدعة في الكعبة المشرفة حتى سنة
(٧٠٢/١٣٠٢هـ). وتحديثوا عن ازالتها في هذا
التاريخ بأمر من السلطان المملوكي الناصر محمد بن
قلاوون، يقول ابن فهد «وفيها (في سنة ٧٠٢هـ)
سعى الأمير بيبرس الجاشنكير عند الملك الناصر
صاحب مصر بأن بمكة المشرفة جملة من البدع...
فكتب صاحب مصر صحيفة أمير الركب، بأمر
الأشراف أبا الغيث وعطيفه أمراء مكة الا يمتكؤا من
الأذان بحى على خير العمل... والا يهبط الحاج
حتى ينقضوا ما كان في الكعبة مما سموه العروة
الوثقى، ولا يمتكأ أحدا من مس المسمار الذي في
الكعبة الذى يقال له سرّة الدنيا، وكان يحصل من
التعلق بالعروة ومن التسلق الى المسمار عدة مفاسد
قبيحة، فترك ذلك كله... ويؤكد الناس ايضا ازالة
ذلك بقوله «وهذان الأمران لا أثر لهما الآن في
الكعبة» [١٣٩].

على أي حال يختتم التجيبي مدونته التي بين
أيدينا، بفصل مطول عن «من تيسر لقائه والأخذ عنه
بالبلد الأمين مكة المعظمة» [١٤٠] مما يتحضر قول
الرحالة السابق له يسع سنوات أبو عبد الله محمد
العبدري الذي سبق أن صرح بضعف العلم بالحجاز
وعمد لقائه بأبي من العلماء سواء في مكة المكرمة أو
المدينة المنورة» [١٤١].

وهي من سمات هاتين المدينتين في العصر المملوكي الأول. ومن ناحية أخرى فهناك مشاهدات لابن بطوطة لأحداث وقعت في أوقات معينة أو ظروف معينة ذات طابع سياسي أو ديني أو اجتماعي لابد من وضعها في إطارها الزماني والمكاني.

يصف ابن بطوطة المدينة المنورة وحرمة وأثارها وأماكن الزيارة بها، ولا يزيد في وصفه عما جاء في مدونة ابن جبير، على أن ميله إلى الاقتباس من ابن جبير لم يمنع من الانفراد بملاحظة وتدوين قضايا ذات طابع سياسي واجتماعي خاصة بالمدينة لم يسبقه إلى تدوينها من سبقه من الرحالة في العصر المملوكي.

تحدث عن أمراء المدينة المنورة أثناء وجوده بها وهم من أسرة عرفت بالجمامزة الحسينيين «كان أمير المدينة المنورة كبيش بن منصور بن جمان، وكان قد قتل عمه مقبلا، ثم إن كبيشا خرج سنة سبع وعشرين إلى الفلاة في شدة الحر، ومعه أصحابه، فذكرتهم القافلة في بعض الأيام ففرقوا تحت ظلال الأشجار، فما راعهم إلا أبناء مقبل في جماعة من عبيدهم ينادون: يا لثارات مقبل، فقتلوا كبيش بن منصور صبوا، وتولى بعده أخوه طفيل بن منصور» [١٤٤].

ويؤكد مؤرخ المدينة المعاصر لهذا الحدث، ابن فرحون، مقتل كبيش بن منصور في شهر شعبان سنة ثمان وعشرين وسبعمئة على يد أبناء الأمير مقبل، ولكنه لا يشير إلى الطريقة التي أشار إليها ابن بطوطة في طويقة قتله. وقد تحدث ابن فرحون عن الأوضاع المضطربة في المدينة في النصف الأول من القرن الثامن الهجري نتيجة للصراع على السلطة بين أبناء وأحفاد الأمير جمان بن شبح بن هاشم بن قاسم بن مهنا، وتدخل سلاطين المماليك في تولية وعزل أبناء هذه الأسرة.

ولن نتوقف عند وصف ابن بطوطة لطريق الحج الشامي الذي يمر عبر تبوك ومدائن صالح والعلا، فقد سبق أن وصفه ابن رشيد، وسنكتفي بقراءة بعض الملاحظات التي انفرد بها ابن بطوطة عن طريق الحج، مثل وصفه لنظام سقيا القافلة في نزولها عند عين تبوك، يقول: «ومن عادة السقائين أنهم ينزلون على جوانب هذه العين، ولهم أحواض مصنوعة من جلود الجواميس كالصهاريج الضخام، يسقون منها الجمال، ويمتلئون الروايا والقرب. ولكل أمير ركب حوض يسقى منه جماله وجمال أصحابه، ويملا رواياهم، وسواهم من الناس يتفق مع السقائين على سقى جماله، وملء قربه بشئ معلوم من الدراهم» [١٤٢].

أما عن العلا، فقد ردد ابن بطوطة ما جاء في مدونة ابن رشيد عن ترك الحاج بعض ازواجهم بها لرحلة العودة، وأضاف بأن أهلها «أصحاب أمانة، واليها ينتهي تجار نصارى الشام لا يتعدونها، ويباعون الحاج بها الزاد وسواه» [١٤٣].

ويصل ابن بطوطة إلى المدينة المنورة، حيث تقيم قافلة الحج الشامي بضعة أيام لاداء الزيارة قبل رحيلها إلى مكة المكرمة. ويما أن ابن بطوطة قد تردد على المدينة ومكة مرات عدة ولم يدون مشاهداته أثناء وجوده بهما، بل قام، كما ذكرنا، بتدوين رحلاته دفعة واحدة بعد مرور سنين من قيامه بها. فقد كانت آخر رحلة حج له سنة تسع وأربعين وسبعمئة، بينما أملى رحلاته بكاملها، سنة ست وخمسين وسبعمئة. فلن نتابع ابن بطوطة في رحلة بعينها بل سنواصل قراءة ما جاء في مدونته آخذين بعين الاعتبار أن ما جاء في هذه المدونة من وصف للحرمين وأثارهما ومشاهدتهما الدينية، وعادات سكانهما هي في الواقع من المظاهر العامة التي شاهدها أو عايشها ابن بطوطة أثناء وجوده في رحلاته إلى مكة المكرمة والمدينة المنورة.

بمساعدة من أمراء المدينة المنورة الذين كانوا أنفسهم يدينون بنفس المذهب، حتى استقر الأمر لأهل السنة، بعد أن أصبح تعيين القضاة والخطباء في مكة المكرمة والمدينة المنورة من حق السلطنة المملوكية في عهد السلطان المنصور قلاوون.

وتحدث ابن بطوطة عن المجاورين بالمدينة المنورة، وذكر أسماء بعضهم، وأفاض ابن فرحون عن المجاورين بالمدينة المنورة، وتحدث عن دورهم في حياتها العامة [١٤٩].

على أي حال، إذا كان ابن بطوطة قد أمضى أياما عديدة أثناء زيارته المتكررة للمدينة المنورة فقد أمضى ثلاث سنوات مجاورا بمكة المكرمة خلال سنتي حجه الستة. وكان المتوقع أن يترك لنا مجلدا كاملا عن مكة المكرمة يشمل جميع مناحي الحياة فيها، ولكن مما يؤسف له أن ما جاء في مودته عن مكة لا يتجاوز كثيراً ما جاء في مودنات من سبقه من الرحالة وبخاصة مدونة ابن جبير التي تميزت بالشمولية والإطناب. مع ملاحظة ميل ابن بطوطة إلى الاقتباس من ابن جبير في وصفه للحرمين والمشاهد والمظاهر والمناسبات الدينية. وربما يعزى هذا التقصير عند ابن بطوطة إلى تدوينه لرحلته من الذاكرة وبعد مرور فترة طويلة على مشاهدتها ومعايشتها.

وصف ابن بطوطة مكة المكرمة، وأثارها ومشاهدها الدينية، وأسواقها وحركتها التجارية، ووصف الكعبة المشرفة والمسجد الحرام وما يشتمل عليه من أبواب ومنارات ومقامات ومنشآت ومرافق، ووصف عادات أهل مكة المكرمة في استقبال الشهور وفي صلواتهم بالحرم الشريف والاحتفالات المصاحبة لبعض شهور السنة وإحياء عمرة رجب وإحياء ليالي رمضان بالحرم الشريف وغير ذلك من المناسبات

وتحدث ابن بطوطة عن خدام المسجد النبوي بتفصيل أكثر مما جاء عند ابن جبير، «وخدام هذا المسجد الشريف فتيان من الأحابيش وسواهم، وهم على هينات حسان، وصور نظاف وملابس ظراف، وكبيرهم يعرف بشيخ الخدام، وهو في هيئة الأمراء الكبار ولهم المرتبات بديار مصر والشام، ويؤتى إليهم بها في كل سنة» [١٤٥] ولم يبالغ ابن بطوطة في وصفه لهم، فقد ذكر ابن فرحون عن شيخ الخدام في النصف الثاني من القرن الثامن الهجري، العزيزي عز الدين أنه «كان كثير الخير والبر، وقف من النخل شيئاً وحرر من الأرقاء جمعا غفيرا، وكان يوالي الأشراف ويحسن إليهم إحسانا كثيرا، حتى أنهم بمذهبهم لكثرة اختلاطهم بهم وقضاء حوائجهم» [١٤٦] ثم خلفه في المشيخة شبل الدولة كافور الظفري «وكان مهيبا قد ملأ قلوب الشرفاء رعباً» [١٤٧].

كما تحدث عن قاضي المدينة وإمامها، وكان يقضي بالمدينة عند زيارات ابن بطوطة لها الشيخ سراج الدين عمر المصري، وقد أنركه ابن فرحون ووصفه بأنه «كان فقيها مجيذا أصوليا نحويا متقنا في علوم جملة... قدم المدينة سنة اثنين وثمانين وستمئة متوليا الخطابة» [١٤٨] والظاهر أن سراج الدين هذا كان أول قاض وخطيب سني بالمدينة المنورة منذ أن وقعت تحت النفوذ الفاطمي وأول قاض سني يعين من قبل السلطنة المملوكية بمرسوم من السلطان الناصر محمد بن قلاوون بطلب من المجاورين بالمدينة، فقد كان قضاة المدينة يعينون من قبل أمراء المدينة ممن يدينون بمذهب الشيعة لإمامية.

وقد لقي سراج الدين في بداية تعيينه في الخطابة والقضاء أذى شديدا من قبل الشيعة

والدينية، واقتبس كثيرا في وصفه ممن سبقه من الرحالة وبخاصة ابن جبير - وانقرض عنهم بالحديث عن بعض الأحداث السياسية والمظاهر الاجتماعية التي شهدها بمكة المكرمة.

فحكومتها مكة التي كانت قائمة عند وصوله في رحلته الأولى سنة ٧٢٦هـ / ١٣٢٦م كانت قد آلت إلى أبناء الشريف أبي نمي محمد بن أبي سعد بعد وفاته سنة ٧٠١هـ / ١٣٠١م «وكانت إمارة مكة المكرمة في عهد دخولي إليها للشريفيين الأجلين الأخوين، أسد الدين رميته، وسيف الدين عطيفة ابني الأمير أبي نمي بن أبي سعد بن علي بن قتادة الحسنيين، ورميته أكبرهما سنا، ولكنه كان يقدم اسم عطيفة في الدعاء له بمكة المكرمة لعدله، ولرميته أحمد وعجلان، وهو أمير مكة المكرمة في هذا العهد [١٥٠] وثقة وسند». وتضرب الطبول على باب كل واحد منهما عند صلاة المغرب من كل يوم [١٥١].

والحقيقة، فقد شهد النصف الأول من القرن الثامن الهجري/ الرابع عشر الميلادي صراعا متصلا على السلطة في مكة بين أبناء الشريف أبي نمي، وبخاصة بين أربعة منهم هم: رميته وحميضة وعطيفة وأبو الفيث، كما شهد تدخلًا مباشرًا من قبل سلاطين المماليك، وبخاصة السلطان الناصر محمد بن قلاوون، فقد أدى بهم الحرص على بسط سلطانهم على الحرمين إلى بث الفرقة والنزاع بين الأخوة المتنافسين والتصرف معهم عن طريق التولية والعزل دون القيام بمحاولة جادة ومخلصة لتهدئة الأوضاع واختيار الأكفأ من بين الأخوة المتنافسين ودعمه بالقوة اللازمة. هذا الوضع الذي شهده ابن بطوطة كان السبب في خلق حالة من عدم الاستقرار والفوضى وانعدام الأمن في أراضي الحرمين بحيث أصبح السمة الغالبة لها طوال العصر المملوكي.

وخير مثال على ذلك ما شهده ابن بطوطة سنة ٧٢٠هـ / ١٣٢٠م وكان مجاورا بمكة المكرمة، من صدام بين أمراء مكة وأمراء المماليك الواصلين مع قافلة الحج المصري، يقول ابن بطوطة «وفي موسمها (سنة ٧٢٠هـ) وقعت الفتنة بين أمير مكة عطيفة وبين أيدمور أمير جندار الناصري، وسبب ذلك أن تجاراً من أهل اليمن سرقوا، فتشكروا إلى أيدمور بذلك، فقال أيدمور لمبارك ابن الأمير عطيفة، انت بهؤلاء السراق، فقال: لا أعرفهم، فكيف نأتي بهم، وبعد فأهل اليمن تحت حكمنا، ولا حكم عليهم لك، إن سرق لأهل مصر والشام شيء فاطلبنني به، فشتمت أيدمور، وقال له: يا قواد تقول لي هكذا، وضربه على صدره، فسقط ووقعت عمامته عن رأسه، وغضب له عبيده، وركب أيدمور يريد عسكره، فلحقه مبارك وعبيده فقتلوه، وقتلوا ولده، ووقعت الفتنة بالحرم، وكان به الأمير أحمد ابن عم الملك الناصر، ورمى الترك بالنشاب، فقتلوا امرأة، قيل إنها كانت تحرض أهل مكة المكرمة على القتال، وركب ركب من الأتراك، وأميرهم خاص ترك، فخرج إليهم القاضي والأئمة والمجاورون، وفوق رؤوسهم المصاحف، وحاولوا الصلح، ودخل الحجاج مكة المكرمة فأخذوا ما لهم بها وانصرفوا إلى مصر» [١٥٢].

هذه الحادثة الخطيرة التي أريقَت فيها دماء في الحرم، والتي شاهدها ابن بطوطة ونقلها في مدونته تعطي صورة جلية للعلاقة التي نشأت بين السلطنة المملوكية من جهة وحكومة الأشراف بمكة المكرمة والمدينة المنورة من جهة أخرى.

فالسلطنة المملوكية من جانبها، أظهرت منذ البداية رغبة في إبقاء الحجاز تحت نفوذها لتكسب حكمها الغتصب الشرعية بظهورها أمام العالم الإسلامي كحامية للحرمين الشريفين ورعاية للاماكن المقدسة فيهما وأمراء مكة المكرمة والمدينة المنورة من جانبهم

على أي حال، فقد كان الملك الناصر محمد بن المنصور قلاوون، حسب شهادة ابن بطوطة «هو الذي يتولى كسوة الكعبة الكريمة، ويبيع مرتبات القاضي والخطيب والأئمة والمؤذنين والفراشين والقومه، وما يحتاج له الحرم الشريف من الشمع والزيت في كل سنة» [١٥٥].

وكما اهتم ابن بطوطة بمتابعة الأوضاع السياسية بمكة المكرمة، اهتم أيضا بأحوالها الاجتماعية فتحدث عن المجاورين مع الإشارة إلى دور بعضهم في الحياة العلمية والاجتماعية بمكة، فالشيخ الصالح «برهان الدين العجمي الواعظ» [١٥٦] كان ينصب له كرسي تجاه الكعبة الشريفة فيعظ الناس، ويكرهم بلسان فصيح، وقلب خاشع، يأخذ بمجامع القلوب» [١٥٧] «وبرهان الدين ابراهيم المصري مقرئ، مجيد ويقصده أهل مصر والشام بصدقاتهم، ويعلم الأيتام كتاب الله تعالى، ويقوم بمؤنهم، ويكسوهم» [١٥٨] «ومنهم الصالح العابد عز الدين الواسطي من أصحاب الأموال الطائلة يحمل إليه من بلده المال الكثير في كل سنة، فيبتاع الحبوب والتمر، ويفرقها على الضعفاء والمساكين، ويتولى حملها الى بيوتهم بنفسه» [١٥٩] والفقيه الزاهد أبو الحسن علي بن رزق الله الأنجيري من أهل قطر طنجة، جاور بمكة أعواماً وبها كانت وفاته... وكان له بيت بالندسة المظفرية يعلم العلم فيها نهاراً» [١٦٠] وكان كثير من هؤلاء المجاورين يسكنون أثناء إقامتهم بمكة ببعض الأربطة التي يوقفها الملوك والأمراء والموسرون من مختلف الأقطار الإسلامية.

وقد ذكر ابن بطوطة بعض تلك الأربطة التي كان ينزل بها مجاورون أثناء وجوده بمكة المكرمة وقد قام

بذكر حاجتهم الاقتصادية لمصر ودعمها لهم، ولكنهم في نفس الوقت غير راضين بالخضوع المباشر للمماليك الأتراك الذين اغتصبوا عرش السلطنة بمصر وبلاد الشام من ساداتهم الأيوبيين. وقد أدرك ابن بطوطة هذه الحقيقة، حين أضاف بعد نقله لما حدث، بقوله «وبلغ الخبر إلى الملك الناصر فشق عليه، وبعث العساكر إلى مكة ففر الأمير عطيفة وابنه مبارك، وخرج أخوه رميثة وأولاده إلى وادي نخلة، فلما وصل العسكر إلى مكة بعث الأمير رميثة أحد أولاده يطلب له الأمان ولولده، فأمّنوا، وأتى رميثة وكفنه في يده إلى الأمير فخلع عليه، وسلمت إليه مكة، وعاد العسكر إلى مصر» [١٥٣].

لقد أدرك ابن بطوطة لعبة الصراع على النفوذ الأسمي في الحرمين التي كانت قائمة في ذلك الوقت بين السلطات الإسلامية في مصر والعراق واليمن، وإسكاف الأشراف أمراء مكة المكرمة بخيوط اللعبة للاستفادة من هذا التنافس اقتصادياً وتجنب الخضوع الكامل لسيادة أي من تلك القوى.

يقول ابن بطوطة «وفي هذه السنة ٧٢٩هـ/ ١٣٢٩م وصل أحمد بن الأمير رميثة، ومبارك ابن الأمير عطيفة من العراق صحبة الأمير محمد الحويج... واتوا بصدقات عظيمة للمجاورين وأهل مكة من قبل السلطان أبي سعيد ملك العراق، وفي تلك السنة ذكروا اسمه في الخطبة بعد ذكر الملك الناصر، ودعوا له بأعلا قبة زمزم، وذكروا بعده سلطان اليمن الملك المجاهد نور الدين، ولم يوافق الأمير عطيفة على ذلك، وبعث شقيقه منصور ليعلم الملك الناصر بذلك فأمر رميثة برده فرد، فبعثه ثانية على طريق جيدة، حتى أعلم الملك الناصر بذلك» [١٥٤].

إحداهن لتبجيت طاوية وتشتري بقوتها طيبا، وهن يقصدن الطواف بالبيت في كل ليلة جمعه، فبائت في أحسن زي وتغلب على الحرم رائحة طيبهن، وتذهب المرأة منهن فيقي أثر الطيب بعد ذهابها عبقا» [١٦٦]. وقد لاحظ ابن بطوطة بأن أهل مكة «لا ياكلون في اليوم إلا مرة واحدة بعد العصر ويقتصرون عليها إلى مثل ذلك الوقت، ومن أراد الأكل في سائر النهار أكل التمر، ولذلك صحت أبدانهم وقلت فيهم الأمراض والعاهات» [١٦٦] ويبدو أن المكيين يشاركون في هذه العادة أهل بادية الحجاز ونجد.

أقام ابن بطوطة أربعين يوما بجده بعد أداء حج عام ٧٨٢٢هـ / ١٣٢٢م في انتظار مركب مناسب ينقله إلى اليمن ومن ثم إلى الهند، وفي البحث عن رفيق يؤنس وحدته في سفره، ومع إقامته الطويلة بجدة مقارنة بإقامته من سبقه من الرحالة، فلم يتحدث كثيرا عنها، بل نقل ما جاء في ابن جبير عن بناء الفرس لها وعن صهاريجها وقلة الماء بها وجامعها المعروف بالآبنوس. وأضاف بأن أميرها في ذلك الوقت كان أبو يعقوب بن عبد الرزاق، وقاضيا وخطيبها الفقيه عبد الله من أهل مكة المكرمة شافعي المذهب. ويبدو أن قضاة جدة طوال العصر المملوكي كانوا على المذهب الشافعي، وغالبا من أسرة بني ظهير أما أمراؤها فكانوا يعينون من قبل أمير مكة.

ويستوقف الباحث فيما نقل ابن بطوطة عن جدة قوله «وإذا كان يوم الجمعة، واجتمع الناس للصلاة أتى المؤذن وعد أهل جدة المقيمين بها، فإن كملوا أربعين خطب وصلى بهم الجمعة، وإن لم يبلغ عددهم أربعين صلى ظهرا أربعاً، ولا يعتبر من ليس من أهلها، وإن كانوا عتدا كبيرا» [١٦٦] والظاهر أن ابن بطوطة أمضى أيامه بجده بجوار الميناء وأن ما شاهده عن عد

هو بسكنى إحداها أثناء مسجورته.. وهي رباط السدرة، والموقف، وربيع، ودار العباس.

وأثنى ابن بطوطة على أهل مكة المكرمة، ولم يسر على نهج بعض من سبقه من الرحالة في الميل إلى ذمهم والانتقاص من قدرهم وذكر مساوئهم دون حسناتهم، وهنا يجب التنويه: بأن ما جاء في مدونة ابن بطوطة عن طبائع المكيين وأخلاقهم وعاداتهم، يجب أن يؤخذ على أنه التقويم الدقيق والحقيقي لصفات الإنسان المكي.. ذلك لأن ابن بطوطة، كما سبق أن اشرنا، قد جاور بمكة ثلاث سنوات متتالية، مما أتاح له أن يعايش المكيين عن كثب ويقترب منهم ويطلع على سلوكياتهم ومنهج حياتهم.

وصف ابن بطوطة المكيين بقوله «ولأهل مكة الأفعال الجميلة، والمكارم التامة، والأخلاق الحسنة، والإيثار إلى الضعفاء والمنقطعين، وحسن الجوار للغرباء، ومن مكارمهم أنهم متى صنع أحدهم وليمة، يبدأ فيها بإطعام الفقراء المنقطعين المجاورين، ويستدعيهم بثلث ورق وحسن خلق، ثم يطعمهم، وأكثر المساكن المنقطعين يكونون بالأقراان حيث يطبخ الناس أخبارهم، فإذا طبخ أحدهم خبزه، واحتمله إلى منزله يتبعه المساكن، فيعطى لكل واحد منهم ما قسم له، لا يردهم خائبين، ولو كانت له خبزه واحدة، فإنه يعطى ثلثها أو نصفها طيب النفس بذلك من غير ضجر» [١٦٦].

ويستطرده ابن بطوطة في وصفه لأهل مكة المكرمة بقوله «وأهل مكة لهم ظرف ونظافة في اللباس، وأكثر لباسهم البياض، فترى ثيابهم أبدا ناصتة ساطعة، ويستعملون الطيب كثيرا ويكتبون، ويكثر السواك بين الأراك الأخضر».

ونساء مكة المكرمة فائقات الحسن بإرعات الجمال نوات صلاح وعفاف، وهن يكثرن التطيب، حتى إن

اليومية للأسرة والمجتمع الحجازي على الرغم من امتداد إقامة بعضهم لأشهر أو سنوات.

- يستطيع الباحث متابعة تطور العمارة الإسلامية من خلال ما جاء في مدونات هؤلاء الرحالة من وصف للصرمين الشريفين والكعبة المشرفة، خاصة إذا أخذنا بعين الاعتبار، إن الصرمن الشريفين ما زال منذ عصر هؤلاء الرحالة وحتى العصر الحديث يمران بمراحل من الترميم والتجديد والتوسعة.

- استحوذت مكة المكرمة على معظم ما جاء في مدونات الرحالة، ولم تحتل المدينة المنورة سوى مساحة ضئيلة في تلك المدونات، وربما كان السبب في ذلك، قصر مدة إقامة قوافل الحج في المدينة، مقارنة بإقامتها في مكة المكرمة. إضافة إلى أن بعض هؤلاء الرحالة قد اختار الوصول إلى مكة قبل موسم الحج بفترة طويلة كما حدث مع ابن جبير والتجيبى، أو اختار المجاورة لسنوات بمكة المكرمة بعد انقضاء الحج كما حدث مع ابن بطوطة.

- وأخيرا فإنه يستفاد مما جاء في مدونات الرحالة عن جده في العصر الأيوبي وشطر من العصر المملوكي الأول، أنها شهدت انهيارا في أوضاعها الاقتصادية والاجتماعية، وإن ما تحدثت عنه المصادر التاريخية من انتعاش اقتصادي لمدينة جده قد حدث في العصر المملوكي الثاني (عصر المماليك الجراكسة) نتيجة لانهايار ميناء عدن بسبب تدهور أوضاع الدولة الرسولية في اليمن مما أدى إلى انتقال تجارة الهند من ميناء عدن إلى جده التي أصبح مينائها الميناء الرئيس على البحر الأحمر لتجارة العبور بين موانئ الهند وشرق آسيا، وموانئ البحر الأبيض المتوسط في مصر وبلاد الشام وجنوب أوروبا.

أهل جده كان أمرا خاصا بجامع الميناء، ولطول العهد بين مشاهدته لهذا الحدث وتدوين الرحلة جاء وهمه بأن ما رأى ينطبق على جميع جوامع جده.

أدى ابن بطوطة آخر حجة له سنة تسع وأربعين وسبعمئة سالكا طريق عيذاب - جده - وبعد انقضاء الحج صحب قافلة الحج الشامي مرة ثانية في طريق العودة لينفصل عنها فيما بعد ويتجه إلى بيت المقدس للزيارة.

الخاتمة :

بعد قراءة ما جاء في مدونات الرحالة المسلمين عن الحجاز في العصرين الأيوبي والمملوكي، نخلص إلى النتائج التالية:

- إن ما جاء في مدونات الرحالة المسلمين عن الحجاز في العصرين الأيوبي والمملوكي يعتبر سجلا وثائقيا حافلا لأوضاعه السياسية والدينية والاقتصادية والاجتماعية.

- خلو هذه المدونات على وجه العموم من المبالغة والتحريف والتزييف والخرافات التي تحفل بها مدونات بعض الرحالة الغربيين الذين زاروا الحجاز، متخفين داخل عباءة إسلامية، في فترات لاحقة بدءا من نهاية العصر المملوكي.

- تميز كتابات الرحالة الغربيين الذين زاروا الحجاز عن مدونات الرحالة المسلمين بمصالة الغوص في أعماق المجتمع والكشف عن عاداته وتقاليدته الاجتماعية، وعرضها في ثوب قصصي يجنح في بعض الأحوال إلى الخيال بل والأسطورة بدلا من الحقيقة المجردة.

- ميل مدونات الرحالة المسلمين إلى متابعة العادات والتقاليد والمظاهر الدينية، وعرضها بشيء من التفصيل، وعدم الالتفات إلى تدوين العادات

الهوامش :

الرحمن، الروضتين في أخبار الدولتين، بيروت ٢٠٠٢، ص ٢٥-٢٧). وينكر أبو شامة: أن قسما من الجيش الصليبي وصل إلى ميناء رابغ في طريقه إلى المدينة المنورة.

(١٠) Runciman S. A. History of the Crusades, Cambridge 1952 vol: 2 p.98,230

(١١) وقع أرنط أسيرا في قبضة المسلمين سنة ١١٥٦هـ/ ١١٦٠م، واستمر في الأسر حتى سنة ١١٧١هـ/ ١١٧٥م - ثم أطلق سراحه، عين بعدها أميرا على الكرك من قبل ملك مملكة بيت المقدس، حيث أصبح شوكة في جنب المسلمين.

(١٢) أبو شامة، الروضتين - ج ٢ ص ٢٥.

(١٣) ابن جبير، ص ٦٥. وانظر أيضا يا قوت الحموي، ج ٤، ص ٤٦٩.

(١٤) المصدر السابق ص ٦٧.

(١٥) ابن جبير: ص ٧٠، والجلاب جمع جلبه وهو نوع من السفن الشراعية مستخدم في البحر الأحمر.

(١٦) ابن جبير ص ٧٠-٧١.

(١٧) المصدر السابق، ص ٧٢-٧٣.

(*) المنزل:

ميناء أبجر: هذا الميناء حققه ووثقه الأستاذ المؤرخ/ عبد القدوس الانصاري، مؤسس هذه المجلة. فقد بحث بنفسه مكان وموقع هذا الميناء، ونقب عنه تنقيب الأثري الدقيق. وجاء هذا في محاضراته التي القاها في جامعة الملك عبد العزيز في جده، بتاريخ ١٤٠٠/٧/٢١هـ. وهي منشورة في مجلة المنزل في عددها الصادر في شهر جمادى الآخرة ١٤٠٠هـ ص ٣٥٨-٣٦٤. وثبت هنا فقرات للاستشهاد بها. ومن أراد الاستزادة فليرجع للمحاضرة. وجاء فيها عن هذا الميناء:

«لاحظت أن لجدة بدلا من ميناء واحد، ميناءين بحريين اثنين. أحدهما يقوم في منطقة البحر الأحمر يساحله الأبعد عنها في الغرب الشمالي عنها، والآخر يقوم

(١) زار الحجاز، وأدى فريضة الحج أربع مرات (٤٣٩- ٤٤٢هـ/ ١٠٤٦- ١٠٥١م)، ونشرت الرحلة مرتين، الأولى: ترجمة الدكتور/ يحيى الخشاب، بمطبعة دار الكتاب الجديد، بيروت سنة ١٩٧٠م، والثانية: ترجمة الدكتور احمد خالد بدلي، الرياض ١٤٠٢هـ/ ١٩٨٣م. (٢) ابن جبير، أبو الحسن محمد بن احمد - تذكرة بالأخبار عن اتفاقات الأسفار. لبنان، مطبعة بريل سنة ١٩٠٧م ص ٣٩.

(٣) يقصد بنصاري الشام - أمير الكرك أرنط الذي حمل الأخشاب ومعدات بناء السفن إلى خليج العقبة، على البحر الأحمر، وبعد أن أتم بناءها انطلق في عرض البحر الأحمر، نحو الموانئ المصرية والحجازية ليقتل ويدمر وينهب، ثم ينطلق إلى المدينة المنورة، ومكة المكرمة لضرب الإسلام في عقر داره.

(٤) يقع جنوب القصير.

(٥) بليدة على ضفة بحر القلزم هي مرسى المراكب التي تقم من عدن إلى الصعيد، انظر يا قوت الحموي تحقيق فريد عبد العزيز الجفري - معجم البلدان - بيروت سنة ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م ج ٤، ص ١٩٣.

(٦) ربما يقصد بها الغلال من القمح والصوب التي خصصها صلاح الدين الأيوبي لأمرأء الحرمين مقابل إلقاء المكوس. أو ربما كانت غلالا تأتي من أوقاف الحرمين بمصر.

(٧) قيل بأن أرنط أراد أن ينقل رفات الرسول (صلى الله عليه وسلم) من قبره بالمدينة المنورة الى قاعدة إمارته بالكرك فلما منه أن حج المسلمين يقصد به زيارة قبر الرسول. وأنه بعلته هذه يستطيع أن يحول الحج إلى إمارته، وبذلك يتمكن من فرض الضرائب على الحجاج.

(٨) لا يريد ذكر المغاربة في المصادر التاريخية.

(٩) ابن جبير: رحلة ص ٥٨-٥٩.

وانظر أيضا: أبو شامة، شهاب الدين أبو محمد عبد

أبحر مدينة صغيرة وميناء بحريا عامرا معروفا، ولقد تابعت مليا بحوثي العملية رجاء أن أعثر على أشياء أثرية ثمينة في أماكن أبحر القريبة من سطح الأرض. . . وذات يوم ذهبت الى البحر الكبير باحثا عن ذلك الميناء الجميل الهادئ. . . وبينما كنت أتجول هنا وهناك وقفت مصادفة على بناء ميناء عتيق مرتفع عن سطح البحر، لقد قلت في نفسي لعل هذا هو ميناء أبحر الموصوف: وتابعت التحقيق الواقعي فوجدت قطع خشب ضخمة به مسمرأ فيها مسامير ضخمة ومثبتأ بها حلقات من حديد كبيرة وأسياخ ضخمة من حديد صدى قديم، وتابعت التحقيق قدامأ أيضاً حتى بدا لي تماماً أن هذا هو ميناء أبحر القديم المنشود ومن ثم صورته ونشرت الصورة وشرحها والتحقيق عنها في كتابي: (مع ابن جبير في رحلته) الذي كنت طبعته قبل عدة سنوات. . . والمزيد يمكن الرجوع لهذا الكتاب: ص ١٤٢ - ١٤٣ الطبعة الأولى ١٩٩٦هـ، المطبعة العربية الحديثة - مصر.

(١٨) ابن جبير ص ٧٥ - ٧٦.

(١٩)، ٢٠، ٢١ المصدر السابق ص ٧٦.

(٢٢) ابن فرج، عيد القادر بن احمد. السلاح والعدة في تاريخ بندر جده تحقيق: احمد الزيلعي، وريكن سميث، جامعة نهرام. انجلترا ١٩٨٤م ص ١٧.

(٢٣) الإبريسي، أبو عبد الله محمد بن محمد. نزهة المشتاق في اختراق الأفاق، نابولي ١٩٧٢م ج ٢ ص ١٣٩.

(٢٤) ابن جبير، ص ٧٦ - ٧٧.

(٢٥)، ٢٦، ٢٧، ٢٨ المصدر السابق: ص ٧٧ - ٧٨.

ص ٧٧، ص ٧٥، ص ٨٠.

(٢٩) ابن تقيري يبردي، أبو المحاسن يوسف، النجوم

الزاهرة في ملوك مصر والقاهرة. القاهرة ١٣٨٣هـ/

١٩٦٣م - ج ٥، ص ١٤٠.

(٣٠) الفاسي، تقي الدين محمد بن احمد. العقد الثمين

بساحله الملاصق للمدينة الاقرب إليها من ذلك، فلما الميناء الأبعد عن جُدة فقد كان بناؤه أقرب عهدا على ما يبدو، وإن لم نصل الى معلومات مؤكدة عن تاريخ بناء المينائين قديما واتخاذهما مينائين مقصودين بالذات لخواهلها بحرأ منهما لحجاج بيت الله الحرام خاصة، ولغيرهم عامة حيث يتسبون بوصوله وبالإيواء اليه والبقاء فيه بضعة أيام تختلف بحسب حاجة المسافرين والحجاج القادمين من ميناء عيذاب أو غيره. . . الى الراحة والاستجمام، وهذا الميناء الأبعد عن جُدة هو (ميناء أبحر). وكل ما أعلمه عقب استكشافني هذا الميناء الأبحر القائمة قواعده على ساحل بحر العميق. . . البحر الكبير. . . أن بعض رحالة العرب المسلمين من الأندلس قد نزلوه فعلا ووصفوه في رحلاتهم الى الحج وأثنا ثناء عاطرا على طيب هوائه وهندو مياهه وجمال خليجه.

وحيثما بحثت عن تاريخ عمران أبحر لم أجد مطلقاً ما يدل عليه في المصادر التاريخية التي بين يدي، ولكني حينما أصلمت دفتي في بعض أرضه المتحصرة الفيحاء المحاطة ببحره من ثلاثة جوانبه ببعض تلك التلال الصغيرة المبعثرة على طول وعرض سطح هذه البرحة الفيحاء وهذا السهل الأجرد. . . وجدت في بعضها بعض زجاج اسلامي عتيق. . . ثم كانت المفاجأة الكبرى لي عندما حفرت بعض قطعة الأرض التي أفضل جلالة الملك الشهيد فيصل بن عبد العزيز عليه الرحمة والرضوان بمنحها لي على ساحل الخليج الجنوبي منه، يعمق يصل نحو أربعة أمتار، فوجدت بأن سورأ من الحجر الأسود البش يقوم من أعماق هذه البقعة الجرداء الى قمة سطح الأرض وارتفاعه نحو ثلاثة أمتار من تحت سطحها الحاضر.

وعندئذ أيقنت نتيجة لهذا الكشف أنه كان يقوم على أرض أبحر هذه وعلى ساحل خليجه عمران قديم طمرته سيوله ورياحه وأبتلعه جنادله. . . وبالتالي كانت

في تاريخ البلد الأمين، تحقيق فؤاد سيد - القاهرة

١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م - ج ٧، ص ٤٠.

(٣١) ابن جبير - ص ٧٧.

(٣٢) (٤٦) المصدر السابق ص ٧٧، ص ١٠٦، ١١٠،

١١١، ١١٢، ص ١٠٤، ص ١٢٤، ص ٩٨، ٩٩، ص

٩٢، ص ١٠٤، ص ١٠٦، ص ٩٠، ص ١٠١ - ١٠٢، ص

١٠٢، ص ١٣٩، ص ١٤٠ - ١٤١، ص ١٤٥، ص ٩٧.

(٤٧) لم يذكر المؤرخون، فرض تورانشاه الخطبة لأخيه في

هذه المناسبة ولكن الدلائل تشير إلى ذلك فتدخل صلاح

الدين في إلغاء المكوس بمكة، والتوصية بالحقاج، ثم

وصول أخيه طفتكين إلى مكة المكرمة في عدة

مناسبات، وإصداره الأوامر سنة ٥٨١هـ / ١١٨٥ -

١١٨٦م بمنع الأذان يحي على خير العمل بمكة، وقتل

جماعة من العبيد المفسدين، وهروب أمير مكة إلى قلعة

أبي قبيس، وضرب الدنانير والدرهم باسم أخيه صلاح

الدين، كل ذلك دلائل تشير إلى امتداد النفوذ الأيوبي

إلى الحجاز. انظر: الفاسي، تقي الدين محمد - شفاء

الفرام بتخيار البلد الحرام - مكة ١٩٥٦م، ج ٢، ص

١٩٨.

(٤٨) ابن جبير - ص ١٤٨.

(٤٩) (٦٦) المصدر السابق ص ١١٩ - ١٢٠، ص ١٢٠،

ص ١٢٢، ص ١٢١، ص ١٢١، ص ١٠٧، ص ١٨١،

ص ١٢٤، ص ١٣٠، ص ١٣٠ - ١٣١، ص ١٣٠، ص

١٤٩ - ١٥٠، ص ١٤٥، ص ١٥٦، ص ١٦٧ - ١٦٨، ص

١٩٨، ص ١٩٩، ص ١٩٤.

(٦٧) ابن فرحون، أبو محمد عبد الله، نصيحة المشاور

وتعزية المحاور، بيروت، دار الأرقم ص ٣٧.

(٦٨) ابن جبير ص ١٩٣.

(٦٩) (٧٣) المصدر السابق ص ١٩٣، ص ١٩٤، ص

١٩٤، ص ٢٠١، ص ٢٠٢.

(٧٤) ابن فرحون، نصيحة المشاور، ص ١٩٤.

(٧٥) ابن رشيد السبتي، أبو عبد الله محمد - مله العيبة

بما جمع بطول الغيبة، تحقيق: محمد الحبيب الخوجه،

بيروت ١٤٠٨هـ / ١٩٨٨م، ص ١.

(٧٦) (٨٢) المصدر السابق ص ٦، ص ٧، ص ١٤١٣،

ص ١٥، ص ١٦، ص ٢١ - ٧٠، ص ٨٠.

(٨٣) أحمد السباعي، تاريخ مكة، الرياض ١٤١٩هـ /

١٩٩٩م، ج ١، ص ٢٨٣.

(٨٤) ابن رشيد ص ٨٧.

(٨٥) الفاسي - شفاء الفرام، ج ٢، ص ٢٠٣.

(٨٦) المصدر السابق ص ٢٠٢.

(٨٧) ابن رشيد ص ٨٧.

(٨٨) ابن رشيد: ذكر من لقيناه بمكة ومنى وعرفات شرفها

الله تعالى ص ١٢٩ - ٢٦٨.

(٨٩) المصدر السابق ص ٩٥.

(٩٠) ابن رشيد ص ٢٦٤.

(٩١) المصدر السابق ص ٢٦٥.

(٩٢) العبدري، أبو عبد الله محمد بن محمد بن علي، رحلة

العبدري، تحقيق: علي إبراهيم كردي، دمشق سنة

١٤١٩هـ / ١٩٩٩م - ص ٣٥٨.

(٩٣) (١١١) المصدر السابق ص ٢٧٦، ص ٢٣٠، ص

٣٣١، ٣٣٢، ص ٣٣٣، ص ٢٤٦، ص ٢٤٦، ص ٣٥١،

ص ٣٧٢، ص ٣٦٣، ٣٦٤، ص ٣٧١، ص ٣٧١،

ص ٣٧١، ص ٣٧١، ص ٣٧٢، ص ٣٧٢، ص ٤٢٨،

ص ٤١٧، ص ٣٦٤، ص ٣٩٢، ٣٩١.

(١١٢) الفاسي، شفاء الفرام، ج ٢، ص ٢٤١.

(١١٣) العبدري ص ٣٩١.

(١١٤) وقد ذكر العبدري، تعقيباً على الحادثة، إن أحد

الأمراء الأتراك «لما رأى صاحب مكة عازماً على أخذهم

قال له: فيم تلخذهم؟ فقال له، في حقوق وجبت على ملك

مصر، ولي حظ في بيت المال منفعنيه أموالاً ومع أن

هذا السبب ربما يكون أحد الأسباب الرئيسية التي

أشعلت الفتنة، فقد رأى العبدري أن صاحب مكة «لحق

مطالب وخرافات» العبدري ص ٣٩٢ - ٣٩٣.

(١١٥) العبدري ص ٣٥١.

(١١٦) ابن قهد، محمد بن محمد - إتحاف الوري بتخيار أم

استمر هذا الوضع قائماً حتى أواخر القرن الماضي، ثم عملت الحكومة السعودية على مد أنابيب عمت جميع أنحاء الحرم الشريف والمسعى، وبذلك استقنى عن هذا الوضع القديم.

(١٣٨) المصدر السابق ص ٢٩٥ - ٢٩٧.

(١٣٩) المصدر السابق ص ٢٦٤ - ٢٦٥ وانظر: النجم عمر بن فهد: اتحاف الوري ياخيار أم القرى تحقيق فهد محمد شلتوت ج ٣ ص ١٣٦ - ١٣٧، الفاسي، شفاء الغرام ج ١، ص ١٠٧ المقيزي، السلوك ١/٢، ص ١٢.

(١٤٠) المصدر السابق ص ١٢٩ - ٢٦٨.

(١٤١) راجع ص ٢٩ من البحث.

(١٤٢) ابن بطوطة، أبو عبد الله محمد بن إبراهيم اللواتي، تحفة النظار في غرائب الأسفار، بيروت ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م، ص ١١٢.

(١٤٣، ١٤٤) المصدر السابق ص ١١٣، ص ١٢٤.

(١٤٥) ابن فرحون، نصيحة المشاور، ص ٢٣٠ - ٢٣٥.

(١٤٦) ابن بطوطة، ص ١٢١.

(١٤٧) ابن فرحون، نصيحة المشاور ص ٣٧ - ٣٨.

(١٤٨) المصدر السابق ص ١٩١.

(١٤٩) المصدر السابق ص ٥٩ وما بعدها.

(١٥٠) ابن بطوطة، ص ١٤٨ - يقصد عهد حجته سنة ٧٤٩هـ.

(١٥١ الى ١٦٣) المصدر السابق ص ١٤٨، ص ٢٤٢،

ص ٢٤٢، ص ٢٤١، ص ١٧١، ص ١٥٣، ص ١٥٣،

ص ١٥٣، ص ١٥٣، ص ١٤٨، ص ١٤٩، ص ١٥١،

ص ٢٤٣.

(١٦٤) ابن بطوطة ص ٢٤٣ عن جامع الميناء انظر: جابر

الله محمد بن عبد العزيز بن فهد - حسن القرى في

ذكر أودية أم القرى، مخطوط نشر في مجلة العرب ج

١ - ٢، رجب وشعبان ١٤٠٣هـ/ ١٩٨٣م، ص ٢٧،

يقول ابن فهد «وفي أيام موسم الهندي تقام الجمعة

في مسجد ثالث على باب الفرضة، يصلي فيه نائب

جده»

القرى - تحقيق: فهد محمد شلتوت - القاهرة - ج ٣ ص ١١٣ - ١١٤.

(١١٧) المصدر السابق ص ١١٨ - ١١٩.

(١١٨) طبع الجزء الثاني من رحلة: القاسم بن يوسف التجيبي السبتي، مستفاد الرحلة والاغتراب، بتحقيق: عبد الحفيظ منصور، الدار العربية للكتاب، ليبيا، تونس سنة ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م، ويبدأ بذكر: مدينة القاهرة، وينتهي بذكر: التوجه من مكة الى منى قبل الصعود إلى عرفات.

(١١٩) التجيبي، مستفاد الرحلة، ص ٢١٨.

(١٢٠) المصدر السابق - ص ٢١٨ - وانظر أيضاً:

الحميري، محمد بن عبد المنعم، الروض المعطار في خبر الأقطار، تحقيق: إحسان عباس، بيروت سنة ١٩٧٥م، ص ١٥٧.

(١٢١) التجيبي ص ٢١٩.

(١٢٢ الى ١٢٨) المصدر السابق ص ٢١٩ - ٢٢٠، ص ٢٢٠، ص ٢٢٩ - ٢٢٨، ص ٣٠٤، ص ٣٠٤، ص ٣٠٥.

(١٢٩) يقول التجيبي «وسألناهم عن سبب كفه عنهم، ما هو؟ فذكروا لنا: أنه رأى رؤيا أماله، مقتضاها، أن النبي (صلى الله عليه وسلم) ويخ على أفعاله، ونهاه عن ظلم الحجاج والمجاورين، وأخبره أنه إن لم يرجع عما يفضله من ذلك، أنه برىء منه، فخاف من هذه الرؤيا خوفاً شديداً، ورجع عن كثير مما كان يفعل» المصدر السابق ص ٣٠٨.

(١٣٠ الى ١٣٤) المصدر السابق ص ٣٠٧ - ٣٠٨، ص ٣٢٧، ص ٣٢٦، ص ٣٢٧.

(١٣٥) تقع «بالجانب الغربي من المسجد الحرام، ملاصقة لمدرسة الزنجيلي، وتاريخ عمارتها سنة إحدى وأربعين وستمئة» انظر: الفاسي، العقد الثمين، القاهرة ١٣٨٦هـ/ ١٩٦٦م، ج ٦، ص ٣٤٨.

(١٣٦) التجيبي ص ٤٥٩ - ٤٦٠.

(١٣٧) المصدر السابق ص ٤٦٣.

الواقدي .. السخي الحبي ١٣٠٠ هـ

حياة الواقدي :

ولد محمد بن عمر الواقدي في المدينة المنورة سنة (١٣٠٠ هـ / ٧٤٧ م)، وأخذ العلم عن شيوخ عصره، فاتصل بمالك بن أنس، وأخذ عنه الحديث، وتلمذ على يد سفیان الثوري وابن جريج ومعمّر بن راشد وغيرهم، وكما أخذ المغازي والسير عن أبي معشر السندي، وظل عاكفا على طلب العلم حتى نال شهرة واسعة في عصره، وعُد بعد ابن إسحاق في اتساع العلم بالتاريخ، بل فاقه في دقة المادة العلمية، والعناية بتحقيق الأحداث وتوضيح الإطار الجغرافي الذي يتصل بموقع الأحداث.

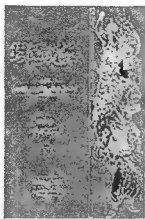
ولما ضاقت الحال بالواقدي وكان كريماً لا يمكسك مالا في يده ذهب الى بغداد سنة ١٨٠ هـ / ٧٩٦ م، ومنها الى الرقة حيث كان الخليفة هارون في ذلك الوقت فآكرم وفادته... وفي عهد المأمون تولى قضاء الرصافة سنة (٢٠٤ هـ / ٨١٩ م) وكان الخليفة المأمون يثق به ويقدره، ويروى أنه حين تقدم منه ليسأله قضاء بيونه التي كان كرمه وسخاؤه يوقعانه فيها على الدوام: فكتب الخليفة على هامش الرقعة: فيك خلتان: سخاء وحياء: فالسخاء أطلق يدك بتبذير ما ملكك، والحياء حملك على أن ذكرت لنا بعض دينك، وقد أمرنا لك بضعف ما سألت.

وكان الواقدي شغوفا بجمع المعارف المنتشرة في عصره: فنسخ ما أمكن نسخه من الكتب التي أمكنه الحصول عليها، ويروى أنه ترك بعد وفاته

التاريخ العربي والاسلامي،
خدمه علماء أفاضل في القديم
والحديث ..

وهذا الاصدار يقوم على
محورين أساسيين هما (التاريخ)
(والمؤرخون) وفي كليهما عمل
المنهل جهده لتغطية اكبر قدر ممكن.
ولما كان من الصعب بل
المستحيل تغطية المؤرخين (قدامى
ومحدثين) فلا أقل من اختيار نماذج
منهم... ونأمل أن نتمكن من
تسجيل دراسات موسعة لكبار
المؤرخين في اصدار آخر باذن الله
تعالى ..

وهنا، نقدم الشكر للدكتور
خالد عزب الذي شارك بتقديم بعض
هؤلاء المؤرخين.



غلاف فتوح الشام
ينسب خطأ للواقدي

الى أحداث سنة ١٧٩هـ،
وقد حفظ الطبري في
كتابه «تاريخ الرسل
والملوك» مقتطفات من
هذا الكتاب.

- كتاب الطبقات: وهو
في تاريخ طبقات المحدثين
في الكوفة والبصرة،
وتظهر أهميته بما يكشف
عن علاقة الحديث
بالتاريخ منذ وقت مبكر،

وعلى مثاله ألف تلميذه ابن سعد طبقاته المعروفة.

وينسب إلى الواقدي كتب فتوح الشام ومصر،
وفتوح الهند وما فيها من العجائب وما وقع فيها
للصحابة، وفتوح إفريقية، وهذه الكتب الثلاثة
مطبوعة وتنسب خطأ إلى الواقدي، لأنه يلاحظ عليها
أنها تحمل الطابع الأسطوري الذي لا يعرفه
الواقدي، كما أن فيها اشارات إلى شخصيات من
القرن السادس والسابع الهجريين، وهو ما يجزم بأن
هذه الكتب في حالتها هذه التي وصلت إلينا ليست
للوواقدي.

- كتاب المغازي: ولم يبق من كتب الواقدي التي
تركها سوى كتابه «المغازي» وقد نشر «فون كريمر»
الثلث الأول منه في المكتبة الهندية، وطبع في كلكتا
سنة (١٢٧٢هـ / ١٨٥٦م)، ثم نشر الكتاب كاملاً
«مارسدن جونس» بدعم من جامعة أكسفورد.

والواقدي في كتابه المغازي لم يُعن كائن اسحاق
بالفترات السابقة للإسلام، ولا بالعصر الجاهلي،
وإنما عُنِي بالسيرة، وقد ذكر في أول كتابه مصادره
الأساسية التي اعتمد عليها، وهي خمسة وعشرون
اسماً من شيوخه، ومعظمهم من أهل المدينة أو
عاشوا فيها... وهذه القائمة المذكورة في بداية

أعداداً هائلة من الكتب من نسخ غلامين مملوكين له
كانا يكتبان له بالليل والنهار، وكانت هذه الكتب هي
أساس نشاطه الأدبي الخاص الذي شمل ميادين
عديدة.

منزلة الواقدي :

ولا يشك أحد على معرفة الواقدي الواسعة
بالمغازي: فيقول الخطيب البغدادي: هو ممن طبق
ذكره شرق الأرض وغربها، وسارت بكتبه الركبان
في فنون العلم من المغازي والسير والطبقات...
واجمع العلماء على إمامته في فنون التاريخ... وقد
تتلمذ على الواقدي كثيرون، منهم أبو بكر بن أبي
شيبه، ومحمد بن يحيى الأزدي وسليمان بن داود
الشاذكوني وغيرهم، غير أن أشهر تلاميذه هو محمد
بن سعد صاحب الطبقات الكبرى الملقب بكتاب
الواقدي.

مؤلفات الواقدي :

تضم قائمة مؤلفات الواقدي كتباً كثيرة في الفقه
والقرآن والحديث والتاريخ، وقد أوردها ابن النديم
في كتابه الفهرست، مثل: (كتاب غلط الحديث، كتاب
السنة والجماعة وذم الهوى، كتاب الترغيب في علم
القرآن)... وتشمل كتبه في التاريخ أكثر من ثمانية
وعشرين كتاباً يتركز معظمها حول العهد الإسلامي
دون الجاهلية التي يبدو أنه لم يكن ذا دراية واسعة
بها، ومعظم كتبه فقدت، مثل: أخبار مكة، يوم الجمل،
صفين، مقتل الحسين، سيرة أبي بكر ووفاته، أمر
الحبشة والقيس...

وأهم كتبه هي :

- التاريخ الكبير، ويتناول فيه أحداث التاريخ
الإسلامي الهامة حسب تاريخ وقوعها، ووصل فيه

المدينة المنورة في غيابه، وبعض الأشعار والآيات التي تحتوي على إشارة للحادث الذي يعالجه. ويهتم الواقدي بتحديد المواقع الجغرافية، حتى لقد بلغ الحرص به أن زار بعض تلك المواقع بنفسه.

وفاته :

ظل الواقدي موضع تقدير الخلافة العباسية: فآبقاه الخليفة في منصبه في القضاء حتى توفي في (١١) من ذي الحجة ٢٠٧هـ/٢٧ من ابريل ٨٢٣م كما بقي محل إكبار العلماء والمؤرخين. فاكثروا من الاقتباس من مؤلفاته كالطبري الذي روى كثيرا عنه وبخاصة من كتابه التاريخ الكبير ■

الكتاب لا تشمل جميع من روى عنهم الواقدي مباشرة، وإنما الذين اعتمدت عليهم روايته الرئيسية فقط. ويعنى الواقدي في كتابه بالتدقيق في التواريخ، ويهتم بإيراد نصوص الوثائق، مثل: بعض أوامر النبي (صلى الله عليه وسلم) ومعاهداته، ورسائله، ويكثر من الاستشهاد بالشعر، ولكن في قصد لا يبلغ حدود ابن اسحاق في عنايته بإيراد الشعر.

ويتبع الواقدي خطة ثابتة في عرضه المغازي: فيبدأ بذكر عام خروج الغزوة من المدينة ورجوعها، ثم يتبعه بأخبار الغزوة، وهي تتألف من خبر رئيسي واحد أدمج فيه بعض الأخبار، ويذكر في نهاية الغزوة وهي في غالب الأحيان نائب النبي (صلى الله عليه وسلم) على

تنشئته وتعليمه :

في مثل هذا الجو المعيق بنسمات العلم نشأ ابن عساكر ودرج، وكانت أسرته الصغيرة هي أول من تولى تعليمه وتهذيبه، وأحاطته بعنايتها، فسمع الحديث من أبيه وأخيه وهو في السادسة، ثم تتلمذ على عدد ضخم من شيوخ دمشق وعلمائها، وكانت انذاك من حواضر العلم الكبرى في العالم الإسلامي، وتلقى على أيديهم عددا كبيرا من أمهات الكتب في الحديث والتاريخ.

قرأ على أبي الفرج غيث بن علي الصوري تاريخ صور، وجزءاً من كتاب تلخيص المتشابه للخطيب البغدادي، وقرأ على عبد الكريم بن حمزة السليم كتاب الإكمال لابن ماکولا، ومشتهب النسبة لعبد الغني بن سعدي، وقرأ على شيخه أبي القاسم النبيه كتاب المجالس وجواهر العلم لأحمد بن مروان الدينوري، وتلخيص المتشابه للخطيب البغدادي، وقرأ على أبي محمد بن الأكفاني كتاب المغازي لموسى بن عقبة، وكتاب المغازي لمحمد بن عائذ الهمشقي، وأخبار الخلفاء لابن أبي الدنيا، وغيرها .

الحافظ ابن عساكر .. وتاريخ دمشق

٤٤٩-٥٧١هـ

في بيت كريم الأصل معروف بالفضل، متحلل بالعلم ولد علي بن الحسن بن هبة الله، في (غرة المحرم من سنة ٤٤٩هـ/١٣ من سبتمبر ١١٠٥م)، وكان أبوه تقياً ورعاً، محباً للعلم ومجالسة العلماء ومصاحبهم، وكانت أمه من بيت علم وفضل، فأنبأها «أبو الفضل يحيى بن علي» كان قاضياً، وكذلك كان أخوها «أبو المعالي محمد بن يحيى» قاضياً.

وقد رزق الوالدان الكريمان قبل ابنهما (علي) بولد كان له شأن هو أبو الحسين الصائغ هبة الله بن الحسن، كان من حفاظ الحديث، رحل في طلبه إلى بغداد، وعنى بعلوم القرآن واللغة والتنحوي، وجلس للتدريس والإفتاء.



غلاف كتاب الأربعون
البلدانية لابن عساكر

تاريخ دمشق :

شغل ابن عساكر نفسه بالعلم مذاكرة وتحصيلاً، وجعله دقاً لا يصرفه عنه شيء، ولم يجعله وسيلة لتولي منصب أو طمعاً في مال أو جاه. أعطاه نفسه ولم يبخل عليه بجهد، فكافاه الله سعة في التأليف، وصيماً لا يزال صداه يتردد حتى الآن، ومكانة في العلم تبوأها في المقدمة بين رجالات العلم في تاريخ الإسلام.

موضوع الكتاب ومنهجه :

جاء الكتاب في النهاية في ثمانين مجلدة، تبلغ حوالي ستة عشر ألف صفحة مخطوطة، خصص المؤلف القسم الأول من كتابه لذكر فضائل دمشق، ودراسة خططها ومساجدها وحماماتها وأبنيتها وكنائسها، وكان هذا كالمقدمة لكتاب الكبير، ثم أخذ في الترجمة لكل من نبغ من أبنائها أو سكن فيها، أو دخلها واجتازها من غير أبنائها من الخلفاء والعلماء والقضاة والقراء والنحاة والشعراء.

وقد تتسع حلقة دمشق في منهج ابن عساكر لتشمل الشام أحياناً فيترجم لمن كان في صيدا أو حلب أو بعلبك أو الرقة أو الرملة، وكما اتسعت لديه دائرة نطاق المكان اتسعت دائرة الزمان، فامتدت من زمن أقدم الأنبياء والمرسلين إلى عصر المصنف.

المؤلفات الأخرى لابن عساكر :

ولابن عساكر مؤلفات أخرى كثيرة غير تاريخ دمشق، ومن ذلك:
- تبیین كذب المفتری فيما نسب إلى أبي الحسن الأشعري، والكتاب مطبوع.

الرحلة في طلب الحديث :

بدأ ابن عساكر رحلاته سنة (٥٢٠هـ / ١١٢٦م) إلى بغداد، ثم اتجه منها إلى الحجاز لأداء فريضة الحج وزيارة النبي (صلى الله عليه وسلم)، ولم تطل إقامته في المدينتين المقدستين حيث كر راجعاً إلى بغداد: لمقابلة دروسه في المدرسة النظامية ببغداد.

وفي فترة إقامته التي استغرقت خمس سنوات قابل في أثنائها عدداً كبيراً من أئمة العلم، وقرأ عليهم عشرات الكتب العظيمة ذات المجلدات الضخمة، فاتصل بابي غالب بن البنا، وقرأ عليه كتاب نسب قريش للزبير بن بكار، وكتاب التاريخ لابن أبي خيثمة، وبعضاً من كتاب الطبقات الكبرى لابن سعد، وقرأ على أبي القاسم بن الحصين مسند أحمد والغيلانيات، ودرس على أبي بكر محمد بن عبد الباقي الطبقات الكبرى لابن سعد، والمغازي للواقدي، ولزم أبا القاسم بن السمرقندي وسمع منه كتباً كثيرة، منها: سيرة ابن إسحاق، وكتاب الفتوح لسيف بن عمر، وتاريخ الخلفاء لابن ماجه، ومعجم الصحابة لأبي القاسم البغوي، والمعرفة والتاريخ للنسوي، والكامل في الضعفاء لابن عدي.

عاد الحافظ ابن عساكر إلى دمشق سنة (٥٢٥هـ / ١١٣٠م)، واستقر بها فترة عاود بعدها رحلته مرة أخرى سنة (٥٢٩هـ / ١١٣٤م) إلى إيران وخراسان وأصبهان وهمدان وأبيورد وبيهق والري ونيسابور وسرخس وطوس ومرو، سمع في أثنائها عدداً كبيراً من الكتب على كبار الحفاظ والمحدثين في بلاد المشرق، مثل: سعيد بن أبي الرعاء، وزاهر بن طاهر الشحام، ثم عاد إلى دمشق سنة (٥٣٢هـ / ١١٣٨) وقد طبقت شهرته الآفاق، وقصده طلاب العلم من كل مكان، وانصرف إلى التأليف والتصنيف.

الى كل فرد من أفرادها، واستطاع الإمام الحافظ بأخلاقه الكريمة وسماحة نفسه أن تقتدي به أسرته، وتسير على منواله، فابته القاسم كان حافظاً من حفاظ الحديث، أتم عمل أبيه ونقحه وقراه عليه، وزوجة الإمام وأم أبنائه «عائشة بنت علي بن الخضر» كان لها شغف بالحديث، فكان الزوج الكريم يحضر لها محدثات يسمعنها الحديث، ثم يسمع منها أبنائها ويتلقون عنها كما يتلقون عن أبيهم، وشاء الله أن تتوفى هذه السيدة الكريمة قبل زوجها في سنة (٥٦٤هـ / ١١٦٨م) فتركت في نفسه أسى وحسرة.

وظل الإمام محل تقدير الناس والولاة، فكان يحضر مجالسه نور الدين محمود سلطان دمشق الذي قرّبه وبني له «دار السنة» وكان صلاح الدين الأيوبي يجله ويحضر مجالس تدريسه، ومكث الإمام ابن عساكر يؤدي رسالته حتى لُتي نداء ربه في (١١ من رجب ٥٧١هـ / ٢٦ من يناير ١١٧٦م) ■

- الأربعون البلدانية، وقد طبع بتحقيق محمد مطيع الحافظ في دمشق.

- الأربعون في مناقب أمهات المؤمنين، وقد طبع محققاً بعناية محمد مطيع الحافظ في دمشق.

- الإشراف على معرفة الأطراف، والكتاب لا يزال مخطوطاً.

- ترتيب الصحابة في مسند أحمد، والكتاب مخطوط لم يطبع بعد.

وله عدة مجالس مخطوطة في ثم من لا يعمل بعلمه، وفي التوبة، وذم قرناء السوء، وفي سعة رحمة الله، وفي فضل سعد بن أبي وقاص، وفضل عبد الله بن مسعود، وقد طبع مجلسان من هذه المجالس بتحقيق محمد مطيع الحافظ. وهذه المجالس أشبه بالرسائل الصغيرة.

أسرة ابن عساكر :

كان بيت الحافظ ابن عساكر معموراً بالعلم، فامتد

الى بلاد الشام، وما وقع من حروب بين المسلمين والصليبيين الى ما بعد استيلاء المسلمين على بيت المقدس سنة ١١٨٧م إذ أنه مات في السنة التالية ٥٨٤هـ / ١١٨٨م، بعد أن بلغ من العمر ٩٦ سنة وترك مذكراته المعروفة بكتاب الاعتبار التي تمثل فيها سيداً من سادات العرب، لم يتأثر بالغزو التركي.

ويتضمن كتاب الاعتبار خلاصة تجارب اسامة وكل ما صادفه في حياته من أحداث دون أن يلتزم قاعدة معينة في الأسلوب أو الترتيب. ويعتبر قانون السيد الكامل، وعلى الرغم من انه ألفه أثناء شيخوخته، فانه ينبض بروح الشباب وفتوته.

ومنذ أن خرج من شيراز بعد الاضطرابات التي وقعت بين افراد أسرته، أخذ يطوف بارجاء الشرق الأدنى فلم يشهد فحسب القتال في شيراز وحماه، بل

أسامة بن منقذ مؤيد الدولة (٤٨٨هـ - ٥٨٤هـ)

أبو مظفر أسامة بن مرشد الكنانى الشيرازي: ينتمي الى اسرة عربية اصيلة، بني منقذ من كنانة، اقامت لنفسها امارة صغيرة شمال الشام، حول حصن شيرز، غربي حمّاه على نهر العاصي. ولد سنة ٤٨٨هـ / ١٠٩٥م، وتناول دراسته النحو والخط والشعر والقرآن. نشأ راوية كاتباً، واديباً شاعراً، ومن الواضح انه شهد قدوم الحملة الصليبية الاولى

حية للمجتمع الاسلامي الذي عاش فيه، ووصفا لحياة الصليبيين في الشرق الادنى، ودراسة ما كان منهم من الاختلاف بين المستوطنين منهم الذين عاشوا المسلمين، وبين من كان منهم قريب العهد بالبلاد الافرنجية، يضاف الى ذلك ما اورده من عادات وتقاليده ونظم قضائية واجتماعية وعسكرية اختص بها الافرنج، ومقارنة كل ذلك بما هو معروف عند المسلمين، ولذا كان لهذا الكتاب اهمية بالغة القيمة في تطور العلاقات بين المسلمين والافرنج لفترة تقرب من مائة عام ■

مارسه في فلسطين ومصر والشام والجزيرة، واتصل بامراء وملوك هذه الجهات، امثال عماد الدين زنكي، ونور الدين محمود، وصلاح الدين والخلفاء الفاطميين، وهذه الحياة المضطربة التي جرت في وقت سادت فيه المنازعات السياسية، وما هيأته من اثارة الفتن والمؤامرات، وما كان يربط اسامة من علاقات الصداقة بالفرنج، فضلا عن خلاله وصفاته الشخصية من الاخذ بمبادئ القروسية والشهامة، والصيد، والمغامرة، والزعامة الادبية وانتقان الفن القصصي، كل ذلك جعل من كتابه صورة متجددة

الدفعة (٥٧٩هـ / ١١٨٤م) مني امره، لم اعرفه إلا بعد خدمتي معه. وبذل في خدمة صلاح الدين (٥٨٤هـ / ١١٨٨م) ومنذ ذلك لم يفارق ابن شداد، صلاح الدين ساعة من ليل أو نهار، حتى حضرت وفاته سنة ١١٩٣م.

وبذل ابن شداد محاولات عديدة للتوفيق بين الامراء الايوبيين في مصر والشام. وتولى القضاء في حلب، ولما حدث في حلب من اضطراب الأمور عمل ابن شداد على أن يلزم داره، وأن يسمع الحديث لمن يقصد من المريدين، ونشطت في زمنه حركة العلم بفضل ما أنشأ من مدارس، وبفضل مركزه الديني والسياسي، ومات سنة ٦٣٢هـ بحلب. وعلى الرغم من مشاركة ابن شداد فيما وقع من احداث، وملازمة صلاح الدين واولاده، واتصاله بالعلماء والفقهاء، وقيامه بالسفارات بين الامراء وتوليته مناصب رئيسية في الدولة - وكل هذا يؤلف مادة تاريخية وخبرة - فإنه لم يؤلف في التاريخ الا كتاب النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، الذي يعتبر ترجمة لصلاح الدين، التزم فيه الاسلوب السهل والعبارة المحددة، ولم يلجأ الى التعقيد والاسترسال مثلما فعل العماد الاصفهاني. اعتمد

ابن شداد : بهاء الدين ابو المحاسن يوسف بن رافع

مؤرخ التراجم

٥٣٩هـ - ٦٣٢هـ

من مؤرخي التراجم، ولد بالموصل سنة ٥٣٩هـ / ١١٤٥م، وتعلم بها وبغداد، وتولى التدريس في الموصل سنة ٥٦٩هـ / ١١٧٤م، اشتهر برجاحة العقل وسداد الحكم، مما دفع باتاك الموصل بالعهد اليه بالسفارة في امور سياسية بالغة الخطورة والاهمية، لما وقع من نزاع حاد بين صلاح الدين وامير الموصل، اثناء قيام صلاح الدين بتوحيد الجبهة الاسلامية، ادى الى التهديد بالاستيلاء على الموصل، فكان لزاما على امير الموصل التماس الوسطاء لتسوية هذا النزاع، وكان ابن شداد من بين هؤلاء الوسطاء، فعرف صلاح الدين عن كثر، ويشير ابن شداد الى أن ثبت في نفس صلاح الدين، في تلك

بفضل مكانته باعتباره صديقاً لصلاح الدين وملازماً له في كل تحركاته حتى يوم وفاته، أوقفنا على ما اشتهر به من بصيرة نافذة في ادراك الصوافر، التي اثارت صلاح الدين في كثير من القرارات الخطيرة. على أن ما أورده ابن شداد من أخبار عن الفترة الواقعة بين ١١٦٩، ١١٨٨م يعتبر فيها مصدراً ثانوياً، ولم يكن ينجو من الخطأ في تفاصيل الحقيقة والتاريخ ■

ابن شداد فيما أورده عن الاحداث السابقة على دخوله في خدمة صلاح الدين، على ما توافر لديه بعد ٥٨٤هـ / ١١٨٨م من اخبار ومؤلفات تاريخية. اما القسم الثاني الذي يعتبر اعظم شأننا من الناحية التاريخية، فيتضمن مشاهدات المؤلف ومعاصريه الذين اتصل بهم عقب وقوع الحوادث. ولم يكتف ابن شداد في الفترة الواقعة بين ١١٨٨، ١١٩٣م بأن يعرض سجلاً أميناً لما شهدته من أحداث، بل انه

ثم عاد الى الموصل ولزم بيته منقطعاً للتأليف والتصنيف.

ثقافته :

في رحلته الطويلة لطلب العلم وملاقاة الشيوخ، والأخذ منهم، درس ابن الأثير الحديث والفقه والأصول والفرائض والمنطق والقراءات لأن هذه العلوم كان يجيدها الأساتذة المبرزون ممن لقيهم ابن الأثير، غير أنه اختار فرعين من العلوم وتعمق في دراستهما هما: الحديث والتاريخ، حتى أصبح إماماً في حفظ الحديث ومعرفته وما يتعلق به، حافظاً للتواريخ المتقدمة والمتأخرة، خبيراً بآساب العرب وأيامهم وأخبارهم، عارفاً بالرجال وأنسابهم لا سيما الصحابة. وعن طريق هذين العلمين بنى ابن الأثير شهرته في عصره، وإن غلبت صفة المؤرخ عليه حتى كادت تحجب ما سواها.

مؤلفاته :

وقد توافرت لابن الأثير المادة التاريخية التي استعان بها في مصنفاته بفضل صلته الوثيقة بحكام الموصل، وأسفاره العديدة في طلب العلم، وقيامه

ابن الأثير .. صاحب «الكامل» في التاريخ (٥٥٥هـ - ٦٣٩هـ)

المولد والنشأة :

ولد على بن أبي الكرم محمد بن محمد المعروف بعز الدين بن الأثير في (٤ من جمادى الآخرة سنة ٥٥٥هـ / ١٣ من مايو ١١٦٠م) بجزيرة ابن عمر، وعني أبوه بتعليمه، فحفظ القرآن الكريم، وتعلم مبادئ القراءة والكتابة، ثم استكمل دراسته بالموصل بعد أن انتقلت إليها أسرته، وأقامت بها إقامة دائمة، فسمع الحديث من أبي الفضل عبد الله بن أحمد، وأبي الفرج يحيى الثقفي، وتردد على حلقات العلم التي كانت تُعقد في مساجد الموصل ومدارسها، وكان ينتهز فرصة خروجه إلى الحج، فيعرج على بغداد ليسمع من شيوخها الكبار، من أمثال أبي القاسم يعقوب بن صدقة الفقيه الشافعي، وأبي أحمد عبد الوهاب بن علي الصدي. ورحل إلى الشام وسمع من شيوخها،



غلاف كتاب الكامل
في التاريخ

الحلية في كل إقليم،
وأخبار الظواهر الجوية
والأرضية من غلاء
ورخص، وقحط وأوبئة
وزلازل.

ولم يكن ابن الأثير
في كتابه ناقل أخبار أو
مسجل أحداث فحسب،
وإنما كان محللاً ممتازاً
وناقداً بصيراً؛ حيث

حرص على تحليل بعض الظواهر التاريخية ونقد
أصحاب مصادره، وناقش كثيراً من أخبارهم...
وتجد لديه النقد السياسي والحربي والأخلاقي
والعلمي يأتي عفواً بين ثنايا الكتاب، وهو ما جعل
شخصيته التاريخية واضحة تماماً في كتابه على
الدوام.

وتعود أهمية الكتاب إلى أنه استكمل ما توقف
عنده تاريخ الطبري في سنة (٢٠٢هـ) وهي السنة
التي انتهى بها كتابه، فبعد الطبري لم يظهر كتاب
يغطي أخبار حقبة تمتد لأكثر من ثلاثة قرون، كما أن
الكتاب تضمن أخبار الحروب الصليبية مجموعة
متصلة منذ دخولهم في سنة (٤٩١هـ / ١٠٩٧م)
حتى سنة (٦٢٨هـ / ١٢٣٠م)، كما تضمن أخبار
الزحف التركي على المشرق الإسلامي منذ بدايته في
سنة (٦١٦هـ / ١٢١٩م). وقد كتب ابن الأثير تاريخه
بأسلوب نشري مرسل لا تكلف فيه، مبتعداً عن
الزخارف اللفظية والألفاظ الغريبة، معتنياً بإيراد
المادة الخبرية بعبارات موجزة واضحة.

أسد الغابة :

وموضوع هذا الكتاب هو الترجمة لصحابة

ببيض المهام السياسية الرسمية من قبل صاحب
الموصل، ومصاحبته صلاح الدين في غزواته - وهو
ما يسر له وصف المارك كما شاهدها - ومدارسته
الكتب وإفادته منها، ودأبه على القراءة والتحصيل،
ثم عكف على تلك المادة الهائلة التي جمعت لديه
يصيغها ويهذبها ويرتب أحداثها حتى انتظمت في
أربعة مؤلفات، جعلت منه أبرز المؤرخين المسلمين بعد
الطبري وهذه المؤلفات هي:

- الكامل في التاريخ، وهو في التاريخ العام.
- والتاريخ الباهر في الدولة الأتابكية، وهو في
تاريخ الدول، ويقصد بالدولة الأتابكية الدولة التي
أسسها عماد الدين زنكي في الموصل سنة (٥٢١هـ /
١١٢٧م) وهي الدولة التي عاش في كنفها ابن
الأثير.

- وأسد الغابة في معرفة الصحابة، وهو في
تراجم الصحابة.

- واللباب في تهذيب الأنساب، وهو في الأنساب.
وبذلك يكون ابن الأثير قد كتب في أربعة أنواع
من الكتابة التاريخية، وستعرض لاثنتين منهما
بإيجاز واختصار.

- الكامل في التاريخ :

وهو تاريخ عام في ١٢ مجلداً، منذ الخليقة
وابتداء أول الزمان حتى عصره، حيث انتهى عند
آخر سنة (٦٢٨هـ) أي إنه يعالج تاريخ العالم القديم
حتى ظهور الإسلام، وتاريخ العالم الإسلامي منذ
ظهور الإسلام حتى عصره، والترم في كتابه بالمنهج
الحولي في تسجيل الأحداث، فهو يسجل أحداث كل
سنة على حدة، وأقسام توازناً بين أخبار المشرق
 والمغرب وما بينهما على مدى سبعة قرون وربع قرن،
وهو ما أعطى كتابه طابع التاريخ العام أكثر من أي
تاريخ عام لغيره، وفي الوقت نفسه لم يهمل الحوادث

يشرع في نكر اسمه ونسبه وهجرته إن كان من المهاجرين، والمشاهد التي شهدها مع الرسول (صلى الله عليه وسلم) إن وجدت، ويذكر تاريخ وفاته وموضعها إن كان ذلك معلوما، وقد طبع الكتاب أكثر من مرة.

وفاته :

ظل ابن الأثير بعد رحلاته مقيما بالموصل، منصرفا إلى التأليف، عازفا عن المناصب الحكومية، متمتعا بثروته التي جعلته يحيا حياة كريمة، جاعلا من داره ملتقى للطلاب والزائرين حتى توفي في (شعبان ٦٢٩هـ / ١٢٣٢م) ■

الرسول (صلى الله عليه وسلم) الذين حملوا مشعل الدعوة، وساحوا في البلاد، وقتلوا بسلوكهم الدول والممالك. وقد رجع ابن الأثير في هذا الكتاب إلى مؤلفات كثيرة، اعتمد منها أربعة كانت عمدا بالنسبة له، هي: «معرفة الصحابة» لأبي نعيم، و«الاستيعاب في معرفة الأصحاب» لابن الأثير، و«معرفة الأصحاب» لابن منده، و«الذيل على معرفة الأصحاب» لابن منده.

وقد اشتمل الكتاب على ترجمة (٧٥٥٤) صحابيا وصحابية تقريبا، يتصدره توطنه لتحديد مفهوم الصحابي؛ حتى يكون القارئ على بينة من أمره، والتزم في إيراد أصحاب الترتيب الألفبائي، وابتدىء ترجمته للصحابي بذكر المصادر التي اعتمد عليها، ثم

على أن يفرد «ذكر دولتي نور الدين وصلاح الدين، بتصنيف يتضمن التقريظ لهما، فلعله يقف عليه من الملوك من يسلك في ولايته ذلك المسلك».

وقد تناول المؤرخ في كتابه «الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية» الفترة التي تستغرق حكم إبطال الوحدة الإسلامية، عماد الدين زنكي، نور الدين محمود، صلاح الدين، وتحدث المؤلف عن تنقلات الجيوش ووصف الأسلحة، والعدالة بين الناس والمدارس. فضلا عن القرارات والمنشورات والرسائل التي يعزز بها كتاباته. وجرى الكتاب على نظام الحوليات في الفترة الممتدة من سنة ٥٤٢هـ حتى سنة ٥٨٩هـ أي مدة حكم نور الدين وصلاح الدين.

ويتعتبر الكتاب سجلا حافلا لتاريخ الدولتين من الجانب الحكومي، حربا وسياسة وإدارة، فضلا عن الجانب الشعبي، الذي يتمثل في تأييد العلماء ورجال الأدب والشعب ■

أبو شامة : شهاب الدين عبد الرحمن بن اسماعيل المقدسي تاريخ الدولتين (٥٩٩هـ - ٦٦٥هـ)

ولد بدمشق ٥٩٩هـ / ١٢٠٢م، ونشأ وتربى فيها، ولم يبرحها إلا للحج وزيارة بيت المقدس والاستماع إلى علماء مصر في دمايط والقاهرة والاسكندرية، وبعد أن فرغ من دراسته الدينية التي شملت القرآن والفقه والحديث والعربية، انصرف إلى دراسة التاريخ.

وإذ عاش المؤرخ في الفترة التي تلت وفاة صلاح الدين، التي سادت فيها الاضطرابات والفتن التي كادت تقضى على الوحدة الإسلامية، عزم أبو شامة

وبفضل ما احتفظ به من ذكريات، وشارك فيه من اعمال، وما توافر في محفوظات الحكومة من سجلات ووثائق، ألف ثلاثة كتب عن السلاطين، بيبرس، والمنصور قلاوون، و خليل بن قلاوون، ومع أن لهذه الكتب من القيمة التاريخية ما لا يخفى، فإنه لم يبق منها الا شذرات، وما ورد في كتب المؤرخين المتأخرين من اقتباسات منها .

ولعل اهم مؤلفاته «سيرة الظاهر بيبرس المعروف بالروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر» . ويتناول خمس السنوات الاولى من عهد السلطان بيبرس، فأشار الى بلاء بيبرس في قتال الصليبيين، في حملة لويس التاسع ٦٤٧هـ، وإلى موقف توران شاه من المماليك الصالحية، ومصرع توران شاه، وإلى جهود بيبرس حتى ارتقاه دست السلطنة .

وأورد ما كان لبيبرس ما يؤهله للسلطنة، وما بذله من جهود في انشاء العناصر المدنية والعسكرية، وانتقال الخلافة العباسية الى مصر، وهو في كل ذلك يورد الوثائق الرسمية من خطب ومراسلات ثم شرح حرب بيبرس على الصليبيين بالشام، وما كان من العلاقات بين مصر والدول الاسلامية، كدولة الروم السلاجقة واليمن، وبين مصر والتتار في الشرق والشمال، ووصف حملات السلطان لتأديب العربان، ورحلاته للصيد ■

مؤرخ اندلسي الاصل، من اهل مراكش، لم ترد له ترجمة في المراجع المتداولة، وكل ما هو معروف عن ترجمته انه كان يعيش أواخر القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادي، وهو القرن الذي اختتم به كتابه (البيان المغرب في اخبار المغرب)، كما له مؤلف آخر عنوانه (تاريخ المشرق) اشار اليه في كتاب البيان المغرب .

ويقع كتاب البيان المغرب في ثلاثة اجزاء، وصل في الثالث منه الى سنة ٦٦٧هـ، شرح في الجزء الأول، ما كان من فتح العرب لافريقية والمغرب، ومن

ابن عبد الظاهر : عبد الله بن عبد الظاهر بن نشوان الجذامي الشعدي محيي الدين .. وسيرة الظاهر بيبرس

(٦٢٠هـ - ٦٩٢هـ)

ولد بالقاهرة سنة ٦٢٠هـ / ١٢٢٢م . وعلى الرغم من انه لم يتوافر في المصادر ما يوقفنا على ترجمة وافية له، فالمعروف انه كان من أجل الكتاب في عصره، وانه خدم السلاطين الثلاثة الاوائل في الدولة المملوكية بمصر، بيبرس والمنصور قلاوون، و خليل بن قلاوون، بأن تولى لهم وظيفة الكتابة . وصارت له رئاسة ديوان الانشاء حتى توفي ٦٩٢هـ / ١٢٩٢م . وهو الذي سطر عدداً كبيراً من الوثائق الرسمية الهامة، وقام بكتابة اهم ما جرى من اتفاقات وعهود سياسية وديبلوماسية بين مصر من جهة، وبين الصليبيين والمغول من جهة اخرى، في القرن الثالث عشر الميلادي .

ابن عذاري : ابو عبدالله محمد المراكشي .. وكتابه البيان المغرب

(٦٩٥هـ)

عبد الرحمن بن معاوية بالاندلس، وينتهي عند سنة ٣٨٧هـ، واشتهر ابن عذاري بدأبه على التصنيف، وعلى الرغم من انه يقتصر الى ما يشتهر به المؤرخ من الحكم السليم والحاسة التاريخية، فإن ما زخر به كتابه من اقتباسات قيمة، استمدها من مصادر لم تصل إلينا، يجعل لهذا المؤلف أهمية تاريخية كبيرة ■

١٢٩٨م.

ويعتبر كتابه «مفرج الكروب في أخبار بني أيوب» من أهم المصادر التاريخية في هذه المرحلة الحاسمة، في العلاقات بين الشرق والغرب.

وتناول في الجزء الأول دراسة الزنكيين، وأفراد الجزء الثاني لصلاح الدين، واختص خلفاء صلاح الدين بالجزء الثالث. وعلى الرغم من اعتماد ابن وأصل على روايات المؤرخين السابقين، وانتهج طريقهم في التأليف، بالتزام نظام الحوليات، فإن ما أورده من رسائل ووثائق، ووصف ما كانت عليه أحوال الفرنج، وأحوال العالم العربي والإسلامي في زمنه، يعطي صورة واضحة لدارس التاريخ في هذه الفترة. يضاف إلى ذلك أن ما أشار إليه من تقسيم دولة صلاح الدين، وما تعرضت له وحدة العالم الإسلامي من التداعي، وما كان للصليبيين من أغراض تجارية، كل ذلك يجعل لهذا الكتاب أهمية بالغة في دراسة العلاقات بين الشرق والغرب، والتعرف إلى الدبلوماسية بين السلاطين والباطرة

وليها من الأمراء، وقيام دولة الأغالبة، وظهور الفاطميين، وقيام الدولة الصنهاجية بأفريقية، والعداء بين الخلفاء الفاطميين والصنهاجيين، وزوال حكم الفاطميين بشمال أفريقية، والأمراء الذين حكموا تونس.

وفي الجزء الثاني، يشير إلى دخول المسلمين إلى الأندلس وانتزاعها من أيدي الكفار، ويصف الفتوح الإسلامية في الأندلس، وعهد الولاية ثم يذكر استقلال

ابن وأصل : جمال الدين أبو عبد الله محمد بن سالم وعلاقة الشرق بالمغرب (٦٠٤هـ - ٦٩٧هـ)

كان مولده بحماه سنة ٦٠٤هـ / ١٢٠٧م، برع في علوم كثيرة مثل المنطق والهندسة وأصول الدين والفقه والهيئة والتاريخ. كان أول الأمر مدرسا بحماه، ثم استدعاه السلطان بيبرس، فأنفذه في سفارة إلى صقلية، إلى الملك مانفرد، فمكث بها زمنا غير قصير، ومن نتائج هذه السفارة العلمية الموجز الذي ألفه في المنطق، المعروف باسم الاتبرورية، أو نخبه الفكر في المنطق، وأورد أبو الفدا وصفا متمتا لرحلته في إيطاليا عند الحديث عنه في أحداث ٦٩٧هـ. ولما عاذ عين قاضيا للقضاة ثم مدرسا بحماه، حيث مات سنة ٦٩٧هـ /

أبو الفدا : إسماعيل بن علي بن شاهنشاه بن أيوب عماد الدين الأيوبي الجغرافي المؤرخ (٦٧٢هـ - ٧٣٢هـ)

١٣١٠م، فصار يفعل فيها ما يشاء، ليس لأحد من الدولة في مصر معه حكم، ولما كان له علاقة ودية مع الدولة المملوكية لقي التيجيل والاحترام من السلطان المملوكي محمد بن قلاوون، واشتهر بالملك المؤيد، ومات بحماه في محرم سنة ٧٣٢هـ / ١٣٣١م.

وعلى الرغم من اهتمامه بتشجيع العمائر في حماه، ومشاركته في دراسة الفقه والطب والحكمة وعلم الهيئة، فإن شهرته استندت أساساً إلى نشاطه الأدبي، وأشهر ما كتبه المختصر في أخبار البشر، وكتاب تقويم البلدان.

ويشير أبو الفدا في مقدمة كتابه إلى المصادر التي استقى منها رواياته، وصرح أبو الفدا أنه جرى على نهج ابن الأثير في الكتابة بأن رتبته على السنين، وانتهى فيه إلى سنة ٧٤٨هـ / ١٣٤٩م وتناول في المقدمة تحديد تقاويم اليهود والمسيحيين، ومعرفة نسخ التوراة السامرية والعبرانية واليونانية، يضاف إلى ذلك ما أورده من جداول لتحديد العلاقة بين التواريخ ■

من الأمراء والمؤرخين والجغرافيين، ولد بدمشق في جمادى الأولى سنة ٦٧٢هـ / نوفمبر ١٢٧٣م، بعد أن انتقلت إليها أسرته، وكان عمه الملك المنصور من البيت الأيوبي، يحكم حماه وقتذاك فدخل في خدمته، واشترك فيما نشب من حروب ضد الصليبيين. ثم تولى إمارة حماه سنة ٧١٠هـ /

ابن خلدون .. مؤسس علم الاجتماع (٧٣٢هـ - ٨٠٨هـ)

نشأة «ابن خلدون» :

بتونس في غرة رمضان ٧٣٢هـ / ٢٧ من مايو ١٣٣٢م، ونشأ في بيت علم ومجد عريق، فحفظ القرآن في وقت مبكر من طفولته، وقد كان أبوه هو معلمه الأول، كما درس على مشاهير علماء عصره، من علماء الأندلس الذين رحلوا إلى تونس بعدما أُلِمَ بها من الحوادث، فدرس القراءات وعلوم التفسير والحديث والفقه المالكي، والأصول والتوحيد، كما درس علوم اللغة من نحو وصرف وبلاغة وأدب، ودرس كذلك علوم المنطق والفلسفة والطبيعية والرياضيات، وكان في جميع تلك العلوم مثار إعجاب أساتذته وشيوخه.

ولد «ولي الدين أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن محمد بن الحسن بن جابر بن محمد بن إبراهيم بن عبيد الرحمن بن خالد (خلدون) الحضرمي»

وباء الطاعون يعصف بشيوخ «ابن خلدون» :

وعندما حدث وباء الطاعون الذي انتشر عام (٧٤٩هـ / ١٣٤٨م) وعصف بمعظم أنحاء العالم شرقاً وغرباً، كان لهذا الحادث أثر كبير في حياة «ابن خلدون»، فقد قضى على أبويه كما قضى على كثير من شيوخه الذين كان يتلقى عنهم العلم في «تونس»، أما من نجا منهم فقد هاجر إلى المغرب الأقصى سنة (٧٥٠هـ / ١٣٤٩م) فلم يعد هناك أحد يتلقى عنه العلم أو يتابع معه دراسته.

فاتجه إلى الوظائف العامة، وبدأ يسلك الطريق الذي سلكه أجداده من قبل، والتحق بوظيفة كتابية في بلاط بني مرين، ولكنها لم تكن لترضي طموحه، وعينه السلطان «أبو عنان» - ملك المغرب الأقصى - عضواً في مجلسه العلمي بفاس، فأتى به أن يعاود الدرس على أعلامها من العلماء والأدباء الذين نزحوا إليها من «تونس» و«الأندلس» و«بلاد المغرب».

طموح ابن خلدون :

ولاه السلطان «أبو سالم» خطة المظالم، فأظهر فيها من العدل والكفاية ما جعل شأنه يعظم حتى نفس عليه كثير من أقرانه ومعاصريه ما بلغه من شهرة ومكانة، وسعوا بالوشاية بينه وبين السلطان حتى تغير عليه... فلما ثار رجال الدولة على السلطان أبي سالم وخلعوه، وولوا مكانه أخاه «تاشفين» بادر «ابن خلدون» إلى الانضمام إليه، فأقره على وظائفه وزاد له في رواتبه... ولكن طموح «ابن خلدون» كان أقوى من تلك الوظائف، فقرر السفر إلى «غرناطة» بالأندلس في أوائل سنة (٧٦٤هـ / ١٣٦٢م).

ابن خلدون في غرناطة :

وفي غرناطة لقي ابن خلدون قدراً كبيراً من

الحفاوة والتكريم من السلطان محمد بن يوسف بن الأحمر - سلطان غرناطة - ووزيره لسان الدين بن الخطيب الذي كانت تربطه به صداقة قديمة، وكلفه السلطان بالسفارة بينه وبين ملك قشتالة بطرُه بن الهنشة بن أذقونش لعقد الصلح بينهما، وقد أدى ابن خلدون مهمته بنجاح كبير، فكافأه السلطان على حسن سفارته بإقطاعه أرضاً كبيرة، ومنحه كثيراً من الأموال، فصار في رغد من العيش في كنف سلطان غرناطة.

ولكن لم تدم سعادة ابن خلدون طويلاً بهذا النعيم، إذ لاحقته وشايات الحاسدين والأعداء، حتى أفسدوا ما بينه وبين الوزير ابن الخطيب الذي سعى به بدوره لدى السلطان، وعندئذ أدرك ابن خلدون أنه لم يعد له مقام بغرناطة بل و«الأندلس» كلها.

وفي تلك الأثناء أرسل إليه أبو عبدالله محمد الحفصي - أمير «بجاية» الذي استطاع أن يسترد عرشه - يدعوه إلى القدوم إليه، ويعرض عليه أن يوليه الحجابة وفاء لعهد القديم له، فخادر ابن خلدون الأندلس إلى بجاية فوصلها في منتصف عام (٧٦٦هـ / ١٣٦٥م)، فاستقبله أميرها، وأهلها استقبالا حافلا في موكب رسمي شارك فيه السلطان وكبار رجال دولته، وحشود من الجماهير من أهل البلاد.

الفرار من جديد :

وظل ابن خلدون في رغبة من العيش وسعة من الرزق والسلطان حتى اجتاحت أبو العباس أحمد - صاحب قسطنطينة - مملكة ابن عمه الأمير أبي عبد الله وقتله واستولى على البلاد، فأقر ابن خلدون في منصب الحجابة حيناً، ثم لم يلبث أن عزله منها.

فعرض عليه الأمير أبو حمؤ - سلطان تلمسان - أن



فعاد الى مسقط
رأسه، وظل
عاكفا على
البحث والدراسة
حتى أتم تنقيح
كتابه وتهذيبه،
وخشي ابن
خلدون أن يزج به
السلطان الى

ميدان السياسة الذي سئم وقرر الابتعاد عنه، فعزم
على مغادرة تونس، ووجد في رحلة الحج ذريعة
مناسبة يتوسل بها الى السلطان ليخلي سبيله،
ويأذن له في الرحيل.

وصل ابن خلدون الى الاسكندرية في
(غرة شوال ٧٨٤هـ / ٨ من ديسمبر ١٣٨٢م)
فأقام بها شهراً ليستعد لرحلة السفر إلى
مكة المكرمة، ثم قصد - بعد ذلك - إلى
القاهرة، فأخذت تلك المدينة الساحرة بكل ما فيها
من مظاهر الحضارة والعمران، وقد وصف ابن
خلدون وقعها في نفسه وصفاً رائعاً، فقال: «فرايت
حضرة الدنيا، وبستان العالم، ومحشر الأمم،
وكرسي الملك، تلوح القصور والأواوين في جوه،
وتزهر الخوانك والمدارس بأناقته، وتضيء البدور
والكواكب من علمائه، وقد مثل بشاطيء بحر النيل
نهر الجنة، ومدفع مياه السماء، يسقيهم النهل والعلل
سيحه، ويجبي إليهم الثمرات والخيرات ثجة، ومررت
في سكك المدينة تغص بزحام المارة، وأسواقها تزخر
بالنعم».

يوليه الحجابة على أن يساعده في الاستيلاء على
بجاية بتأليب القبائل واستمالتها إليه؛ لما يعلمه من
نفوذه وتأثيره، ولكن ابن خلدون اعتذر عن قبول
الوظيفة، وعرض أن يرسل أخاه يحيى بدلا منه، إلا
أنه استجاب الى ما طلبه منه من حشد القبائل
واستمالتها إليه... ولكن الأمور انتهت بهزيمة «أبي
حمو» وفراره، وعاد ابن خلدون الى الفرار من جديد
بعد أن صار مطارداً من كل حلفائه.

مولد «المقدمة» في «قلعة ابن سلامة» :

ترك ابن خلدون أسرته بفاس ورحل الى الأندلس
من جديد، فنزل في ضيافة سلطانها «ابن الأحمر»
حيناً، ثم عاد إلى المغرب مرة أخرى، وقد عقد العزم
على أن يترك شئون السياسة، ويتفرغ للقراءة
والتصنيف.

واتجه ابن خلدون بأسرته الى أصدقائه من بني
عريف، فأنزلوه بأحد قصورهم في قلعة ابن سلامة -
بمقاطعة - وهران بالجزائر - وقضى ابن خلدون مع
أهله في ذلك المكان القصي النائي نحو أربعة أعوام،
نعم خلالها بالهدوء والاستقرار، وتمكن من تصنيف
كتابه المعروف «كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر في
أيام العرب والعجم والبربر، ومن عاصرهم من ذوي
السلطان الأكبر» والذي صدره بمقدمته الشهيرة
التي تناولت شئون الاجتماع الإنساني وقوانينه، وقد
فرغ ابن خلدون من تأليفه وهو في نحو الخامسة
والأربعين بعد أن نضجت خبراته، واتسعت معارفه
ومشاهداته.

ابن خلدون في مصر :

وأراد ابن خلدون العودة الى تونس فكتب إلى
أبي حمو يستأذنه ويرجو صفحه، فآذن له السلطان،

حفاوة المصريين بابن خلدون :

ولقد لقي ابن خلدون الحفاوة والتكريم من أهل القاهرة وعلمائها، والتف حوله طلاب العلم ينهلون من علمه، فاتخذ ابن خلدون من الأزهر مدرسة يلتقي فيها بتلاميذه ومريديه، وقد تلقى عنه عدد كبير من الأعلام والعلماء، منهم «تقي الدين المقرئزي»، و«ابن حجر العسقلاني».

ولقي ابن خلدون تقدير واحترام الظاهر برقوق - سلطان مصر - الذي عينه لتدريس الفقه المالكي بمدرسة القمصية، كما ولاه منصب قاضي قضاة المالكية، وخلع عليه ولقبه «ولي الدين» فلم يذخر ابن خلدون وسعاً في إصلاح ما لحق بالقضاء - في ذلك العهد - من فساد واضطراب، وقد أبدى صرامة وعدلاً شهد له بهما كثير من المؤرخين، وكان حريصاً على المساواة، متوخياً للدقة، عازفاً عن المحاباة.

وقد جلب له ذلك عداة الكثيرين فضلاً عن حساده الذين أثارته حظوته ومكانته لدى السلطان، وإقبال طلاب العلم عليه، ولم يبد ابن خلدون مقاومة لسعي الساعين ضده، فقد زهدت نفسه في المناصب خاصة بعد أن فقد زوجته، وأولاده وأمواله حينما غرقت بهم السفينة التي أقلتهم من تونس إلى مصر بالقرب من الاسكندرية، وقبل أن يصلوا إليها بمسافة قصيرة.

ملاحقة الوشاة لابن خلدون :

وترك ابن خلدون منصبه القضائي سنة (٧٨٧هـ/ ١٢٨٥م) بعد عام واحد من ولايته له، وما لبث السلطان أن عينه أستاذاً للفقه المالكي بالمدرسة «الظاهرية البرقوقية» بعد افتتاحها سنة (٧٨٨هـ/ ١٢٨٦م) - ولكن وشايات الوشاة ومكائدهم لاحقته حتى عزله السلطان، واستأن ابن خلدون في السفر إلى فلسطين

لزيارة بيت المقدس، وقد سجل ابن خلدون رحلته هذه ووصفها وصفاً دقيقاً في كتابه التعريف.

ابن خلدون يقابل تيمورلنك :

وحينما جاءت الأنباء بانقضاض جيوش تيمورلنك على الشام واستيلائه على «حلب»، وما صاحب ذلك من ترويع وقتل وتخريب، خرج الناصر فرج في جيوشه للتصدي له، وأخذ معه ابن خلدون فيمن أخذهم من القضاة والفقهاء.

ودارت مناوشات وقتال بين الفريقين، ثم بدأت مفاوضات للصلح، ولكن حدث خلاف بين أمراء «الناصر فرج»، وعلم السلطان أنهم دبوا مؤامرة لخلعه، فترك دمشق ورجع إلى القاهرة، وذهب ابن خلدون لمقابلة «تيمورلنك» يحمل إليه الهدايا، ويطلب منه الأمان للقضاة والفقهاء على بيوتهم وحرهم.

العودة إلى القضاء :

وعندما عاد «ابن خلدون» إلى «مصر» سعى لاسترداد منصب قاضي القضاة، حتى نجح في مسعاه، ثم عزل منه بعد عام في (رجب ٨٠٤هـ/ فبراير ١٤٠٢م)، ولكنه عاد ليتولا مرة أخرى في (ذي الحجة ٨٠٤هـ/ يناير ١٤٠٢م) انتهت بوفاته في (٢٦ من رمضان ٨٠٨هـ/ ١٦ من مارس ١٤٠٥م) عن عمر بلغ ستة وسبعين عاماً.

ابن خلدون * مؤسس علم الاجتماع :

يعد ابن خلدون «لنشي» الأول لعلم الاجتماع، وتشهد مقدمته الشهيرة بريادته لهذا العلم، فقد عالج فيها ما يطلق عليه الآن «المظاهر الاجتماعية» - أو ما أطلق عليه هو «واقعات العمران البشري»، أو «أحوال

عليه أنه نقل روايات ضعيفة ليس لها سند موثوق به.

ابن خلدون رائد فن الترجمة الذاتية:

كذلك فإن ابن خلدون يعد رائداً لفن الترجمة الذاتية - الأوتوبيوغرافيا - ويعد كتابه «التعريف بابن خلدون ورحلته غرباً وشرقاً» - من المصادر الأولى لهذا الفن، وبرغم أنه قد سبقته عدة محاولات لفن الترجمة الذاتية مثل ابن حجر العسقلاني في كتابه «رفع الإصر عن قضاة مصر» ولسان الدين بن الخطيب في كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة» وياقوت في كتابه «معجم الأدباء» فإنه تميز بأنه أول من كتب عن نفسه ترجمة مستفيضة فيها كثير من تفاصيل حياته وطفولته وشبابه إلى ما قبل وفاته.

ابن خلدون شاعراً:

نظم ابن خلدون الشعر في صباه وشبابه وظل ينظمه حتى جاوز الخمسين من عمره، فتفرغ للعلم والتصنيف، ولم ينظم الشعر بعد ذلك إلا نادراً. ويتفاوت شعر ابن خلدون في الجودة، فمنه ما يتميز بالذوية والجودة وبقية الألفاظ وسمو المعاني، مما يضعه في مصاف كبار الشعراء، وهو القليل من شعره، ومنه ما يعد من قبيل النظم المجرد من روح الشعر، ومنه ما يعد وسطاً بين كلا المذهبين، وهو الغالب على شعره.

ويعد، فلقد كان ابن خلدون مثالا للعالم المجتهد والباحث المتقن، والرائد المجدد في العديد من العلوم والفنون، وترك بصمات واضحة لا على حضارة وتاريخ الإسلام فحسب، وإنما على الحضارة الإنسانية عامة، وما تزال مصنفاته وأفكاره نبزاً للباحثين والدارسين على مدى الأيام والعصور ■

الاجتماع الإنساني».. وقد اعتمد ابن خلدون في بحوثه على ملاحظة ظواهر الاجتماع في الشعوب التي أتبع له الاحتكاك بها، والحياة بين أهلها، وتعقب تلك الظواهر في تاريخ هذه الشعوب نفسها في العصور السابقة.

وقد كان ابن خلدون - في بحوث مقدمته - سابقاً لعصره، وتأثر به عدد كبير من علماء الاجتماع الذين جاءوا من بعده مثل: الإيطالي (فيكو) والألماني (لينجن)، والفرنسي (فوليتير)، كما تأثر به العلامة الفرنسي الشهير (جان جاك روسو) والعلامة الإنجليزي (مالتس) والعلامة الفرنسي (أوجيست كانت).

ابن خلدون وعلم التاريخ:

تبدو أصالة ابن خلدون وتجديده في علم التاريخ واضحة في كتابه الضخم «العبر وديوان المبتدأ والخبر» وتتجلى فيه منهجيته العلمية وعقليته الناقدة والواعية، حيث إنه يستقرئ الأحداث التاريخية، بطريقة عقلية علمية، فيحققها ويستبعد منها ما يتبين له اختلاقه أو تهافته.

أما التجديد الذي نهجه ابن خلدون فكان في تنظيم مؤلفه وفق منهج جديد يختلف كثيراً عن الكتابات التاريخية التي سبقته، فهو لم ينسج على منوالها مرتباً الأحداث والوقائع وفق السنين على تباعد الأقطار والبلدان، وإنما اتخذ نظاماً جديداً أكثر دقة، فقد قسم مصنفه إلى عدة كتب، وجعل كل كتاب في عدة فصول متصلة، وتناول تاريخ كل دولة على حدة بشكل متكامل، وهو يتميز عن بعض المؤرخين الذين سبقوه إلى هذا المنهج كالواقدي، والبلانري، وابن عبد الحكم، والمسعودي بالوضوح والدقة في الترتيب والتبويب، والبراعة في التنسيق والتنظيم والربط بين الأحداث، ولكن يؤخذ

الهجرة الى القاهرة :

عمل محرراً في صحيفة «الزمان» اليومية التي كان يملكها ويديرها رجل ارمني الأصل يدعى «علكسان صرافيان» . وكانت صحيفة الزمان الجريدة اليومية الوحيدة في القاهرة بعد أن عطل الاحتلال الإنجليزي صحافة ذلك العهد، ويعد نحو عام عُيِّن مترجماً في مكتب المخابرات البريطانية بالقاهرة عام (١٣٠١هـ/١٨٨٤م)، ورافق الحملة الإنجليزية التي توجهت إلى السودان لإنقاذ القائد الإنجليزي «غوردون» من حصار المهدي وجيوشه، ودامت رحلته في السودان عشرة أشهر عاد بعدها إلى بيروت في سنة (١٣٠٢هـ/١٨٨٥م) .

العودة الى بيروت :

وفي بيروت انضم الى المجمع العلمي الشرقي الذي أنشئ في سنة (١٢٩٩هـ/١٨٨٢م) للبحث في العلوم والصناعات، والإفادة منها بما يعود على البلاد بالنفع والخير، وتعلم اللغتين العبرية والسريانية، وهو ما مكّنه من تأليف أول كتبه «فلسفة اللغة العربية» سنة (١٣٠٣هـ/١٨٨٦م) وهو يعد أول جهد واضح بذل في تطبيق مبادئ فقه اللغة المقارن على اللغة العربية، وإن كان غير عميق التناول، وهو ما جعله يعيد فيه النظر مرة أخرى، ويعود إليه منفحاً ومعدلاً في طبعة جديدة أصدرها بعد ذلك في سنة (١٣٢٢هـ/١٩٠٤م) بعنوان «تاريخ اللغة العربية»، ثم زار جورجى زيدان لندن، وتردد على مكتباتها ومتاحفها، ومجامعها العلمية، ثم عاد الى القاهرة.

الاستقرار في القاهرة :

استقر جورجى زيدان بالقاهرة، وتولى عقب عودته من لندن إدارة مجلة المقتطف، وظل بها عاماً ونصف

جورجي زيدان .. كفاح ونجاح (١٨٦١-١٩١٤م)

المولد والنشأة :

ولد جورجى زيدان في بيروت في (١٠ من جمادى الآخرة ١٢٧٨هـ / ١٤ من ديسمبر ١٨٦١م) لأسرة مسيحية فقيرة، كان عائلها رجلاً أميناً يملك مطعمًا صغيراً كان يتردد عليه طائفة من رجال الأدب واللغة، وطلاب الكلية الأمريكية، ولما بلغ الخامسة أرسله أبوه إلى مدرسة متواضعة ليتعلم القراءة والكتابة والحساب؛ حتى يستطيع مساعدته في إدارة المطعم وضبط حساباته، ثم التحق بمدرسة الشوام فتعلم بها الفرنسية، ثم تركها بعد فترة والتحق بمدرسة مسائية تعلم فيها الإنجليزية . . ولم ينتظم جورجى في المدارس، فتركها وعمل في مطعم وألده، غير أن والدته كرهت له العمل بالمطعم، فأتجه إلى تعلم صناعة الأحذية وهو في الثانية عشرة ومارسها عامين حتى أوشك على إتقانها لكنه تركها، لعدم ملامعتها لصحته . ولم تشغله هذه الأعمال عن القراءة والاطلاع؛ فقدكان يبدى منذ صغره ميلاً قوياً الى المعرفة، وشغفا بالأدب على وجه الخصوص، وتوثقت صلته بعدد كبير من المتخرجين في الكلية الأمريكية، ورجال الصحافة وأهل اللغة والأدب من أمثال يعقوب حروف، وفارس نمر، وسليم البستاني وغيرهم، وكان هؤلاء يدعونه الى المشاركة في احتفالات الكلية، فهفّت نفسه الى الالتحاق بها مهما كلفه الأمر، أو بذل من جهد ومشقة، فترك العمل نهائياً سنة (١٢٩٩هـ / ١٨٨١م) وانكب على التحصيل والمطالعة .



جورجي زيدان

عكف على تحريرها بنشاط لفت إليه الأنظار، وكان ينشر فيها كتبه على هيئة فصول متفرقة، وقد لقيت المجلة قبولا من الناس حتى لم يكدهم خمس سنوات حتى أصبحت من أوسع

المجلات انتشارا حتى تجاوزت قرنا من الزمان، وكان يكتب فيها عمالقة الفكر والأدب في مصر والعالم العربي، ورأس تحريرها على مدى حياتها المديدة كبار الكتاب والأدباء، من أمثال: الدكتور أحمد زكي، والدكتور حسين مؤنس، والدكتور على الراعي، والشاعر صالح جودت وغيرهم.

الروايات التاريخية :

اشتهر جورجي زيدان برواياته التاريخية الشهيرة التي بدأها برواية «الملوك الشاردي» التي صدرت في سنة (١٣٠٩هـ / ١٨٩١م)، ثم تابعت رواياته حتى بلغت اثنتين وعشرين رواية تاريخية، منها سبع عشرة رواية تعالج فترات من التاريخ الإسلامي، تمتد من الفتح الإسلامي إلى دولة المماليك، مثل: أرمانوسة المصرية، غادة كربلاء، فتح الأندلس، العباسية أخت الرشيد، الأمين والمأمون، شجرة الدر، استبداد المماليك.

وقد لقيت هذه الروايات رواجاً واسعاً وإقبالا هائلا، وترجمت إلى الفارسية والتركية، والأذربيجانية، وغيرها من اللغات، وتحتصر أهمية هذه الروايات في أنها قدمت التاريخ في صورة سهلة ومشوقة، وبلغت جذابة تحمل القراء على متابعة

العام، وقد قدم استقالته من المجلة سنة (١٣٠٦هـ / ١٨٨٨م) ليشتغل بتدريس اللغة العربية بالمدرسة «العبيدية الكبرى» لمدة عامين، ثم تركها ليشارك سنة (١٣٠٩هـ / ١٨٩١م) مع نجيب ميري في إنشاء مطبعة، ولم تستمر الشركة بينهما سوى عام، انقضت بعده واحتفظ جورجي زيدان بالمطبعة لنفسه، وأسماءها مطبعة الهلال، على حين قام نجيب ميري بإنشاء مطبعة مستقلة باسم مطبعة المعارف، ثم أصدر جورجي زيدان في سنة (١٣٠٤هـ / ١٨٩٢م) مجلة الهلال، وكان يقوم بتحريرها بنفسه، إلى أن كبر ولده «إميل» وصار مساعده في تحريرها.

نشاطه الفكري :

كان جورجي زيدان متمكنا من اللغتين الإنجليزية والفرنسية إلى جانب اللغة العربية، واسع الاطلاع بهما، وبخاصة فيما يتصل بالتاريخ والأدب العربيين، واتجهت مؤلفاته الأولى نحو هذا المضمار، وإن مالت نحو الدراسات التاريخية؛ فأصدر في سنة (١٣٠٧هـ / ١٨٨٩م) كتاب «تاريخ مصر الحديثة» في مجلدين، و«تاريخ الماسونية والتاريخ العام»، وهو موجز في تاريخ قارتي آسيا وأفريقيا، ثم توالى كتبه: تاريخ إنجلترا، تاريخ اليونان والرومان، جغرافية مصر وطبقات الأمم وغيرها، غير أن هذه الكتب لم تلفت إليه الأنظار، ولم تلق نجاحا يذكر، إلى أن أنشأ مجلة الهلال التي ارتبطت حياته بها ارتباطا وثيقا.

مجلة الهلال :

وقد صدر العدد الأول من المجلة في (ربيع أول ١٣١٠هـ / ١٨٩٢م) يحمل افتتاحية بقلم جورجي زيدان أوضح فيها خطته، وغايته من إصدارها، وقد

تاريخهم دون مشقة أو ملل.

ومع ذلك فإن تلك الروايات لم تسلم من النقد فيما يتصل بالشكل والمضمون: أما من حيث المضمون فلم يلجأ جورجى زيدان إلى الفترات المشرقة من التاريخ الإسلامي، بل اتجه إلى الفترات التى تمثل صراعاً بين مذهبين سياسيين أو كتلتين متصارعتين على السلطة والنفوذ، ولم يتجه إلى التاريخ الإسلامي لإبراز أمجاده، وكان متأثراً في ذلك بنظرة المؤرخين الغربيين إلى العالم الإسلامي، ويأتي في روايته ذكر «الدير» بصورة مفتعلة... وعلى الرغم من ذلك فإنه يعد المؤسس لهذا اللون من الروايات التى تجمع بين التعليم والتسلية والتاريخ.

أهم كتبه :

يعد كتاب «تاريخ التمدن الإسلامي» الذى صدر في خمسة أجزاء في الفترة من (١٣٢٠ - ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٢ - ١٩٠٦م) أهم مصنفاته، وقد أفاد الرجل من قراءاته ودراساته في المؤلفات الغربية، ومناهج التأليف في التاريخ والحضارة، فضلاً عن مطالعته الواسعة في المصادر العربية، وكان من يكتبون في تاريخ الإسلام يجرون على منهج رواة المسلمين القدامى مع شيء من التحسين، متلماً هو الحال في كتابات الشيخ «محمد الخضرى»، ولم يكن لهم صلة بعالم الاستشراق أو وقوف على المناهج الحديثة.

وقد أثار الكتاب عند ظهور أجزائه الأولى نشاطاً واسع المدى في أبحاث التاريخ الإسلامي، وأقبل عليه الناس، وكانت الجامعة المصرية قد قامت وامتلات قاعاتها بالطلاب، فانتبهت إلى مكانة جورجى زيدان وسعة علمه، فدعته إلى إلقاء سلسلة من المحاضرات في التاريخ الإسلامي، لكن حالت الظروف دون القيام بهذا العمل في الجامعة. وقد ترجم هذا الكتاب إلى

عدة لغات شرقية، كما ترجم المستشرق الإنجليزي «مارجوليت» الجزء الرابع منه إلى الانجليزية، وعده عملاً أصيلاً غير مسبوق.

ويعد كتابه «تاريخ آداب اللغة العربية» الذى صدر في أربعة أجزاء في الفترة (١٣٢٩ - ١٣٣٢هـ/ ١٩١١ - ١٩١٤م) من أهم المراجع للمستغلين بتاريخ الأدب العربي في عصوره المختلفة، وكانت فكرة تأليف هذا الكتاب قد شغلته منذ وقت مبكر، فنشر فصلاً في مجلة الهلال سنة (١٣١٢هـ/ ١٨٩٤م) تحت هذا العنوان، ثم وسع هذه الفصول حتى جعل منها كتاباً مستقلاً، ويعد جورجى زيدان رائد هذا الميدان، وإن سبقته محاولات محددة لم يكن لها مثل تأثير كتابه.

وتأثر جورجى زيدان بمنهج المستشرقين في دراسة تاريخ الآداب العربية، وبخاصة كتاب بروكلمان المستشرق الألماني في كتاب «الأدب العربي» وغيره من مؤلفات المستشرقين. وقد وضع في الصفحات الأولى من كتابه أسماء المراجع الفرنسية والإنجليزية والألمانية التى رجع إليها ونهل منها... ويعد كتابه «تراجم مشاهير الشرق» من أهم المراجع التى يستأنس بها كل باحث وكاتب يبحث عن الترجمة لعلم من أعلام الشرق في القرن التاسع عشر، والكتاب لا يختص بطائفة معينة من الناس، وإنما يجمع بين أعلام السياسة والأدب والإدارة والحكم وغيرهم.

كان جورجى زيدان يعمل بانتظام شديد، وبعزيمة قوية، ينكب على القراءة والتدوين ست عشرة ساعة متوالية في اليوم، مكتفياً من النوم بأربع ساعات في أخريات حياته، يسابق الزمن في إنجاز أعماله الضخمة، ووافته المنية وهو بين كتبه وأوراقه في مساء يوم الثلاثاء الموافق (٢٧ من شعبان ١٣٣٢هـ/ ٢١ من يوليو ١٩١٤م)، وقد رثاه كبار الشعراء من أمثال شوقي وحافظ إبراهيم وخليل مطران بقصائد مبهكة ■

يعد للقضاء الشرعي.

مدرسة القضاء
الشرعي :

وقد نشأت في تلك
الفترة مدرسة القضاء
الشرعي التي اختير
طلابها من نابغي أبناء
الأزهر بعد امتحان
عسير، فطمحت نفس



أحمد أمين

أحمد أمين إلى الالتحاق بها، واستطاع أن يجتاز
اختباراتهما، ويلتحق بها في (١٣٢٥هـ / ١٩٠٧م)،
وكانت المدرسة ذات ثقافة متعددة دينية ولغوية
وقانونية عصرية وأدبية، واختير لها ناظر كف هو
«عاطف باشا بركات» الذي صاحبه أحمد أمين
ثمانية عشر عاما، وتخرج في المدرسة سنة
(١٣٣٠هـ / ١٩١١م) حاصلا على الشهادة العالمية،
واختاره عاطف بركات معيدا في المدرسة فتفتحت
نفس الشاب على معارف جديدة، وصمم على تعلم
اللغة الإنجليزية فعملها، وفي ذلك يقول: «سلكت كل
وسيلة لتحقيق هذه الغاية».

الجامعة :

بدأ اتصال أحمد أمين بالجامعة سنة (١٣٤٥هـ /
١٩٢٦م) عندما رشحه الدكتور طه حسين للتدريس
بها في كلية الآداب، ويمكن القول بأن حياته العلمية
بالمعنى الصحيح أتت ثمارها وهو في الجامعة؛
فكانت خطواته الأولى في البحث على المنهج الحديث
في موضوع المعاجم اللغوية، وكانت تمهيدا لمشروعه
البحثي عن الحياة العقلية في الإسلام التي أخرجت
«فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام».

وتولى في الجامعة تدريس مادة «النقد الأدبي»
فكانت محاضراته أول دروس باللغة العربية لهذه

أحمد أمين .. مؤرخ الفكر الإسلامي (١٨٨٦-١٩٥٤م)

حياته في كلمات :

بدأ حياته أزهريا، ثم عمل مدرسا بمدرسة
القضاء الشرعي سنوات طويلة، ثم جلس على كرسي
القضاء ليحكم بين الناس بالعدل، فصار العدل رسما
له إلى جانب رسمه، ثم أصبح أستاذا بالجامعة،
فعميدا رغم أنه لا يحمل درجة الدكتوراة، ثم تركها
ليساهم في إنشاء أكبر مجلتين في تاريخ الثقافة
العربية هما: «الرسالة» و«الثقافة»، ثم بدأ رحلة من
البحث والتفكير في الحياة العقلية للعرب، فجاء به
«فجر الإسلام» و«ضحى الإسلام» و«ظهر الإسلام».

النشأة والتكوين :

ولد أحمد أمين إبراهيم الطباخ في (٢ من محرم
١٣٠٤هـ / ١١ من أكتوبر ١٨٨٦م) في القاهرة،
وكان والده أزهريا مولعا بجمع كتب التفسير والفقه
والحديث، واللغة والأدب... واهتم والده به منذ
صغره، وساعده في حفظ القرآن الكريم، وفرض عليه
برنامجا شاقا في تلقي دروسه وعوده على القراءة
والإطلاع، كما كان الأب صارما في تربية ابنه
يعاقبه العقاب الشديد على الخطأ اليسير، وهو ما
جعل الابن خجولا وعُرف عنه أيضا إثارة للعزلة،
فاتجه إلى الكتب بدلا من الأصحاب، فنمت عقلية
على حساب الملكات الأخرى... وبخل أحمد أمين
الكتب وتنقل في أربعة كتاتيب، وبخل المدرسة
الابتدائية، وأعجب بنظامها إلا أن أباه رأى أن
يلحقه بالأزهر، ودرس الفقه الحنفي؛ لأنه الفقه الذي

في ذي الحجة ١٣٥٧هـ/ يناير ١٩٣٩م)، ورأس تحريرها واستمرت في الصدور أربعة عشر عاما متوالية، وكان يكتب فيها مقالا اسبوعيا في مختلف مناحي الحياة الأدبية والاجتماعية، وكانت ثمرة هذه الكتابات كتابه الرائع «فيض الخاطر» بأجزائه العشرة.

كما كان يكتب في مجلة «الرسالة» الشهيرة، وأثرى صفحاتها بمقالاته وكتابات، وخاض بعض المحاورات مع كبار كتاب ومفكري عصره على صفحات الثقافة، ومنها محاورته مع الدكتور «زكي نجيب محمود» الذي كتب مقالا انتقد فيه محققي التراث العربي ونشر ذخائره، ورأى أن الفكر الأوروبي أجدر بالشيوع والذيع والتريجة من مؤلفات مضى زمانها، وأطلق على كتب التراث «الكتاب القديم المبغوث من قبره»، ثم قال: «سيمضي الغرب في طريقه، وهو يحاول الصعود الى ذرى السماء، ونحن نحفر الأجداث لنستخرج الرمم». فأنارت هذه الكلمات المحجفة للتراث أحمد أمين؛ فرد على ما قيل، وأكد أن الغرب أسس نهضته ومدنيته على الحضارة الرومانية واليونانية، وأكد أيضا أن المستشرقين هم أول من اهتم بالتراث العربي فنشروا أصوله وذخائره.

المجمع اللغوي :

وقد أصبح عضوا بمجمع اللغة العربية سنة (١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م) بمقتضى مرسوم ملكي، وكان قد اختير قبل ذلك عضوا مراسلا في المجمع العربي بدمشق منذ (١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م)، وفي المجمع العلمي العراقي، وبعصويته في هذه المجمع الثلاثة ظهرت كفاءته وقدرته على المشاركة في خدمة اللغة العربية. وكان رأيته أن المجمع ليست وظيفته الأساسية وضع المصطلحات وإنما عمله الأساسي هو وضع المعجم اللغوي التاريخي الأدبي الكبير، ويضاف هذا الإسهام الكبير في مجمع اللغة العربية إلى رصيده في

المادة بكلية «الآداب» ورتقي الى درجة أستاذ مساعد من غير الحصول على الدكتوراة، ثم الى استاذ فعميد لكلية الآداب سنة (١٣٥٨هـ/ ١٩٣٩م)، واستمر في العمادة سنتين استقال بعدهما، لقيام الدكتور «محمد حسين هيكل» وزير المعارف بنقل عدد من مدرسي كلية الآداب الى الاسكندرية من غير أن يكون لأحمد أمين علم بشي من ذلك، فقدم استقالته وعاد الى عمله كأستاذ، وهو يردد مقولته المشهورة: «أنا أصغر من أستاذ وأكبر من عميد».

الجامعة الشعبية :

وفي سنة (١٣٦٥هـ/ ١٩٤٥م) انتدب للعمل مديرا للإدارة الثقافية بوزارة المعارف، وفي توليه لهذه الإدارة جاءت فكرة (الجامعة الشعبية) حيث رأى أن للشعب حقا في التعلم والارتواء العلمي، وكان يعتز بهذه الجامعة اعتزازا كبيرا ويطلق عليها «ابنتي العزيزة» وهي التي تطورت فيما بعد إلى ما سمي بقصور الثقافة، وكان آخر المناصب التي شغلها بعد إحالته الى التقاعد منصب مدير الإدارة الثقافية بجامعة الدول العربية.

لجنة التأليف والترجمة والنشر :

أشرف أحمد أمين على لجنة التأليف والترجمة والنشر مدة أربعين سنة منذ إنشائها حتى وفاته، وكان لهذه اللجنة أثر بالغ في الثقافة العربية؛ إذ قدمت للقارئ العربي ذخائر الفكر الأوروبي في كل فرع من فروع المعرفة تقديمًا أمينًا يبتعد عن الاتجار، كما قدمت ذخائر التراث العربي مشروحة مضبوطة، فقدمت أكثر من ٢٠٠ كتاب مطبوع.

وكانت الثقة في مطبوعات اللجنة كبيرة جدا؛ لذلك رزقت مؤلفات اللجنة حظا كبيرا من الذيع وتخطفتها الأيدي والعقول، كما انشأت هذه اللجنة مجلة «الثقافة»

العهد الأول ثم استشرى في العصور التالية، وحل الزنقة وأسباب ظهورها وانتشارها وخصائص الثقافات الأجنبية من فارسية وهندية... الخ، وهذا الكتاب من انفس ما كتب، وهو من ذخائر الفكر الإسلامي دون نزاع.

أما كتابه «زعماء الإصلاح في العصر الحديث» فاشتهر اشتهاها ذاتها، لأنه قرر على طلاب المدارس عدة سنوات، فكثر طبعاته وتداولتها الأيدي على نطاق واسع... وكتاب «فيض الخاطر» جمع فيه مقالاته المختلفة في «الرسالة» و«الثقافة» وغيرهما، وبلغت حوالي ٩٠٠ مقالة في عشرة أجزاء، وكتاب «حياتي» الذي دون فيه سيرته الذاتية، ويقول عن هذا الكتاب: «لم انتهي شيئاً من تأليف ما تهيبت من اخراج هذا الكتاب»، ونشر قبل وفاته بأربع سنوات. أما كتبه الأخرى فهي: «ظهر الإسلام»، و«قاموس العادات والتقاليد المصرية»، و«النقد الأدبي»، و«قصة الأدب في العالم»، و«قصة الفلسفة»... وغيرها... وتعاون مع بعض المحققين في إصدار كتاب «العقد الفريد» لـ «ابن عبد ربه»، و«الإمتاع والمؤانسة» لـ «أبي حيان التوحيدي»، و«الهوامل والشوامل»، و«البصائر والنفائس»، و«خريدة القصر وفريدة العصر».

النهاية :

وقد أصيب أحمد أمين قبل وفاته بمرض في عينه، ثم بمرض في ساقه فكان لا يخرج من منزله إلا لضرورة قصوى، ورغم ذلك لم ينقطع عن التأليف والبحث حتى توفاه الله في (٢٧ من رمضان ١٣٧٣هـ / ٣٠ من مايو ١٩٥٤م)؛ فبكاه الكثيرون ممن يعرفون قدره... ولعل كلمته: «أريد أن أعمل لا أن أسير» مفتاح هام في فهم هذه الشخصية الكبيرة ■

خدمة الثقافة، كما اختير عضواً في المجلس الأعلى لدار الكتب سنة (١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م).

السياسة :

كانت السياسة عند أحمد أمين تعني الوطنية لا يرى فرقاً بينهما، وترجع معرفته بالسياسة وأقطابها إلى أستاذه عاطف بركات، وقد أعجب الزعيم سعد زغلول به وبوطنيته، وبدقة تقاريره التي كان يكتبها عن أحوال مصر إبان ثورة ١٩١٩م، ورغم ميله للوفد فإنه لم يشارك في السياسة بقدر كبير خوفاً من العقوبة، وفي صراحة شديدة يقول: «ظلت أساهم في السياسة وأشارك بعض من صاروا زعماء سياسيين، ولكن لم أندفع اندفاعهم، ولم أظهر في السياسة ظهورهم لأسباب، أهمها لم أتشجع شجاعتهم، فكنت أخاف السجن وأخاف العقوبة».

فجر الإسلام والحياة العقلية :

أما شهرته فقامت على ما كتبه من تاريخ للحياة العقلية في الإسلام في سلسلته عن فجر الإسلام وضحاها وظهره، لأنه فاجأ الناس بمنهج جديد في البحث وفي أسلوبه ونتائجه، فأبدى وجهاً في الكتابة التحليلية لعقل الأمة الإسلامية لم يُبدَ أحدٌ من قبله على هذا النحو؛ لذلك صارت سلسلته هذه عماد كل باحث جاء من بعده؛ فالرجل حمل سراجاً أثار الطريق لمن خلفه نحو تاريخ العقلية الإسلامية.

وفي كتابه «ضحى الإسلام» تحدث عن الحياة الاجتماعية والثقافية ونشأة العلوم وتطورها والفرق الدينية في العصر العباسي الأول، وأراد بهذه التسمية (ضحى الإسلام) الاعتبار الزمني لتدرج الفكر العلمي من عصر إلى عصر، واستطاع بأسلوب حر بليغ أن يمزج السياسة بالفكر عند الحديث عن الظواهر الجديدة في المجتمع الإسلامي، وكذلك تدرج اللهو بتدرج العصور؛ إذ بدأ ضئيلاً في

سليم حسن .. الأثري المؤرخ (١٨٨٦م - ١٩٦١م)

المولد والنشأة :

وُلد سليم حسن بقرية ميت ناجي التابعة لمركز ميت غمر بمحافظة الدقهلية في (١١ من رجب ١٣٠٣هـ / ١٥ من إبريل ١٨٨٦م)، وتوفي والده وهو صغير، فعنيت به والته وأحسنّت تربيته وتعليمه، وبعد أن أتم دراسته الابتدائية والثانوية التحق بمدرسة المعلمين الخديوية، وانضم إلى الفرقة التي تدرس علم الآثار.

وبعد أن أتم دراسته سنة (١٢٣١هـ / ١٩١٢م) عمل مدرساً للتاريخ واللغة الإنجليزية بالمدرسة الناصرية بالقاهرة، ثم نقل إلى مدرسة طنطا الثانوية، ومنها إلى أسيوط، ثم نقل إلى القاهرة مدرساً في المدرسة الخديوية الثانوية.

نشاطه العلمي المبكر :

ألف تاريخ مصر من الفتح العثماني إلى قبيل الوقت الحاضر، وتاريخ أوروبا الحديثة وحضارتها، وشاركه في التأليف «عمر السكندري»، وترجم تاريخ دولة المماليك في مصر بالاشتراك مع «محمود عابدين»، وصفحة من تاريخ محمد علي بالاشتراك مع طه السباعي.

التحق سليم حسن بالمتحف المصري أميناً مساعداً سنة (١٣٤٠هـ / ١٩٢١م)، وفي أثناء عمله بالمتحف

سافر إلى باريس على نفقته الخاصة سنة (١٣٤١هـ / ١٩٢٢م) لحضور الاحتفال بمرور مائة عام على فك شامبليون لرموز اللغة الهيروغليفية، وتمكن من زيارة عدة متاحف أوروبية، وبعد عوبته كتب عدة مقالات في جريدة الأهرام تحت عنوان: «الآثار المصرية في المتاحف الأوروبية» كشف فيها عن أسرار سرقة الآثار المصرية، ودور الأثريين الأجانب في ذلك، الأمر الذي جعل المشرفين على الآثار يحقّقون عليه.

البعثة إلى الخارج :

سافر سليم حسن إلى باريس، والتحق بجامعة لها، وحصل على دبلوم في اللغة الشرقية، وثان في تاريخ الديانات، وثالث في اللغات الشرقية، ثم عاد إلى مصر في سنة (١٣٤٦هـ / ١٩٢٧م)، وعين سليم حسن مرة أخرى في المتحف المصري، وأقنعه المسؤولون أن مكانه هو المكتبة وأن عمله الأساسي هو ترجمة دليل المتحف، وكان ذلك يعني تجميداً لنشاطه، لكن هذا لم يدم طويلاً، فاستدعته كلية الآداب بالجامعة المصرية للتدريس بها، وترقى في المناصب العلمية إلى أن بلغ درجة الأستاذية مع الإشراف على حفائر الجامعة بمنطقة أهرامات الجيزة. ولم تحل أعباء التدريس وأعمال الحفر والتنقيب دون مواصلة للدراسة والبحث، فوضع بحثاً قيماً نال عليه درجة الدكتوراه من جامعة فيينا، سنة (١٣٥٤هـ / ١٩٣٥م).

اكتشافاته وحفائره :

أحصت الدكتوروة ضياء أبو غازي جهود سليم حسن في عمليات الحفر والتنقيب التي استمرت عشر سنوات (١٣٤٨ - ١٣٥٨هـ / ١٩٢٩ - ١٩٣٩م) ونشرت قائمة بها في حوليات مصلحة الآثار سنة (١٣٨٤هـ /



عالم واحد
كل هذه
الفترة في
مؤلف له...
وله إلى
جانب ذلك
(الأدب

المصري
القديم) الذي
نشره سنة

(١٣٦٥هـ / اكتشاف مقبرة توت عنخ آمون كان سبباً في
ابتعاث سليم حسن لدراسة الآثار في فرنسا
١٩٤٥م) في

مجلدين، تناول فيهما الأدب في مصر القديمة، وكتب
فصلاً كبيراً عن الحياة الدينية وأثرها على المجتمع
في المجلد الأول من تاريخ الحضارة المصرية الذي
أخرجته وزارة الثقافة والإرشاد القومي... وأسهم
في ميدان الترجمة فنقل إلى العربية كتاب «ديانة
قدماء المصريين» للعالم الألماني شتيدورف سنة
(١٣٤٢هـ / ١٩٢٣م) وكتاب فجر الضمير للمؤرخ
الأمريكي جيمس هنري بريسنت سنة (١٣٧٦هـ /
١٩٥٦م).

أما عن مؤلفاته التي كتبها بغير العربية فقد
بلغت ثلاثة وثلاثين مؤلفاً وضمت كتباً علمية وكتابه
عن «أبو الهول» وكتابه عن «الأناسيد الدينية للدولة
الوسطى» بالإضافة إلى بحوثه ومقالاته في حوايات
مصلحة الآثار والمجلات الأثرية الأجنبية، وتقارير
حفائر في الجيزة وسقارة والنوبة.

وفي (٢٩ من ربيع الآخر ١٣٨١هـ / ٢٩ من
سبتمبر ١٩٦١م) انتقل سليم حسن إلى لقاء ربه،
وهو في الخامسة والسبعين من عمره ■

١٩٦٤م) قبلت ١٧١ عملاً، وذكرت نبذاً عنها، وكانت
حفائره في منطقة الأهرامات بالجيزة من أهم ما قام
به من أعمال؛ إذ كشفت عن عدد كبير من مقابر
الدولة القديمة، وتعد مقبرة (رخ) التي كشفها جنوبي
منطقة «أبو الهول» من أكبر المقابر، وتكاد تضارع
مقابر الملوك من حيث ضخامتها وكثرة التماثيل
(بها).

كما كشف مقبرة الملكة (خنكاوس) آخر ملوك
الأسرة الخامسة، وحلقة الوصل بين تلك الأسرة
والأسرة السادسة، وصممت المقبرة على هيئة تابوت
أقيم فوق صخرة كبيرة، وأطلق سليم حسن على
هذه المقبرة الهرم الرابع... وكانت حفائر سليم
حسن في منطقة أبي الهول من أهم أعماله التي
كشفت عن أسرار «أبو الهول» وما يحيط به من
غموض وإيهام، وامتد نشاطه إلى منطقة سقارة
ومنطقة النوبة.

التفرغ للتأليف :

أهم مؤلفاته قاطبة هو كتابه «مصر القديمة»
الذي أخرج في ستة عشر جزءاً، وبدأ في نشره
سنة (١٣٥٩هـ / ١٩٤٠م) وأصدر الجزء السادس
عشر سنة (١٣٨٠هـ / ١٩٦٠م) متناولاً تاريخ مصر
وحضارتها من عصر ما قبل التاريخ، ومروراً بالدولة
القديمة والوسطى والرعامسة والعهد الفارسي،
وانتهاءً بآخر العصر البطلمي، وكان قد شرع في
كتابة الجزء السابع عشر عن (كليوباترا) لكن حال
موته دون إصداره.

وهذه الموسوعة تغني القارئ عن عشرات الكتب
والمراجع التي تتناول تاريخ مصر في هذه الفترة
الطويلة، وتعد فريدة في بابها، فلم يسبق أن تناول



السيد عبيد مدني

- عمل في مناصب حكومية ، وله رحلات علمية واستطلاعية للعديد من البلاد الاسلامية .

ومن مؤلفاته :

- تاريخ المدينة المنورة -
في خمسة مجلدات .
- المدينيات - ثلاثة مجلدات .

- تاريخ المسجد النبوي .
- تاريخ مساجد المدينة المنورة .
- تاريخ أطام المدينة المنورة .
- تواريخ المدينة المنورة ومؤرخوها ■

عبيد مدني مؤرخ المدينة (١٣٢٤-١٣٩٦هـ)

- ولد في المدينة المنورة .
- تلقى علومه الأولية والابتدائية والراقية في مدارس المدينة المنورة، جلس الى حلقات العلماء في المسجد النبوي الشريف ومنهم الشيخ محمد الطيب الأنصاري، ونال الشهادة العالمية وتقدير من شيخه، وقد وجهه شيخه الشيخ محمد العمري الى ناحية الأدب والتاريخ .

ثانوية متوسطة، وتخرج فيها بعد ثلاث سنوات، حاصلا على شهادتها .

في ميدان العمل :

ولم تمكنه ظروف أسرته المادية من استكمال دراسته، فاكفئ بهذا القدر من الدراسة النظامية، والتحق بالعمل الحكومي موظفا في دائرة البرق والبريد بنابلس (١٣٢٤هـ / ١٩٠٦م)، ثم انتقل الى بيروت للعمل في مديرية البرق والبريد سنة (١٣٣٣هـ / ١٩١٤م) ثم أصبح مديراً لها، ثم رُقي مفتشاً لمراكز البرق والبريد المدنية في صحراء سيناء ويتر سبع، وظل يترقى في وظائفه حتى أصبح في سنة (١٣٤١هـ / ١٩٢١م) سكرتيراً لديوان الأمير عبد الله أمير شرقي الأردن، لكنه تركه بعد شهر، واتجه الى ميدان التعليم .

محمد عزة دروزة .. الكاتب المناضل (١٨٨٧-١٩٨٤م)

المولد والنشأة :

في مدينة نابلس بفلسطين كان مولد محمد عزة دروزة في (١١ من شوال ١٣٠٥هـ / ٢١ من يونيو ١٨٨٧م) ونشأ في أسرة كريمة من قبيلة «الفريجات»، وتلقى دروزة تعليمه في المدارس الابتدائية، وحصل على الشهادة الابتدائية في سنة ١٣١٨هـ / ١٩٠٠م، ثم التحق بالمدرسة الرشيدية في نابلس، وهي مدرسة



محمد عزة

شبت في سنة ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م، ولما كان دروزة من القامنين عليها أصدرت إدارة الانتداب البريطاني قراراً بعزله عن منصبه في سنة ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م وقراراً آخر بمنعه من العودة الى فلسطين حيث كان خارجها عند استئناف

الثورة، ومنذ ذلك التاريخ ابتعد دروزة عن تولي الوظائف الحكومية والأهلية.

مشاركته في الحركة القومية :

بدأ نشاط محمد عزة دروزة في ميدان الحركة الوطنية مبكراً في سنة ١٣٢٧هـ / ١٩٠٩م، وشارك في إنشاء الجمعيات الوطنية والأحزاب السياسية، وشارك بتأليف الروايات القومية والمسرحيات التي تمجد العروبة، وتعبّر عن المطامح القومية والرغبة في النهوض، وتبوأ المكانة اللائقة، مثل رواية «وفود النعمان على كسرى أنوشروان» سنة ١٣٣٣هـ / ١٩١٣م، و«السمسار وصاحب الأرض».

وأتاح له عمله التجول الاتصال بكثير من الشخصيات الوطنية والقومية البارزة وتشكيل الجمعيات الوطنية، التي أصبحت قاعدة الحركة الوطنية في فلسطين مثل «الجمعية الإسلامية المسيحية» وتولى سكرتاريتها، حتى يشعر العالم بأن المعارضة للمطامح الصهيونية من المسلمين والمسيحيين على السواء، وأن دروزة من الداعين الى توحيد الجمعيات الوطنية التي تعمل في أنحاء فلسطين والتنسيق بين جهودها؛ فعقد المؤتمر الفلسطيني الأول في القدس في ربيع الأول ١٣٣٧ / يناير ١٩١٩م.

وقد حفزه عدم إتمام الدراسة على إكمال ثقافته، وتغطية جوانب النقص بها بالقراءة والإطلاع الدؤوب، قرأ ما وقع تحت يديه من كتب مختلفة في مجالات الأدب والتاريخ والاجتماع والحقوق سواء ما كان فيها باللغة العربية أو بالتركية التي كان يجيدها، ويسرت له وظيفته في مصلحة البريد أن يطلع على الدوريات المصرية المتداولة في ذلك الوقت كالأهرام والهلل والمؤيد والمقطم والمقتطف، وكان البريد يقوم بتوزيع هذه الصحف على المشتركين بها، وهذه الدوريات كانت تحمل زادا ثقافيا متنوعا، فتحت آفاق الفكر أمام عقل الشاب النابه، وسعت مداركه، وصقلت مواهبه، وأوقفته على ما يجري في أنحاء الدولة العثمانية من أحداث.

وفي أثناء هذه الفترة التي عملها بدائرة البرق والبريد اتصل بالصحافة، وبدأت محاولاته الأولى في الكتابة، فشارك في تحرير جريدة «الإخاء العثماني» التي كان يصدرها في بيروت أحمد شاكر الطيبي، وكان يترجم لها فصولا مما ينشر في الصحف التركية عن أخبار الدولة العثمانية وأحوال الحركة العربية، وكان يخص جريدة «الحقيقة» البيروتية، التي كان يصدرها كمال ابن الشيخ عباس بمقال أسبوعي يتناول موضوعا اجتماعيا أو وطنيا، وشارك أيضا بالكتابة في جريدة فلسطين التي كان يصدرها عيسى العيسى في يافا، وجريدة الكرمل التي كان يصدرها نجيب نصار في حيفا.

الحفاظ على الأوقاف الفلسطينية :

انتقل دروزة في سنة ١٣٤٧هـ / ١٩٢٨م الى العمل في إدارة الأوقاف الإسلامية، حيث عُيّن مأموراً للأوقاف في نابلس، ثم رقي في سنة ١٣٥١هـ / ١٩٣٢م مديرا عاما للأوقاف الإسلامية في فلسطين، وظل يشغل هذا المنصب حتى اندلاع المرحلة الثانية من الثورة الفلسطينية التي كانت قد

الحركة العربية والقضية الفلسطينية خلال قرن من الزمان.

إنتاجه الفكري :

لم يحل انشغال دروزة بالحركة الوطنية الفلسطينية والمشاركة في قيادتها عن الكتابة والتأليف، فبدأ يؤلف خدمة للحركة الوطنية والنهوض بطلاب العلم في المدارس، فكتب رواياته الوطنية التي تشعل الحماس في النفوس الناشئة، وألف مختصراً في تاريخ العرب، بعنوان «دروس التاريخ العربي من أقدم الأزمنة حتى الآن»، وهو كتاب مدرسي للصفوف الابتدائية، وظل معتمداً في جميع المدارس العربية والوطنية الخاصة في فلسطين، ثم اتجه إلى التأليف العام، وهو يدور في ثلاث دوائر يكمل بعضها بعضاً ويكمل كل منها رسالة الآخر.

أما الدائرة الأولى فهي الدائرة الفلسطينية، وقد أسهم فيها بعدد من المؤلفات يأتي على قمته مذكراته الضخمة التي تُعد أضخم عمل في هذا الباب من كتابه «المذكرات الشخصية»، كشفت جوانب غامضة، وأعانت على تفسير بعض القضايا المبهمة في مسيرة العمل الوطني الفلسطيني، وإلى جانب هذا العمل الكبير ألف كتباً كثيرة تخدم القضية الفلسطينية، مثل: «القضية الفلسطينية في مختلف مراحلها» و«مأساة فلسطين»، «فلسطين» و«جهاد الفلسطينيين عبيرة من تاريخ فلسطين»، «قضية الغزو الصهيوني»، «في سبيل فلسطين»، «فلسطين والوحدة العربية»، و«من وحي النكبة صفحات مغلوطة» و«مهملات من تاريخ القضية الفلسطينية».

أما الدائرة الثانية فهي الدائرة العربية، وأسهم فيها بمؤلفات متعددة منها:

- تاريخ الجنس العربي في مختلف الأطوار والأدوار والأقطار من أقدم الأزمنة، وصدر في ثمانية أجزاء نحو ثلاثة آلاف صفحة.

وانغمس دروزة في النشاط الوطني الفلسطيني منذ أن استقر في نابلس، فشارك بجهود مشكورة في انعقاد المؤتمرات السياسية التي كانت تخطط للحركة الوطنية وتتابع نشاطها، وكان على رأس المقاومين للسياسة البريطانية ومشروعاتها المختلفة، فقام مع رفاقه بحركة مقاطعة الدستور وانتخاب مجلس تشريعي مغلول اليد؛ الأمر الذي ترتب عليه وأد الفكرة وقتلها في مهدها، وقاد مظاهرات مختلفة ضد السياسة البريطانية، وأدى هذا إلى اعتقاله، وتقديمه للمحاكمة، والحكم عليه بالسجن، متعلماً حدث له في سنة ١٣٥٣هـ / ١٩٣٤م، وكان دروزة أحد قادة ثورة فلسطين في سنة ١٣٥٥هـ / ١٩٣٦م حيث دعت إلى الإضراب العام، وتحول الإضراب إلى ثورة شعبية كاسحة.

ومال دروزة إلى اتخاذ إجراءات متصاعدة ضد السلطة البريطانية ما لم تستجب لمطالب البلاد، ولم تجد بريطانيا لمواجهة هذه الثورة بدأ من اعتقاله هو وزملائه، ولما تجددت الثورة سنة ١٣٥٦هـ / ١٩٣٧م كان المسئول عن التخطيط السياسي للثورة الفلسطينية، وكانت تتلقى أوامرها من دمشق حيث كان يقيم دروزة، وغيره من القيادات الفلسطينية، وكانت تتلقى أوامرها من دمشق حيث كان يقيم دروزة، وغيره من القيادات الفلسطينية اللاجئين بها، وظل هناك قائماً على أمر الثورة الفلسطينية حتى اعتقاله الفرنسيون بتحريض من الإنجليز في ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م، وحوكم أمام محكمة عسكرية فأصدرت عليه حكماً بالسجن، ثم أفرج عنه سنة ١٣٦٠هـ / ١٩٤١م فذهب إلى تركيا لاجئاً، وقضى هناك أربع سنوات عاد بعدها إلى فلسطين، واستمر دروزة يقوم بدوره السياسي في خدمة القضية الفلسطينية حتى اشتد عليه المرض في سنة ١٣٦٧هـ / ١٩٤٨م، فاستقال من عضوية الهيئة العربية العليا لفلسطين وتفرغ للكتابة والتأليف، وقد سجل مذكراته في ستة مجلدات ضخمة، حوت مسيرة

للأمة العربية في تحقيق أهدافها دون التماس منهج القرآن الكريم والالتزام به.

وله أيضا «التفسير الحديث» التزم فيه تفسير القرآن الكريم حسب ترتيب نزول السور، وبدأ في تأليفه عندما كان لاجئا في تركيا، وصدر في ١٢ جزءا، وشارك في كتابة السيرة النبوية بكتابه المعروف «سيرة الرسول صلى الله عليه وسلم صورة مقتبسة من القرآن»، وصدر في مجلدين ٠٠ وإلى جانب هذه الكتب الثلاثة الكبيرة له مؤلفات إسلامية متنوعة تواجه الاستشراق والتبشير مثل: «القرآن والمرأة»، «القرآن والضمان الاجتماعي»، «القرآن والمبشرون اليهود في القرآن الكريم».

وفاته :

ويعد هذه الحياة العريضة التي حياها «محمد عزة دروزة» مناضلا وكاتبًا، وافته المنية في دمشق بحي الروضة في يوم الخميس الموافق (٢٨ من شوال ١٤٠٤هـ/ ٢٦ من يوليو ١٩٨٤م) ■

- العرب والعروبة في حقبة التغلب التركي، وصدر في تسعة أجزاء.

- الوحدة العربية، في مجلد كبير، وقد نال عنه جائزة من المجلس الأعلى للفنون والآداب بمصر في سنة ١٩٥١م.

- حول الحركة العربية الحديثة، في ستة أجزاء.

- نشأة الحركة العربية الحديثة، في مجلد واحد، تناول فيه أحوال العرب وتاريخ الدولة العثمانية، والجمعيات العربية التي كانت تطالب بالانفصال عن الدولة العثمانية.

أما الدائرة الثالثة: فهي الدائرة الإسلامية، وشارك فيها بمؤلفات متعددة، يتصدرها عمله الكبير «الدستور القرآني والسنة النبوية في شئون الحياة»، وطبع في مجلدين كبيرين، أوضح فيه ما احتواه القرآن الكريم والسنة النبوية من نظم لمختلف شئون الحياة، ويمثل هذا المؤلف تحولا كبيرا في حياة مؤلفه بعد أن استوفى دراسات التاريخ القومي وقضايا المجتمع العربي، حيث اتسعت نظرته أنه لا نجاح



السيد أمين مدني

والكتابة وشيئا من الحساب، والبدء في حفظ القرآن الكريم، ثم ينتقل إلى ما يتوفر من المدارس حيث يتم التركيز على العلوم المدنية والعربية والدينية وتقوية المهارات، وعندما تنتهي هذه المرحلة فعلى

من يرغب في الاستزادة أن ينتقل إلى حلقات الدرس في المسجد النبوي الشريف وهناك تتوفر علوم اللغة وعلوم الشريعة

أمين مدني المؤرخ الموسوعي (١٣٢٩-١٤٠٤هـ)

ولد بالمدينة المنورة وتلقى تعليمه في المدارس المتوفرة في ذلك الوقت، ثم انتقل إلى حلقات الدرس في المسجد النبوي الشريف، وقد كانت طريقة التعليم والسلم التعليمي في المدينة في ذلك الوقت أن يدخل الطالب الكتاب حيث يدرس بدايات القراءة

- التاريخ العربي وبيادته - الطبعة الثانية عام ١٤٠١هـ - تهامة بجدة - ٤٢٢ صفحة، وهو الجزء الأول من «أحباب التاريخ»، وكانت الطبعة الأولى قد صدرت من هذا الكتاب عام ١٢٨٥هـ (الموافق ١٩٦٥م).

مؤلفات متنوعة :

- الاستثمار المصرفي والشركات المساهمة في الشريعة الإسلامية - عام ١٤٠٥هـ، ٢١٣ صفحة، والكتاب فريد من نوعه غني في مادته، يعطي المكتبة الإسلامية بحثاً قيماً بين فيه مؤلفه نظرية الإسلام في الشركات المساهمة الحديثة.

- ثقافة الإسلام وخواصها - القاهرة عام ١٩٨٠م، ٢١٠ صفحة.

- الأعمال المخطوطة التي تنتظر الخروج من الخزائن :

- مراكز الثقافة في الإسلام.
- رحلة الهند - مترجمة إلى اللغة الأوردية.
- رحلة تهامة.
- دراسة نحوية.
- تاريخ الغرب وشعوبه ■

والعقيدة والسيرة النبوية، وهي بداية لدراسة التاريخ الإسلامي. وقد نال المترجم له قسطاً وافراً من علوم شتى سواء في المدارس التي التحق بها أو في حلقات المسجد النبوي الشريف ثم في طيات الكتب التي أكتب عليها وظهر أثرها في ثقافته وانتاجه المتنوع.

الحياة العلمية :

- شغل السيد أمين مدني عدة مناصب منها: رئاسة بلدية المدينة المنورة ورئاسة تحرير جريدة المدينة المنورة بعض الوقت.

ومن مؤلفاته :

- موسوعة تاريخ العرب في أحقاب التاريخ، مكونة من خمسة أجزاء تصدر تباعاً.

- تاريخ العرب ومصادره - دار المعارف بالقاهرة عام ١٩٧١م - ٦٣٩ صفحة، وهو الجزء الثاني من سلسلة «تاريخ العرب في أحقاب التاريخ».

- تاريخ العرب وجغرافيته - القاهرة - الهيئة المصرية العامة للكتاب عام ١٩٧٦م، ٨٤٤ صفحة، وهو الجزء الثالث من سلسلة «تاريخ العرب في أحقاب التاريخ».

قبيلة «بنو حمدان» العربية التي نزحت إلى مصر أثناء الفتح الإسلامي.

كان والده أزهرياً مدرّساً للغة العربية في مدرسة شبرا التي التحق بها ولده جمال، وحصل منها على الشهادة الابتدائية عام ١٣٥٨هـ / ١٩٣٩م، وقد اهتم الأب بتحفيظ أبنائه السبعة القرآن الكريم، وتجويده وتلاوته على يديه، مما كان له أثر بالغ على شخصية جمال حمدان، وعلى امتلاكه نواصي اللغة العربية؛ مما غلّب على كتاباته الأسلوب الأدبي المبدع.

ويعد الابتدائية التحق جمال حمدان بالمدرسة

جمال حمدان ..

و (شخصية مصر)

(١٩٢٨ - ١٩٩٣م)

جمال محمود صالح حمدان أحد أعلام الجغرافيا في القرن العشرين، ولد في قرية «ناي» بمحافظة القليوبية بمصر في ١٢ شعبان ١٣٤٦هـ / ٤ فبراير سنة ١٩٢٨م، ونشأ في أسرة كريمة طيبة تتحدث من



جمال حمدان

علاقة الجغرافيا بالحياة :

ويعد جمال حمدان ذا أسلوب متميز داخل حركة الثقافة العربية المعاصرة في الفكر الإستراتيجي، يقوم على منهج شامل لمعلوماتي وتجريبي وتاريخي من

ناحية، وعلى مدى مكتشفات علوم الجغرافيا والتاريخ والسكان والاقتصاد والسياسة والبيئة والتخطيط والاجتماع السكاني والثقافي بشكل خاص من ناحية أخرى.

آثاره وإنجازاته :

لقد كان لعبقريته جمال حمدان ونظريته العميقة الثاقبة فضل السبق لكثير من التحليلات والآراء التي استغرقت وقت إفصاحه عنها، وأكدت الأيام بعد ذلك: فقد أدرك بنظره الثاقب كيف أن تفكك الكتلة الشرقية واقع لا محالة، وكان ذلك عام ١٣٨٨هـ/ ١٩٦٨م، فإذا الذي تنبأ به يتحقق بعد إحدى وعشرين سنة، عام ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٩م، حيث حدث الزلزال الذي هز أركان أوروبا الشرقية، وانتهى الأمر بانهيار أحجار الكتلة الشرقية، وتباعد دولها الأوروبية عن الاتحاد السوفيتي، ثم تفكك وانهار الاتحاد السوفيتي نفسه عام ١٤١١هـ/ ١٩٩١م (إستراتيجية الاستعمار والتحرر).

وفي شهر فبراير ١٣٨٧هـ/ ١٩٦٧م أصدر جمال حمدان كتابه «اليهود أنثروبولوجيا» أثبت فيه أن اليهود المعاصرين الذين يدعون أنهم ينتمون إلى

«التوفيقية الثانوية» وحصل على شهادة الثقافة عام ١٣٦٢هـ/ ١٩٤٣م، ثم حصل على التوجيهية الثانوية عام ١٣٦٣هـ/ ١٩٤٤م، وكان ترتيبه السادس على القطر المصري، ثم التحق بكلية الآداب قسم الجغرافيا، وكان طالبا متفوقا ومتميزا خلال مرحلة الدراسة في الجامعة، حيث كان منكباً على البحث والدراسة، متفرغاً للعلم والتحصيل.

وفي عام ١٣٦٧هـ/ ١٩٤٨م، تخرج في كليته، وتم تعيينه معيدا بها، ثم أوفدته الجامعة في بعثة إلى بريطانيا سنة ١٣٦٨هـ/ ١٩٤٩م، حصل خلالها على الدكتوراه في فلسفة الجغرافيا من جامعة «ريدينج» عام ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م، وكان موضوع رسالته: «سكان وسط الدلتا قديما وحديثا» ولم تترجم رسالته تلك حتى وفاته.

وبعد عودته من بعثته انضم إلى هيئة التدريس بقسم الجغرافيا في كلية الآداب جامعة القاهرة، ثم رقي أستاذا مساعدا، وأصدر في فترة وجوده بالجامعة كتبه الثلاثة الأولى وهي: «جغرافيا المدن»، و«المظاهر الجغرافية لمجموعة مدينة الخرطوم» (المدنية المثقنة)، و«دراسات عن العالم العربي» وقد حصل بهذه الكتب على جائزة الدولة التشجيعية سنة ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م، ولفتت إليه أنظار الحركة الثقافية عامة، وفي الوقت نفسه أكسبته غيرة بعض زملائه وأساتذته داخل الجامعة.

وفي عام ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م تقدّم باستقالته من الجامعة، احتجاجا على تخليه في الترقية إلى وظيفة أستاذ، وتفرغ للبحث والتأليف حتى وفاته، وكانت فترة التفرغ هذه هي البوئقة التي أفرزت التفاعلات العلمية والفكرية والنفسية لجمال حمدان.

وخارجها؛ حيث منحه جائزة الدولة التقديرية في العلوم الاجتماعية سنة ١٤٠٦هـ / ١٩٨٦م، ومنحته الكويت جائزة التقدم العلمي سنة ١٤١٣هـ / ١٩٩٢م، فضلا عن حصوله عام ١٣٧٩هـ / ١٩٥٩م على جائزة الدول التشجيعية في العلوم الاجتماعية، وكذلك حصل على وسام العلوم من الطبقة الأولى عن كتابه «شخصية مصر» عام ١٤١١هـ / ١٩٨٨م.

عُرِضَ عليه كثير من المناصب التي يلهي وراها كثير من الزعامات، وكان يقابل هذه العروض بالاعتذار، مؤثرا تفرغه في صومعة البحث العلمي، فعلى سبيل المثال تم ترشيحه عام ١٤٠٣هـ / ١٩٨٣م لتمثيل مصر في إحدى اللجان الهامة بالأمم المتحدة، ولكنه اعتذر عن ذلك، رغم المحاولات المتكررة لإثائه عن الاعتذار. كما اعتذر بلب وب ورقة عن عضوية مجمع اللغة العربية، وكذلك عن رئاسة جامعة الكويت. وغير ذلك الكثير.

وفي الساعة الرابعة من بعد ظهر السبت في ١٧ أبريل من عام ١٤١٣هـ / ١٩٩٣م، انتقل إلى جوار ربه ■

فلسطين ليسوا هم أحفاد اليهود الذين خرجوا من فلسطين قبل الميلاد، وإنما ينتمي هؤلاء إلى امبراطورية «الخرز التترية» التي قامت بين «بحر قزوين» و«البحر الأسود»، واعتنقت اليهودية في القرن الثامن الميلادي. وهذا ما أكدته بعد ذلك «أرثر بونيسلر» مؤلف كتاب «القبيلة الثالثة عشرة» الذي صدر عام ١٣٩٦هـ / ١٩٧٦م.

وقد ترك جمال حمدان ٢٩ كتابا و٧٩ بحثا ومقالة، يأتي في مقدمتها كتاب «شخصية مصر» دراسة في عبقرية المكان، وكان قد أصدر الصياغة الأولى له سنة ١٣٨٧هـ / ١٩٦٧م في نحو ٣٠٠ صفحة من القطع الصغير، ثم تفرغ لإنجاز صياغته النهائية لمدة عشر سنوات، حتى صدر مكتملا في أربعة مجلدات خلال السنوات بين ١٤٠١هـ / ١٩٨١م - ١٤٠٤هـ / ١٩٨٤م. وعلى الرغم من اسهامات جمال حمدان الجغرافية، وتمكنه من أدواته؛ فإنه لم يهتم بالتنظير وتجسيد فكره وفلسفته التي يركز عليها.

الجوائز والوفاء :

وقد حظي جمال حمدان بالتكريم داخل مصر

حسين مؤنس .. شيخ المؤرخين (١٩١١ - ١٩٩٦م)

وهو يقف أمة وحده بين مؤرخي العرب المحدثين، كتب في عصور مختلفة وحقق متنوعة امتدت لتشمل أربعة عشر قرنا من الزمان، وتحيط بأرض الإسلام من الصين حتى المغرب، ومن جنوبي أوروبا حتى وسط افريقيا، وهو في كل ما يكتب غزير المادة عميق النظر والتأمل موضوعي القلم، لا يشتط فيغرق في المرح والثنا، أو يسرف في النقد والذم، هو وسط بين ذلك، تدفعه نفس سمحة وعقل راجح؛ فينفذ إلى

على خطى الطبري والمسعودي وابن الأثير والمقريزي سار حسين مؤنس، وعلى دربهم نهج وكتب،



حسين مؤنس

(١٣٥٥هـ / ١٩٣٧م).

في الجامعة :

عين حسين مؤنس
بعد حصوله على
المجستير في الجامعة،
ثم لم يلبث أن ابتعث الى
فرنسا لاستكمال دراسته
العليا، فالتحق بجامعة

باريس، وحصل منها سنة (١٣٥٦هـ / ١٩٣٨م) على
دبلوم دراسات العصور الوسطى، وفي السنة التالية،
حصل على دبلوم في الدراسات التاريخية من
مدرسة الدراسات العليا، ثم حيل بينه وبين إكمال
دراسته بسبب نشوب الحرب العالمية الثانية،
فغادر فرنسا إلى سويسرا، وأكمل دراسته في
جامعة زيوريخ، ونجح في الحصول على درجة
الدكتوراه في التاريخ سنة (١٣٦١هـ / ١٩٤٣م)
وعين مدرسا بها في معهد الأبحاث الخارجية الذي
كان يتبع الجامعة.

ولما انتهت الحرب العالمية الثانية ووضعت
أوزارها عاد الى مصر سنة (١٣٦٤هـ / ١٩٤٥م)
وعين مدرسا بقسم التاريخ بكلية الآداب، وأخذ يرقى
في وظائفه العلمية حتى عين أستاذاً للتاريخ
الإسلامي في سنة (١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م).

والى جانب عمله بالجامعة انتدبته وزارة التربية
والتعليم سنة (١٣٧٤هـ / ١٩٥٥م)، ليتولى إدارة
الثقافة بها، وكانت إدارة كبيرة تتبعها إدارات
مختلفة للنشر والترجمة والتعاون العربي، والعلاقات
الثقافية الخارجية، فنهض بهذه الإدارة، وبث فيها
حركة ونشاطا، وشرع في إنشاء مشروع ثقافي،
عرف بمشروع «الألف كتاب» ليزود طلاب المعرفة بما

بواطن الأمور محلا ومتقبا، فنرى الرأي السديد
والحجة البينة، والحقيقة الساطعة.

ولم يترك المؤرخ الكبير كتابا أو اثنين، بل
ترك تراثا ضخما، وإنتاجا ثرا، يكفي بضعة
منه ليجعل صاحبه يتبوأ مكانة عالية بين
كبار المؤرخين.

المولد والنشأة :

ولد حسين مؤنس في مدينة السويس في (٤ من
رمضان ١٣٢٩هـ / ٢٨ أغسطس ١٩١١م)، ونشأ في
أسرة كريمة وتعهده أبوه بالتربية والتعليم، فشب
محبا للعلم، مقلدا على التفوق والصدارة، حتى إذا
نال الشهادة الثانوية في التاسعة عشرة من عمره
جذبت إليها كلية الآداب بمن كان فيها من أعلام
 النهضة الأدبية والفكرية، والتحق بقسم التاريخ،
ولفت بجده ودأبه في البحث أساتذته، وتخرج سنة
(١٣٥٢هـ / ١٩٣٤م) متفوقا على أقرانه وزملائه، ولم
يعين حسين مؤنس بعد تخرجه في الكلية؛ لأنها لم
تكن قد أخذت بعد بنظام المعيينين، فعمل مترجما عن
الفرنسية ببنك التسليف، واشترك في هذه الفترة مع
جماعة من زملائه في تأليف لجنة أطلقوا عليها «لجنة
الجامعيين لنشر العلم» وعزمت اللجنة على نشر
بعض ذخائر الفكر الإنساني، فترجمت كتاب «تراث
الإسلام» الذي وضعه مجموعة من المستشرقين،
وكان نصيب حسين مؤنس ترجمة الفصل الخاص
باسبانيا والبرتغال، ونشر في هذه الفترة أول مؤلفاته
التاريخية وهو كتاب «الشرق الإسلامي في العصر
الحديث» عرض فيه لتاريخ العالم الإسلامي من
القرن السابع عشر الميلادي الى ما قبل الحرب
العالمية الأولى، ثم حصل على درجة الماجستير
برسالة عنوانها «فتح العرب للمغرب» سنة

في الأندلس، وأقبل عدد كبير من الطلاب على دروس اللغة العربية التي ينظمها المعهد، وتردد الجمهور على المحاضرات والندوات التي تعقد، وصارت مجلة المعهد معرضاً لما حفلت به من أبحاث عميقة، تدور حول التاريخ والحضارة في الأندلس، ونشطت مطبوعات المعهد، سواء ما كان بالعربية أو بالإسبانية، وكان يقف وراء هذا النشاط حسين مؤنس ويعاونه في إدارته العالم الكبير محمود علي مكي الذي كان يتولى وكالة المعهد. وتعد هذه الفترة التي قضاها في الأندلس هي أخصب فترات حياته العلمية إنتاجاً فأخرج عدداً كبيراً من مؤلفاته ومترجماته، وحقق بعض النصوص العربية، بالإضافة إلى مقالاته التي كان يوافي بها جريدة الأهرام، يعرض فيها الجديد مما ينشر في اسبانيا وأوروبا.

في الكويت :

وبعد بلوغه سن التقاعد عاد إلى مصر، لكنه لم يستقر فيها طويلاً، إذ دعت جامعة الكويت ليعمل بها استاذاً للتاريخ، ومكث هناك ثماني سنوات حفلت بمختلف النشاط العلمي، فنشر فيها بعض مؤلفاته، وأعاد نشر ما سبق له من إنتاج، ولم يكف عن موالات الصحف بمقالاته المتنوعة في التاريخ والأدب والاجتماع، وكان له عمود يومي في صحيفة القبس الكويتية بعنوان كلمة طيبة، يسجل فيها ما يعن له من خواطر وأفكار، وبعد أن قضى هناك ثماني سنوات عاد الطير المهاجر إلى أرض الوطن سنة (١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م).

العودة إلى الوطن :

ولما عاد حسين مؤنس اشتغل أستاذاً غير متفرغ بجامعة القاهرة في قسم التاريخ الذي بدأ حياته

ينفعهم ويعلمهم يواكبون الحضارة، وكانت الكتب التي تنشر بعضها مترجم عن لغات أجنبية، وبعضها الآخر مؤلف وتباع بأسعار زهيدة.

في معهد الدراسات الإسلامية بمديريد :

افتتح في مديريد المعهد المصري للدراسات الإسلامية سنة (١٣٦٩هـ / ١٩٥٠م) وكان وراء إنشائه الدكتور طه حسين، بهدف توثيق العلاقات بين مصر واسبانيا التي عاش المسلمون في رحابها نحواً من عشرة قرون، وكان أول مدير لهذا المعهد هو الدكتور محمد عبد الهادي أبو ريدة استاذ الفلسفة بجامعة القاهرة، وبعد قيام الثورة خلفه الدكتور على سامي النشار، وهو أيضاً من أساتذة الفلسفة الإسلامية، ولم تطل إقامته في المعهد، وتولى الدكتور حسين مؤنس إدارة المعهد في سنة (١٣٧٣هـ / ١٩٥٤م) ومكث به عاماً نهض به، واستكمل مكتبته حتى أصبحت من أغنى المكتبات العربية في اسبانيا، وأشرف على مجلة المعهد، وأرسى قواعد النشر بها في قسميها العربي والأوروبي، ثم عاد إلى القاهرة.

وفي أثناء وجوده بالقاهرة كلفته مصلحة الاستعلامات سنة (١٣٧٦هـ / ١٩٥٧م) بالقيام برحلة طويلة إلى دول أمريكا اللاتينية، الناطقة بالإسبانية، لتوثيق الروابط بينها وبين مصر، ونجح في إنشاء عدد من المراكز الثقافية بها، لتكون على صلة بالمعهد المصري في مديريد. ثم عاد حسين مؤنس مرة أخرى إلى اسبانيا سنة (١٣٧٧هـ / ١٩٥٨م) ليتولى إدارة المعهد المصري بها، وظل هناك حتى بلوغه سن التقاعد في سنة (١٣٨٨هـ / ١٩٦٩م) وتعد هذه الفترة من أزهى عصور المعهد المصري هناك، فأصبح ملتقى للمستشرقين وأساتذة الجامعة المهتمين بتاريخ المسلمين

ولم يكن التاريخ المصري الحديث بعيداً عن قلبه، فوضع فيه مؤلفات قيمة، يأتي في مقدمتها «مصر ورسالتها» وهو دراسة في خصائص مصر ومقومات تاريخها الحضاري ورسالتها في الوجود، و«دراسات في ثورة ١٩١٩م»، و«باشوات وسوير باشوات» يرسم فيه صورة مصر في عهدين و«جيل الستينيات».

وله ترجمة بديدة لنور الدين محمود بطل الحروب الصليبية، صور فيه طموحه وجهاده من أجل تحقيق الوحدة الإسلامية لمواجهة الخطر الصليبي، ويجري في هذا المضمار كتابه «صور من البطولات العربية والأجنبية».

وفي ميدان تحقيق التراث أخرج طائفة من الكتب، استهلها بتحقيق كتاب «رياض النفوس» لأبي بكر المالكي، وهو في تراجم فقهاء إفريقية وعلمائها في الحقبة الأولى من تاريخها، و«أسنى المتاجر في بيان أحكام من غلب على وطنه النصارى ولم يهاجر» للونشريسي، وهو كتاب مهم في بيان الأحوال الاجتماعية للعرب المدجنين الذين بقوا في اسبانيا بعد سقوط غرناطة، و«الدوحة المشتبكة في ضوابط دار السكة» لأبي الحسين علي بن يوسف الحكيم و«الحلة السيرة» لابن الأبار في مجلدين، وهو يترجم لأعلام الأندلس والمغرب حتى القرن السابع الهجري، وأسهم مؤنس في مجال الترجمة عن اللغات، وكان يجيد الإنجليزية والفرنسية والإسبانية والألمانية، فشارك مع زميل له في ترجمة كتاب عن الدولة البيزنطية لـ «نورمان بينز» عن الإنجليزية، وترجم كتاب «تاريخ الفكر الأندلسي» لـ «جونثالث بالنثيا» عن الإسبانية والكتاب موسوعة في الأدب الأندلسي شعره ونثره، وفي الحركة الثقافية المتنوعة التي كانت تموج بها الأندلس، ولم يكتف مؤنس

العلمية فيه، وفي الوقت نفسه دعت مؤسسة الهلال الصحفية ليتولى رئاسة تحرير مجلة الهلال أقدم المجلات الأدبية في العالم العربي، فاستأنف ما كان قد بدأ، في صدر حياته، حيث عمل في إحدى مجلاتها وهي (الإثنين) في الأربعينيات من القرن العشرين.

إنتاج غزير ومتنوع :

ففي ميدان الكتابة التاريخية ألف كتابه الجامع «فجر الأندلس» وهو حجة في موضوعه، استقصى فيه الفترة المبكرة من تاريخ الأندلس في عمق ودقة، وكتاب «تاريخ المغرب وحضارته من قبل الفتح العربي إلى بداية الاحتلال الفرنسي» في مجلدين كبيرين، و«معالم تاريخ المغرب والأندلس» و«تاريخ الجغرافية والجغرافيين في الأندلس» وهو يعد أكبر بحث في هذا الموضوع الذي يجمع فيه المعارف الجغرافية والتاريخية، ورحلة الأندلس، حديث «الفردوس الموعود».

وله كتب متنوعة في الحضارة الإسلامية وفلسفة التاريخ، مثل: «التاريخ والمؤرخون» وكتاب «الحضارة» الذي تصدر أول أعمال سلسلة عالم المعرفة التي تصدرها الكويت، والإسلام حضارة، والإسلام الفاتح، وتناول فيه البلاد التي فتحت دون حرب مثل اندونيسيا ووسط افريقيا، وعالم الإسلام وهو نظرات في سكانه وخصائصه وثقافته وحضارته، وكتاب «المساجد» وهو يصور فيه دورها في بناء الجماعة الإسلامية، ويفيض في تاريخها وتطورها وطرزها المعمارية، و«أطلس تاريخ الإسلام» وهو من أعظم أعماله وأصدقها على صبره ودأبه، و«ابن بطوطة ورحلاته» و«دراسات في السيرة النبوية» و«دستور أمة الإسلام».

تقدير الهيئات العلمية :

لقي حسين مؤنس تقدير الهيئات العلمية، فدعى أستاذا زائراً في كثير من جامعات العالم، فحاضر في جامعة الرباط ولندن، ودرهام، وأندرو، وكمبريدج، وأدنبره، وهامبورج، وبون، واختير عضواً في كثير من المجالس العلمية، مثل الجمعية المصرية التاريخية، والمجمع العلمي المصري، والمجلس الأعلى للفنون والآداب، والمجالس القومية المتخصصة، وانتخب عضواً في مجمع اللغة العربية بالقاهرة سنة (١٤٠٥هـ/ ١٩٨٥م)، وكرمه مصر فمنحته جائزتها التقديرية سنة (١٤٠٦هـ/ ١٩٨٦م) كما نال عدة أوسمة من دول مختلفة.

وفاته :

ظل حسين مؤنس وافر النشاط متوقد الذهن على رغم كبر سنه، وضعف قدرته على الحركة، وملازمته للمنزل حتى لقي الله في (٢٧ شوال ١٤١٦هـ/ ١٧ من مارس ١٩٩٦م) ■

بالترجمة الآمنة عن النص الإسباني، بل ملاحواشي الكتاب بإضافات قيمة ونصوص كاشفة لما في الكتاب من قضايا.

وتعددت مساهماته في الترجمة إلى النصوص الأدبية الإسبانية، فترجم مسرحية «الزفاف الدامي» للوركا، و«ثورة الفلاحين» للوب دي فيجا، وترجم عن الإنجليزية مسرحية «ثم غاب القمر» لجون شتاينبك.

ولم يكن حسين مؤنس مؤرخاً فذا فحسب، بل كان أديباً موهوباً، صاحب بيان وأسلوب، ولو تفرغ للأدب لكان له شأن كبير، وما تركه من إبداع في ميدان الكتابة الأدبية شاهد على ملكاته الأدبية في الرواية والقصة القصيرة والأدب المسرحي، فمن أعماله القصصية «إدارة عموم الزير» تدور حول البيروقراطية المصرية، ويبلغ من شهرة هذه القصة، أن سارت مثلاً سائراً بين الناس، «وأهلاً وسهلاً» و«الجارية والشاعر» وحكايات «خيرستان»، و«قصة أبو عوف» و«غدا تولد شمس أخرى».

حمد الجاسر

(علامة الجزيرة)

(١٣٢٨-١٤٢١هـ)

مراحل حياته :

- هو حمد بن محمد بن جاسر: من أسرة آل جاسر المنتمية إلى الكلمة من بني علي من قبيلة حرب.
- ولد سنة ١٣٢٨هـ في قرية البرود من إقليم السر في منطقة نجد من أب فقير فلاح.

- أخذه والده في المدرسة (كتاب القرية) حيث تعلم القراءة والكتابة وحفظ القرآن الكريم نظراً.

- ذهب به أبوه إلى مدينة الرياض عام ١٣٤٠هـ فبقي عند قريب له من طلبة العلم يدعى عبد العزيز بن فايز، وتعلم قليلاً من مبادئ العلوم الدينية (الفقه والتوحيد) وحفظ سوراً من القرآن الكريم غيباً.

- عاد من الرياض بعد موت الرجل الذي كان يعيش في كنفه سنة ١٣٤٢هـ، ولم يلبث أبوه أن توفي فكفله جده لأمه علي بن عبد الله بن سالم، وكان إمام مسجد قرية البرود، وصار يساعد جده في



حمد الجاسر

المملكة العربية السعودية
وشغل مناصب تربوية
مختلفة، منها رئيس
مراقبة التعليم في
الظهران، ثم مديراً
للتعليم في نجد عام
١٣٦٩هـ.

- كان أول مدير
لكليتي الشريعة واللغة

العربية في الرياض اللتين كانتا النواة لإنشاء
(جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية).

- أنشأ أثناء إدارته للتعليم في نجد مكتبة لبيع
الكتب هي (مكتبة «العرب») التي كانت أول مكتبة
عنية بعرض المؤلفات الحديثة تحت إشرافه.

- نشر مقالات عديدة في الجرائد والمجلات
العربية في موضوعات مختلفة أبرزها النواحي
التاريخية والجغرافية ووصف الكتب المخطوطة ونقد
المؤلفات والمطبوعات حديثاً.

- كان عضواً عاملاً في (مجمع اللغة العربية في
القاهرة) و(المجمع الملكي لبحوث الحضارة الإسلامية
في عمان) وعضواً مراسلاً في (مجمع اللغة العربية
بدمشق) و(مجمع اللغة العربية في عمان) و(المجمع
العراقي في بغداد) و(المجمع العلمي في الهند).

- عمل أستاذاً غير متفرغ بكلية الآداب في
جامعة الملك سعود ولدة عامين.

- اختار طريق الصحافة حيث زاولها مهنة وعملاً،
فأصدر عام ١٣٧٢هـ مجلة اليمامة وهي أول مجلة
صدرت بالرياض.

الإمامة ثم اشتغل معلماً لصبيان القرية حتى سنة
١٣٤٦هـ.

- في آخر سنة ١٣٤٦هـ ذهب إلى الرياض
واستقر لطلب العلم على مشايخها، فقرأ شيئاً من
المتون كالأجرومية لابن أجروم، والثلاثة الأصول،
وآداب المشي إلى الصلاة للشيخ محمد بن عبد
الوهاب وملحة الإعراب للحريزي، ثم جاءت مرحلة
زمنية مهمة في حياته، حيث ترك الرياض قاصداً
مكة المكرمة.

- وفي سنة ١٣٤٨هـ، التحق بالمعهد الإسلامي
السعودي، أول مدرسة نظامية تنشأ في العهد
السعودي.
العمل :

- وبعد أن أنهى مرحلة الدراسة في ذلك المعهد
(متخصصاً في القضاء الشرعي) تحول إلى الخدمة،
فعمل مدرساً في ينبع من عام ١٣٥٣هـ حتى عام
١٣٥٧هـ بعد أن أصبح مديراً للمدرسة.

- ثم انتقل إلى سلك القضاء فعمل قاضياً في
ظبا في شمال الحجاز وذلك عام ١٣٥٧هـ.

- ولم ينقطع حينئذ وشوقه إلى المعرفة بعد أن
أنهى الدراسة في المعهد، بل كان يرغب في المزيد
حتى جاءته الفرصة المواتية فسافر إلى القاهرة.

- وفي عام ١٣٥٨هـ التحق بكلية الآداب في
جامعة القاهرة، ولكن الظروف العامة لم تساعد على
إنهاء الدراسة في تلك الكلية، فتركها قبل أن يحصل
على درجتها العلمية حيث قامت الحرب العالمية
الثانية وأعيدت البعثة السعودية من هناك.

- رجع إلى التدريس فدرس في مناطق عديدة في

- أنشأ أول مطبعة في الرياض باسم (شركة الطباعة والنشر الوطنية) عام ١٣٧٤هـ.
- أصدر عام ١٣٨١هـ جريدة أسبوعية باسم «اليمامة».

- وفي عام ١٣٨٥هـ رأس تحرير صحيفة الرياض عند تأسيسها، وهي أول جريدة يومية أنشئت في الرياض

- في عام ١٣٨٦هـ أصدر مجلة العرب لتكون مجلة علمية متخصصة في تاريخ وأداب الجزيرة العربية، ونالت هذه الدورية المتخصصة شهرة على مستوى العالم العربي، ولدى كل المهتمين بدراسات تاريخ الجزيرة العربية في كل مكان، ورأس تحريرها لمدة ٣٥ سنة، ومازالت العرب مستمرة في الصدور حتي الآن وقد أعيدت طباعة مجلداتها، وصدر لها فهرس شامل لجميع محتوياتها.

- اتجه لإشباع ميوله ورغباته في البحث عن المخطوطات المتعلقة بتاريخ العرب وجغرافية بلادهم وأدابهم القديمة فزار المدن التي عرفت بمكتباتها التي تحوي نفائس التراث العربي، في تركيا وأوروبا والبلاد العربية.

- ورأى ضرورة تأليف معجم جغرافي يحوي جميع أسماء المدن والقرى والأماكن المأهولة في المملكة مع ذكر ما يتعلق بتاريخ تلك المواضع وبخاصة ما له صلة بالتاريخ العربي الإسلامي، والأماكن الدارسة فبث هذه الفكرة ودعا إليها فاستجاب له بعض زملائه من مؤرخي بلادنا فكان من آثار ذلك أن صدر هذا المعجم في ٢٣ مجلداً. منها من تأليفه:

((مقدمة المعجم، جزآن - شمال المملكة، ٣ أجزاء

- المنطقة الشرقية، ٤ أجزاء - المعجم المختصر، ٣ أجزاء))، والباقي تأليف زملائه.

آثاره (مؤلفاته وما حقق من كتب) :

- ألف وحقق من كتب التراث حوالي أربعين كتاباً منها :

(١) «تاريخ بعض الحوادث الواقعة في نجد»

لابراهيم بن صالح بن عيسى يقع في ٣٥٢ صفحة.

(٢) «البرق اليماني في الفتح العثماني» لقطب الدين النهروالي يقع في ٥٤٣ صفحة.

(٣) «بلاد العرب» للحسن بن عبد الله الأصفهاني يقع في ٥٩٩ صفحة.

(٤) «المناسك وأماكن طرق الحج ومعالم الجزيرة» يقع في ٨٢٢ صفحة ثم أعاد طبعه عام ١٤٢٠هـ منسوبا لمؤلفه الحقيقي القاضي وكيع.

(٥) «المغانم المطابة في معالم طابة» للفيروز أبادي يقع في ٦٤٦ صفحة.

(٦) «رسائل في تاريخ المدينة» يقع في ٢٤٥ صفحة.

(٧) «الجوهرتين العتيقتين المائعتين الصفراء والبيضاء» في التعدين والمعادن يقع في ٤٩٤ صفحة.

(٨) «الدرر الفرائد المنظمة في أخبار الحاج وطريق مكة المعظمة» للجزيري يقع في ٢٣١٣ صفحة ونال به جائزة الملك فيصل العالمية.

(٩) «معجم قبائل المملكة العربية السعودية» جزآن.

(١٠) «مدينة الرياض عبر أطوار التاريخ» ولعله أول كتاب تاريخي عن هذه المدينة.

١٤٠٤هـ لإسهامه وعطائه الزاخر من إثراء ميادين الفكر.

- منح وسام التكريم من مجلس التعاون الخليجي عام ١٤١٠هـ.

- منحه جامعة الملك سعود (الدكتوراه) الفخرية عام ١٤١٦هـ لما قدمه للساحة الثقافية السعودية من عطاء وافر متواصل، وما قدمه للمكتبة العربية والإسلامية من إثراء تاريخي وجغرافي وأدبي ولغوي.

- نال جائزة الملك فيصل العالمية للأدب العربي عام ١٤١٦هـ / ١٩٩٦م.

- نال جائزة الكويت للتقدم العلمي عن كتاب «أصول الخيل العربية الحديثة» عام ١٤١٦هـ.

- نال جائزة سلطان العويس الأدبية في الإمارات العربية المتحدة في مجال الإنجاز الثقافي والعلمي عام ١٤١٦هـ.

- منح وسام الملك عبدالعزيز عندما اختير الشخصية السعودية المكرمة في المهرجان الوطني للتراث والثقافة (الجنادرية) عام ١٤١٧هـ.

وفاته :

في يوم الخميس ١٤٢١/٦/١٦هـ (٢٠٠٠/٩/١٤م) انتقل الشيخ حمد الجاسر الى رحمة الله، بعد حياة حافلة بالعطاء، وقد عمت مشاعر الحزن كل محبيه على جميع المستويات داخل المملكة وخارجها، فرحمه الله رحمة واسعة وجعل ما قدم من علم في موازين حسناته ■

(١١) «بلاد ينبع» (لمحات تاريخية جغرافية وانطباعات خاصة) في ٢٣٩ صفحة.

(١٢) «رحلات حمد الجاسر» للبحث عن التراث، في وصف ما اطلع عليه من مخطوطات في مكتبات تركية وأوروبية وبلغت صفحاته ٤١٠ صفحة.

(١٣) «نظرات في كتاب تاج العروس» يقع في ٤٦٢ صفحة، يتعلق بمطبوعة الكويت من هذا الكتاب وما فيها من أخطاء.

(١٤) «معجم أسماء خيل العرب وفرسانها» مجلد.

(١٥) «نظرات في مؤلفات» في نقد بعض المؤلفات الحديثة، وبيان أوهام محققي بعض الكتب القديمة.

(١٦) «الطرق القديمة في جزيرة العرب».

(١٧) «المعادن القديمة في جزيرة العرب».

(١٨) «نظرات في الأنساب العربية القديمة».

(١٩) «رحالة غربيون في بلادنا» ٣٨٦ صفحة.

وله مؤلفات أخرى وكتب راجعها أو أشرف على نشرها من خلال دار اليمامة للبحث والترجمة والنشر، وقد أصدرت مكتبة الملك فهد الوطنية فهرساً ببلوجرافيا عن مؤلفات الشيخ حمد الجاسر، وبحوثه ودراساته التي زادت على ألف، وألفه د. يحيى محمود بن علي جنيد، وذلك عدا كتاباته الكثيرة في الصحف والمجلات داخل المملكة وخارجها التي استمرت الى ما قبل وفاته بشهور.

تكريمه في حياته :

- منح جائزة الدولة التقديرية في الأدب عام

والاستاذ المؤرخ حسين الحبشي، والمؤرخ اسماعيل الخرافي، وغيرهم.

تقلد مناصب حكومية مختلفة، بدأها بالعمل ملازماً مالية منطقة جازان، ثم انتقل مديراً لمدرسة دار الأيتام نقل بعدها مديراً لمكتب العمل بجيزان حتى عام ١٣٨٩هـ، طلب التقاعد المبكر ليتفرغ لأبحاثه ودراساته ومشاريعه الثقافية الرصينة.. وهو عضو جمعية مؤرخي الجزيرة، وعضو في جمعيات علمية ونواد أدبية كثيرة، وعضو مجلس منطقة جازان.

ولد الشيخ العقيلي في ١٣٦٦/١١/٩هـ في مدينة صبيبا، إحدى مدن منطقة جازان السخية بالمواهب وكانت بدايته في التعليم على يد استاذ جليل من أسرة آل عبد الفتاح القاطنين بالصبيبا. ومنذ نعومة أظفاره اتخذ العقيلي من مسجد العقارية بصبيبا كتاباً يضم عدداً غير قليل من الطلاب كان هو من اصغرهم سناً، وأتم مبادئ القراءة والكتابة على والده.

كان لمكتبة والده نصيب وافر في توسيع مداركه حيث اكب على المطالعة والقراءة الجادة متخذاً من الكتاب استاذاً وصديقاً ومؤنساً.. بعد وفاة والده انتقل مع أسرته الى مدينة جازان وهناك تتلمذ على الشيخ عقيل بن أحمد.

من أبرز مؤلفاته :

١ - (تاريخ المخلاف السليمانى في مجلدين، الآثار التاريخية في منطقة جازان ، المعجم الجغرافي

محمد بن أحمد العقيلي صاحب المخلاف

(١٣٦٦-١٤٢٣هـ / ١٩٤٧-٢٠٠٢م)

بدأ العقيلي حياته الأدبية شاعراً، حيث أصدر ٤ مجموعات شعرية ليس فيها كل نتاجه الشعري، حصل على ميدالية الريادة في مؤتمر الأدباء السعوديين الأول الذي عقد في رحاب جامعة الملك عبد العزيز، حاضر في عدد من الجامعات السعودية وشارك محاضراً في عدد من المؤتمرات العلمية والتاريخية والأدبية.

أحب بلاده المملكة العربية السعودية بعامة ومنطقة جازان على وجه الخصوص، فلم تغره النواصب بمغادرتها، بل أكب على تاريخها وتراثها فوهبها وقته وجهده وصحته، أصدر ما يزيد على ثمانية وثلاثين كتاباً موزعة بين الإبداع والتحقيق والتراجم والتاريخ والدراسات.

وقد أشاد بجهوده وأدبه وعلمه عدد كبير من الأعلام، نذكر منهم العلامة خير الدين الزركلي، والشيخ العلامة حمد الجاسر، والعلامة الشيخ عبد القدوس الأنصاري، والعلامة الاستاذ احمد عبد الغفور عطار، ومعالى الشيخ الاديب حسين عرب، ومعالى الشيخ الشاعر عبدالله ابا الخيل، والمؤرخ الاستاذ فاروق عثمان اباطه،



محمد بن أحمد العقيلي

في سيرة دولة
الشريف حمود أمير
المخلاف السليمانى في
بداية القرن الثالث
عشر، تأليف العلامة
الحسن بن أحمد
عاكش.

- لمؤلفنا ومؤرخنا

أعمال أخرى مازالت قيد التحقيق، ومنها: كتاب
«العقيق اليماني في وفيات أعلام المخلاف
السليمانى» لمؤلفه علامة القرن الحادى عشر عبد
الله بن علي النعمان الظمجي ويؤرخ فيه لفترة تزيد
عن ثلاثة قرون - كتاب (العقد الثمين) للعلامة
الحسن بن أحمد عاكش.

وقبل كل هذا فالأستاذ محمد بن أحمد
العقيلي شاعر، لكن اهتماماته العلمية
والتاريخية والتراثية والأدبية توزعت جهوده،
ومع ذلك فقد بلغت إصداراته الشعرية
أربع مجموعات هي: (شعراء الجنوب -
بالاشتراك - الانغام المضئية ، أفويق الغمام ، رأد
الضحي التي جمعها منذ فترة بسيطة في مجموعة
واحدة سماها المجموعة الشعرية الكاملة لأشعار
العقيلي.

وأسهم الأديب الراحل بقلمه السباق في عدد
من الدوريات والصحف ومن ذلك سلسلة مقالات
تناول فيها تراجم لبعض الأدباء الغربيين في مجلة

■ المنهل

لمنطقة جازان، معجم اللهجات المحلية في
منطقة جازان، المعجم النباتي لنباتات منطقة
جازان).

٢ - (أضواء على الأدب والأدباء بمنطقة
جازان، من أدب جنوب الجزيرة، التاريخ الأدبي
لمنطقة جازان ويقع في ثلاثة مجلدات، الأدب
الشعبي في الجنوب - مجلدان، عسير في أطوار
التاريخ، نجران في أطوار التاريخ، سوق عكاظ في
أطوار التاريخ، التصوف في تهامة، أضواء على
تاريخ الجزيرة العربية، محاضرات في الجامعات
والمؤتمرات، العقيلي في رسائل معاصريه وهو
كتاب طريف في باب).

٣ - (حياة الشيخ محمد بن عبد الوهاب
إمام الدعوة السلفية في عصرنا
مذكرات سليمان شفيق باشا، متصرف
عسير في الربع الأول من القرن الرابع عشر
الهجري).

٤ - (أما المخطوطات التي بذل جهوداً في
تحقيقها ونشرها برغم صعوبات التحقيق أنشد
فمنها مختارات من: ديوان الشاعر القاسم بن علي
بن هتيمل ديوان الشاعر الجراح بن شاجر الزروي
شاعر القرن العاشر ديوان السلطانين الحجريين
في القرن السادس الهجري كتاب العقد المفصل
بالعجائب والغرائب في تاريخ دولة الشريف
أحمد بن غالب أمير المخلاف السليمانى في
مستهل القرن الثاني عشر، تأليف العلامة
على بن عبد الرحمن البهكلي ، نفح العود



تاريخ صدوره

- شعبان ورمضان ١٤٠٤هـ
شعبان ورمضان ١٤٠٥هـ
ربيع الأول والثاني ١٤٠٦هـ
شعبان ورمضان ١٤٠٦هـ
ربيع الأول وربيع الثاني ١٤٠٧هـ
رمضان وشوال ١٤٠٧هـ
ربيع الأول وربيع الثاني ١٤٠٨هـ
رمضان وشوال ١٤٠٨هـ
ربيع الثاني وجمادى الأولى ١٤٠٩هـ
رمضان وشوال ١٤٠٩هـ
ربيع الأول والثاني ١٤١٠هـ
شوال وذو القعدة ١٤١٠هـ
ربيع الثاني وجمادى الأولى ١٤١١هـ
ربيع الأول والثاني ١٤١٢هـ
شوال وذو القعدة ١٤١٢هـ
ربيع الأول والثاني ١٤١٢هـ
شوال وذو القعدة ١٤١٣هـ
ربيع الأول والثاني ١٤١٤هـ
جمادى أول وجمادى ثان ١٤١٥هـ
شوال والقعدة ١٤١٦هـ
شوال والقعدة ١٤١٧هـ
شوال والقعدة ١٤١٩هـ
شوال والقعدة ١٤٢٠هـ
شوال والقعدة ١٤٢١هـ
شوال والقعدة ١٤٢٢هـ
شوال والقعدة ١٤٢٣هـ

اسم العدد

- السنن
الأمن والأمان
الهجرة، اللغة، التراث، الحضارة
الثقافة العربية
الدعوة والدعاة
الأثر والآثار
المبادئ البناء والدعوى الهداية
العادات والتقاليد
مناهل الأشاعل الاسلامي
الاستشراف والاستشرافون
مكة المكرمة .. مقام والارتحال
الأبداع والمبدعون
الحديث النبوي والقدسي .. رواية ودراسة
القرآن الكريم .. الهدى والامعاز
الهجرة الفكرية والتصدى الحضارى
المدينة المنورة .. دار الهجرة ومآزر الايمان
اللغة العربية .. آفاق مستقبلية
القدس .. عروس المدن
المعمارة والمدينة الاسلامية .. عطاء ومدلول
النقد والنقداء
الجغرافية والجغرافيون
المملكة العربية السعودية في مآلة المنهل
الاسرة والمجتمع
التراث المعماري في الحضارة الاسلامية
الاعلام .. الواقع والمستقبل
البينة .. توازن ام اختلال

الاصدانات السنوية الخاصة

« متوفرة لمن يرغب في اقتنائها » - الاتصال : ٦٤٣٢١٢٤ العلاقات العامة (جدة)

مجلة الأدب الإسلامي

مجلة فصلية تصدرها رابطة الأدب الإسلامي العالمية

الإبداع والنقد • الأصالة والتجديد
الأقلام الواعدة • منبر الأدباء الإسلاميين
مسيرة الأدب الإسلامي ورابطته العالمية



مستقل ١٩٩٠

قسمة اشتراك

سنة واحدة (١٠ أريال)

الدولة
الهاتف

الاسم
العنوان
المدينة
الرمز البريدي
عنوان المراسلة

الملكة العربية السعودية - الرياض ١١٥٦٥ - ص. ب. ٥٥٤٦ هاتف ٤٦٦٥٨٢ - ٤٦٦٥٨١ فاكس ٤٦٦٥٧٠
تدفع قيمة الاشتراك لدينا أو ترسل باسم مجلة الأدب الإسلامي أو حوالة لحساب مجلة الأدب الإسلامي (شركة الراعي المصرفية للاستثمار)
الرياض - فرع العليا (١٦٦) رقم الحساب (٨٠٠٨٢) وترسل إلى المجلة صورة الحوالة مع (قسمة الاشتراك).

www.adabislami.org

E-mail: info@Adabislami.org

الوكيل الاعلاني المتسابق السعودي للإعلان هاتف ٤٦٦١٢٧٧ فاكس ٢١٧٠٢١٢





مستحبات

دارة مجلة المنهل ، ومنسوبوها يتشرفون
برفع أسمى آيات التهاني وأجمل عبارات الأمانى
بمناسبة حلول عيد الأضحى المبارك إلى

مقام خادم الحرمين الشريفين

الملك عبدالله بن عبد العزيز آل سعود (حفظه الله)

والى صاحب السمو الملكى

الأمير سلطان بن عبد العزيز آل سعود (حفظه الله)

ولى العهد نائب رئيس مجلس الوزراء، ووزير الدفاع والطيران
والمفتش العام

والى حكومتنا الرشيدة .. وابناء وطننا الغالى ..
سائلين الله عز وجل أن يعيده على الجميع باليمن والخير والبركات.

دالة المنهل

مجلة الآداب والطوم والنقاة

مع تحيات .. دارة المنهل للصحافة والنشر المحدودة

تسليمكم بريد العلم بخطتها الجديدة في عامها الرابع

حظيت المجلة بثقة
وتواصل شريحة كبيرة
من المربين والمختصين
والأكاديميين.

تقدم المجلة استشارات تربوية
تطويرية وخدمات تطبيقية

اتصل للسؤال عن المرجع الشامل
٢٠٠٤-٢٠٠٥ م

يضم مواضيع مهمة
للمربين في الوطن

العربي

٠١/٤٦٠.٦٦٣٦-٤٦٠.٧١٧٥

٢١٥٢١٤٢/ف

مجلة بريد المعلم

تربوية مهنية - مرجع للمربين - المعلمين - المعلمة - من (٢٠٠٢)

Bareed Al-Muallim



حتى يكون العمل أسهل

كيف تستخدم التخطيط
لتكون أكثر استعداداً؟

الأطفال والتخطيط

متى وكيف يتعلم الأطفال
هذه المهارة العقلية؟

جمول يستأذن

قصة وأنشطة عن بداية العام الدراسي

استقبال العام الجديد

كل ما تحتاجه تجهيز فصلك

التخطيط

كل يوم في شباك الترتيب؟



نختص بالطروحات التربوية الحديثة

والطرق العملية للتعامل مع السلوكيات

محمد مبارك

مجموعة بن لادن السعودية ومنسوبوها يتشرفون برفع اسمى آيات التهاني واجمل عبارات الاماني

بمناسبة حلول عيد الاضحى المبارك الى مقام

الملك عبد الله بن عبد العزيز آل سعود خادم الحرمين الشريفين

وصاحب السمو الملكي الامير سلطان بن عبد العزيز آل سعود

ولي العهد ونائب رئيس مجلس الوزراء ووزير الدفاع والطيران والمفتش العام

والى حكومتنا الرشيدة والى ابناء وطننا الغالى

سائلين المولى عز وجل أن يعيده على الجميع بالخير والبركات



مجموعة بن لادن السعودية
SAUDI BINLADIN GROUP

